

الطيب صالح و"موسم الهجرة إلى الشمال"

مشاعر العرب ضد الإستعمار كما تظهر فيها

دراسة نقدية

أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها

قدّمتها

حسينة. ب

تحت إشراف

بروفسور الدكتور أحمد إبراهيم رحمة الله

الرئيس السابق (المتقاعد)

قسم اللغة العربية بجامعة كاليكوت



قسم اللغة العربية

جامعة كاليكوت

كيرلا ، الهند

2012م

الطيب صالح و"موسم الهجرة إلى الشمال"

مشاعر العرب ضد الإستعمار كما تظهر فيها

دراسة نقدية

أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها

قدّمتها

حسينة. ب

تحت إشراف

بروفسور الدكتور أحمد إبراهيم رحمة الله

الرئيس السابق (المتقاعد)

قسم اللغة العربية بجامعة كاليكوت



قسم اللغة العربية

جامعة كاليكوت

كيرلا ، الهند

2012م

كلمة الشكر

هذا وأنا ملزم بالشكر والإحترام والتقدير لأساتذتي الأفاضل الذين تلقيت منهم العلم والمعرفة طيلة مرحلتي الدراسية. لذا يسعدني ويشرفني أن أقدم بعض شكري وتقديري لأستاذي الفاضل بروفيسور الدكتور أحمد إبراهيم رحمة الله، الرئيس السابق في قسم اللغة العربية بجامعة كاليكوت (المتقاعد) لتفضله مشكورا بالإشراف على هذا البحث برحابة صدره ولتشجيعه المستمر ولما بذله من جهد مخلص في كل مراحل إعداد البحث، ولما قدّم إليّ من إشارات وملاحظات قيّمة، وكانت لآرائه القيّمة وتوجيهاته الصائبة أثر فعّال في إنجاز هذا البحث بشكله النهائي. كما لا يفوتني أن أقدم بشكري وإحترامي لسعادة الدكتور بروفيسور أن أي يم عبد القادر رئيس قسم اللغة العربية بجامعة كاليكوت، والدكتور إي بي محي الدين كوتي الأستاذ المساعد، قسم اللغة العربية بجامعة كاليكوت وأقدر جهد كل من أعانني على هذا الجهد المتواضع وأعترف بفضلهم.

وأقدم شكري الجزيل إلى الأخ السوداني السيد أود عيسى والأخ جمشيد علي الذي يعمل ممرّضا في السودان والأخ أنور على معاوناتهم البليغة في جمع الكتب والموادّ المتعلقة ببحثي. وأعترف بالجميل وأشكر شكرا من عمق قلبي للأخ مسافر أحمد والأستاذ وي إي كبير من جريدة 'مادهيمم' على حسن توجيهاتهما ومعاونتهما في إعداد هذا البحث.

وأشكر الله تبارك وتعالى لما وفقني لإتمام هذه المحاولة المتواضعة. وأدعو الله جلّ وعلى أن ينعم علينا بالإيمان والإخلاص في العمل، وأن يمتّعنا بالصحة والعافية والخير وأن يوفقنا لخدمة الدين وأهله ولغته.

الطيب صالح و"موسم الهجرة إلى الشمال"

مشاعر العرب ضد الإستعمار كما تظهر فيها

دراسة نقدية

أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها

قدّمتها

حسينة. ب

تحت إشراف

بروفسور الدكتور أحمد إبراهيم رحمة الله

الرئيس السابق (المتقاعد)

قسم اللغة العربية بجامعة كاليكوت



قسم اللغة العربية

جامعة كاليكوت

كيرلا ، الهند

2012م

المحتويات

الموضوع	صفحة
المقدمة	6
الباب الأول : الأدب العربي عبر تاريخ السودان	12
الفصل الأول : السودان قبل الإستعمار البريطاني وبعده	13
الفصل الثاني : الأدب العربي وتطوره في السودان	51
الفصل الثالث : الرواية السودانية	60
الباب الثاني : الطيب صالح إنسانا وأديبا	84
الفصل الأول : الطيب صالح ولادته ونشأته	85
الفصل الثاني : الملامح الإبداعية في كتابة الطيب صالح	102
الباب الثالث : موسم الهجرة إلى الشمال	130
الفصل الأول : مدخل إلى الرواية	131
الفصل الثاني : تطلع إلى نص الرواية	139
الفصل الثالث : التشخيص في الرواية	146
الفصل الرابع : الإستعمار - أسبابه ونتائجه	180
الفصل الخامس : المشاعر ضد الإستعمار في الرواية	193
الفصل السادس : المواجهة بين الشمال والجنوب \ الشرق والغرب	255
الفصل السابع : الثقافة ما بعد الإستعمار	273
الباب الرابع : أعمال الطيب صالح الأدبية الأخرى	291
الفصل الأول : عرس الزين	292
الفصل الثاني : ضو البيت - بندر شاه	330

352	الفصل الثالث : مريود - بندر شاه
371	الفصل الرابع : دومة ود حامد وسبع قصص
372	• نخلة على الجدول
380	• حفنة تمر
387	• رسالة إلى إيلين
392	• دومة ود حامد
405	• إذا جائت
413	• هكذا يا سادتي
425	• مقدمات
429	الفصل الخامس : الرجل القبرصي
436	الفصل السادس : يوم مبارك على شاطئ أم باب
441	الخاتمة
445	المصادر والمراجع

الطيب صالح و"موسم الهجرة إلى الشمال"

مشاعر العرب ضد الإستعمار كما تظهر فيها

دراسة نقدية

أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها

قدّمتها

حسينة. ب

تحت إشراف

بروفسور الدكتور أحمد إبراهيم رحمة الله

الرئيس السابق (المتقاعد)

قسم اللغة العربية بجامعة كاليكوت



قسم اللغة العربية

جامعة كاليكوت

كيرلا ، الهند

2012م

الباب الأول

الأدب العربي عبر تاريخ السودان

الفصل الأول

السودان قبل الإستعمار البريطاني وبعده

الفصل الثاني

الأدب العربي وتطوره في السودان

الفصل الثالث

الرواية السودانية

الفصل الاول

السودان قبل الإستعمار البريطاني وبعده

السودان (جمهورية السودان) بلاد تقع في ناحية الشمال الشرقي في قارة إفريقيا. يحده من الشمال مصر ومن الشمال الشرقي البحر الأحمر ومن الشرق إرتيا وإثيوبيا ومن الجنوب دولة جنوب السودان ومن الجنوب الغربي جمهورية إفريقيا الوسطى ومن الغرب تشاد ومن الشمال الغربي ليبيا. عاصمتها الخرطوم (العاصمة المثلثة) وسميت مثلثة لأنها تتكوّن من ثلاث مدن كبيرة وهي الخرطوم وأم درمان والخرطوم بحري.

السودان مركز لإحدى الحضارات العالمية القديمة إستوطن فيها الناس منذ 5000 ق.م. أهل السودان لهم تاريخ طويل يبدأ من العصور القديمة الحجرية. أكد علم الآثار أن النوبا المكان في شمال السودان كان مسكونا بالناس قبل ستين ألف سنة على الأقل. وقد ظهرت هناك حضارة متوسطة حول 8000 ق. م. كان الناس في ذلك الوقت يعيشون على الصيد وصيد السمكة والبحث عن الحبات ورعاية الماشية والغنم.

كانت هذه البقعة معروفة لدى المصريين بإسم كوش. كانت لها إرتباط حضاري ديني قويّ مع مصر. وقعت كوش تحت ملكة سلسلة الإمبراطوريين الظالمين في القرن الثامن ق.م. وقد واصلوا الحكم وجعلوا 'نباتا' عاصمتهم وتوسّع نفوذهم تدريجيّا إلى مصر. إحتلّ ملك كوش 'كشتا' مصر العالي حوالي 750 ق. م. وأصبح حاكما لتيبس حتى 740 ق.م، وخلفه وريثه 'بيانكي' بعد فترة حكمه. خضع دلتا النيل واتحد مصر ثانيا تحت أسرة الحاكمة الخامسة والعشرين وأسست هذه الأسرة سلسلة من الملوك الذين حكموا 'كوش' و'تيبس' حوالي مائة سنوات. عندما تدخلوا إلى بقعة سوريا

الحديثة فحدث النزاع بين مصر وأسييريا. ردت الأسييريا على هذه الحملة بإحتلال مصر. وبسبب ذلك إنسحب 'تهرقا' الملك الكوشي الأخير إلى 'نباتا' إلى عاصمتهم واستمرّ في حكم كوش وتوسّع نفوذه إلى الجنوب والشرق.

نهب الجيش المصري 'نباتا' عاصمة 'كوش' في السنة 590 ق.م وأجبروا الكوشيين على إنتقال مركزهم إلى 'مروى' قريب من شلال النيل السادس. ثم تقدّمت هذه الملوكية المروية تدريجيا بدون مصر واتسعت مناطقه خلال فترة قمة حكمها في القرن الثاني والثالث ق.م من شلال النيل الثالث إلى 'سوبا' في الشمال التي كانت تقع قريبا من الخرطوم الحالي.

إتبع الملوك المرويون التقاليد الفرعونية ونصبوا ألواحاً لتسجيل إنجازات حكمهم وأقاموا أهراما لقبر جثة موتاهم. هذه الألواح والأهرام وبقايا قصورهم وهياكلهم وحمّاماتهم في المروى تؤثّق أنّ هؤلاء الملوك كانوا يجرون حكما على نظام سياسيّ مركزيّ وكانوا يستخدمون الفنانين الماهرين لبناء المباني وكان عدد سكان الناس في البقعة مرتفعاً.

وفي القرن السادس الميلادي إحتلّ مجموعة من القوم الذين كانوا يعرفون 'نبوتا' على ضفة النيل في كوش الغربي، وإشتغلوا في الزواج بعضهم ببعض ونشأ بين المرويين قوم عسكريّون الأرسطوقراطيون. وفي السنة 350م إستولى جنود من أبسينيا على مدينة مروى ودمروها وهدموها وختموا وجود المملكة المروية.

الإسلام والمسيحية

بعد إنتهاء حكم المملكة المروية فظهرت هناك ثلاث ممالك نوبية وارثة بمملكة المروية سياسيا وحضاريا. الأولى منها 'نباطيا' في الشمال التي إمتدّت من الشلال الأوّل إلى شلال النيل الثالث مع عاصمتها 'فراس' التي تقع حاليا في

مصر، والثاني منها المملكة المركزيّة 'المغرة' في الجنوب وتنتهي حدودها الجنوبية عند الأبواب التي تقع بالقرب من كبوشية جنوب المروى القديمة، وكانت عاصمتها 'دنقلا العجوز' والثالثة منها هي مملكة 'علوة' مع عاصمتها 'سوبا' التي كانت تقع بالقرب من الخرطوم. إتحدت المملكتان نوباطيا والمغرة فيما بين عامي 650-710م وصارتا مملكة واحدة. وفي هذه الممالك الثلاثة حكم الرجال الأرسطوقراطيون النسمة المروية. وأثناء ذلك أرسلت الملكة البيسنطية 'تيودورو' إرسالية تبشيرية إلى نباطيا. ووصل الأسقف 'يوليانوس' إلى 'بلاط' ملك نوباطيا حوالي سنة 543م ودعا الملك ورعيته إلى المسيحية. قبل ذلك كان الناس يتبعون بعض الإعتقادات البدائية وكانوا ينظرون إلى حكامهم آلهة وكانوا يعبدونهم. وكان الرجال المبشرون يتكرّرون محاولتهم في الدعوة إلى المسيحية ودعوا الملوك والنبلاء إلى النصرانية. ودخل هذا الجزء من بلاد النوبة إلى النصرانية. ثم ذهب الأساقفة إلى سوبا عاصمة مملكة علوة وهم أيضا قبلوا المسيحية. وأصبحت المسيحية أقرب من الهيئات السياسية تدريجيا. ونشرت المسيحية تدريجيا وبدأت رباطا خلقيا جديدا تميزت به المملكة الثالثة. وأصبح إتخاذ المسيحية بداية عهد جديد في تاريخ السوداني.

وقد حاول العرب المسلمون لدخولهم إلى مملكة المغرة النوبية أول مرة في إمارة عمرو بن العاص وذلك سنة 640م عندما أرسل إليهم عقبة بن نافع لفتح البلاد ونشر الدعوة الإسلامية. وفي خلافة عثمان بن عفان (ر) عين عبد الله بن سعد بن أبي السرح أميرا على مصر. أعدّ عبد الله جيشا لغزو النوبة عام 651م. وخرج عبد الله بجيش قوامه نحو 5000 مقاتلين ودخل إلى أراضي المغرة حتى وصل إلى عاصمتها دنقلا فحاصرها وضربها بالمنجنيق. وفي الأخير تفاوض الجانبان ووقعا في سلم بينهما. وقد غزا المسلمون النوبة عدة مرات بعد صلح عبد الله بن سعد بن أبي السرح؛ مرة في خلافة هشام بن عبد الملك ولم تفتح، ثم غزاها يزيد بن أبي حاتم وغزاها كافور الإخشيدي. ثم غزاها نصر الدولة لكن جيشه نهب وأخذ منه كل ما كان معه ورجع خاسرا. وكان ذلك في السنة 1066م في خلافة المستقر بالله. ثم دخل إليها جيش الملك الظاهر ركن الدين بيبرس

في العام 1275م. ثم وقعت حملات بين بعض القبائل العربية مثل بني عكرمة وبني جعد وبين ملك النوبا. فترك ملك النوبا دنقلا. فاستولت هذه القبائل العربية على دنقلا عاصمة المغرة.

وفي هذه الفترة نفسها قدم الإسلام إلى نوبيا، ويلاحظ قدوم الإسلام أيضا بداية عهد جديد في تاريخ السودان. قدم الإسلام إلى السودان من قبل التجار وعدد كبير من العرب البدويين. إنتشر الإسلام من القرن العاشر الميلادي وانتهت في نهاية القرن الخامس عشر الميلادي. إنتشر الإسلام في كانم، نوبا، علوة والكردفان الشمالي ودارفور الشمالي وبعد ذلك تقدموا إلى الكردفان ودارفور الجنوبي. وانتهى نشر الإسلام عند حد البحر الغزال والبحر العربي. وصار هذين البحرين حدودا ثقافية بين المسيحية والإسلام. بدأ العرب البدويون بعد إستقرار عيشهم أن يتزوجوا مع الأهل الأصليين ونتيجة لذلك أصبح كثيرا منهم مسلمين واتخذوا نسب العربي وتقاليدهم ولغتهم.

كان إنتشار الإسلام في السودان أمرا هادئا، ولم يحاولوا أن يحولوا الناس إلى الإسلام إجباريا. كانت نوبيا نفسها تميزت بجو هادئ وتسامح ديني. عاش كل من السكان قرونا- منهم أتباع إعتقادات القديمة والمسيحية والإسلام- بدون إختلاف أو نزاع بينهم.

أسلمت أسرة حاكمة مسيحية من دنقلا في سنة 1323م. وكانت هذه الحادثة نهاية سياسة النوبا المسيحية ومع ذلك إستمرت المسيحية مزدهرة في بعض البقع حتى أواخر القرن الخامس عشر. أما مملكة علوة، إختلط فيها العرب بأهلها واعتنق السكان الأصليون الدين الإسلامي بإختلاطهم مع العرب لفترة طويلة. ولكن ملوكها تمسكوا بنصرانيتهم. وانتهت المملكة علوة في القرن الخامس عشر عندما أعتصرت عاصمتها سوبا بيد بعض القبائل العربية التي قادها 'عبدالله جماع' وزعيم الفنج 'عمارة دنقس'. كونوا جيشا موحدًا وانطلقوا نحو سوبا عاصمة مملكة علوة. ودخلوا في 'أرجي' في

طريقهم إلى سوبا وخضعت مملكة العلوة أمام هذا الجيش. إتفق الزعيمان على أن يكون عمارة الملك في علوة وأن يحكم عبدالله جماع الإقليم الغربي لعلوة. واختط الفونج مدينة 'سنار' وجعلوها عاصمة لهم سنة 1504م، واختط العبدلاب مدينة 'قري' (حلفايا فيما بعد) وجعلوها عاصمة لهم.

السلطنة الفنجية (910هـ - 1236هـ \ 1504م - 1820م)

مملكة الفونج هي أول مملكة إسلامية ظهرت في السودان. دانت لها أكثر القبائل العربية المنتشرة بين سنار إلى منطقة دنقلا ودانت لها قبائل البيجة بشرقي السودان من مملكة بني عامر الممتدة حتى مصوع جنوبا وإلى البشاريين شمالا وحتى الحدود الشمالية مع مصر. وكانت هذه الممكة المسلمة إتحادا من ممالك القبائل المختلفة الذين كانوا يدينون بالطاعة لسلطان الفنج.

ظهر هذا المجموع من القوم تحت قيادة قائدهم 'عمارة دنقوس' في النوبا الجنوبي. كانوا بدويين وراعين المواشي وأصلهم البعيد مجهول. يسجل جيمس بروس، رحال إسكتلندي، أن الفنج ينسب أصلهم إلى الشلوك الذين نزلوا من النيل الأبيض. وكثير من المؤرخين يرون أن الفنج كانوا إفريقيين سودانيين الذين تعاونوا أنفسهم مع العرب بعد إسلامهم واتخذوا أنساب العرب. عرفت مملكة الفنج 'بالسلطنة الزرقاء' مع عاصمتها في سنار. ولذلك عرفت بإسم 'السلطنة السنارية' أيضا. استطاع السلطان الفنجي أن يوسع بقعة بلاده حتى شملت كردفان ومع ذلك خسرت لها مملكة الشايقية التي خرجت عن طاعتها. دخلت مملكة الفنج في حربين مع الحبشة؛ الأولى في العام 1618-1619 والثانية عام 1744م، وذلك بسبب محاولات الحبشة للإعتداء على الأراضي الفنجية. وتمكن لها أن يهزم الأحباش في تلك الحروب.

بدأ وارثو نوبا وعلوى أن يوسّعوا حكمهم على المناطق الجديدة. أجبروا حكما مباشرا من عاصمتهم سنّار على المناطق بين العربي وفازو غلي وحكموا حكما غير مباشر على الأراضي التي كانت تحت نفوذ عبد الله جمعة والمسلمين الذين كانوا مقتنعين بالحكم على الأراضي البيجية. كان عبدالله جماع وقومه نواباً عن ملوك الفنج في إدارة الأقاليم التابعة لهم في القسم الشمالي من الدولة وكانت عاصمتهم قرّي. توسّعت قوات الفنج نحو جهة الغرب عبر الجزيرة إلى الكردفان. وفي سنة 1554 هزم السلطان الفنجي رئيسي صغدي والأتلال مويا واستمر الرئيسان في حكمهم بعد موافقتهم على دفع جزية سنوية للسلطنة الفنجية.

قاد الضغط المتزايد من أهل النيل على النيل الأبيض إلى مواجهة مباشرة بين الفنج والشلوك الذين كان أغلبهم يستوطنون هناك. أسّس الفنج عسكرية في إلايس، النقطة الإستراتيجية، ولذلك أمكن لهم أن يمانعوا الشلوك من الدخول إلى نفوذهم وأجبر الفنج الشلوك على عقد إتفاقية معهم. وبعد ذلك تسلّل الفنج إلى التلال النوبية والتلال الدير وكردفان وهزموا مملكة تغالي. حبس الفنج كثيرا من المسيحيين في هذه المناطق وجعلهم معتقلين ثم جعلهم حراسا حول السنار.

أتاح تأسيس مملكة الفنج مقدارا كبيرا من الإتحاد والإستقرار في هذه المناطق. أصبح هذا الحال معاونا على تقدّم الإسلام. وكان سلاطين الفونج يرحّبون بعلماء المسلمين حين يزورون سنار وذلك للإفادة من علمهم، وإرشاد الناس إلى الدين القيم. اشتغل العلماء والصوفيون في تعليم الشريعة وتصحيح نوعية الإسلام ودعوة الناس إلى الإسلام. وأتاحوا عناصر الإستقرار والإستمرار إلى المجتمع الفنجي المتفرّق وغير الثابت وساعدوا تشكيل مجتمّع فنجي متحد.

ولكن نشر الإسلام والعرب إلى النواحي الجنوبية توقفت على حدّ البحر الغزال والبحر العرب. وساعد هذا الحال إلى نشر النيلوت والشلوك

بالخاصة. نجحوا في إيقاف تدخّل العرب وانتشار الإسلام. وأصبح هذا الحدّ الجغرافي حدا حضاريا بين الإسلام والمسيحية وبين الجنوب والشمال اللتين عرفت فيما بعد السودان الجنوبي والسودان الشمالي. ولكن كانت هناك تبادلات إقتصادية بين الجنوب والشمال وكانوا يتبادلون في تجارة الرقاق والعاج وريش النعامة. وربطت هذه الأعمال الإقتصادية هذين الجانبين بالأسواق العالمية. أتوا بكثير من الرقيق من المناطق الجنوبية وخدموا جنود السلاطين الفنج وبعضهم إتخذ الشمال مأوى ومقرا لهم.

يشير الدلائل اللغوية إلى أن السودان الجنوبي كان مركزا للثقافات السودانية. وكان السودان الجنوبي وأوغندا الشمالي مملوءة بالأناس الذين كانوا يتكلمون باللغات السودانية. ثم بدأت هذه المنطقة أن تملأ بالمتكلمين بلغات النيل الغربي والشرقي في أواخر العشرات من القرن الأول للميلادي. هكذا أصبحت هذه المنطقة خاضعة لعملية النيل تدريجيا. وأصبحت هذه المنطقة مملوءة بالنيلوت.

كانت القبيلة 'الشلوك' قبيلة مهمّة من هذا المجموع من النيلوت. عندما أصبحوا مهزومين على يد الفنج إنقصروا في المنطقة 'ملاكل' تحت قيادة قائدهم 'نيكانج'. ظهرت الدولة الشلوك في النصف الثاني للقرن السابع عشر وبدأت أن توسّع حدودها إلى الشمال. غلبوا على النيل الأبيض من ميومو إلى إلايس وتوسّعت حدودها إلى الغرب وحاولوا أن يحتلّوا على المناطق الحدودية بين النيل والتلال النوبية. قويت المملكة الشلوكية في فترة الملك 'أوداك أوكلو' وتنافست مع الفنج في ضبط التجارة على النيل الأبيض. واشتغلت هاتين المملكتين في المنافسة بينهما حول ثلاثة عقود.

احتلت الدنكا على المناطق الجنوبية من المملكة الفنجية في سنة 1630م وهزّت هذه المملكة التي إستمرّت طوال القرنين السادس عشر والسابع عشر كيان المملكة الفنجية والمملكة الشلوكية. ولذلك إتحد الفنج والشلوك في عمليتهما ضدّ الدنكا وأجبرتاه مملكة الدنكا إلى تعديل حكمها إلى الناحية الشرقية في حدود إثيوبيا.

بدأ تدهور المملكة في القرن السابع عشر عندما حارب السلاطين بعضهم ببعض على السلطة. وعندما رفضت المملكة عام 1821 تأسيس السودان الإنجليزي المصري ف وقعت في نهايتها الغاية. وكان السلطان بادي السابع آخر حاكم مملكة الفونج في السودان. عندما قدم الجيش المصري إلى السودان عام 1821م انسحب الشلوك إلى الجهة الجنوبية. ولم يتمكن الحاكم الفنجي أن يتنافس مع البواخر التي قدمت بالجيوش المصري ولم يستطع لمقاومة العثمانيين. وقبلت القوات المصرية إنهاء مملكة الفنج من حاكمها الآخر بادي السابع.

السودان تحت حكم مصر

بنى محمد علي باشا الدولة الحديثة في مصر سنة 1804م. ولكنه لم يكتف على ولاية مصر وحدها ولكن زاد طموعه وأخذ أن يوسع حدودها إلى المناطق القريبة حتى السودان. كان قد أعد العدة لغزو السودان والإستيلاء عليه بعد أن أرسل الرسل لدراسة الحالة في السودان، ومدى المخاطر التي يمكن أن يتعرض لها جيشه. كان محمد علي يعرف أن السودان منطقة مملوءة بالذهب والأحجار النفيسة وكذلك بالرقيق. وكان يريد إحتكار تجارة الأراضي السودانية مثل تجارة الرقيق والتاج والأشياء أخرى. وكان محمد علي نفسه يخشى على موقفه من الأطماع الغربية. فقرر الإستيلاء على الأراضي السودانية لتكون له ملاذا من الأطماع الأوروبية. وكان يفكر أنه يستطيع أن يوسع جنوده بحول هؤلاء الرقيق السوداء ويمكن له أن يحمي دولته من الأعداء بمساعدة هذا الجند الكبير. وأراد أن يحمي حدود مصر الجنوبية على طريق إستيلائه على السودان. وكذلك كان يريد أن يستولى على منابع النيل لضمان المياه اللازمة لري مصر وكان يطمح أن يستفيد من ثروات السودان الهائلة والطائلة. وفوق كل هذه الأغراض كان المماليك الذين هربوا منه إستقروا مقرهم في شمال السودان بالقرب من المملكة الشايقية وأنشؤوا مملكة لهم. وكان

محمد علي يرى هذا الأمر طعنة على ظهره، لذلك قرّر أن يقضي عليهم خوفا من أن تزيد سلطتهم وسيطرتهم على السودان فيشكلوا خطرا على حكمه.

فلما إطمأن بنتائج الوفد من السودان أعدّ جيشين أحدهما بقيادة ابنه إسماعيل لغزو مملكة الفونج، وإخضاع أراضيها لحكمه. أمّا الجيش الثاني فقد كان بقيادة صهره الدفتردار، لإخضاع كردفان بغربي السودان. كان جيش إسماعيل يتكون من 4,500 جندي، مسلحين بالأسلحة النارية ومعهم بعض المدافع والخبراء. كان محمد علي باشا يعلم أن السودانيون يجنون ويكرمون علماء الدين أجلا لا عظيما. فأرسل الباشا مع الجيش المصري ثلاثة من أكبر العلماء وهم: القاضي محمد الأسيوطي الحنفي، السيد أحمد البقلي الشافعي والشيخ السلاوي المكي، لأن يحثوا على إطاعتهم لوالي مصر وخليفة العثماني ولتجنب سفك الدماء.

معركة كورتي

تقدّم الجيش المصري إلى السودان في 1820م. ولم يصادف أية مقاومة تذكر في المرحلة الأولى، حتى وصلوا إلى أرض قبيلة الشايقية الذين اعتزّوا بسطوتهم على جيرانهم وثورتهم على الفونج. أثر الشوايقة بخضوعهم للحكم المصري واشتروا على الباشا والي مصر أن لا يتدخل في شؤونهم. فاشتراط إسماعيل على الشوايقة لتسليم خيولهم وأسلحتهم إلى الوالي. ولكن الشايقة لم يقبلوا هذه الشروط وعزموا أن يقاتلوا ضدّ الجيش المصري. واشتغلت قبيلة الشايقة مع الجيش المصري بمعركة التي كانوا يحاربون فيها بال سلاح البدائية. لكن السلاح الناري من الجيش المصري فتك بهم وشتت شملهم، ولم تنجح المقاومة. واضطرت قبيلة الشايقية إلى الإستسلام، وساروا مع الجيش المصري لإخضاع بقية الأراضي. فأخضع دار الجعليين وسار الجيش حتى بلغ الحلفايا دار

العبدلاب⁽¹⁾ حتى جاء ملكهم الشيخ ناصر بن الأمين خاضعا للجيش فتركه سيّدا على بلاده وأخذ ابنه ليضمن ولاء العبدلاب كما جعل من الملك نمر ضمانا لولاء الجعليين وكان ذلك في 1821. وتقدّم جيش إسماعيل بعد ذلك جنوبا في طريقهم إلى سنار.

اجتياح سنار

سار جيش إسماعيل نحو 'سنار' عاصمة مملكة الفونج. وأرسل إسماعيل رسالة إلى الوزير الفونجي 'محمد ود عدلان' والسلطان الفنجي 'بادي السادس' لتقديم لائهما إلى مصر. فكتب ود عدلان رسالته المشهورة إلى إسماعيل: لا يغرتك إنتصارك على الجعليين والشايقية، فنحن هنا الملوك وهم الرعية. أما علمت بأن سنار محروسة محمية، بصوارم قواطع هندية، وجياد جرد أدهمية، ورجال صابرين على القتال بكرة وعشية. أخبره جواسيسه عن قدوم الجيش المصري قوامه 186 ألف محارب. ولكن قبل أن يعدّ العدة لمواجهة الجيش المصري قتل ود عدلان بسبب مشاكله مع أبناء عمومته وقبل أن يصل إلى إتفاق مع الفور⁽²⁾ بشأن توحيد الكلمة لمحاربة الغازيين المصريين. وبعده تولى الأرباب دفع الله الوزارة للسلطنة الفنجية. عندما أدرك الأرباب أنه لا يستطيع المقاومة مع الجيش المصري، فقام بالمفاوضات في ود مدني⁽³⁾ مع إسماعيل وأخبر والي مصر عن خضوع سلطنته لمصر. لما اقترب إسماعيل من سنار خرج إليه بادي السادس مبايعا وتنازل عن سلطانه لخليفة العثمانيين في 13 يونيو 1821. هكذا إنتهت سلطنة الفونج التي واصلت الحكم في السودان من عام 1504 - 1821م.

حملة كردفان ودارفور

أرسل محمد علي والي مصر جيشا آخر بقيادة صهره محمد بك الدفتردار لإخضاع دارفور وكردفان وأن يضمّ غرب السودان إلى أملاك مصر.

⁽²⁾ نسب الشيخ عبد الله جماع

⁽²⁾ الفور هم شعب بغرب السودان يسكنون منطقة دارفور.

⁽³⁾ مدينة تقع في وسط السودان.

ولقد أمدّت الكبابيش القبيلة التي كانت تقطن بين مصر والمناطق الغربية للسودان جيش الدفتردار وسهّلت لهم كلّ التسهيلات التي يحتاجون إليها. منحتهم الجمال لنقل العتاد إلى غرب السودان ودلّت على أماكن الآبار ومناطق المعسكرات في غرب السودان. سار جيش الدفتردار عقب إنطلاق الجيش الأوّل وقبل أن يصل إلى الأبيض عاصمة الفور أرسل إلى سلطانها محمد الفضل ينصحه بالتسليم فرد ود الفضل: أما علمت أن عندنا العباد والزهاد، والأقطاب والأولياء الصالحين من ظهرت لهم الكرامات في وقتنا هذا وهم بيننا يدفعون شرّ ناركم، فتصير رمادا، ويرجع إلى أهله والله يكفي شرّ الظالمين. لكن الدفتردار أهمل هذه الرسالة وتقدّم إلى كردفان فلمّا علم المقدم مسلم، والي كردفان عن هذا الحدث خرج بعسكره متّجها شمالا إلى بارا ليواجه الجيش الغازي المصري.

واقعة بارا (16 أبريل 1821م)

التقى الغزاة المصريون مع جيش المقدم مسلم، والي كردفان. تقدّم جيش الكردفان لكنهم فشلوا في حملتهم على الجيش الغازي وسقط جنودهم المسلحون بالسيوف والرماح أمام رصاص الجيش المصري. وهكذا إنتهت واقعة بارا بإنهزام الوطنيين وانتصار الغزاة فسقطت كردفان في يد الدفتردار قبل سقوط سنار في يد إسماعيل. لم يحاول سلطان كردفان إلى المقاومة ولكنه نزع إلى الفاشر⁽¹⁾ ينتظر تطوّرات الموقف. فأعلن محمد علي باشا عن عدم رغبته في فتح دارفور وعن فكره في إخلاء كردفان والتنازل لأحد الملوك ليدفع الجزية. ولكن الدفتردار غيّر فكرة محمّد علي وأقنعه بالعدول فعدل عن ذلك في 1822م.

⁽¹⁾ مدينة تقع في غرب السودان.

مقتل إسماعيل بن محمد علي باشا 1822

وصل إسماعيل باشا إلى شندي في ديسمبر 1822 وأمر

المك نمر أن يدفع غرامة فادحة. ردّ المك باستحالة الطلب فأهانته الباشا وضربه بظيونه التركي بإساءة بالغة أمام الحاضرين. فأبدى المك رضوخه لباشا ودعاه إلى العشاء وذبج له الضأن وهياً له الحرس وأمن في خدمته وأخبره أنّ الغرامة ستفجع في صباح اليوم التالي. أثناء ذلك كان الجعليون يطوفون الحفل بالقش من كلّ مكان وأخبروا رجال الباشا أنها للماشية التي ستحضر. وقبيل إنقضاء الحفل أطلق الجعليون النار في القش فمات إسماعيل ورجاله خنقا وحرقا.

بعد قتل إسماعيل بن محمد علي استمرّ حكم الدفتردار

العسكري في السودان. وكان هذا الحكم وزرا تقيلا على كاهل السودانيين إذ كان الدفتردار يجري حكما بربرياً غير إنسانيا حتى يقال أن الجنود الذين لم يتسلموا مرثياتهم لمدة ثمانية أشهر بدؤوا بالبطش والنهب ليجدوا متطلبات حياتهم. فثار الرأي العام ضدّ هذا الحكم فأمر محمد علي للدفتردار أن يعود إلى مصر سنة 1824. وحاول أن ينتهي الحكم العسكري وأن يرسى نظاما إداريا أكثر إنسانيا في السودان.

عندما أخضع محمد علي السودان تحت سلطانه جعل

سنار عاصمة السودان ثم جعل المدينة 'ود مدني' عاصمتها. ولكن عندما تولى 'عثمان باشا' الذي خلف الدفتردار الحكم في السودان، بنى قلعة في المنطقة التي يقترن فيها النيل الأبيض بالنيل الأزرق ووضع فيها الجند سنة 1824 واتخذها عاصمة له. وهكذا كانت بداية مدينة الخرطوم عاصمة السودان الحالية. وخلفه في الحكم السوداني خورشيد باشا (1826-1838) واهتم بتحسين المدينة الخرطوم وشهدت الخرطوم في عهده نوعا جديدا من الحكم. منح فرصة للسودانيين لأن يشتركوا في الحكم

قسّم محمد علي البلاد السودانية على النظام الإداري

التركي إلى 6 مديريات: دنقلا، بربر، الخرطوم، سنار، كردفان وفازو غلي. ثم ضمت مديرية التاكا في الشرق إليها وأصبحت السابعة. وعيّن مديرا على كل هذه المديريات. عمل هؤلاء المديرون تحت الحاكم العام. أطلق محمد علي اسم 'الحكمдар' لحاكم السودان وأعطى بالسلطات العليا الإدارية والتشريعية والتنفيذية والعسكرية. وكان الحكمدار يتبع خديوي مصر. كان خورشيد باشا أول حاكم عام أو حكمدار السودان. تولى الخديوي عباس (1848-1854) الحكم في مصر بعد محمد علي باشا. إهتمّ العباس بالنواحي الإدارية كثيرا وأدخل الطب الغربي إلى السودان. وفي مجال التعليم فتح أول مدرسة لأبناء الموظفين في الخرطوم سنة 1853 على يد رفاة بك الطهطاوي. وكذلك فتح مجال التجارة في السودان للأوروبيين. وساعد هو في ذلك بتخفيف القيود المفروضة واشتغل كثير من الأوروبيين في تجارة الرقاق والعاج. بدأت الرسالة التبشيرية المسيحية أن تنعش ثانيا في عهده سنة 1848 إذ عيّن كثيرا من الأوروبيين في المناصب الحكومية .

تولى الخديوي سعيد حكم مصر (1854-1863) بعد

الخديوي عباس. وفي سنة 1857 عيّن الباشا أراكيل بك مديرا للخرطوم. فثار السودانيون على تعيين مدير مسيحي عليهم وطلبوا أن يستبدله. عندما اشتدت صيحتهم في هذه الحاجة أرسل أراكيل بك عددا من السودانيين إلى مصر مجونين إلا أنهم أعيّدوا إلى بلدانهم.

جاء إسماعيل باشا الثاني (1863-1879) حاكما لمصر

بعد الخديوي سعيد. إتفق مع الرحال الإنجليزي صمويل بيكر على أن يخضع له حوض النيل ومنابعه مقابل مرتب سنوي كبير، الحادثة التي أدت إلى دخول الإنجليز إلى السودان. إشتغل صمويل في المعارك القاسية مع القبائل السودانية الساكنة عند مناطق النيل وأخضع مساحة شاسعة من الجنوب تحت حكم الخديوي. ثم جاء الضابط الإنجليزي تشارلز جورج

غردون بعد الصمويل واستطاع أن ينال خططه من السودانيين في وسيلة سهلة إذ أنه إستطاع أن يكسب ود القبائل السودانية.

عندما تخلى غردون عن منصبه كحاكم على مديرية الإستوائية وعاد إلى بلده، إتصل به الخديوي مرّة أخرى واقترح عليه أن يكون حكمدار السودان. فوافق على ذلك في 1877. حاول غردون بعد أن أصبح حكمدار السودان لقضاء تجارة الرقيق في السودان. ولكن الرقيق لم يرغبوا في مغادرتهم من أسيادهم فسمح الغردون ملوك الرقاق أن يملكوهم لمدة 12 سنة. وكوّن إتفاقية معهم على أن للحكومة حق أن تتدخل في شؤون الرقاق إن دعت الحاجة، وأعطى كل منهم مستندات تفيد ذلك وسجل أسماء وأوصاف الرقيق لضمان عدم التلاعب في القرار. أما الأحوال في المجالات الأخرى في عهده كانت مضطربة حيث إرتفعت الضرائب وساءت الإدارة.

إخترق الإحتلال المصري عميقا إلى السودان وترك علامات لا تمحى على تاريخ السودان. القوة الجديدة التي هدفت إلى إستغلال السودان لحسن مصر أسست حكومة مركزية قوية ووسّعت حكمها على المناطق الباقية للسودان. وقد أجابت نوعيّة شكل الحكومة ببدأ بعض الطرق الحديثة للإدارة وحاولت للكبح على ميول الثائرة من القبائل السودانية. وكانت في ذلك الوقت نفسه أسست الحدود الجغرافية والسياسية للسودان. وقبلت إسم السودان رسميا في منتصف القرن التاسع عشر. إستمرت السودان يخضع للحكم المصري المباشر حتى قيام الثورة المهدية عام 1881م.

الحركة المهدية

إستمرت السودان تحت حكم مصر منذ أن إحتلها قوات محمد علي باشا سنة 1821م. وتأثر السودان بالتدخل الأجنبي في مصر أيام الخديوي إسماعيل والخديوي توفيق. وأصبح الشعب السوداني قلقا من سوء أحوال الأمور في بلادهم.

أزادت الحكومة الضرائب على الناس وأصبحت وزرا ثقيلًا على كتفهم واستمرت الحكومة الظلم والإذلال على الناس لتحصيل هذه الضرائب الباهضة منهم. وكذلك إستخدم الخديوي إسماعيل كثيرًا من الأجانب في إدارة السودان، الأمر الذي أقلق السودانيين في أمور سياسية بلدهم وإدارته. لم يتمكن السودانيون أن يحتملوا هذا الظلم، فبدأوا أن يطالبوا بالعدل والحرية تحت قيادة شخصيات نبيلة.

ظهرت شخصية نبيلة سنة 1882 - محمد أحمد المهدي

- ضدّ إستغلال الحكومة المصرية وأيقظ الناس من نومهم ضد القوات الفاحشة. ولد المهدي بالقرب من دنقلة من عائلة فقيرة، لأب نجار. رحل إلى شندي⁽¹⁾ ثم إلى الخرطوم وحفظ القرآن الكريم في صغره. ثم درس الفقه الإسلامي واشتهر بالزهد والتقوى والتقشف والتواضع. ولمّا توفي أبوه رحل المهدي إلى جزيرة أبا⁽²⁾ حيث بنى مسجدا وخلوة للتدريس وأخذ يدعو الناس إلى الإسلام والعودة إلى الشريعة الإسلامية. قادت الحركة المهدية ثورة في مطالبة الحرية من الإستعمار والظلم والإستغلال الإقتصادي. أعلن المهدي حركة جهاد ضدّ الإحتلال الأجنبي وأن يطهر الإسلام من الخرافات والتقاليد.

واجهت هذه الحركة مقاومة عاصفة من الإستعمار

والنفوذ الأجنبي الزاحف ولكنها صمدت في جهة واستطاعت أن تقاوم فترة طويلة. وقد قامت الدعوة المهدية على نظرية كاملة ضمّنها مناشيره وبياناته المتعددة "أمرنا هذا مبني على هدى من الله ونور من رسول الله. وما قصدنا إلا إحياء الدين وإظهار آثار الأنبياء والمرسلين ولا يريد مع هذا ملكا ولا جاها ولا مالا". يقول الكاتب الإسلامي المشهور أنور الجندي "كانت حركة المهدية واحدة من حركات الجهاد ضدّ الإستعمار والنفوذ الأجنبي في مختلف بلاد العالم الإسلامي التي كانت دوما مصدر المقاومة وسبيلا لرفض كلّ نفوذ أجنبي، ورفع راية الجهاد في سبيل المقاومة الغاصبة. ومن هنا حاول النفوذ الإستعماري تشويه الوهابية

⁽¹⁾ شندي مدينة سودانية تقع شمال شرقي الخرطوم

⁽²⁾ الجزيرة أبا جزيرة على النيل الأبيض تبعد عن الخرطوم حوالي 150 ميل جهة الجنوب.

والسنوسية والمهدية وتمد إلى القضاء عليها جميعا، وظل يهدد بخطر ظهور حركات مثلما تقوت على أساس مفهوم الإسلام في الحكم وتعلن الجهاد في الوجه الغاصب"¹

الثورة المهدية

نادى المهدي سنة 1882 ثورة ضد الحكومة المصرية. أصبح السودان تحت الحكم المصري سنة 1805م. كان السودان تحت الإدارة الرسمية للحكومة المصرية ولكنها بالحقبة كانت تحت النفوذ وإدارة الحكومة البريطانية. لأن مصر كانت تتأثر بالتدخل الأجنبي البريطاني في أيام الخديوي إسماعيل والخديوي توفيق، إذ كانت الحكومة المصرية من التسهيلات للأجانب المقيمين في أرضها بقصد تشجيعهم على العمل والإستفادة من أحوالهم في إنعاش الإقتصاد الوطني. حكمت الحكومة ممتلكات الأجانب وقضت منازل عائلهم ومشاكلهم التجارية والشخصية أمام قضاصلهم. إستغل الأجانب هذه الإمتيازات وتفقروا على الدولة المصرية وأقاموا فيها بصورة دائمة.

وفوق ذلك أوجد الخديوي إسماعيل نظاما الذي ترك المجال مفتوحا للتدخل الأجانب في مصر. فقد أنشأ المحاكم المختلفة وكان أغلب قضائتها من الأجانب. فخضع المصريون للقضاء الأجنبي بدلا من أن يخضع الأجانب للقضاء المصري من عام 1875م. هكذا أصبحت الحكومة المصرية دمية للأجانب البريطانيين. وكانت مجبرة أن تقبل النصائح البريطانية وإرشاداتها في الأمور المهمة بدلا لحماية العسكرية البريطانية. هكذا إستغل البريطانيون في أمور الإدارة السودانية أيضا. عندما وصلت هذه الحالة من قبل الحكومة المصرية إلى أوجها، فنهض أحمد محمد المهدي ونادى ثورة ضد الحكومة المصرية، وعين نفسه مهديا فالتف حوله الناس. ولكن أستاذة محمد شريف نور الدائم أبلغ حكمدار (حاكم) السودان لأن يتخذ الخطوات اللازمة لكبح جماح محمد أحمد.

¹ العالم الإسلامي والاستعمار السياسي والاجتماعي والثقافي، أنور الجندي، ص - 284

الواقعة الأولى – أبا، عام 1881

نوّه المهدي بمظالم محمد رؤوف، حاكم دار السودان ودعاه شخصيا إلى الإيمان. فأرسل الحاكم أحد أعوانه - محمد أبو السعود مع 300 جندي عام 1881م إلى جزيرة أبا لإعتقال مهدي. ولكن أتباع مهدي هزموها هزيمة دنيئة. فأرسل المصر جيشا أخرى من 300 جندي إلى الجزيرة على النيل حيث جمع فيها المهدي وأتباعه من 200 جندي. سأل المهدي لأتباعه إمّا أن يقف معه في الثورة أو إمّا أن يعود إلى بيوتهم. كان أتباع المهدي يصلون عندما وصل الخبر إلى المهدي عن وصول البواخر المصرية إلى المدينة. نزل جنود الحكومة على جزيرة أبا وزحفوا مباشرة إلى القرية. عندما قابلوا رجلا قرويا سألوه الطريق إلى بيت المهدي ولكنه لم يخبرهم شيئا عن أخبار المهدي. وفي ذلك الوقت أطلق واحد من الجند الرصاص، فهزّ أتباع المهدي الذين كانوا مسلّحين بالأسلحة البدائية على الجنود المصرية، وقاتل رجال المهدي ببسالة، وبعد وقت قصير قتلوا بعضا من جنود الحكومة وبينهم أبو السعود، وفرّ الباقون نحو الباخرة التي قدموا فيها نحو الخرطوم. وهذه هي بداية الثورة المهدية.

واقعة راشد ديسمبر 1881

توقع المهدي بعد معركة أبا أن الحكومة المصرية ستُرسل جيشا آخر لكسر شوكته، وأدرك أنّ حاكم مصر في السودان لا يتركه بعد ما حدث في أبا. فنصحته تلاميذه وأعوانه ومساعدوه أن يهاجر إلى كردفان. فهاجر المهدي مع أتباعه إلى 'جبل قدير' على جبال النوبا في جنوب كردفان، حيث يكثر فيها الدّعاة من العلماء ومن القبائل. كانت هذه البقعة بعيدة عن العاصمة وحكم الخرطوم وجيوش الحاكم، الذين يخططون بقضاء المهدي وأتباعه. وكان أول من حاول أن يتعقب المهدي هو محمد سعيد باشا مدير مديرية كردفان. خرج ببعض القوّات لأن يواجه المهدي، ولكن الملك 'أدم' ملك تقلي قام بإطلاق الرصاص على القوة أثناء الليل، فخشي المدير على نفسه، وتراجع عن

تعبق المهدي. رجت الحكومة المصرية أن الحسود والمخالف سيشقق الحركة المهدية وتشهد خرابتها على نفسها. ولذلك قرّرت الحكومة ألا تجري عملية أخرى ضدّ المهدي. ولكن راشد بك حاكم الفاشودة التي تقع غرب السودان أهمل توجيهات الحكومة وأرسل جيشا تحت قيادة 'قائكون بك' ضدّ المهدي. كان الراشد ينوي أن يدهش المهدي، فأمر جنوده لرحفهم ساعات طويلة، الأمر الذي أتعب الجنود كلهم. ولكن المهدي لم يدهش بل دهش الراشد في الحقيقة، إذ أخبر زعيم من القدير إلى المهدي عن وصول جيش الحكومة المصرية. فاعد المهدي وأتباعه كمينا للجنود المصريين وبدّوا القوّات المصرية وجرّت معركة بين الطرفين في الجبل الجرامة سنة 1882م. انتصر فيها المهدي إنتصارا بارزا ممّا دعا وفود قبائل السودان إلى مبايعته في كلّ المكان. وقتل راشد بك أثناء المعركة في 9ديسمبر 1881م. هكذا إنتصر المهدي إنتصارا ثانيا في مجرى ثورته.

واقعة الشلالي مايو 1882

بعد واقعة راشد نهض حاكم العام السودان جيقلر باشا - الألماني - وكان يستخفّ بقوّات المهدي. وزعم أنّ سعييد الأمن والسلام في السودان بالضرب على قوة المهدي. فأرسل جيشا تحت قيادة يوسف باشا الشلالي. وفي ذلك الوقت نفسه أرسل 50 جنديا تحت قيادة يوسف آغا الملك إلى الضفة الشرقية للنيل الأزرق حيث كان فيه شريف أحمد طه الذي أعلن دعامة المهدي. قابل يوسف الملك بجنود شريف أحمد ولكنه فقد كلّ ضباطه وذبح كثيرا من جنوده. عندما رأى يوسف الملك أنه خسر كلّ ماله، أصبح ذليلا وأمر لخدمه أن يقتله. أمر جيقلر باشا حملة أخرى على شريف أحمد في 4 مايو 1882م ولكنه فشل مرة أخرى وقتل عدد من الرجال في جنوده. ولكن عندما أرسل باشا قوّة في المرّة الثالثة ضد شريف فأصبح الباشا ناجحا وانهمز شريف كليا.

وفي ذلك الوقت أرسلت الحكومة المصرية قوّة إلى

القدير تحت زعامة الشلالي، وزحفوا إلى القدير على طريق فاشودة. خلال الطريق أخبره

واحد من الرعماء المحلية الذي خلف وعدا مع المهدي الجنود عن جاسوس المهدي، فقبض الجنود هؤلاء الجاسوسين وقتلهم بغير عطف. قطعوا أعضائهم واحدا بعد واحد أمام مجموع من الناظرين. ولكنهم تعجبوا عندما وجدوا شجاعة هؤلاء أتباع المهدي في إستقبالهم بالموت وهم يلفظون التحديات ضد الجالدين ويصرّحون إدانة عميقة لرسالة المهدي. وصلت قوات الشلالي إلى قرب من القدير في 4 يوليو 1882. ولكنهم لم يستطيع أن يبني خيمة قبل قومههم. قاتل المهدي وأتباعه الرجال والجنود وتمكن رجال المهدي من إبادة هذه القوة، والإستيلاء على أسلحة نارية كثيرة منهم استعان بها المهدي في تثبيت أقدامه. ونجح نجاحا بارزا في هذه المعركة أيضا.

عَيَّنت الحكومة المصرية عبد القدر باشا حاكما جديدا على السودان. وعندما تولى عبد القادر الحكم، حاول للمحادثات التمهيدية للسلام مع المهدي. عندما فشل في هذه المحاولة تأمر أن يقتل المهدي. أرسل إلى المهدي جائزة من التمر المسموم مدعيا أنها من ناصح المهدي وأرسل معها طردا يتضمن بعض المتفجرات ورجلين مستأجرين لقتل المهدي. ولكن عندما فشل في هذه المحاولة أمر إلى مفتي السودان والعلماء الآخرين أن يشتغلوا بحملة ضد المهدي، وأعدّ الجنود وديرهم أن يقاتلوا ضد المهدي.

وفي ذلك الوقت حول المهدي مجرى ثورته وقصد أن يترك سياسة الدفاعية الهادئة التي كان يتبعها حتى الآن. بعد الشهرين من تبيده لجنود الشلالي أرسل فريقا من أتباعه الذين يدعون الانصار للمهاجمة على الحامية العسكرية الحكومية بكردفان. هدموها واحدا تلو واحد واحتلوها كلها إلّا الأبيض عاصمة كرفان. وفي أغسطس سنة 1882 زحف فرق من المهدي نحو الأبيض وأرسل مهدي المرسلين إلى الحامية العسكرية الحكومية وأجبرهم لخضوعهم له. ولكن رجال الأبيض حبسوا هؤلاء المرسلين.

فأرسل المهدي 3000 جنديين إلى الأبيض. يفسر

جوسف أوهر والدر الذي قضى عشر سنوات حابساً في حامية المهدي ذكرياته " قد عبر الأنصار الخندق الأول وانتشروا فيها وأحاطوا المدينة مثل الأمواج ووصلوا إلى الخندق في المديرية وعبروه مثل أسيلاً جارفاً مهملين كلّ السدود. أهملوا كل رعد البنادق وأقدموا إلى الأمام. كانت الحامية العسكرية الحكومية ضعيفة، لم يستطع أن يدافع هذا الهجوم الشديد من جهة الأنصار. هربوا إلى أعلى البيوت وأطلقوا الرصاصات على الأقوام وأصبحت الشوارع والأماكن المفتوحة مختنقة بالأموات. ومن غير الممكن ألا يتعجب أحد شجاعة هؤلاء الناس الذين يصيحون ويفرون إلى أفواه المدافع مع العصي في أيديهم إلى الخندق ليملاؤه بها رجاء لعبره"¹.

خسر المهدي عديداً من رجاله وعزم أن يحول فنّ التحركات الحربية. أحاط الأنصار الأبيض والبرّة. أحاطوا البرّة في 5 يناير وأحاطوا الأبيض في اليوم السابع عشر سنة 1883م. حرّر المهدي إقليم كردفان وأقام فيه حكومة إسلاميّة تحكم بالشريعة الإسلامية وعين نائبه عبد الله التعايشي قائداً عاماً لقوات الأنصار.

ثم عين علاء الدين حاكماً جديداً على السودان. أعدت الحكومات البريطانية والمصرية حملة بأحدث الأسلحة، وعينوا لها قائداً - أحد كبار الضباط الإنجليز المسمّى هيكس باشا- ليعيد الأبيض من المهدي. لمّا عرف المهدي هذا الخبر أعدّ كميناً ضدّ الإنجليز والمصر في منطقة شيكان وأبادوا فيه الحملة وقتل هيكس باشا وجميع ضباطه. فأصبح سهلاً لقوات الأنصار الإستيلاء على بقية أرجاء السودان.

في هذا الحال أدركت الحكومة البريطانية أنه من المحال أن يقبض السودان على أيديهم. فأضغطت على الحكومة المصرية أن تترك السودان وأن تخلي الخرطوم. وأرسلت الحكومة البريطانية شارلس جورج غوردون إلى السودان وسألته

⁽¹⁾ The horizon history of Africa, Alwin . M. Joseph, p: 409

أن يحقق أحسن وسائل لإخلاء القوات المصريّة من السودان. ولكن غردون حاول أن يقبض على السودان وأن يعيد حكمه من أيد المهدي. آخر المهدي المهاجمة على المدينة راجيا أنها ستخضع له بدون سكب من الدم.

وفي سنة 1884 خرج فريق من الجنود البريطاني تحت قيادة هربرت ستيوارت إلى السودان. فأخبر المهدي الأنصارين بالمهاجمة على الجنود البريطانيّة. أرسل المهدي جندا قويّا للمهاجمة على فريق هربرت ستيوارت وأعدّوا للحملة على العاصمة. قابل الطرفان قريبا من أبي طليح⁽¹⁾ حيث كان فريق ستيوارت يخيم في الليل. وفي الصباح أطلق الأنصار الرصاص على الإنجليز. أراد ستيوارت أن يقاوم مهاجمة الأنصار بخطة صريحة، وأمر فريقه أن يزحفوا إلى الأنصار في شكل مربّع وبدأوا أن يطلقوا الرصاص على المهدي وأتباعه. وبالرغم من الرصاص المضبوطة، تقدّم قوات المهدي وبدأ الرصاص أن يقع عليهم وسقط منهم موتى بعضهم على بعض. دافع الباقون وهاجموا الإنجليز وتدخلوا إلى الجيوش البريطاني المربع خلال نقاط كثيرة. عندما جرح ستيوارت، تولى سير شارلس ولسن قيادة الجيش الإنجليزي. فأغلقوا المربع وقتلوا كل من تسللوا إليهم من الأنصار. عاد الباقون من الأنصار إلى الخرطوم وامتطى ولسن وجنوده في البواخر. وكان ذلك في أواخر يناير عام 1885م. كانت المدينة خرطوم تصيب بالقحط والأمراض وحاول المهدي أن يشجّع غردون للإخضاع. ولكنه كان عصيا وعزم أن يهاجم على المهدي وأنصاره مرة أخرى.

خرج المهدي بجيش ضخم من العدد من الأبيض وتوجّه إلى الخرطوم، وتمكّن المهدي من فرض الحصار على الخرطوم وما زال غوردون فيها. وتحت ضغط من الرأي العام البريطاني رأت الحكومة البريطانيّة أن ترسل حملة عسكريّة لأن تخلص غوردون باشا من الخرطوم المحاصر، خاصة وأن الطريق بينه وبين مصر قد

⁽¹⁾ استراحة للقوافل العابرة وهي تقع في الطريق بين مروي والمتمّة.

أغلق بسبب سقوط بربر⁽¹⁾ في أيدي الثوار وارتأى القادة بسيرهم عن طريق النيل للوصول إلى الغردون، بدلا من سواكن ومنها إلى النيل حتى الخرطوم، وذلك لصعوبة الطريق، وهجوم عثمان دقنة⁽²⁾ المتوقع. تسابق المهدي وجيشه وجيش البريطاني الذي خرج إلى الخرطوم لأن ينقذ الغردون باشا. كان المهدي يريد أن يسقط الخرطوم قبل أن تصل البعثة العسكرية البريطانية، والبريطانيون كانوا يريدون أن يصلوا إلى غردون قبل أن يهاجمهم المهدي وقوته. وفي 26 يناير 1885م أمر المهدي جنوده بالهجوم العام على الخرطوم، وكان قائده الأمير عبد الرحمن النجومي. وانهزمت حامية الخرطوم، وقتلوا عميد الإستعمار غوردون باشا في الخرطوم. ووصلت البعثة العسكرية البريطانية إلى الخرطوم في بواخرها بعد يومين فقط من سقوط الخرطوم. ثم إستكمل الأنصار تحرير بقية السودان. كانت هذه الحادثة ضربة شديدة على فخر البريطانيا، فأرادت البريطانيا أن تفهر المهدي وحركته.

أخذ محمد المهدي بعد الإستيلاء على الخرطوم أن ينظم دولته واتخذ 'أم درمان' التي عُرِفَت آنذاك 'بالبقعة' عاصمة لها. وكان أول ما قام به هو أن يجري الحكم على أساس الشريعة الإسلامية، فنظم الإدارة المالية لمطابقتها بالشريعة. وأمر أن يصكَّ العملة لحكومته وذلك لمقابلة النقص في العملة المتداولة، واستخدم لهذه الحاجة الحلّى الفضية والذهبية التي إستولى عليها من الأبيض والخرطوم. وعيّن الأمراء في حكم المناطق المختلفة وإدارة الجيوش. لكن المنية وافته في نفس العام وتوفي المهدي 22 يونيو 1885.

تولى عبد الله التعايشي الحكم بعده (1885 - 1898م).

واجه التعايشي نزاعات حادة، كان من بينها النزاع مع الأشراف آل المهدي الذين لم يكونوا راضين عن خلافته، وخاصة زعيمهم الخليفة شريف. ولم يكن السودانيون أيضا يحبّون

⁽¹⁾ بربر مدينة سودانية تتبع لولاية نهر النيل بشمال السودان وهي مدينة تاريخية يعود تاريخها إلى العصر المروي ا. وتقع مدينة بربر على ضفتي نهر النيل.

⁽²⁾ عثمان دقنة (1836- 1926) أحد أتباع وأمراء المهدي في السودان.

خلافة التعايشي، لأنهم كان من أبناء الحضر والمدن، والتعايشي من غرب السودان⁽¹⁾. وكان يخشى الإضطراب من قبل الشريفيين، ولذلك إستعان من قبيلته التعايشة لأن يستقر في حكمه في أم درمان. وأراح كلا من ولاي المهي من مناصبهم في الإدارة، وعين رجالا من أهله في تلك المناصب. وبدأ القسوة والقهر في حكمه وأخضع كل القبائل السودانية تحته، وأصبح حاكما قويا. بدأ التعايشي بتأمين حدوده الشرقية وهاجم الأجاش في السودان بتحريض من بريطانيا. ولكنه أصبح هزيميا في حملة الأنصار. فأعد التعايشي حملة لإحتلال مصر، ولكنه وقع في كمين البريطاني والمصري في قرية توشكي قرب أبي سميل جنوب مصر فهزم الأنصار وتشتت قواتهم.

شهدت السودان خلال هذه الفترة محنا شديدة، كان أكثرها تأثير المجاعة التي اجتاحت السودان في الفترة ما بين 1888-1890م. وكان منها كثرة الأطماع الأوروبية في السودان، حيث تقدم البلجيكيون ودخلوا دارفور وبحر الغزال سنة 1894م، وفي 1896م هاجم الإيطاليون كسلا⁽²⁾ ودمروا القوة السودانية فيها.

الإستعمار البريطاني في السودان

قد تقدم الذكر كيف تمكن محمد علي باشا، والي مصر أن يفتح على السودان وأن يضمها إلى مصر. فأصبحت السودان تابعا للحكم المصري منذ بداية القرن التاسع عشر. تناول حاكم عام الذي يسمى حكمدار السودان حكم السودان وكان يحكم تابعا للحكومة المصرية. هكذا إستمرت السودان خاضعا للحكم المصري المباشر حتى نهض محمد المهدي وقام الثورة المهدية عام 1881م واستعاد الخرطوم عاصمة السودان من المصريين عام 1885. بعد ذلك بدأت هناك الحكومة المهدية وخلفه عبد الله التعايشي وأصبح حاكما قويا للسودان.

⁽¹⁾ ينتمي الخليفة عبد الله لقبيلة التعايشة في دارفور في غرب السودان.

⁽²⁾ كسلا مدينة تقع في شرق السودان.

حادثة فاشودة

عندما كان مصر وبريطانيا يشتغلان في الصراع بين القوّات المصرية وبين الأنصار متابعين المهدي، فاضتمت فرنسا هذه الفرصة فرصة ذهبية. أرسلت فرنسا قوّاتها بقيادة 'مارشان' واحتلت فاشودة في غرب السودان، ورفعت عليها العلم الفرنسي. كانت فرنسا تحرص أن تحتل على أجزاء السودان الأخرى. تصدّت بريطانيا هذه المحاولة من قبل فرنسا. إحتجت بريطانيا أن هذه الأراضي السودانية تقع تحت سيطرة مصر ولا يجوز لأي دولة أخرى أن تتدخل إليها. واشتغلت بريطانيا والفرنسا في المواجهة حول هذا الوضع، ولكن فرنسا انسحبت من السودان قبل أن يشتعل اللهب. استعدّت نفسها لإنزال العلم الفرنسي من فوق الفاشودة في السودان ورفعت العلم المصري. هكذا أخلت بريطانيا محاولة دولة أخرى للإحتلال على السودان، ومهد الطريق تمهيدا لإتمام حرصها على أن تحتل السودان وعلى خيراتها الطبيعية. كانت بريطانيا وفرنسا وبلجيكا تطالب الحق على النيل في بداية السنة 1890 نفسها. وكانت بريطانيا تخاف أن القوّات الإمبراطورية الأخرى ستعتمد هذه الحالة في السودان - حالة الإضطراب والتقلب وعدم الإستقرار - لأن تستولي على السودان. وعلى ذلك كانت بريطانيا تحرص أن تأتس ضبطا على نهر النيل وأن يأسس سدا للري بأسوان لأن تزرع القطن وإصدارها إلى البريطانية في مقدار مرتفع. وبهذه الأهداف المخبئة كانت بريطانيا تنتظر الفرصة لأن تحتل على السودان.

في إطار التسابق الأوروبي في إفريقيا، أرادت بريطانيا

مشاركة مع مصر في إسترداد السودان. فهذا الغرض جهز الخديوي حملة من الجنود المصريين بقيادة كشنر مكوتا من بعض الفرق المصرية والبريطانية وبعض السود الذين كانوا في مصر لغزو السودان. وكان الرأي العام يروج على حادثة قتل غردون وكان القلاستون هو رئيس الوزراء البريطاني في ذلك الوقت. يقول الطبيب صالح في كتابه 'وطني السودان' عن هذه الحادثة "هاج الرأي العام وماج، فارس قلاستون جيشا بقيادة

إستعماري لدود، هو كتشنر لإخضاع السودان والقضاء على الثورة المهدية وأخذ الثأر لمقتل غردون، وإفهام أولئك الهمج المتوحشين أنهم لا يستطيعون أن يعبثوا بهيبة التاج البريطاني. هكذا ثار الرأي العام في بريطانيا¹.

تقدّم الجيش الغازي عام 1896م من الحدود المصرية نحو السودان، يهدفون إلى الإستيلاء على الجزء الشمالي من البلاد السودانية. ووصل في المرحلة الأولى إلى دنقلا. كانت أولى المعارك في فرقة⁽²⁾، بينما كان الأنصار يؤدّون صلاة الصبح. فقتل بعض منهم كما جرح البعض، وبقي كثير منهم أسيرين. واستمرّ الجيش الغازي المصري والبريطاني زحفهم نحو الناحية الجنوبية في السودان، حتى وصلت بواخره وجنوده إلى دنقلا. فانسحب محمد بشارة الأمير في دنقلا منها عندما رأى جيش المصري والبريطاني الذي يفوق على جيشه عددا وعدة. فسقطت دنقلا في يد كتشنر وجيشه. ثم توقف الزحف لأنّ تحلّ المشكلات المالية لتمويل الجيش والوصول إلى أم درمان. ولما تمّ الاتفاق على التمويل تقدّم كتشنر حتى وصل إلى عطبرة⁽³⁾ 8 أبريل 1898م، وبالقرب منها في معركة النخيلة، استطاع أن يهزم الأمير محمود ود أحمد الذي وقع أسيرا في أيدي الحملة⁴. ثم تقدم الجيش بعد ذلك نحو أم درمان. والتقى بالجيش السوداني بقيادة الخليفة عبد الله التعايشي في موقعة قرري شمال أم درمان.

وهناك، وفي يوم الجمعة سبتمبر سنة 1898، قاتل الجيش الإنجليزي المصري بمدافعه الرشاشة، على جيش السوداني الذي كان يتكون من حوالي وانتهت معركة بهزيمة السودانيين. ثم أرسل كتشنر فرقة خيالته لدخول العاصمة السودانية أم درمان، لكن الأمير عثمان دقنة كان قد نصب لهم كمينا في أحد الأودية، ولما نزلوا بخيلهم في الوادي فاجأ الأمير ورجاله أن يضربوهم بالسيوف ويطعنوهم بالرماح فقتل

(1) وطني السودان، الطيب صالح، ص - 56

(2) فرقة قرية تاريخية تقع على ضفة النيل الشرقية في الولاية الشمالية من السودان.

(3) عطبرة مدينة تقع في ولاية نهر النيل بالسودان

(4) توفي محمود في رشيد (مصر) عام 1906 كان سجيناً في راشد.

أكثرهم وفرّ الباقون، لكن الجيش الغازي دخل أم درمان. انسحب الخليفة عبد الله التعايشي إلى غرب السودان ليجتمع رجالا ويدخل في معركة جديدة. وكان معه بعض ذوي الرأي من رجاله وظلوا فترة من الوقت وهم يسيرون من مكان إلى آخر حتى وصلوا أم ديكرات. وهناك لحقت بهم قوة من الجيش المصري الإنجليزي وقضت عليهم في عام 1899م واستشهد فيها الخليفة عبد الله نفسه وأهم وزرائه.

إتفاقية الحكم الثاني عام 1899

بعد أن تمّ القضاء على الثورة المهدية في السودان، فرضت بريطانيا على مصر أن توقع في الإتفاقية الثانية عام 1899م. أعدّ اللورد كرومر، المندوب السامي البريطاني في مصر، إتفاقية حكم السودان. وقد عرفت 'إتفاقية الحكم الثاني للمصري الإنجليزي'. كانت هذه الإتفاقية تضمّ الأمور عن أوضاع إدارة السودان. ادّعت بريطانيا أنها ساعدت مصر في إستيلائها الثاني على السودان منهية الحكم المهدى، وشاركت بقواتها في إعادة السودان تحت سيطرتها. ولذلك يجب أن تكون شريكة في إدارة هذا البلد-السودان- رغم أن ضباط البريطانيا وجنودها الذين شاركوا في هذه الحملة شاركوا كأنهم موظفين في الجيش المصري وليس كجنود بريطانيين.

أهم بنود الإتفاقية الثانية في السودان

- يتولّى إدارة حكم السودان حكمدار عام، تقترح بريطانيا تعيينه، وخديوي مصر يصدر قرار تعيينه. ولا يجوز أن يعزل حكمدار إلا بأمر الخديوي مصر وبرضاء الحكومة البريطانية.
- يرفع العلمان المصري والبريطاني معا على المباني الحكومية في السودان.
- لا تسري على السودان أي قوانين مصرية كما أنه من حق حكمدار مصر إعادة النظر في القوانين المعمول بها في السابق.

- لا يجوز تعيين قناصل أو ممثلين لدول أخرى، أو يسمح لهم بالإقامة إلا بعد مصادفة الحكومة البريطانية.

وهكذا وقعت السودان تحت السيطرة الفعلية لبريطانيا منذ عام 1899م وأصبح في حقيقة الأمر مستعمرة بريطانية .

السودان الانجلو المصري (الحكم الثاني للسودان من عام 1899-1914)

أصبحت السودان تحت حكم الانجلو المصري نتيجة لاتفاقية الثانية بين مصر والبريطانيا. تولى حكم السودان حكمادار عام، عينته الحكومة المصرية بموافقة البريطانية. وهكذا أصبح لورد هربرت كشرنر الذي أعاد حكم السودان من الحكومة المهدية حكمادار السودان وتمّ بيده كافة السلطات واستمر في منصبه حتى نهاية عام 1899. ثمّ خلفه السير ونجت الذي حكم السودان حكما مطلقا واستمر في منصبه حتى قيام الحرب العالمية الأولى. طار علمان المصري والبريطاني على المباني الحكومية السودانية رمزا للإستيلاء الكامل للدولتين. ولكن في الحقيقة كانت بريطانيا تشكل مستقبل السودان وكان الصوت المصري في حكم السودان يقي إسميا.

كان الحكم الداخلي والعسكري في أيدي الحكمادار الذي اختاره بريطانيا، وكان قانون المصري غير قيمة في السودان. لم تكلف الحكومة الرسوم على السلع المستوردة من مصر ومنعوا تجارة الرقيق. فاضت الأسلحة والسكر إلى السودان. وكان من المؤكد أن الحكم المطلق في السودان هو تحت إدارة البريطانية مع أن العلمان البريطانية ومصر كانتا تطيران فوق المباني الحكومية السودانية.

كانت بريطانيا شديد الترقق لأن يقلب وحدة وادي النيل تحت قيادة مصر. وكذلك لعبت بريطانيا دورا كبيرا في تقسيم السودان إلى منطقتين؛ السودان الشمالي للمسلمين والسودان الجنوبي للمسيحيين منذ عام 1924 إلى إستقلاله في العام

1956م. فقد جعلوا جنوب السودان منطقة مقفولة بنص قانون إسمه قانون المناطق المقفولة يمنع دخول السودانيين الشماليين والمصريين إليها إلا في مهام رسمية أو بتصريحات خاصة، بينما كفلت الحرية التامة للدخول إلى الجنوب والتجول فيه للأوروبيين. وحظر على الجنوبيين محاكاة الشماليين في الزي أو نمط الحياة. ويُعد هذا القانون من أهم وسائل الفصل وعدم التمازج الحرّ بين الشماليين والجنوبيين إبان الحكم الثنائي. أهملوا الجزء الجنوبي من السودان في كل مجالات التطور. وشجّع البريطانيون الطائفية وروح القبيلة بين السودانيين وفتحوا المجال للبعثات التبشيرية، وأخذت تنشر المسيحية وبدؤوا أن يحارب الإسلام ووضعوا الحد في النشاطات الإسلامية. وقد عيّنت المشروعة الجنوبية في السودان الطرق التي تنفذ خلالها مشروعه الجنوبي. يقول تقرير سكرتير المدني عام 1930 "هو العودة إلى القوانين القبلية والعادات، العودة إلى الحياة العائلية القبلية، العودة إلى اللغات الأهلية وتشجيع اللغة الإنجليزية والحملة على اللغة العربية والأسماء العربية والحملة على العادات الشمالية والحملة على الزي العربي وإزالة المأثورين الشماليين وتشجيع التجار الإغريقين والسوريين وإزالة التجار الشماليين من المناطق الجنوبية¹. سيطرت بريطانيا على النشاط الزراعي في السودان واستعملته لخدمة أغراضها ومصالحها، واحتكرت بريطانيا تجارة المحاصيل الرئيسة في السودان أمثال تجارة القطن والصمغ.

ومع ذلك كانت هناك بعض الأعمال الإصلاحية التي أجرتها الحكومة البريطانية في فترة الحكم الثنائي. أقاموا الإدارة البريطانية بتنظيم الأمن، وبنوا عددا من المدارس وفتحوها. فتحت كلية غوردون التذكارية، التي أصبحت فيما بعد جامعة الخرطوم الحالية. وحسّنوا سبل المواصلات، بإدخال السكك الحديدية، كما اهتمت بالزراعة، وشيّدت خزان سنار²، وجهّزت مشروع الجزيرة¹، وشجعت قيام المشاريع

¹ Kinship and the performance of Sudanese identities, Rebecca . M. Lorins, University of Texas, Austin, 2007

² هو سدّ ماني يقع في نهر النيل الأزرق أحد أكبر فروع نهر النيل. وقد تمّ بناءه في عام 1925م. تعتبر محطة توليد خزان سنار من أهم وأقدم محطات توليد الكهرباء في السودان

الزراعية المروية بالمضخات على النيل، وأنشأت المستشفيات، وأدخلت المياه والكهرباء في المدن الكبيرة، ورفعت من مستوى المعيشة في البلاد. وكان الغرض الأساسي من مشروع الجزيرة زراعة القطن لتزويد مصانع النسيج البريطانية في لانكشاير بالقطن لغزله ونسجه وبيع أقمشته. وكان معظم ما ذكر، على قلته، في شمال السودان، لايمثل بعضه شيئاً في الجنوب سوى مشروع الزاندي³.

مقاومة السودان على الحكم البريطاني

لم يستسلم السودانيون للحكم الثاني من مصر والإنجليز. ثاروا ضد هذا الحكم البريطاني وسياستها. قاد عبد الكريم حركة المقاومة ضد البريطانيين عام 1900 ودعا السودانيين إلى العودة إلى المهديّة ومبادئها. ولكن السلطات البريطانية إعتقله وبعض مؤيديه. وفي نفس العام حدث عصيان عسكري قام به الجنود السودانيون احتجاجاً على تصرفات ضباطهم. ثم ظهرت فئة المتعلمين الذين أنشأوا بعض الجمعيات السرية المناهضة للإنجليز وشكلوا جمعيتين وطنيتين مثل جمعية الإتحاد وجمعية اللواء الأبيض.

جمعية الإتحاد

هي جمعية سرية شكلها بعض الخريجين الجامعيين وبعض الشباب الذين تأثروا بمبادئ الثورة 1919 في مصر. بدؤوا يوزعوا المنشورات التي تبين فيها عن مظالم الحكم البريطاني وتندد سياسة الإحتلال البريطاني في السودان.

³ يقع مشروع الجزيرة في وسط السودان بين النيلين الأزرق والأبيض، وهو ممتد من منطقة سنار إلى جنوب الخرطوم. وأنشئ هذا المشروع في عام 1925م لإمداد المصانع البريطانية بحاجتها من خام القطن الذي جعل إقتصاد السودان بعد الاستقلال فقيراً.

⁴ هو مشروع زراعي يقع في مديرية جوبا.

جرت هناك بعض المفاوضات بين بريطانيا ومصر بعد الحرب العالمية الأولى وأصرّت بريطانيا على فصل قضية السودان عن المسألة الشرقية¹. ولكن مصر كان يريد أن يرجى قضية السودان إلى حين الوصول للنتيجة حاسمة بشأن المسألة المصرية. وفي فبراير 1922 قد نصّت هناك صراحة لبقاء الحكم الثنائي في السودان وأن يعطي سلطان مصر لقب 'ملك مصر والسودان'. ولكن بريطانيا حاولت أن تعطي بعض السلطان والحكم للقبائل السودانية واهتمت بتدريب السودانيين لإشراكهم في الحكم وأخذت تدعوا المبدأ السودان للسودانيين. ولكن المثقفون السودانيون أدركوا جيدا أن البريطانية تحاول أن يلعب لعبا في إنشقاق المجتمع السوداني، فقاموا مع مصر وربطوا قضية بلادهم بقضية بلاد مصر واصلوا مفاوضاتهم ضد الحكم البريطاني.

جمعية اللواء الأبيض

هذه الجمعية أسسها علي عبد الحليفي سنة 1924م واشتغلت في نضالها ضد الحكم البريطاني وقامت في نضالها مع الشعب المصري. عقدت مظاهرات معادية للإنجليز وعمت هذه المظاهرات معظم أنحاء السودان وأعلنت تعاونها مع القضية المصرية المرتبطة بقضية وطنها.

وفي 19 نوفمبر 1924م قتل الثوار السودانيون حاكم السودان الإنجليزي السير لي سنّاك قائد الجيش المصري وحاكم السودان العام أثناء قضاء إجازته في القاهرة. إستغلت بريطانيا هذه الحادثة وطلبت المصّر أن تجلي جيشها من السودان. كوّنّت بريطانيا قوة دفاع تتضمّن رجال السودانيين. ولكن السودانيين إشتبكوا مع الإنجليز. ولما شدت معارضة جنود السودانيين قامت السلطات البريطانية ضدهم وأعدموها

¹ المسألة الشرقية هي مسألة وجود العثمانيين المسلمين في أوروبا وطردهم منها واستعادة القسطنطينية من العثمانيين بعد سقوطها في 1453 وتهديد مصالح الدول الأوروبية في هذه المنطقة. كما يدل المصطلح على تصفية أملاك رجل أوروبا المريض في الثقلان من طرف الدول الأوروبية.

عددا من ضباطهم، وبدأت بريطانيا أن يثبت أقدامها في السودان. أعطت السلطات البريطانية بعض السلطات للإدارة الأهلية والقبلية. وزاد هذا الأمر ضغط المتقنين.

قيام مؤتمر الخريجين

بدأ البريطانيون أن يدخل المتعلمين السودانيين في مختلف الإدارات المحلية منذ عام 1937م، فأدرك البريطانيون عن الفروق الواضحة بين السودانيين والبريطانيين. وساحت بريطانيا أن تقيم بدار للثقافة. ثم حوّلت هذه الدار إلى منتدى التي جمع فيها الخريجون السودانيون وتبادلوا آرائهم. ولكن الخريجين لم يكتفوا بهذه الحاجة، كانوا يأملون لأن يقيموا بعض الأعمال الاجتماعية لمصلحة وطنهم. فظهرت بينهم فكرة لعقد مؤتمرا للخريجين السودانيين. عقد المؤتمر في فبراير عام 1937م، وتبنى المؤتمر بعض الأهداف الاجتماعية مثل رفع شأن التعليم وتحسين أوضاع السودان الاقتصادية واستخدام السودانيين في الوظائف العامة. وبدأ مؤتمر الخريجين أن يطالب إستقلال السودان بالطرق السلمية، ونشأت الأحزاب من داخل المؤتمر، وانقسم السودانيون إلى إتحاديين يرون إقامة إتحاد مع مصر مع وجود السودان مستقلا، وهذا هو الحزب الوطني الاتحادي. وفي الجانب الآخر الإستقلاليون الذين يقودهم حزب الأمة وكان ينادي بالإستقلال التام. كان السيد علي الميرغني يرعى زعيم الطائفة الختمية، ويتزعم الحركة السياسية في حزبهم السيد إسماعيل الأزهرى. أما في الجانب الآخر فكان راعي حزب الأمة هو السيد عبد الرحمن المهدي، ابن الإمام المهدي مفجر الثورة المهديّة.

اللقاء الوطني

بعد مؤتمر الخريجين عام 1937م إلتقى الخريجون السودانيون بزعامة السيد إسماعيل الأزهرى بالسيد علي الميرغني زعيم الطائفة الختمية وبالسيد عبد الرحمن المهدي ابن محمد أحمد المهدي، مؤسس الحركة المهديّة في السودان.

وعندما بدأ الخريجيون العمل في الحقل السياسي، حصلت لهم كلّ الدعم والمساندة من القوى الشعبية التي تنتمي إلى عبد الرحمن المهدي وعلي الميرغني. طالب الخريجون في زعامة هذين الشخصين خلال الحرب العالمية الثانية للملك فاروق حاكم المصري لإعلان الإستقلال لمصر والسودان بعد الحرب العالمية الثانية. ولكن بريطانيا إستكرت هذه الحاجة من السودانيين وأمرت للخريجين أن لا يشتغلوا في الأمور السياسية. بعد قيام ثورة يوليو عام 1952 في مصر سافر المهدي ومعهم بعض السودانيين إلى القاهرة، عاصمة مصر للتفاوض بشأن السودان واتفقت هذه المفاوضات بين السودان ومصر على إعطاء السودانيين حق تقرير مصيرهم عندما يختتم فترة الحكم الثاني في السودان. أدى اللواء محمد نجيب، رئيس جمهورية مصر آنذاك، دورا مهما في توحيد رأي الأحزاب السودانية في مستقبل السودان، بقبولها إجراء انتخابات لفترة إنتقالية لثلاث سنوات يجلو فيها الجيشان البريطاني والمصري عن السودان، ويقرّ بعدها السودانيون مصير بلادهم السياسي، إمّا أن تستقلّ السودان تملأ أو أن يوافق وحدته مع مصر.

معاهدة 1953

عقدت مصر وبريطانيا معاهدة بينهما عام 1953 لأخذ القرار في أمر السودان. وقّعت هذه المعاهدة بعض القرارات المهمة في هذا الأمر. منها:-

- 1- تبدأ فترة إنتقالية لا تتجاوز 3 سنوات، تجري خلالها إنتخابات تشرف عليها لجنة محايدة.
- 2- يتولّى البرلمان الذي ينبثق عنها تقرير مصير السودان، إما الارتباط بمصر، أو الإستقلال عنها.

وعلى أساس هذه المعاهدة عقدت الإنتخابات في السودان

عام 1953م، وفاز الإتحاديون بأغلبية مقاعد البرلمان، وشكلوا أول حكومة سودانية برئاسة السيد إسماعيل الأزهري. وأعلن البرلمان في اليوم الأول من يناير 1956م. وعلى أساس

هذه المعاهدة قرّر البرلمان السوداني إستقلال السودان عام 1956م وأعلن قيام جمهورية السودان.

إنقلاب 1958

عاش السودان في فترة من الزمان في الصراع بين الأحزاب السياسية منذ أن أعلن الإستقلال وجمهورية السودان. أدى الإعلان عن الجمهورية السودانية إلى إنشقاق الحزب الختمية. خرجوا عن الحزب الوطني الاتحادي، وأنشأوا حزبا جديدا باسم 'حزب الشعب الديمقراطي' تحت رعاية السيد علي الميرغني، ورئاسة السيد علي عبد الرحمن الضيرير. وإن كانت الحكومة المصرية آنذاك قد وافقت على الإستقلال، فإن ذلك الإعلان أدى إلى برود وانشقاق في العلاقات السياسية السودانية والمصرية، زاد من حديته نعثر المفاوضات حول مياه النيل وتحرك المصري نحو بناء السد العالي به. ثم إنشق الحزبان؛ الحزب الأمة وحزب الشعب الديمقراطي في حكومة بعد إسقاط حكومة الحزب الوطني الاتحادي. ورأس الحكومة الأمير عبدالله خليل. ولكن عندما ضعفت هذه الحكومة وآلت للسقوط دعا رئيسها الجيش سرا للإستيلاء على السلطة في 17 نوفمبر 1958م بقيادة الفريق إبراهيم عبود، القائد العام للقوات المسلحة السودانية. فتولى إبراهيم عبود مهام السلطة في السودان وتعاونته في هذا الأمر بعض من الضباط السودانيين وبدأت الحكم العسكري تحت قيادته. حكمت حكومة الفريق عبود السودان حكما عسكريا بديمقراطية رمزية ممثلة في المجلس المركزي الإنتقالي وذلك حتى أكتوبر 1964م، حين سقطت بثورة شعبية عرفت بثورة أكتوبر الشعبية التي تعاون فيها بعض ضباط الجيش. وبدأت هذه الحكومة العسكرية أن تعمل في مجال الإقتصاد والتعليم والإجتماع في أول الأمر. إن هذه الفترة شهدت بناء الخطوط الحديدية، والطرق البرية. أخذت أن تنهض بالتعليم وعملت على توسعه وتسليح الجيش وتنعش الإقتصاد. وحسنت العلاقات السياسية السودانية المصرية بتوقيع إتفاقية مياه النيل التي ترتب عليها مضي مصر قدما نحو بناء السد العالي. ومع هذه

الأمور الإيجابية من قبل هذه الحكومة العسكرية، بغضها الشعب والزعماء الوطني إذ أن سيطرتها العسكرية اتخذت عدة إجراءات تعسفية ضد الزعماء الوطنيين. فبدأوا أن يتمردوا ضد حكم فريق عبود، وبدؤوا أن يصيحوا صيحات لأن يعيد الحكم الدستوري والحكومة المدنية.

ثورة أكتوبر 1964

عندما اشتدت إجراءات تعسفية من قبل الحكومة العسكرية ضد الزعماء الوطنيين والشعوب السوداني، هبّ الشعب السوداني في كل إشكاله من المجتمع؛ من الهيئات الاجتماعية والسياسية والطلابية ضد هذه الحكومة عام 21 أكتوبر 1964. وطالبوا لإستقال هذه الحكومة العسكرية التي تعامل معاملة معادية للشعب السوداني، ورفض الجيش الرضوخ لأوامر الحكومة بتفريق المتظاهرين. في هذا الحال اضطرت الحكومة إلى التنازل عن الحكم وأجريت إنتخابات جديدة. عقدت انتخابات عامة وأثمرت في نهاية الأمر عن قيام حكومة ائتلافية بين الحزب الوطني الاتحادي وحزب الأمة. فصار السيد إسماعيل الأزهرى رئيسا للدولة بوصفه رئيسا لما كان يعرف بمجلس السيادة، بينما صار الأستاذ محمد أحمد محبوب رئيسا للوزراء ممثلا لحزب الأمة. وكان ذلك لفترة قصيرة، وخلفه بعدها السيد الصادق المهدي، ابن حفيد الإمام محمد أحمد المهدي. وإن كانت هذه الفترة شهدت ازدهارا اقتصاديا جيدا، إلا أنها تميزت بالاضطراب السياسي أيضا. طرد أعضاء الحزب الشيوعي من البرلمان. فاشتركوا في انقلاب مايو فيما بعد الذي أدى إلى تعديلات مؤثرة في الدستور. وتميزت هذه الفترة أيضا بعدم التعاون بين السيد إسماعيل الأزهرى والسيد الصادق المهدي، أثمر عن سقوط رئاسة السيد الصادق المهدي والشقاق في حزب الأمة بين جناحي الإمام الهادي والسيد الصادق المهدي وعودة الأستاذ محمد أحمد محبوب لرئاسة الوزارة مرة أخرى ممثلا لجناح الإمام الهادي.

مشكلة الجنوب

تعرّضت السودان لكثير من المشاكل بعد إستقلالها ومنها مشكلة الجنوب. قام الجانب الجنوبي من السودان أن يتحرّك سياسيا تهدف إلى تقرير مصيره. كانوا يهدفون إلى فصلو السودان الجنوبي من السودان ثم إستقلالها أو إنضمامها إلى أوغندا عملا بوحدة الجنس الزنجي. تشكلت في الجنوب عدة أحزاب سياسية مثل 'حزب السانو'¹ و'جبهة الجنوب'. طلب زعماء هذه الأحزاب تمثيل ثلث الوزراء منهم في الحكومة السودانية.

عزمت الحكومة السودانية أن تعطي للجبهة الجنوبية من السودان حكما محليا داخل إطار الوحدة الوطنية والسياسية للجمهورية السودانية. ولكن حزب السانو وجبهة الجنوب طلبت للإستقلال التام بتحريض من القوات الإستعمارية التي حاولت أن تخلق المشكلات الداخلية في السودان. ولكن حكومة السودان واجهت هذه المشكلة عسكريا وطاردت زعمائها إلى كونغو والحبشة .

ثورة 1969

قام اللواء جعفر النميري بثورة عام 1969، وتولى على أثرها الحكم السوداني. واستطاع أن يأتي بمشكلة الجنوب إلى نهايتها على أساس إعطائه الحكم الذاتي داخل الوحدة الوطنية واتجه السودان في عهده إلى طريق التكامل الإقتصادي والبرلماني. إستمرّ النميري رئيسا للسودان حتى تفجّرت به ثورة شعبية عام 1985م. حكمت

⁽¹⁾ بداية تأسيس الحزب كانت في عهد الرئيس إبراهيم عبود (1958-1964) التي اتجهت للحسم العسكري ونشر اللغة العربية والإسلام، ونتيجة لذلك هاجر أعداد من أبناء الجنوب إلى أوغندا وإثيوبيا وكينيا، وكونوا رابطة المسيحيين السودانيين والاتحاد السوداني الأفريقي الوطني لجنوب السودان المعروف باسم "ساكندو". تولى وليام دينق سكرتارية حزب ساكندو الذي تغير اسمه عام 1963 إلى حزب "سانو"، وكان نشاطه يقتصر على إرسال العرائض إلى منظمة الوحدة الأفريقية والأمم المتحدة ومختلف المنظمات، مستعرضا لأحداث الجنوب وداعيا لمساعدة اللاجئين ومطالبيا باستقلال جنوب السودان. ولقد انقسم حزب سانو إلى جناحين، أحدهما بقيادة وليام دينق، وتميل أطروحاته إلى الوحدة. والثاني بقيادة آفري جادين وله ميول انفصالية.

السودان من خلال إنتلافات حزبية حتى قام الجيش السوداني بقيادة عمر البشير بثورة بونيو عام 1989 التي إستولى بعدها على السلطة.

إنفصال السودان

قامت السياسات الاستعمارية أن تظهر الاختلافات اللغوية والدينية والعرقية وفرقت التعامل مع الجنوب والشمال في السودان. وبعد جلاء البريطانيا من السودان عام 1956 طالب الجنوبيون أن يكون لهم نظام خاص أو نظام فدرالي داخل الدولة السودانية الموحدة. ولكن الحكومة رفضت هذا الاقتراح لأنها وجدت أنه سيحصل في إنفصال الجنوب. ففي أغسطس 1955 تمرّد بعض أعضاء الفرقة الجنوبية من الجيش السوداني ضدّ الشمال. لأنهم كانوا في الشكوك على سياسات وزارة إسماعيل الأزهري. وفي عام 1957 بعد تولي إبراهيم عبود سلطة السودانية قامت حكومته أن تتبع سياسة اللزبيب بالقوة مع الجنوبيين. ونتيجة لهذا طالبت الأحزاب الجنوبية وعلى رأسهم 'حزب سانو' باستقلال الجنوب. وكذلك شكل الجنوب حركة 'أنانيا'⁽¹⁾ وبدأت هذه الحركة عملياتها العسكرية في عام 1963. وعقد مؤتمر المائدة المستديرة عام 1965 في هذا الأمر. وفي عام 1972 تم توقيع إتفاقية 'أديس أبابا'⁽²⁾ وأعطت هذه الإتفاقية للإقليم الجنوبي الحكم الذاتي في إطار السودان الموحّد. ولكن في يوليو وسبتمبر من عام 1983 أصدر الرئيس جعفر النميري عدّة قرارات. ومنها تقسيم الإقليم الجنوبي إلى ثلاثة أقاليم ونقل الكتبية وبعض الجنود إلى الشمال. وكذلك إتهم نميري قائد هذا الجنود 'كارينو كوانين' باختلاس الأموال. فأرسل الجيوش لإخضاع جنوده. ولكن الكتبية هربت إلى الغابات الإستوائية وأصبحوا فيما بعد قوّة جيش الرب³. فكلّف النميري جون قرك أن يخضع هذه الكتبية، ولكنه أعلن عن إنضمامه إلى التمردين وأسّس الحركة الشعبية لتحرير السودان مع جناح عسكري. وأعلن أن

⁽¹⁾ ولقد تشكلت حركة أنانيا في العام 1977 بقيادة العميد فست كوني وثانيه قيريال جيمس بول.

⁽²⁾ عاصمة إثيوبيا

⁽³⁾ هي حركة تمرّد مسيحية في شمال أو غندا مسلحة. أسّست الحركة عام 1986 على يد جوزيف كوني. واخذت أن تنتشر في أطراف شمال شرق جمهورية الكونغو الديموقراطية وفي أفريقيا الوسطى وفي جنوب السودان منذ عام 2005.

هدف هذه الحركة هي تأسيس سودان علمانيّ جديد التي تقوم على المساواة والعدل الإقتصادي والاجتماعي داخل سودان موحد. وحصلت هذه الحركة دعما من البلاد الإفريقية المختلفة أمثال إثيوبيا وكينيا.

جرت إنتفاضة شعبية عام 1985 وحاولت الحكومة الجديدة تحت الصادق المهدي للتوصل إلى إتفاق مع جون قرنك عام 1986، ولكنها فشلت. وفي عام 1988 وقع إتفاق بين قرنق ومحمد عثمان الميرغني في أديس أبابا. ولكن هذا الإتفاق أيضا فشل في أن يجد سبيله إلى تنفيذه بعد إنقلاب يونيو 1989 بقيادة عمر البشير التي صاحبت لشعارها 'الجهاد الإسلامي' ضدّ القوى الجنوبية. وفازت هذه الحكومة العسكرية بعدة إنتصارات عسكرية ضدّ القوات الجنوبية.

وفي عام 1991 سقطت حكومة أثيوبيا التي كانت تدعم حركة جون قرنق وانشقت هذه الحركة الشعبية. فحاولت الحكومة لأن تستفيد من هذه الحالة، وأجرت إتصلا منفردا مع لام أكو⁽¹⁾ ووقعت وثيقة عرفت بإسم 'وثيقة فرانكفورت' في يناير عام 1992. ولكنّ الحكومة السودانية أنكرت هذه الإتفاقية فيما بعد. وفي مايو 1992 أجريت جولة للمفاوضات في أبوجا⁽²⁾ تحت رعاية الرئيس النيجيري ثمّ الجولة الثانية في مايو من عام 1993. ولكنّ هذه المفاوضات لم تجد أية نتائج إيجابية. ثمّ جرت الجهود الدولية من قبل منظمة الإيغاد³. وتمّ توقيع إتفاق إطاريّ يسمّى 'بروتوكول ماشاكوس'⁴ في يوليو 2005. وعلى أساس هذه الإتفاقية منح الجنوب بحكم ذاتيّ لفترة إنتقالية مدتها سنة أشهر ومنح بحقّ تقرير مصيره وبفرصة للتفكير في الانفصال. وفي 9 يناير 2005 وقعت

⁽¹⁾ الدكتور لام أكوأوين زعيم ومؤسس حزب الحركة الشعبية لتحرير السودان. وكان وزير الخارجية السابق لجمهورية السودان منذ سبتمبر 2005 إلى أكتوبر 2007.

⁽²⁾ عاصمة جمهورية نيجيريا الاتحادية.

⁽³⁾ IGAD (Inter Governmental Authority on Development) وقد أسست هذه المنظمة عام 1986. ومن أعضائها

جيبوتي، إرتريا، إثيوبيا، كينيا، صومال، السودان وأوغندا.
⁽⁴⁾ هي مدينة في كينيا.

الحكومة السودانية والحركة الشعبية لتحرير السودان إتفاقية السلام الشامل في نيفاشا¹. ومن أهم بنودها:-

- حق تقرير المصير للجنوب عام 2011.
 - إجراء إنتخابات عامة على كافة المستويات في مدّة لا تتجاوز عام 2009.
 - تقاسم السلطة بين الشمال والجنوب.
 - تقاسم الثروة.
 - إدارة المناطق المهمشة بين الشمال والجنوب.
 - الترتيبات الأمنية.
- حسب هذه الإتفاقية أجري الإنتخاب في السودان وشارك 98% من الأربعة ملايين جنوب السودان في التصويت واختاروا الإستقلال عن الشمال. وأعلن جنوب السودان كدولة مستقلة في يوليو 2011.

⁽¹⁾ مدينة إقتصادية في كينيا.

الطيب صالح و"موسم الهجرة إلى الشمال"

مشاعر العرب ضد الإستعمار كما تظهر فيها

دراسة نقدية

أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها

قدّمتها

حسينة. ب

تحت إشراف

بروفسور الدكتور أحمد إبراهيم رحمة الله

الرئيس السابق (المتقاعد)

قسم اللغة العربية بجامعة كاليكوت



قسم اللغة العربية

جامعة كاليكوت

كيرلا ، الهند

2012م

الفصل الثاني

الأدب العربي وتطوّره في السودان

يحتفل السودان بتاريخ حافل في الأدب قبل أن تصبح الكتابة الأدبية كالقصة ولرواية والقصة أديبة معروفة. كان الأدب السوداني مملوئاً بالقصص الشفوية والأشعار البيانية التي كانت تنقل شفويا من واحد إلى الآخر ومن جيل إلى جيل آخر في صورة حكايات وقصائد.

وميزة هذه الحكايات الشفوية أنها كانت ذات البعد البطولي المرتبط بالفرسية وقيمها وأنها كانت تبين مغامرات الرجال العظام وتوضّح بيانات بعض الحروب الشجاعة. أي أن معظم هذه القصص كانت تصوّر حياة بعض الرجال العربي القدماء. وهناك بعض القصص تدور حول حبكة دينية تتركز على الأعمال الحسنة والجريئة من أيدي الرجال العامين والصوفيين. وكذلك هناك بعض القصص التي تدور حول ثناء علي بن أبي طالب(ر) رابع الخلفاء الراشدين، وتعرف هذه القصص باسم 'سراط العلي القرار'. ومن خصائص هذه القصص البيانية أن أكثر منها كانت تتميز بالزخرفة والمبالغة وتصور أشخاصها المركزية كأشخاص مغامرين وشجاعين.

وكذلك هناك بعض القصص التي تبين وتصور حياة المجتمع السوداني في قراها ومدنها. تدور هذه القصص حول حبكة علمانية وتسمى هذا النوع 'بالأحاجي'. ومن ميزة هذه القصص أنها كانت تروى من أعضاء الكبار في المجتمع إلى صغارهم. وأكثر هذه القصص كانت تدور حول المناطق الريفية في السودان حيث كان التعليم محدودا وكان رقص الحياة هادئا. وهي مشحونة بالأجواء السحرية والغرائبية المتداخلة مع الواقع عبر خوارق الأولياء وصلاحيهم وقدرهم فوق الطبيعة وهي مملوءة بالمناظر الخيالية والخرافات التي تصوّر خلالها ملكات الجان والماردين الخارقة والسحرية،

وأكثر هذه الحكايات منتهية بنهاية سعيدة. "الأحاجي قصص شعبية متداولة بين الناس كثرات يتبادلونه جيلا عن جيل ولا يعرف مصدرها أو تاريخها، فهي قصص شعبية تحكي كمصدر متعة وسمر يكون عادة عدد من الأطفال في أعمار مختلفة بين المسمعين"¹

ومن أشهر هذه القصص المسماة بالأحاجي قصة 'أم توب بني' و'فاطمة السمحة'. فاطمة بطلة هذه القصة، هي من أجمل بنات في القرية. قدم كثير من الرجال إليها في طلب يديها لزوجها، ولكنها رأت كلا منهم غير مناسباً لها. ذات يوم خطفها غول كبير وأصبحت سجيناً عنده. وعندما إنتشر خبر سجنها في البلد وصل هذا الخبر إلى ملك شاب وسيم. وعزم هذا الملك أن ينجي فاطمة من هذا الغول وأنجاها من سجنه. وبعد ذلك وقعت فاطمة في الحب مع هذا الملك وتزوجته. هذه القصة المشهورة عن فاطمة الجميلة شائعة في البلد حتى الآن.

وهناك بعض القصص تأتي في صورة نظمية. ومن هذا النوع قصة 'مغامرة هميانا'. هميانا هو مجموع من السارقين، كانوا يهيمون ويتجولون في صحارى السودان. ومع أن حياتهم كانت سيئة وغير قانونية، كان لهم مكانا عاليا في قلوب الناس وكانوا يعتبرونهم شجاعين وجريئين. يمكن لنا أن نشبه هؤلاء السارقين بروبين هود، السارق المشهور في الأدب الغربي، وكذلك يمكن لنا أن نشبههم بالشعراء الصعاليك في الجزيرة العربية الذين عاشو في الفترة الجاهلية. كانوا لصوصا يقطعون الطرق وابن السبيل ونظموا الشعر ينتقدون فيه مجتمعهم الذي جعلهم منبوذين ومشردين فيه. والنوع الآخر من القصص النظمية تنتهي إلى هذا المجموع هو الذي يعرف بإسم 'المديح'. وهي تدور حول مدح النبي (ص)، والمديح كان أكثر شائعا ومشهورا في جنوب السودان وشماليها. هذا هو الأمر في مجال الأدب الشفوي في السودان.

⁽¹⁾ الأدب الشعبي في السودان - عز الدين أحمد حسن سليلي

أما الكتابة الأدبية في الأدب السوداني بدأت في فترة حكم الفونج. وحتى تلك الفترة كان الأدب السوداني مملوءاً بهذه القصائد والقصص والحكايات الشفوية. وكان للسودان ثروة هائلة متوارثة في الأدب الشعبي في كلتا اللغة العربية الفصحى واللغات المحلية السودانية. ووصل أول شعر عربي فصيح في هذه الدولة في السودان بين فترة 1550-1821م. وتعتبر هذه الفترة ميلاد وبداية للثقافة العربية في السودان. والشعراء في هذه الفترة كانوا من أهل التصوف، وشعرهم كان تختلط فيها اللغة العامية والفصحى وأغراض الشعر كانت منحصرة في مدح الرسول (ص) ورثاء المشايخ وأكثرها كانت تميل إلى النزعة الصوفية.

ثم تظهر فترة الحكم التركي في السودان وفيها نجد الشعراء مثل 'الأمين محمد العزيز' الذي مدح الخديوي إسماعيل في صحيفته 'الوقائع المصرية' ونال عليها جائزة حيث تعينه رئيس علماء السودان. يقول الشاعر:-

الودّ مآدبة والصدق إخوان

والصادقون لدى الآداب إخوان

أشعارهم ذات إشعار بحالهم

فهي الشعار خطوا في الوصل أو بانوا.

وفي فترة الدولة المهدية (1881-1885) كتب الشعراء

عن إنتصارات المهدي وعن الدعوة إلى الجهاد. ومن شعراء هذه الفترة 'الشيخ المحجوب' و'الشيخ عثمان الميرغني' و'محمد طاهر المجذوب' و'عبد الغني السلاوي' و'محمد عمر البنا'. ومن نماذج الشعر هذه الفترة:-

الحرب صبر واللقاء ثبات

والموت في شأن الإله حياة

الجنين عار والشجاعة هيبية
للمرء ماقرنت بها العزومات
والصبر عند اليأس مكرمة
ومقدام الرجال نهابه الופعات.

ثم بدأ التحول في الأدب السوداني من الصورة الخطيئة إلى الصورة الطبيعية منذ أوائل النصف الثاني للقرن العشرين. منذ هذه الفترة بدأ ظهور ديار الطباعة في السودان. وبهذا التحول وجدت كثيرة من القصائد البيانية والقصص الشفوية طريقها إلى طبعتها. هنا جدير بنا أن نشير أن هذه الفترة كانت فترة الحكم الثاني في السودان (1899-1914) وكان للقسم البريطاني صحيفة تصدر بالإنجليزية تسمى 'أخبار دنكولا'. ثم أنشئت في الخرطوم صحيفة رسمية، أشرف عليها قلم المخابرات وكانت إسمها 'جريدة السودان' التي صدرت أول مرة عام 1903م. كان محرروها الأوائل من المهاجرين المستوطنين لمصر. وكانت هذه الجريدة تصدر مرة خلال الأسبوعين في كلتي اللغة العربية والإنجليزية. يقول الدكتور عبد الله الطيب "ومن آثار هذه الجريدة، مما أيدينا الآن كتاب صغير يدعى 'حكاية الملك ازاد بخت'. وكان هذا الكتاب ينشر في هذه الجريدة في صورة مقالات متتابعة. ثم طبعته مطبعتها عام 1904، وكان هو أول كتاب عربي طبع في الخرطوم في هذا القرن. وهذا الكتاب يتضمن قصة معربة عن الهند ستانية. إدعى تعريبها مدير المخابرات حينئذ الكباشي أمري"¹.

ولكن تأثير 'جريدة السودان' كان أقل على نشأة الأدب السوداني لأن محرري هذه الجريدة نشروا فيها الكتابات التي قررها وعيها الحكام. وكانت هذه المنشآت تكتب أولاً في العربية وثانياً تنقلها إلى الإنجليزية كي يفهم الإنجليز عما كتب فيها. وكانت هذه الجريدة جريدة رسمية آنذاك وكانت تنشر الأنباء والأخبار حسب جهة

⁽¹⁾ الإتحادات الحديثة في النثر العربي في السودان - الدكتور عبد الله الطيب - ص - 32

نظرهم الذين كانوا في الحكم. ولذلك كانت هذه الجريدة محدودة في وسعة يديها في نشر المواد الإنشائية الأدبية. وبهذا السبب لم يتمكن لهذه الجريدة أن تصبح خطوة كبيرة في مسير الأدب السوداني.

إختفت جريدة السودان, وخلفتها كثيرة من الجرائد الشبه الرسمية الأخرى, منها 'جريدة الحضارة' وجريدة 'ملتقى النهرين'. كان محرروهما نفر من السودانيين الذين تخرجوا في كلية غردون, أمثال الشيخ حسين الشريف والشيخ أحمد عثمان القاضي. "أول صحيفة سودانية وطنية هي جريدة 'حضارة السودان' التي أسسها عبد الرحمن المهدي سنة 1919 وتولى رئاسة تحريرها الأستاذ حسين شريف"¹. كانوا يكتبون في نطاق محدود, وكان أسلوبه في جملته سليما حسنا لا يخرج عن التقليد لما كان في الصحف المصرية آنذ.

ومن الجرائد السودانية التي كان لها تأثيرا عظيما على تطوّر الأدب السوداني جريدة 'الرائد' التي ظهرت سنة 1914م. كانت هذه الجريدة تصدر بكونها مجلة أسبوعية وجريدة إجتماعية. أسست هذه الجريدة على أيدي تاجر إغريقي الذي أنشأ مطبعا في الخرطوم, عاصمة السودان لأن يطبع جريدة إغريقية. فتقدّم إليه بعض من المفكرين السودانيين وسألوه أن ينشأ جريدة عربية من مطبعه. هكذا بدأ ظهور الجريدة الرائد. كان محررو هذه الجريدة نخبة من الأدباء أمثال يوسف الوهبي الأديب المصري, والعالم السوري فؤاد الكاتب الذي كان معلما آنذاك في كلية غردون في الخرطوم.

وبهذا التطور في مجال الطباعة والجرائد شاع الضوء على كثير من الأشعار الشعبية الشفوية والخطية وحولت كلها إلى صورة مطبوعة, خاصة الأشعار التي تدور حول الموضوع الذي يحمل الروح الدينية. ويقال أن الشعر كان النوع

⁽¹⁾ في الأدب السوداني الحديث - عبد المنعم عجب الفيا ، ص - 11

الأدبي الوحيد الذي كان موجودا في الأدب العربي في السودان حتى أوائل الثلاثينات في القرن العشرين.

الشعر العربي في السودان

وعندما نعدّ الشعراء السودانيين العربي نجد 'الشاعر محمد سعيد العباسي' و'الحدلو' يقومان أولا في هذه القائمة. وقد كتب بعض الأبيات في اللغة العربية المحلية السودانية فقط. وفي بداية القرن العشرين تبوأ الشاعر 'حمزة الملك طمبل' مكانا في الشعر السوداني خلال أشعاره المشهورة. صدر ديوانه الشعرية 'ديوان الطبيعة' عام 1931م. والشاعر الآخر هو التجاني يوسف بشير (1912-1938) وديوانه الشعري 'إشراقة' والشاعر الآخر هو 'محمد أحمد محبوب'. وكان هؤلاء الشعراء ينتزعون إلى النزعة الرومانسية.

وفي فترة الخمسينات والستينات ظهر عبد الله الطيب بدواوينه الشعرية 'أصداء النيل' (1957) و'اللواء الظافر' (1968) و'أغاني الأصيل' (1976) و'أربع دمعات على رحاب السادات' (1978). والجدير من الذكر عن الشاعر 'خليل فرح' مؤلف نشيدة الوطن السودانية وكثيرة من الأغاني الأخرى. وضع هذا الشاعر أساسا للأغاني القومية التي يرددها الأطفال والشبان على السواء.

وبإطلاع النصف الثاني من القرن العشرين ظهرت حركة الشعر الحر في الأدب العربي. وقد قاد هذه الحركة مجموع من الشعراء العباقرة أمثال محمد مفتاح الفيتوري الذي يعدّ من الشعراء المحدثين في العصر الحديث. نظم كثيرا من القصائد العربية الجذابة وبعض المسرحيات الشعرية. كان شاعرا دخل إلى مجال الشعر الحر، وقلّ ما نجد في دواوينه القصائد المقفيات التقليدية. ومن دواوينه المشهورة 'أغاني إفريقيا' و'عاشق من إفريقيا' و'أذكروني يا إفريقيا' و'سقوط الدبشليم' و'معزوفة لدرويش

المتجول' و'البطل والثورة والمشفقة'. ومن شعره 'أقوال شاهد إثبات' و'إبتسمي حتى تمر الخيل' و'عصفورة الدم'. وفي هذا المجموع من الشعراء الحرّ يشتمل الأسماء أمثال 'محي الدين الفارسي' و'جيلي عبد الرحمن' و'تاج السر حسن'. والشاعر السوداني الآخر هو المشهور 'بشرى الفاضل' الذي دوّن أشعاره في ديوان واحد بإسم 'قصائد الظل'.

والشاعر الآخر هو 'الصادق الراضي' المولود عام 1969م في أم درمان. ترجمت أشعاره إلى اللغة الإنجليزية. ومن دواوينه 'غناء العزلة' الصادرة عام 1996م. وعند الإضافة إلى هذه الأسماء هناك بعض الشعراء الآخرين أمثال 'نصر الحج' و'عفيف إسماعيل' الذي نشر أشعاره في مراجعة الأدبية 'كتب المراجعات اللندنية' في عنوان 'شعر النيل'. وكذلك هناك الشاعر 'سنعاء غفار' الذي يكتب شعره في العربية المحلية السودانية الشاعر وإدريس جماع (1922-1970) وديوانه الشعري 'لحظات باقية'.

وصفوة القول أن مجال الشعر العربي السوداني مملوء بالشعراء العباقرة والماهرين ومؤلفاتهم الجذابة. ولكن لا تسيل هذه الثروة الأدبية متجاوزة حدود بلدها إلى خارج البلدان العربيّة الأخرى والبلدان العالميّة.

القصة القصيرة في السودان

كان الأدب الشعبي نوعاً أدبياً مشهوراً في الأدب السوداني إلى أوائل الثلاثينات من القرن التاسع عشر. ومنذ تلك الفترة بدأ ظهور القصة القصيرة في الأدب السوداني. ربط كثير من باحثي الأدب ظهور الأنواع الأدبية في السودان عامة وظهور القصة القصيرة والرواية خاصة ببعض الأسباب والظواهر التي ساعدت تطوّر الأنواع الأدبية في السودان.

ومن هذه الأسباب، تأسيس كلية 'غردون' التي مهّدت السبيل إلى تغيير الفكر السوداني بما كانت تخرج كلّ عام من جيل مثقف جديد. كان تأسيس هذه الكلية عام 1903. وعلم هناك مجموع من خيرة المعلمين المصريين أمثال الشيخ الجداوي والشيخ الخصري والشيخ عبد الرؤوف سلام. "إلتحق بقسم اللغة العربية للمعلمين أوّل الأمر طلبة سودانيون نجباء منهم من حفظ القرآن ومبادئ العربية في الخلوة¹، فأفادوا كثيرا من علم أساتذتهم. وتولّى هؤلاء الطلبة التدريس في كلية الغردون بعد أن رجع الجداوي وصحبه إلى مصر وبعد أن رأت الحكومة البريطانية أن تبعد النفوذ المصري عقب عام 1924م. وقد عرف من هؤلاء الخريجين الممتازين جماعة بالشعر والنثر الجيد"².

بعد فترة 1924 ازدادت مشاعر السودانيين القومية في قلوبهم. طبعاً كان هناك بعض من العناصر التي أدّت إلى إزدياد هذه المشاعر القومية القويّة الحارّة. وقد بدأ الحكام البريطانيون استخدام السودانيين في بعض المناصب في مصالح الدولة، وقبلوا كانوا يستخدمون في هذه المناصب موظفين غير السودانيين. ففتحت هذه الفرصة أمام السودانيين أبواباً لتحريك طموحهم وتشجيع رغباتهم في إستقلال بلدهم وكانت باعثاً أن يندلع نيران النضال في نفوسهم.

والسبب الآخر الذي أصبح باعثاً في إرتقاء الأدب السوداني هو إتفاق الحكومة البريطانية أن ترسل بعثة علميّة إلى خارج الوطن. واستطاع هذا الجيل أن يتّصل بالرجال العباقرة والماهرين في المجالات الأدبيّة في البلاد الخارجة. "وكان هؤلاء نفر من الخريجين يحملون روح الغرب في عروقهم وكانوا يتحدّثون عن كولورديج ووردسورت وشيلي وغيرهم وبدأوا أن يأخذوا منهم والإقتباس من أوربا. ثم نشأت منهم طائفة أنست من نفسها شوقاً إلى التعبير وتطلّعا إلى أن تبرز بين أبناء وطنها بروز

(1) هي بيوت القرآن التي ابتدعها الشعب السوداني في جميع أنحاء
(2) الإتجاهات الحديثة في النثر العربي في السودان - الدكتور عبد الله الطيب ، ص - 32

كتاب مصر في مصر أن تروى لهم من المثل العليا ما هم أشد الحاجة وأن تعين بقطعا هذا على زيادة الشعور القومي، وإظهار الشخصية السودانية¹

وبدأوا أن يكتبوا في المجالات في مختلف الموضوعات

مزودين بهذه المشاعر القومية والفضائية. ومن أهم هذه المجالات التي شجعت هذه الكتابات الأدبية الثورية مجلة 'النهضة' التي صدرت عام 1931م وأعتبها مجلة 'الفجر' سنة 1934م. صوّروا ومشاعروهم في نضال الهوي والحياة وفلقهم خلال الإنشائات الأدبية مثل القصص القصيرة والروايات عبر مجلة النهضة الصادرة العام 1931م و كان محرّرها محمد عباس أبو الريش واختفت هذه المجلة بعد موت محررها عام 1932م. ثم صدرت بعدها مجلة 'الفجر' عام 1934. وكان محرّرها عرفات محمد عبد الله. وعندما إنصرف هوّلاء إلى السياسة العملية والصحافة الحزبية، فتوقفت الفجر. ومن القصص المشهورة الناشرة في الفجر قصة 'البرتكان' وقصة 'إلى القرية' و'الباسم' و'بعد التجربة'.

قصة البركان تتحدّث عن فتاة ذات عيبة في جسدها.

كانت تحبّ فتى ولكن أهلها زوّجها لغيره ثم طلقها هذا الرجل وأصبحت مريضة بالمرض الشديد. فعاد إليها الفتى الذي كانت تحبه قبل موتها وقال لها أنه جاء إليها لأن يفتح في أمر زواجهما لأنه لا تزال روحه تطمح إلى الزواج منها، وهو يؤمن أن خطوتهما الأولى إلى أمر زواجهما أخطئت فعسى أن توفق في الخطوة الثانية. رفعت الفتاة رأسها قليلا وقالت في ألفاظ متعطفة 'كان هذا قبل اليوم، لقد رضيت بزواج أخرى ونسيتني وأنا طلقت زوجي وودعت شبابي وقبرت جمالي من أجلك. الرجال لا يراعون عهد النساء. أما أنا فلن أبال من علتي هذه، لأن داعي عضال وإذا متّ ضع فوق قبري غصنا من الشوك دليل نكران الجميل. والقصة الأخرى من خير ما كتبت في مجلة الفجر هي قصة 'بعد التجربة'. هذه

⁽¹⁾ المصدر السابق

القصة تدور حول فتاة زلت من سبيل المستقيم ورامت الطهر من سبيل الحب, فحيل دون ذلك, وحال أمرها إلى الحالة المريرة. وصارت بغيا آخر الأمر.

عندما توقفت المجلة 'الفجر', فتوقف تيار القصة القصيرة السودانية وبدأ أن تخفي وراء جدار العضلات. وهذا الطور في تطوّر القصة القصيرة في السودان يعد أول طبقة في تطوّر ها, واستمرت هذه الفترة من الجمود حتى نهاية الحرب العالمية الثانية عام 1945م.

بدأت القصة القصيرة في السودان أن تنهض ثانيا بعد هذه الحرب الهائلة. وفي هذه الفترة كان الأدب السوداني عامة مميّزا بالزرعة الرومانطيقية كما كانت الحال في البلاد العربية الأخرى. تأثرت القصة القصيرة السودانية بمؤلفي المصريين مثل مصطفى لطفى المنفلوطي وكذلك بالكتب المترجمة من الآداب الغربية خاصة من الأدب الإفرنجي والإنجليزي.

ومن هذا المجموع القصاصيين الرومانطيين القاص عثمان علي النور (1923- 2003) ومحمد سعيد معروف. صدرت مجموعة القصصية 'غادة القرية' للقاص عثمان علي نور عام 1954م. تعدّ هذه المجموعة القصصية, أول مجموعة قصصية سودانية تنشر مجتمعه. وكان له دور مهمّ في المساهمة في أحداث تحوّل هموم القصة نحو الواقعية الإجتماعية التي أخذت تقّات في مضامينها بالقضايا الإنسانية المباشرة لإنسان المدينة. فتح عثمان علي نور بابا لزملائه وللأجيال الجديدة لنشر إبداعاتهم القصصية من خلال مجلة 'القصة' السودانية. وأخرج مجموعته القصصية الأخرى في عنوان 'البيت المسكون' عام 1955

ثمّ ظهرت المجموعة القصصية 'مات حجر' للأستاذ محمد سعيد معروف عام 1955م. وعندما ظهرت هاتين المجموعتين من القصص, فحاول

كثير من الأدباء لإتباع هذا الطريق والدخول إلى المجال القصصي وأن يضيفوا ويوسعوا حجم مجاله بإضافة عضويتهم وتأليفاتهم إليه. هكذا ظهر كثير من القصاصين. ومن أشهر روادها 'سيد الفضل' و'عبد الحليم محمد' و'بدوي ناصر محمد' و'أحمد المحجوب' و'عمر عبد الله' و'أبو الشمة عرفات محمد' و'معاوية محمد نور'.

كان معاوية محمد نور (1909-1941) يقوم بمصر لفترة من الزمان وكان يكتب في صفحات المصرية. كان منتميا إلى بعض المدارس الأدبية هناك ثم عاد إلى وطنه. ثم أصيب بالمرض ومات. "ولا أشك أن المرحوم معاوية لو أقام مع جيلي 'النهضة' و'الفجر' في السودان لكان له من الأثر في توجيه أدبهم بل لعله كان يربى عليهم بما أوتيته من الذكاء الواقد والحماس المشتعل من الروية والملكة"¹. ومن قصصه القصيرة 'ابن عمه' و'إيمان' و'المكان' و'الموت والقمر'. القصة 'ابن عمه' تتناول عن التفاوت الاجتماعي بين الأغنياء والفقراء. وهي تصور عن نتائج هذه الظاهرة من حقد طبقي قاتل حين يتنكر بعض الناس لواقعهم الاجتماعي. والقصة 'إيمان' ترسم الصراع الفكري والأيدولوجي في نفسية المثقف وكيف يمكن أن يقوده إلى الجنون. أما قصة 'الموت والقمر' تبين كيف تتجسد مأساة الوجود في تلازم الموت والحياة والإيروس.

وله دور عظيم في ترسيخ فنّ القصة القصيرة إبداعا وكان أول من لفت إنتباه القراء إلى الصورة الجمالية للمكان. وقد ظهرت في كتاباته مجرى جديدة وبدأ أن يتحول من الإتجاه الرومانطيقية إلى الإتجاه الواقعي، وتبعه كثير من الكتاب في مذهبه الواقعي. وكان هؤلاء رواد القصص من هذا الجيل يكتبون في قصصهم عن تجارب هذا الجيل وثقافتهم التي كانت مصابة بالأمراض القاتلة. وفي الحقيقة كان هؤلاء الأدباء مثل الأدباء في البلاد العربية الأخرى يرجون ويحلمون بالتغيرات والتجديدات في الحياة السودانية الممتلئة بالعادات والتقاليد والخرافات. ولكنهم لم يمكن لهم أن يظهروا هذه

⁽¹⁾ - الإتجاهات الحديثة في النثر العربي في السودان - الدكتور عبد الله الطيب ، ص - 79

المشاعر والعواطف وأن يدعوا إلى التغيير والتجديد في مؤلفاتهم كما استطاع الأدباء الآخرون في البلدان العربية الأخرى مثل مصر والشام. كتبوا عن الواقع بأفكار مسبقة تحكمها العادات والتقاليد أكثر مما تحتاج الضرورات الفنية الجمالية. وكانت هذه القصص مملوءة بالتقرير المباشر والإستطراد الذي يقود إلى سأم القراء ومللهم. وكان أعضاء هذا الجيل يأملون التغيير في المجتمع ويأسون منه ويعتبرون الثقافة السودانية غنيّة وثريّة في الحين ومع ذلك يرونها ضئيلة وفقيرة بإصابة ببعض الأزمّات.

وكانت هذه القصص الواقعيّة تدور حول موضوعات مختلفة مثل الفقر والقرية والمدينة ومكانة المرأة في المجتمع والحكومة والشخص. بدأوا أن يكتبوا عن الحياة التي عاشوها في الواقع وبدأوا أن يكتبوا عن الشخصيات الذين يغيّرون الحياة. إستمدّوا شخصياتهم من الحياة في المستوى السفلى، وكان هؤلاء الأشخاص يعملون في المقاهي والمتاجر والقطارات ويكسبون راتباً الذي لا يكفل لهم حتى للوازم العيش. لكن الكتاب صوراً هذه الشخصيات وأظهروا أملهم أن هؤلاء سيغيّرون مجرى الحياة وعلى أيد هؤلاء الطبقات ستصنع الحياة.

من عباقر هذا الكتاب 'ملكة الدار محمد عبدالله' (1922-1969). فازت هذه الأدبية بالمرتبة الأولى عن قصتها 'حكيم القرية' في أول مسابقة للقصّة القصيرة أجرتها إذاعة أم درمان عام 1974. والعبقري الآخر في مجال القصّة هو 'محمد أحمد محبوب' (1910-1976) المشهور بقصته 'موت الدنيا' الصادرة عام 1946 و'عبد الله رجب' (1915-) ومجموعته القصصية 'مذكرات أغباش' الصادرة عام 1950. وهناك 'زبير علي' وأمنة مدني' و'زينب عبد السلام' و'صلاح محمد إبراهيم' و'أبوبكر خالد' و'الطيب زروق' (1935-) و'سلمى أحمد البشير' و'خوجلي شكر الله' و'علي المك'.

يعرف 'علي المك' بإسم رائد القصص القصيرة السودانية. كان رئيساً للجنة القصص القصيرة والروايات والسينما ورئيساً لموسيقى

السودانية 1984-1985) وكان عضواً في لجنة المحاضرين في جامعة الخرطوم (1983-1992) ورئيساً لاتحاد الكتاب السودانيين منذ عام 1986 إلى موته عام 1992م. ومن قصصه المشهورة 'البرجوازية الصغيرة' التي نشرت عام 1958 وفي القرية' و'القمر جالس في فناء داره' الصادرة عام 1973 و'الصعود إلى أسفل المدينة' و'حمى الدريس' و'هل أبصر أعمى المعرفة'.

ويمكننا أن نضيف إلى هؤلاء الكتاب بعض الأسماء أمثال عبد المنعم أرباب, عبد الله علي إبراهيم والطبيب صالح الذي لمع اسمه بين هؤلاء بمجموعة قصصه القصيرة 'دومة ود حامد' و'مقدمات' وقصصه القصيرة 'الرجل القبرصية' و'يوم مبارك علي شاطئ أم باب'. وسهناك فصل خاص للدراسة عن قصص القصيرة للطبيب صالح.

وكذلك ظهرت في هذه الفترة في السودان بعض من المجموعات القصصية المشتركة مثل مجموعة قصصية 'النازحان والشتاء' للخرجلي شكر الله وزير علي والمجموعة القصصية 'البرجوازية الصغيرة' على أيد أبي بكر خالد مع الطبيب زروق.

وكانت هناك بعض الجرائد والمجلات والدوريات التي لها يد طويلة في إرتقاء القصة القصيرة السودانية في هذه الفترة. قد شجعت هذه الوسائل القراء المتعلمين لأن يحملوا من الفكر والآراء الجديدة التي أزدت علاقتهم ووعيتهم بالمشاعر الوطنية. ومن أشهرها كان ظهور أول جريدة سودانية محلية 'تكردفان' عام 1945 والمجلة 'زأي الأم'. وفي عام 1960 أصدر القاص عثمان علي نور مجلة شهرية باسم 'القصة' وهذه المجلة كانت تنشر القصص السودانية لمختلف الكتاب المعروفين وغير المعروفين. وكذلك كانت لهذه المجلة قائمة خاصة لقد القصص التي تنشرها. ولكن توقفت

صدرها من بعد بازمات مالية. وكان لهذه المجلة أثرا واضحا في تطوّر القصة القصيرة وتطوّر أشكالها وبنيتها.

والمجلة الأخرى التي لعبت دورا خاصا في تطور الأدب السوداني هي مجلة 'الخرطوم' التي بدأت صدورها عام 1965م. وفي هذه الفترة نفسها بدأت الحكومة السودانية الجديدة مطبعا وطنيا الذي فتح أبوابها لنشر الإبداعات من الجنس القصة القصيرة وغيرها. وإضافة إلى ذلك عمّ ظهور الراديو والتلفزيون في السودان وسبّبت إلى ازدياد وعي السوداني عن التحولات السياسية والإجتماعية والثقافية.

ثم بدأت مرحلة التحولات الحديثة في الفترة بين منتصف الستينات وأوائل الثمانينات من القرن العشرين. وكان الأدياء من هذا الجيل يتكثرون أشكالا فنية جديدة ومشوا مع تطوّر المجتمع السوداني، وعبروا عن مشاكله وهمومه وحاولوا الخروج منها. يشتمل هذا الجيل من الأدياء العباقر أمثال محمود محمد مدني، عبد السلام حسن عبد السلام، محبوب شعرائي، حسن الجزولي، و عيسى الحلو(1940-) الذي كانت كتاباته تميل إلى التيار الوجودي. ومن قصصه القصيرة 'ريش البيغاء' و'وردة حمراء لأجل مريم'. ثم يجيء نبيل غالي ومبارك الصادق وعثمان الحوري ومحمد خلف الله سليمان وأحمد الفضل الذي اتخذ حبكة قصصه من التراث السوداني واستلهم أشكاله المختلفة. وهناك أحمد بشرى الفاصل المولود عام 1952م. هو مشهور بمجموعاته القصصية أمثال 'حكايات ابنت التي طارت عصافيره' و'أزرق اليمامة' و'الحصان الطائر'. ويمكننا أن نطيل هذه القائمة بالإضافة إليها بعض الأسماء الأخرى أمثال أحمد مصطفى الحاج، يحيى فضل الله، زهاء الطاهر، مصطفى مبارك عويفي، سلمى الشيخ سلامة المشهورة بقصتها 'مطر على جسد الرجل' وسعاد عبد التّام وأمال حسين وفاطمة السنوسي وزينب الكردي ومحمد عثمان عبد النبي ومختار عجوبة ومجموعاته القصصية المشهورة 'عندما يهتزّ جبل البركل' و'السمرتوية' وصديق الحلو وقصصه 'الفصول' و'غصّة في الحلق'.

ثم تأتي الفترة الممتدة من منتصف الثمانينات حتى الآن.

في هذه الفترة ظهر كثير من العباقرة في فنّ القصة القصيرة في السودان ولعبوا دورا كبيرا في تحديث هذا الفن عبر طرق وأشكال وموضوعات مختلفة. ومن هؤلاء أحمد المتوكل, أمير تاج السر, جمال غلاب, طارق الطيب, هاشم مرغني الحاج, محمد المهدي بشري, صلاح الدين, عادل القصاص ومجموعته القصصية 'لهذا الصمت صليل غيابك' الصادرة عام 2002م ومها الرشيد, سارة يوسف الخليل, بثينة خضر مكي (1948-) وأسامة الخواص وأحمد الملك وعبد الحميد البرنس وأحمد ضحية وإنعام الحاج بكر.

إن الرائي لأحوال القصة القصيرة السودانية عبر

الفترات المختلفة يستطيع أن يتلمس تلك الرغبة الدافقة التي كانت تسيل ملئنا في مشاعر الكتاب السوداني في تعبير ذاتهم وفي تصوير صور المعانات المشاكل التي أحاطت بشخصياتهم. وهم كانوا راغبين في إمساك بعدد من الملامح مثل الإهتمام بالمكان إضافة إلى تمايز عنصر اللغة الذي جاور بين الفصحى والعامية السودانية بإقتدار ورهافة وسلاسة نادرة وكذلك إلتفتوا إلى الموروث الشعبي السوداني وما يحمل من طاقات خيالية وعاطفية.

الطيب صالح و"موسم الهجرة إلى الشمال"

مشاعر العرب ضد الإستعمار كما تظهر فيها

دراسة نقدية

أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها

قدّمتها

حسينة. ب

تحت إشراف

بروفسور الدكتور أحمد إبراهيم رحمة الله

الرئيس السابق (المتقاعد)

قسم اللغة العربية بجامعة كاليكوت



قسم اللغة العربية

جامعة كاليكوت

كيرلا ، الهند

2012م

الفصل الثالث

الرواية السودانية

كانت نشأة الجنس الأدبي الرواية في السودان في سيرة بطيئة بسيطة وساذجة. ومن القول بالدقة أنّ الرواية السودانية بدأت أن تظهر بعد الأربعينات من القرن العشرين. يقول الدكتور سيد حامد النساج في هذا الصدد "أن الرواية العربية عرفت طريقها إلى الأدب السوداني بعد إنتهاء الحرب العالمية الثانية، وبعد زيادة حدة الكفاح الوطني في سبيل الإستقلال والتحرّر من الإستعمار البريطاني، ومع نموّ وتصاعد المشاكل الإجتماعية والإقتصادية والسياسية التي أصبحت في حاجة إلى فنّ موضوعيّ نشريّ يعالجها ويصوّر ها ويحلّ لها بحثًا عن حلول واقعيّة لها"¹.

يقال أنّ أوّل رواية عربية سودانية هي الرواية 'تاجوج' لعثمان محمّد هاشم. نشرت هذه الرواية سنة 1948 ولكنها كتبت قبل ذلك بسنوات. إستخدم فيها الروائي نصّا من التراث الشعبي السردي السوداني، وذلك بإستثماره للقصة الشعبية ذائعة الصيت 'غرام تاجوج والمحلّق'. وبيئة هذه الرواية هي شرق السودان حيث تعيش فيه قبيلة الحمران من قبائل البجة، وقبيلة الهدندوة المعروفة. وكانت تاجوج الحمرانية من أجمل النساء، وبها يضرب المثل في الجمال. وقد ذكرت بعض الروايات أنها عاشت في النصف الأوّل من القرن التاسع عشر. تعدّ هذه الرواية ردّا للأحوال التي كانت سائدة في السودان آنذاك، يصوّر فيها الروائي البطولة والتضحية من أجل الوطن.

بطل هذه الرواية 'محلّق' هو شجاع وجريئ وفارس قبيلته الحمران وقائد فتوحاتها على الهدندوة، إحدى قبائل شرق السودان. وهو مغرم بابنة

⁽¹⁾ بانورما الرواية العربية الحديثة، الدكتور سيد حامد النساج، ص - 232

عمه تاجوح وبتزوجها أخيراً، ولكن زواجه منها ينتهي بنهاية مأساوية. وقد حاول محمد عثمان هاشم أن ينسج من هذه القصة الشعبية رواية حديثة إتضحت فيها براعته ومهارته في حبك بين فيه حال فراق المحلق من تاجوح بعد أن تزوجها، كما إتضحت براعته في رسم النهاية المأساوية للعاشقين كما تجري في قصص العشاق عادة. ولكن يعتبر النقاد هذه الرواية أن لها بعض النقص والعيوب باعتبارها رواية. ولا شك في ذلك إذ أنها أول رواية مهّدت السبيل إلى الأمام للروايات الأخرى التي تلت بعدها. "أحداث هذه الرواية وشخصها واقعية إذ أن هذه الرواية تسيّر مع العادات والتقاليد السودانية وبالثرث الشعبي السوداني. تملأ الرواية بمزيد من الخطابية والتفريبية وعلو النبرة ويشعل في نفوس القراء شعل الحماس ويحرضهم على الثورة ضدّ الإستعمار البريطاني حتى أن يحصل على الإستقلال التام. ولكن هذه الرواية فإنها لم تأت مكتملة البناء وإن مهّدت الطريق الى روايات كثيرة بعدها"¹.

ثم جاء بدوى عبد القادر خليل برواية 'هائم على الأرض أو رسائل الحرمان' الصادرة سنة 1954. كانت هذه الرواية تميل إلى نزعة رومانسية أي أن هذه الرواية فتحت أبواب الرومانسية في الرواية في الأدب السوداني. كان الروائي بدوى عبد القادر خليل طالباً في الطب بالقاهرة وكان متأثراً كثيراً بطبقة برجوازية وحاول إتباعها في فكرها وقيمها. لعلّ هذا كان السبب أن يتجه إلى الإتجاه الرومانسي أكثر من الإتجاه الواقعي الذي كان شائعاً آنذاك. كانت هذه الرواية تقع في صورة رسائل متبادلة التي تضمن سبعة وثلاثين رسالة.

والرواية الأخرى السودانية التي أظهرت أفكار البورجوازية وأرائها هي الرواية المشتركة على أيد الكاتبتين 'محمد أحمد محبوب' (1976-1910) و'عبد الحليم محمد' باسم 'موت الدنيا' الصادرة عام 1946م. وهي سجل حافل بتجاربهما الشخصية وأرائهما في الحياة والناس، ونظراتهما إلى المشاكل التي تحيط بهما.

¹ يانورما الرواية العربية الحديثة، الدكتور سيد حامد الشاسح، ص - 232.

استقلت السودان من الإستعمار البريطاني عام 1956.

ونبعا لذلك حدثت كثيرة من التغيرات في مجال الأدب السوداني. أصبح الفنّ الروائي فناً غالباً على أنواع الأدب الأخرى، وكذلك إتجه الكتاب إلى كلّ التيارات الأدبية في وقت واحد وانفسح المجال أمام الأدب الروائي السوداني. وطبعاً كانت هناك بعض العناصر التي أدت إلى ازدهار الأدب السوداني والرواية خاصة بعد الإستقلال من الإنجليز وخاصة بعد الستينات. شهدت هذه الفترة لكثير من التغيرات ووجدت هناك كثير من العناصر الصالحة لتطور الأدب السوداني ونماؤها. وقد تقدّم بعض من ناشري المصريين مهتمين بالأدب السوداني وبدؤوا أن يساعدوها لوجود الطريق إلى ازدهارها. وكذلك تحسّنت أحوال الطباعة التي كانت في أحوال فقيرة من قبل، وظهرت وزارة الإستعلامات من قبل الحكومة السودانية وأنشأت مطبعة حكومية ومطبعة مصر ومطبعة جامعة الخرطوم. إتجه الكتاب إلى متنوع الموضوعات الجديدة الإجتماعية والسياسية والأوضاع الداخلية. إزداد وعي المجتمع السوداني عن السياسية والوطنية حيث ظهرت قضايا حزبية وصراعات عقائدية وتناقضات إجتماعية وسياسية.

وجدير بالذكر أن غالب الكتاب في هذه المرحلة كانوا يحملون ثقافة إنجليزية التي حصلوا عليها من مدارس بريطانية، وبعضهم سافروا إلى البلاد الأجنبية مثل لندن وغيرها في بعثة تعليمية. ومنذ أواخر الخمسينات والستينات رجع هؤلاء الكتاب إلى بلدهم بعد إتمام دراستهم وعادوا مثقفين ومزودين بثقافة إنجليزية التي أصبحت سبباً لتحوّل مجرى حياتهم الأدبية والإجتماعية حيث وقعت نهضة في الفكر والفنّ. ويمكن لنا أن نأتي ببعض الأمثال لهؤلاء الكتاب أمثال الطيب صالح وإبراهيم إسحق وإبراهيم والحار دلو وغيرهم . وبظهور هؤلاء الكتاب والروائيين ظهرت في مجال الرواية السودانية إتجاهين أساسيين الإتجاه الرومانسي والإتجاه الواقعي.

يتمثل الإتجاه الرومانسي على سبيل المثال في روايات 'حتى تعود' الصادرة عام 1959 للروائي شاعر مصطفى و'سرّ الدموع' (1969) لمحمد عثمان علي صبار و'المعدّبة' لمحمد علي بلال و'دموع القرية' لفضيلي جماع و'حياة الدموع' لهندي عوض الكريم. وقد حملت كلّ من هذه الروايات سمات المدرسة الرومانسية وميزاتها.

فالرواية 'حتى تعود' لشاعر مصطفى تدور حول الحبّ الرومانسي بين 'محمود' و'عواطف' المدرّسة بالمدرسة الثانوية. ولكن محمود يتزوّج امرأة أجنبية، ثم هجرته بعد أيّام قليلة. فعاد محمود إلى عواطف وإلى قريته فأراها مريضة تلزم على الفراش. فيبكي على صدرها منتحبا ونادما. ولكن عواطف تموت ومحمود يستمرّ بالحياة في خيبة الأمل ويصبح هائما وضائعا. والرواية 'سرّ الدموع' لمحمد عثمان علي صبار، مملوءة بالمناظر الطبيعية ومشاكل الحب والمحبيين خلال رسائل يتبادلونها معا. تتناول هذه الرواية موضوع مشكلة الدعارة والمومسات بأسلوب رومانسي. بطلّة هذه الرواية مزوّجة وهي تعاني معاملة قاسية عنيفة شديدة من قبل زوجها. هذه الأحوال والظروف الهنيئة تجعلها مومسة وتعيش بإحتراف البغاء .

والقضية التي تناولها الروائي محمد علي بلال في روايته 'المعدّبة' هي مشاكل امرأة مزوّجة التي تخضع لمعاملات زوجها القاسية والعنيفة. تصبح المرأة رذيلة بهذه الحالة وتدفعها إلى عالم مومسي وبغاء. وبهذا الطريق الرذيل تحاول المرأة للإنتقام من الرجل الذي أهانها وخدعها. وهي تحاول أن تحتقر كل الرجال بإغرائهم وإثارتهم بجمالها وتقربهم إليها ولكن تحرمهم من الإستمتاع بها. وهكذا تحتقر الرجال وتتمتع نفسها وتقتنع إفتناعا غموضا في أمر غلبتها على الرجال. تمارس الجنس بحرية تختار له من تشاء وتمنعه عن تشاء. هكذا كانت هذه الروايات الرومانسية تدور حول الحب ومشاكلها وخبية الأمل من الحب. وكما أشرت من قبل إلى أن كثيرا من

الروائيين في هذا الجيل كانوا متعلمين في البلاد الغربية وعائدين إلى بلدهم. وقد إتخذوا تجاربهم في الحبيبة في الغرب حبكة لرواياتهم.

ولكن الرواية السودانية ما لبثت أن تتخذ مسارا واقعيًا ذا علاقة وثيقة بحوار الذات مع المجتمع وقضايا الصراع الاجتماعي ومشاكل الطبقات الاجتماعية المختلفة. وظهر في السودان عديد من الروائيين الذين إتجهوا إلى هذه النزعة الواقعية. وقد إتبع هؤلاء الأدباء والكتاب بواقعية مجتمعهم وأظهروا مشكلات المجتمع وكفاحها في طريق حريتها وأسباب النضال الاجتماعية والسياسية. كانت هذه الروايات مميزة بلغة جادة تعبر مشاعرهم الحساسة وعواطفهم المشعلة نحو الواقع الاجتماعي والسياسي. ومن هؤلاء الروائيين الذين ينتمون إلى هذا المجموع 'ملكة الدار محمد' و'عبد الفتاح محمد عثمان صوار دابي' و'السر حسن فضل' و'الأمين محمد زين' و'خليل عبد الله الحاج' وغيرهم.

الروائية ملكة الدار محمد (1920-1949) هي أول كاتبة عربية في الأدب السوداني. وهي تتناول في رواياتها مشكلات المرأة التي تتعرضها وتواجهها في المجتمع السوداني. روايتها المشهورة 'الفراغ العريض' تناقش قضايا المرأة وطبيعة نظرة المجتمع إليها في ذلك الوقت والدفاع عن حقها في إختيار الزوج والعمل وغيرها مما يعدّ بداية ناضجة للكتابة النسوية. وهي تصوّر حياة المرأة العاملة ومشاكلها في البيت والمدرسة. بطلة هذه الرواية 'منى' رمز إلى امرأة سودانية التي تؤمن بحرية المرأة في العمل والمشاركة والتعبير وإختيار الزوج. ولكن المجتمع السوداني المحافظ على التقاليد والنظم تحرم هذه الحقوق كلها من المرأة، ولذلك أجبرت منى للزواج إلى رجل الذي لا تحبه. زوجها 'سيد' كان متعلما وموظفا وكان رمزا إلى رجل مسيطر الذي يريد أن يخضع المرأة تحت أقدامه، فيسيئ معاملته نحوها ويقسو عليها. عندما تفهم منى أن الحياة مع زوجها سيد مستحيلة، تنمو في نفسها مشاعر الحقد نحوه وتلجأ إلى الإنحراف والخيانة لزوجها.

وتقرب لصديق زوجها سيد إسمه 'صلاح' وتربط معه علاقة حبية. تظهر لنا الراوية خلال هاتين الشخصيتين لمنى وصلاح مشكلات المرأة المتزوجة والأكذوبه والخيانة في العلاقة الزوجية في المجتمع. يقول الدكتور سيد حامد النساج "ولعل الكاتبة أرادت تصوير المجتمع العربي في السودان إبان مرحلة إنتقاله الحضارة الحديثة وبالذات فيما بعد الحرب العالمية الثانية"¹. نشرت هذه الرواية بعد موتها عام 1970 وأثارت هذه الرواية ضجة وضوضاء في المجتمع السوداني حيث أنها خرجت من أيدي امرأة وأنها تتناول حبكة تجعل بعضا من التوتر في نفس المجتمع السوداني المسيطر من الرجال. ولها رواية أخرى في عنوان "المرأة الجنونة".

أما عبد الفتاح محمد عثمان يصور في روايته 'مأساة القبور' مجتمع القرية في السودان. وشخص هذه الرواية عمال ومزارعون في إحدى المشروعات الزراعية، وهم يعيشون عيشة قاسية في ظروف إقتصادية فقيرة. يبدى الكاتب مشاكل هذا المجموع من الناس وصعبتهم ويعبر عن آرائه وأفكاره وعن إهمال الحكومة بهذه الفئة من الناس ويقارن بين هؤلاء الفقراء وبين أبناء الأغنياء فيبرز التناقضات في عيشة هاتين الطبقتين .

وهناك بعض الروائيين في الأدب السوداني يتناولون في رواياتهم أوضاعا سياسية. يعالجون الموضوعات أمثال كفاح العمال والطلاب ضد الإنجليز من أجل التحرر والإستقلال الوطني، وكذلك عن تعدد الأحزاب والمذاهب السياسية أو موقف الجماهير من الحكم العسكري الذي إمتد من 1950 حتى 1964 أو دور الطلاب في تفجير ثورة 1964م. ومن هؤلاء الروائيين السر حسن فضل الذي أتى بروايته 'من أجل ليلي' الصادرة عام 1960م. تدور هذه الرواية حول عمال الورشة في السكك الحديدية والمصانع الحكومية والشركات. تدور أحداث هذه الرواية حول مكافحة هؤلاء العمال عن الحكم

⁽¹⁾ بانورما الرواية العربية الحديثة، الدكتور سيد حامد النساج، ص - 238

البريطاني. يهاجم الروائي خلال روايته على الإدارة الأهلية مثل إدارة الشيوخ والقبائل. ولا ينسى الكاتب أن يروي لنا عن حلمه في ظهور طبقة متوسطة تعمل في التجارة والصناعة، ونقل المجتمع من المرحلة الزراعية الى المرحلة الصناعية. ومع ذلك يبدي الكاتب نتائج هذا التحويل الإيجابية والسلبية في المجتمع.

والرواية 'لقاء عند الغروب' لأمين محمد زين المنشورة سنة 1964م تصوّر حركات الطلاب التي ظهرت في فترة الأربعينات من القرن العشرين ومقاومتهم ومكافحتهم ضدّ الحكم البريطاني وأعمالهم العدائية ومعاملاتهم تجاه الحكومة البريطانية بإصدار المنشورات والمظاهرات. وكذلك تتناول هذه الرواية الأحوال السياسية السودانية في الخمسينات أي بعد إنتهاء الحكم البريطاني وخروجهم من السودان. تركز أحداث الرواية حول قيام الأحزاب السياسية ودور ثورة 23 يوليو 1952 المصرية في أوضاع السياسية في السودان والانتخابات التي جرت في السودان لأول مرة في 24 ديسمبر 1953 عندما أنشأ أول برلمان في السودان لتقرير الحكم الذاتي. وكذلك تأتي هذه الرواية بصور لأحداث مارس 1953 التي وقعت في الخرطوم بين أنصار المهدي ورجال البوليس عندما زار محمد نجيب رئيس مصر السودان، والجلء وأحداث التمرد التي وقعت في جنوب السودان في شهر أغسطس 1955 م .

شهدت السودان لكثير من الأوضاع السياسية والتحويلات في أمور سياسيتها بين الفترة 1952 إلى 1964م. شهدت السودان الحكم الذاتي والنزاع بين الأحزاب المختلفة وكفاح الفتى السوداني ضدّ الحكم العسكري. أصبحت هذه القضايا موضوعا للأدب السودانية ونشرت كثيرة من الروايات تتناول هذه الموضوعات الجديدة الجادة.

ومن هذه الروايات الرواية 'غربة الروح' لإبراهيم الحردلو. تظهر الرواية دور طلاب جامعة الخرطوم في ثورة 1964م. فقد كانوا يمثلون

طليلة المتقفن؁ كما كانت الجامعة مكانا تجد فيه كل الإتجاهات الفكرية والحزبية وحرية العمل والحركة؁ واستطاعت هذه الروايات تصوير تلك الفترات الهامة من تاريخ المجتمع العربي في السوادان.

أما الرواية 'لا تورقي صمتي' وهي أيضا تتناول هذا الدور للطلاب في جامعة الخرطوم في ثورة 1964م؁ ومع ذلك تظهر لنا هذه الرواية صورة بطلتها 'نادية' التي ترجو أن تخرج من قيود العادات والتقاليد التي كانت تتمسك بها الأسرة السودانية. ترفض نادية الأزواج الذين أتت بهم أسرتها وترفض كل هؤلاء الرجال عندما أجبروها على هذا الزواج. هذه صورة جديدة تأتي بها الرواية السودانية. ومن الميزة العامة لهاتين الروايتين أن كاتباهما لا يميلان إلى أي من الإتجاهات السياة أو الحزبية ويرفضان كل المذاهب الفكرية والسياسية.

قفزت الرواية السودانية قفزة متقدمة في فترة الستينات.

أصبح الأدب السوداني مشهورا ومعروفا في العالم عندما طلعت ثلاثة نجوم لماعة في سماء الرواية السودانية المعاصرة؛ الروائيون العبقيرون الذين ذاع صيتهم متجاوزا لحدود السودان المحلية ووصلت شهرتهم إلى زوايا العالم العربي والغربي. وهؤلاء الأدباء هم صاحبوا الأسماء 'أبو بكر خالد' و'الطيب صالح' وإبراهيم إسحاق إبراهيم'. فاطيب صالح سأذكر عنه تفصيلا في باب خاص في بحثي هذا وأترك هنا ذكره وأريد أن أذكر بعض الأمور عن الأديبين الآخرين.

ولد أبو بكر خالد عام 1925 في السودان وقضى فترات

من حياته في القاهرة. حصل على شهادته الإعدادية من القاهرة الشريفة؁ والثانوية من معهد القاهرة؁ وتخرج في كلية أصول الدين عام 1958م. ثم أصبح موظفا في إذاعة السودان بالقاهرة. كان كاتبا يكتب مقالاته في صحف مصر ومجلاتها. وتبعاً لذلك نشر رواياته 'بداية الربيع' (1951) و'النبع المر' (1966) و'القفر فوق الحائط القصير' (1977).

كان أبو بكر خالد أديبا ملتصقا بهوم البيئة الإجتماعية المعاصرة إتصافا تاما. غالبا ما كان يعالج في رواياته عن القضايا السياسية والوطنية، الإلتزام السياسي الحاد والإنطلاق من وجهة نظرياليسارية التقدمية. ولم يكن أبوبكر خالد مهتما جادا بقضايا البنائية الفنية وضرورة الإلتزام بقواعد الرواية وأسسها البنائية. ويقال أن هذا الروائي تأثر تأثرا بالروائي المصري الكبير نجيب محفوظ بسبب إقامته الطويلة في مصر وإشتغاله في قراءة مؤلفات نجيب محفوظ. حتى يقال أنه حاول أن يحاكي نجيب محفوظ في رواياته. ومن المذكور "أن أبابكر خالد كتب أولى رواياته في عنوان أم درمان الجديدة عام 1957 على نمط رواية نجيب محفوظ 'القاهرة الجديدة' إلا أنه سرعان ما عدل عنوانها وجعله 'بداية الربيع'.

تناول في رواياته الأمور والقضايا المتعلقة بالسياسية مثل الصراع الحربي والعقائدي ومشاكل العلم ودور الطلاب في المجتمع، والأحداث الثورية والنواحي القبيحة من المجتمع أمثال الإستغلال والجشع. وكان كتاباته تحريضا للقراء على الثورة ضدّ النواحي الخبيثة من الحياة الإجتماعية والسياسية معا. ومع هذه النزعات الثورية في إبداعاته نراه يخوض إلى الصفحة السفلى في المجتمع السوداني، أي أنه يخوض إلى رسم صور الحياة العادية للقوم العاديين، مبيّنا فيها عاداتهم ومشكلاتهم وآلامهم وآمالهم وعلاقاتهم الإجتماعية. عند ما نقرأ رواياته "يحس القارئ العربي في أيّ قطر من الأقطار العربية أنه عرف أشياء كثيرة عن أشقائه في السودان، أنهم لا يكادون يختلفون عن أهل بلاده في شيء، فهم يعانون نفس المشكلات والصراعات والأزمات وتتجاذبهم نفس التيارات"¹.

وله روايات مشهورة. الأوّل منها روايته 'بداية الربيع' الناشرة عام 1957م. هناك ثلاثة شباب في هذه الرواية 'صديق' هو رجل متدين يرى بعض

⁽¹⁾ بانورما الرواية العربية الحديثة، الدكتور سيد حامد النساج، ص - 241.

التناقض بين رغباته والأمر الدينية. والشخص الثاني هو 'مبارك' شقيق صديق وهو لم يتلق تعليماً كثيراً. أما 'محمد' هو شاب ينتمي إلى الجبهة الوطنية ويعرض للإضطهاد والبلاء في سبيل حرية الفكر والسياسية. ندرك أن الروائي كان يميل إلى الحزب اليساري في حياته عندما نراه متعاطفاً مع شخصية محمد. "والكاتب متعاطف مع شخصية محمد، رمز اليسار. ويظهر ذلك في وصفه مذهب صديق ممثل الإخوان المسلمين بالدرأويش كما أنه يجعل بداية الربيع هي بداية تحول صديق من الرجعية أو من جماعة إخوان المسلمين إلى الحزب الشيوعي كما يقول لأنه تخلص من التخلف والجهل والتعصب"¹. تغلب عناصر الحب والجنس في هذه الرواية. تدور أحداثها حول أحداث مدينة أم درمان بعد الاستقلال. أما الأشخاص يصورهم الروائي تصويراً غير عميقاً أو تصويراً سطحيًا. فإنّ نلاحظ أن الروائي في روايته كان يهتم كثيراً بالنواحي السياسية والعقائدية والصراع الفكري بين الأحزاب السياسية مثل الصراع بين الشيوعية وإخوان المسلمين.

أما أحداث الرواية الثانية 'البنع المر' تجري في مدينة الخرطوم، عاصمة السودان إبان الحكم العسكري. تركز الرواية حول شخصية 'فتحية'. هي متعلمة تثور نفسها بمشاعر الثورية والتقدمية والتحررية. أما الشخصية الثانية هو 'سعد' شخصية متناقضة تامة لشخصية الفتحية. تزوج سعد فتحية وعاش عيشة سطحية بغير تعمق في الأمور السياسية ويناقض مشاعر فتحية الثورية والتقدمية والتحررية. وبهذه التناقضات يصعب لهما الحياة والعيشة معا ويفرقان ويفصلان أخيراً. ثم تقرب فتحية من السيد، الرجل الذي يلائم مع فتحية في كل الأمور؛ في مشاعرهما وعواطفهما. كان السيد ينتمي إلى الحزب الشيوعي وكان لهما نفس الفكر في النضال والأهداف.

روايته الثالثة 'القفز فوق الحائط القصير' كما تشير إسمها هي قفز من الروايتيه الأولى بداية الربيع، والبنع المر. نجده في هذه الرواية يقطننا

¹ يانورما الرواية العربية الحديثة، الدكتور سيد حامد النساخ، ص - 241.

وصاغيا إلى تغيّرات المجتمع السوداني في شتى المجالات. ومن أبرز التغيرات التي حدثت في المجتمع السوداني الذي كان متماسكا بتقاليدها ونظمها الأسرية، هو دخول المرأة إلى الميدان العام ومشاركتها فيه. يلاحظ الكاتب أنّ مكاتب الموظفين ملأى بالمرأة، وهي تشارك وتؤثر حركات هذه المكاتب التي كانت في قبضة الرجال من قبل. يصوّر أبوبكر خالد هذا التغيّر في المجتمع خلال بطله هذه الرواية 'نجلاء' ويتعمّق عميقا إلى المشاعر الخفية بينها وبين رفيقاتها ومشاعرها في الموقف الذي جمع فيه مع حسين أفندي وغيره من الرجال الذين كانوا موظفين لفترة طويلة في المكاتب والذين لا يصدّقون وجود نجلاء قربهم في المكتب.

والميزة الأخرى التي نجدها في رواية أبي بكر خالد تلك التي يمكن أن نراه في كثير من رواياته أنه يسخر رجال الدين ويلومهم. هذا الموقف منه إلى رجال الدين واضح في رواياته حيث نجده يسخر الشيخ محمود أحد شخوصه في روايته 'النبع المر'. هو يصفه شاذا مختلفا يعيش في أسلوب متخلفة ويدعو الشباب إلى الدين في سبيل منفرة وخاطئة.

والروائي السوداني المعاصر الثالث هو صاحب إسم إبراهيم إسحق إبراهيم الذي ولد عام 1948م. أصدر روايته 'حدث في القرية' عام 1968 و'أعمال الليل والبلدة' عام 1971م. تدور الأحداث في روايته 'حدث في القرية' حول الحياة القروية في السودان الغربي. يبيّن فيها الروائي حياة الإنسان وتقاليدهم وعلاقاتهم الإجتماعية وحضاراتهم والخطّة التي عليهم أن يتّخذوها للتّطور الحضاري. ونرى الروائي مقارنا الحياة في القرية بالحياة في المدينة ويقارن بين القديم والجديد.

وفي روايته الثانية 'أعمال الليل والبلدة' يتّخذ الروائي نفس المواقف والظروف والشخوص والأفكار، كما أراد أن يكون جزءا ثانيا لروايته الأولى 'حدث في القرية'. أكثر في رواياته التفاصيل والجزئيات غير الضرورية وتفقد رواياته

الحركة والحيوية. ويتناول الروائي الحوار في مؤلفاته في لهجة محلية خاصة بالغرب السوداني. وله رواية أخرى بإسم 'أخبار البنت ميكايا'. يعتمد فيها الروائي على ديناميكية الصراع بين اللغة والأسطورة والتاريخ بجميع متناقضات هذه العناصر الحية الفاضلة.

ولا شك أن مجال الرواية السودانية مملوءة بالأشخاص العباقرة الذين يكتبون ويحاولون في رواياتهم بالإمساك بتلك الومضة الحميمية في المشهد الإنساني العام بكلّ بأسه وحزنه وألمه وأمله وسروره. وهناك كثير من الروائيين الذين يطيلون قائمة الرواية السودانية أكثر طولاً. منهم الروائي المشهور مختار عجوبة صاحب الرواية 'صالح الجبل'. تحتفل هذه الرواية بالخرافات متمثلة في شخوصها الذين لهم علاقات سفلى بعالم الجنّ والشعوذة كما ترى في شخصية 'فتح الرحمن' و'ودّ حبوب'. وله رواية أخرى بإسم 'الحوش الأبيض'.

والروائي الآخر هو 'رؤوف موساد باستا' من بور سودان. ينتمي رؤوف إلى أسرة مسيحية، وكان أبوه من الأقباط ثم تسلم البروتوستانتية. وقد جعل الروائي هذه الخليفة الدينية المسيحية والصراع للهوية الإنتمائية موضوعاً في كثير من رواياته. وقد سجن رؤوف خلال أزمة قناة السويس عام 1956 إذ أنه كان ينشر الورقات تدعو إلى دفاع عام ضدّ الاحتلال الأجنبي على قناة السويس. تعرّف في السجن بالكاتبين صنع الله إبراهيم الذي ألف معه مشاركا في أول كتابه. أطلق سراحه عام 1964، وأصبح صحفياً وأخذ أن يكتب الروايات والمسرحيات. وفي عام 1970 إرتحل إلى وارسواي حيث درس إنتاج المسرحية. وفي عام 2004 م أسس داراً للنشر بمصر المسماة 'مهاجرون' مع مشاركة عديد من الكتاب العرب الذين يعيشون خارج العالم العربي وكان يهدف بها أن ينشر مؤلفات الكتاب العربي مجّاناً، ولكن فشلت هذه المحاولة بأحوال إنحطاط المجال السياسي في العالم العربي. ومن رواياته 'إنسان السد العالي' (1967) و'بيضة النعامة' الصادرة عام 1994، وهي ترجمت الى اللغات الإسبانية والإفرنجية والإيطالية والسويدية والهولندية.

ومن رواياته و'يا ليل يا عين' (1970) و'مزاج التماسيح' (2000) و'غواية الوصال' و'صانعة المطر'.

هناك كثير من الروائيين السودانيين الذين يسكنون خارج السودان ويساهمون لتوسيع دائرة الأدب السوداني المعاصر. منهم 'أمير تاج السر' الذي يؤلف رواياته مستمدا الموضوعات من الخلفية التاريخية والثقافية للسودان في أسلوب شعري. مزج سيرته الذاتية في روايته 'نار الزغاريد' و'سماء بلون الياقوت'.

والحسن بكري هو صاحب لكثير من الروايات، كتبها مستمدا الحكايات من الأساطير والأحداث التاريخية التي تتعلق بالسودان. وجدير بنا الذكر أنه هو أول كاتب حاز على جائزة الطيب صالح عام 2003 لروايته 'أحوال المحارب القديم'. وله مساهمة عظيمة في إستلهاام التاريخ خلال روايته 'سمر الفتنة' و'أهل البلاد الشاهقة'. وروايته الأخرى هي 'طقس حار'. يحكي فيها الكاتب قصة رجل عجوز أشرف على الموت. ولكنه قرّر أن يدفع الموت عنه بالأمر التي كانت تشكل بعض مظاهر الحياة والحيوية في شبابه - الجنس والنضال الوطني - ولأن الزمن لم يعد زمن شباب فالعجوز يستعيز عن المغامرات تلك بذكرها ويبعد بذلك الذكريات الموت عنه أو هذا ما إعتقده.

وطارق الطيب هو روائي وصاحب مؤلفات عديدة. ومن رواياته المشهورة 'مدن بلا نخل' الصادرة عام 1992. يتناول فيه الروائي موضوع المنفى والعودة إلى الماضي. وله روايات أخرى أمثال 'الجمل لا يقف خلف إشارة حمراء' و'بيت النخيل'.

والإسم الآخر في مجال الرواية السودانية المعاصرة هو 'أحمد حمد الملك' الذي يعيش الآن في نثرلندا وصاحب الروايات والقصص القصيرة العديدة. صدرت روايته الأولى 'الفرقة الموسيقية' عام 1989م. يستعمل فيها أسلوبا فكاهيا وسخريا

نقد الدكتاتورية والحكم العسكري وغياب الحريات في السودان بعد سقوط النظام الديمقراطي عام 1989م والفساد والتخلف الثقافي في السودان. وينتقد فيه نقداً حاداً للواقع مما ساد فيه من قيم إجتماعية، وتشريح البنية السياسية والاقتصادية للمجتمع. "قامت الرواية الفرقة الموسيقية لأحمد حمد الملاك على فكرة مجتمع الحيوانات. عبر بالفرقة الموسيقية عن محاولة إنتاج الجديد من خلال ذلك المجتمع الذي انقسم لفئتين: فئة كادحة تحاول أن توجد ذاتها ومحلها في المجتمع الإنساني بما تملكه من مواهب غير مقدورة لدى الآخر، وفئة سطورية فوضوية تتمتع بكافة فرص الحياة الإجتماعية الثرة باستحوادها على السلطة والمال"¹.

وروايته الثانية هي 'عصافير آخر أيام الخريف'

(1996). يقول النقاد أن الروائي في هذه الرواية قد تأثر كثيراً بالواقعية السحرية السائدة في روايات أمريكا اللاتينية. والبعض يرون أنها تضرب في جذور التراث السوداني الغني بأساطيره وتنوع ثقافته. "يمارح بين عناصر التاريخ الدرامي العربي في السودان وتاريخ الزنجية الذي طمست الكثير من وقائعها وغابت عن التكوين لفترة ما قبل تأسيس السلطة السنارية العربية، وقد إستلهم حمد الملاك العديد من بني التراث وحاول في ذات الوقت أن يوجد فضاءات غير متوقعة من صنع خياله لا تمسّ للتاريخ الحقيقي أو الإصطناعي بصلة ما"².

وروايته الثالثة 'الخريف يأتي مع صفاء' تصوّر حياة

دكتاتورية التي تطول بالسلطة لعدة أعوام وما فيها من المجاعة والحروب الأهلية التي تدمر إستقرار الوطن. وهو يحكي في روايته قصة عدم الإستقرار في بلاده منذ رحيل الإستعمار الإنجليزي وفشل الحكومات الوطنية في أن تجد الحلول لمشاكل السودان المزمنة. ترجمت هذه الرواية إلى اللغة الفرنسية واللغة الهولندية. وله رواية أخرى 'بيت في جوبا'. وهي

⁽¹⁾ حول تجربة أحمد الملك الأدبية، عماد الدين البليك.

⁽²⁾ المصدر السابق.

تحكي عن تجار عاشوا وتزوجوا من بنات جنوب السودان ورزقوا بأولاد وبنات، ولكن شانت لهم أقدارهم أن يغادروا الجنوب وأن يعودوا إلى مسقط رأسهم في شمال السودان. تملؤ هذه الرواية بعناصر الحب والحرب والحياة والموت.

وهناك الروائي خالد عويس، ساكن الآن بالإمارات العربية المتحدة. يأتي في روايته 'الرقص تحت المطر' (1998) و'وطن خلف القضبان' (2004)، و'الكياح' بمسائل شائكة ينتقد فيها الفساد والخراب بنتيجة الدكتاتورية في السودان وكذلك التعصب الديني بلغة ثورية تخلق في نفوس القراء جواً ثورياً. والرواية 'وطن خلف القضبان' تتطرق إلى موضوع غياب الحرية في المجتمع العربي، وإفشاء القمع وتسلط الضوء على تواطئ ثالوث الأنظمة العربية المقدسة: رجال الدين والعسكر والساسة على قمع المواطن. هناك شخصية إسمها 'رابعة'. هي من إحدى معتقلات الرأي في السودان، وهي تروي مأساتها داخل السجن وخارجها. تبين عن داخل السجن وما فيه من ممارسة أشنع أنواع التعذيب، وتبين عن أحوال خارج السجن؛ الوطن الذي حوله أهله إلى سجن كبير يتسلط فيه العسكر ورجال الدين الذين يتحولون الحياة داخل حدود الوطن إلى حياة مستحيل.

ثم يأتي أبكر آدم اسماعيل، هو روائي من كردفان. يعرض في رواياته بأغلبية المجتمع السوداني الريفي من خلفية عربية وإفريقية معاً، ونراه يفتخر بثقافة وطنه السودان الكثيفة والثرية ويستخدم الحوارات في اللغة الدارجة ويوظفها بصورة جميلة. روايته 'الطريق إلى المدن المستحيلة' تساعدنا على فهم الشخصية السودانية من خلال فهم البيئي الواضح. تتناول الرواية موضوعاً صلباً هو الفساد الإقتصادي ولعبة تداول السلطة في البلدان الإفريقية حيث أن السودان هو أحد البلدان التي تبتي بأوضاع الانقلابات والتغيرات السياسية الكثيرة. جعل أبكر آدم شخصياته أبطالاً حقيقيين في زمان كان في أمس الحاجة لهؤلاء الأبطال لكي يقفوا في وجه الظلم والاستبداد في عصر المد القومي. وقفوا ضد زين العابدين والآخرين الذين إستودعوا رصيدهم في البنوك ولهم

مؤسّساتهم تُدرّ عليهم الملايين. كان زين مديرا عاديا ظلّ سنوات طويلة لا يملك منزلا فخما ولا سيارة ذات مستوى. أما في مسار الأيام فجأة أصبح قادرا يملك كل شيء؛ الأرض والمال والسيارة الفارهة والمنزل الضارب. وابنه صلاح الدين يرضع مغربيات هذا المال الباهظ. أما النازك (النون) بطلة الرواية كانت ترغب في أن تتعتق من الرقابة السرية والإجتماعية. وكانت ترجو أن تكون مثل الفتيات الأخرى اللاتي يذهبن إلى السينما والسوق دون رقابة والدتهم التي تطيع سياسة زوجها والتي لا تعرف سوى أسرتها ولا تعرف عالما آخر خارج أسرتها. يصوّر الروائي بطلته النون امرأة ثائرة تسعى إلى تغيير نمط الحياة في السودان آنذاك.

والروائي الآخر هو 'عبد العزيز بركة ساكن' مؤلف عديدا من الروايات والقصص القصيرة. ومن قصصه 'ود أمانة متبلا' و'إمرأة من كمبرو كديس' و'فيزياؤ اللون' و'دراما الأسير'. ومن رواياته 'الطواحين' و'جقق مسامير الأرض' التي حازت على جائزة الطبيب صالح. تعكس هذه الرواية الأجواء الغرائبية لحياة الجقق. جقق وهم عمال الزراعة المطرية الموسمية في المناطق الحدودية بين السودان وأثيوبيا وارتريا. تصوّر الرواية علاقتهم بالأرض والنساء وتبين عن التحولات التي حصلت في واقع العمالي نتيجة لدخول البنك في ميدان الإستثمار الزراعي وإدخال الآليات الزراعية الحديثة التي تحل محلّ العمال الزراع. ويواصل البنك بتجريده للقبائل الرعوية من أراضيها بتحويلها إلى أراضي للزراعة الآلية فتضمحلّ أسباب حياة الرعاة فيندلع التمرد بينهم.

ويمكن لنا أن نرى أن دور النساء في مجال الرواية السودانية ليس باقل. ومن أشهرهن 'ملكة الفاضل عمر' و'لنا مهدي عبد الله' و'بثينة خضر مكي'. بثينة خضر مكي هي صاحبة الروايات 'أغنية النار' (1998) و'سهيل النهر' (2000) و'جول الشوكة'. وهي حائزة على وسام العلم والآداب والفنون الذهبي، وجائزة الشهيد الزبير للإبداع والتميّز العلمي، وهي صاحبة نشاط إداري وثقافي وعضو في إتحاد الكتاب

العرب. وهي أول رئيسة رابطة الأدبيات السودانيات. روايتها 'أغنية النار' تقدّم منظومة تمزج بين الأحداث الإجتماعية والسياسية التي ضربت الكاتبة على وترها بحساسية شديدة وسي تتناول مواقف الإجتماعية وسيكولوجية حادة. فالفتاة 'الربيبية' نشأت تحت إحتضان من امرأة أخرى دون أن تعلم شيئاً عن أمّها الحقيقية حتى شبت ودخلت الجامعة. وبعد ذلك تعرف عن أمّها الحقيقية فجأة. وموقف آخر يتمثل في الزوج الذي يحب زوجته ومع ذلك طوعته نفسه للزواج سرّاً من امرأة أخرى وأنجب أبناءاً منها. تطوف أحداث الرواية في مختلف بقع الجغرافية تشتمل أنحاء السودان ثم لندن ثم المملكة العربية السعودية. وتظهر الروائية كرهها في السياسة وتتناول الموضوعات المختلفة أمثال الانقلابات العسكرية والحرب الأهلية في جنوب السودان وصور واقع المعيشة في أزقة أم درمان وأطرافها ومشكلة الهجرة من الريف إلى المدينة.

والروائية السودانية الأخرى هي صاحبة الإسم 'رانيا مأمون' وصاحبة الرواية 'فلاش أخضر' الصادرة عام 2006م. هذه الرواية تحمل همّ الغربة والحنين إلى الوطن بعد تشتت الملايين من السودانيين في كلّ البلاد بسبب الإستعمار والثورات الأهلية بعدها. تبين الروائية في هذه الرواية أنّ الحبّ هو حلّ لمشكلات الحروب التي يعاني منها السودان وتقول أنّ الحبّ هو الحل لجميع المشكلات في بلدها. بطلة هذه الرواية 'نورة' هي طالبة في لندن وتذكرها الأمور في لندن عن تجاربها وإحساساتها في بلدها السودان. وفي الحين تذكر عن أيام دراستها في مصر وزملائها هناك. تذكر عن 'دينق' الطالب من جنوب السودان الذي كان يتجرّب إحساس 'الآخر' بين الطلاب الآخرين بسبب تفرقه في ثقافته ولغته ولونه من الآخرين. وكذلك تعرّفت نورة بزميل آخر هو أحمد وكان يحبّها. ولكن أهلها رفضوا هذه العلاقة لأن أحمد كان من قبيلة فور في غرب السودان. وعندما تحتد النقاشات السياسيّة بين الطلاب كان دينق يغيب منها وقال لنورة مرّة أن مثل هذه النقاشات تقوده وأبناء جنسه إلى التمرد السلاحي الذي يشعل الحرب الأهلية في السودان لعقدين من الزمان. أمّا أحمد يصيبه مرض صدريّ وفي وقت موته يوصّي حبيبته نورة بألا

تقترن بغيره بعده ويمنحها بعض الورقات التي كتب فيها كلّ تطلعاته وأحلامه وآماله في العيش الكريم للشعب الذي يحبه وكان يرفض أن ينتمي إلى أيّ حزب عنصريّ وسياسيّ وكان يرى أنّ الإصلاح الاجتماعي يبدأ من الفرد. ثم ينشر دينق ونورة معا هذه الكتابات التي تتمنى اللقاء بين الشعب بدون فوارق عنصريّة وسياسيّة.

وقائمة الرواية العربية السودانية تطول لأن تشمل أسماء. ولكن من العجب أن هذه الأسماء ما زالت يجهل طريقها الى المتلقى العربي والعالم. منهم علي المك وبشرى الفاضل وروايته 'سيمفونية الجراد' والروائي فضيلي جماع وعمر الدوش وعيسى الحلو ومحمود مدني ومحمد أحمد عبد الحي ويوسف العيدابي ومحي الدين فارس ومصطفى سند وعاطف خيرى والصادق الرضى وعصام رجب وأنيس مصطفى وبشرى هباني وروايته 'مسرة' وزينب بليل وروايتها 'الاختيار'.

فبجانب تلك القامات الأدبية الرفيعة، هناك الروائي منصور الصويم وروايته 'تخوم الرماد' (2001) و'ذاكرة شرير' التي حاز على جائزة الطيب صالح عام 2005م. تمثل هذه الرواية الدفاع عن العدل والحق في العيش والمساواة بين البشر كقيمة إنسانية عليّة. تدور الرواية حول ذكريات 'آدم كسحي' الذي فقد أمّه منذ طفولته. يذكر أمّه والنساء الأخرى اللاتي إحتضنّه بعد أمّه. أولاً يذكر أمّه مريم الكراتية، الجميلة والفاطنة التي كانت شبقا للرجال والجنود. ولكن في مرّ الزمان تركتها الأيام إلى الدرب وماتت فيه. فأصبح الولد في يد 'وهيبة' المتسولة والنساء المتسولات الأخرى اللاتي درّبنه على فنون التسول والأساليب المختلفة لأن يكتسب المال من الناس بتدوير العطف والشفقة. وهكذا أصبح الولد متقنا في هذا الفن. وفي يوم من الأيام وصل إلى مسجد حيث وصل فيه كثير من الناس من مختلف الأحوال. يصوّر الروائي خلال هؤلاء الناس قضايا مختلفة ومتعدّدة. ينقد فيها الواقع الاجتماعي والإقتصادي والسياسي. ويزيح الروائي الستار لأن يتعرى أمام القراء حقيقة مألّمة مفعجة للمجتمع.

وهناك الروائي أحمد الضحية ونصار الحاج ومأمون التلب ومحمد خلف الله وزينب علي ونفيسة الشرقاوي وعبد الغني كرم الله وشوقي بدري ويحيي فضل الله وإبراهيم بشير إبراهيم وعمر الحميدي ومكي محمد علي وحسن الجزولي ومحمد خلف الله سليمان وروايته 'في تأويل مقام الورد' وعمر محمود عباس وعثمان سنغار وعادل القصاص ومروان حامد الراشد وهشام آدم وروايته أرتكاتا والسيدة الأولى وأرض الميّت ... والقلادة تطول وتنثر درر الإبداعية...

الطيب صالح و"موسم الهجرة إلى الشمال"

مشاعر العرب ضد الإستعمار كما تظهر فيها

دراسة نقدية

أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها

قدّمتها

حسينة. ب

تحت إشراف

بروفسور الدكتور أحمد إبراهيم رحمة الله

الرئيس السابق (المتقاعد)

قسم اللغة العربية بجامعة كاليكوت



قسم اللغة العربية

جامعة كاليكوت

كيرلا ، الهند

2012م

الباب الثاني

الطيب صالح إنسانا وأديبا

الفصل الأول

الطيب صالح – ولادته ونشأته

الفصل الثاني

الملاح الإبداعية في كتابة الطيب صالح

الفصل الأول

الطيب صالح - مولده ونشأته

الطيب صالح هو من الكتاب المبدعين الذين جلبوا إلى السودان الصيت اللامع والسمعة الطيبة، وهو موهبة عظيمة انفجرت في الوطن السودان وبدأت أن تنساب رافدا دافقا إلى نهر الأدب العربي المعاصر، وأصبحت الموهبة تتويجا للرواية العربية وتصعيدا لمكانتها في الفن الروائي العالمي. ولد الطيب محمد صالح أحمد عام 1929م (1348هـ) في إقليم مروى في شمال السودان، بقرية كرمكول التي تعيش فيها ثلاث قبائل متمازجة هي: الركابية والبديرية والشايقة. أهلها كانوا ينالون عيشهم بالزراعة وكانوا مكتفين ذاتيا، وكانت هذه المنطقة تصنع ثقافتها الخاصة، ولم تعرف التعليم النظامي إلا في سنوات متأخرة، لكنها كانت موفورة بالتعليم الديني من خلال الخلاوي والمساجد. هذه القرية هي "العالم الوحيد الذي أحبه الطيب صالح بلا تحفظ ولم يشعر من بعده بتمازج مع مكان آخر ولم يشعر يوما بإكتمال حياته كما كان يشعر في حياة القرية التي لم تكن تخلو من شظف وسيعرف لاحقا معنى تواصل الإنسان مع بيئته"¹. فلنسمع إلى أقوال الطيب صالح نفسه عن قريته التي وجد فيها معنى الاستقرار والإستمرار. "ولدت في المنطقة الفاصلة بين ديار الشايقية والداقلة. أهلي من قبيلتي البديرية والركابية، وربما كانت أنسابهم قد اختلطت بقبائل أخرى، لكن معظمهم من الركابية. وديارنا توجد في قشابي والعفاض والدبة وهي التي توجد فيها كرمكول... الدبة حيث ولدت وترعرعت، وكانت بلد علم وعلماء منذ قديم الزمان... نشأت بهذه المنطقة المفعمة بتاريخها الزاخر بعاداتها وتقاليدها المتسامحة، وداخل مجتمع متساكن ومندمج في أواخر الثلاثينات والأربعينات. كانت قرانا مكتفية بذاتها مثل جميع قرى شمال السودان، والناس تأكل من الأرض التي تزرعها بالقمح والذرة والدخن والذرة الشامية والخضراوات. كانت تلك البيئة تصنع ثقافتها بنفسها، أذكر عندما يجيئ

⁽¹⁾ مقدمة، الطيب صالح دراسات نقدية، د\ حسن أبشر الطيب، ص - 12

المذاحون إلى بلدتنا للتغني بقصائد في مدح الرسول (ص). يعتبر ذلك مجدا جليلا ومناسبة كبيرة ينتظرها الناس بفرغ الصبر، وفور وصولهم تذبح الذبائح ويجتمع الناس ليلا في دائرة ورجالا ونساء وأطفالا ويستمعون بانتباه ونشوة لتلك القصائد¹.

ولد الطيب صالح ثالث ابن لمحمد صالح أحمد وزوجته عائشة وأسمياه 'الطيب' تفاؤلا بالصحة طول العمر، وأملا ألا يلقي مصير أخويه الذين ماتا في سنّ الرضاع. وهناك رأي آخر في إختيار هذ الاسم، يقال في يوم ولد فيها الطفل أراد جدّه أن يسمّيه أحمد، ولكن والدته عائشة زكريا التي يلقّبها أهلها بالضحوكة لإبتسامتها الدائمة، والتي كانت فقدت مولودين قبله، أخبرت الجدّ كيف بارك النبي الخضر لها في المنام بأنّ مولودها القادم سيكون ذو جسم نصيح. فهكذا سمّوه بإسم 'الطيب' أي طيّب الجسم. يقول الطيب صالح عن أمّه "كانت أمّهاتنا صغيرات السن، ففارق العمر بيني وبين والدتي سبع عشرة سنة، أذكر أننا كنا نلعب مع أمّهاتنا ومن كنّ في جيلهنّ. لها ذاكرة قويّة وشديدة الحفظ، تقف في حلقة المديح فتحفظ كلّ ما يقال. وقد سمعتها مرارا تروي المدايح والأغاني وشعر الدوبين (شعر البادية في السودان).

إلتحق الطيب صالح بخلوة الفكي الفقيه (كان يطلق عليه تمييزا الفكي أي الفقيه) علي ود حامد، أحد أجداده، لحفظ القرآن عندما كان في الخامس من عمره. تعلم القراءة والكتابة حين بلغ الثامنة. "يذكر الطيب صالح يوم ذهب لأول مرة برفقة والدته ووجد الخلوة تمور بالنشاط. أطفال في مثل سنّه أو أكبر قليلا يرتلون القرآن الكريم. وأحيانا يتقافزون ويلعبون أو يقرؤون من ألواح خشبيّة وجميعهم من أهله وأقاربه"². عاش الطيب صالح طفولته عادية كتلك التي يعيشها أقرانه الصبية في قريته، في رعاية الغنم وجمع التمر والزرع في الحقل.

⁽¹⁾ حريدة الوطن، العدد 730، سبتمبر 1997

⁽²⁾ المصدر السابق

عندما اكتمل الطبيب صالح المرحلة الأولى في التعليم في الخلوة في قريته، إنتقل لدراسة المرحلة الوسطى (الإعدادية) والتحق بمدرسة بربر في مدينة بور سودان، الميناء البحري السوداني على البحر الأحمر شرق البلاد. هذه المدينة كانت مبنية على أيد الإنجليز وكانو يهدفون منها أن تكون ميناء على البحر الأحمر بدلا عن مدينة سواكن التي رأوا أن ميناها لا يفي بالتوسعات المطلوبة وأرادو أن يمتروها لأسباب سياسية.

كان الطبيب صالح الولد لم يرض هذه المدينة الجافة لكنه أقام فيها لأجل دراسته في أيام كان وصول الأولاد إلى هذه المرحلة الدراسية حدثا. وفي هذه المرحلة بدأ أن يتعلم اللغة الإنجليزية وكان يحبها جدا شديدا دون وعي أنها لغة المستعمر وبدون إدراك عن مسألة الإستعمار. يروي عن الطبيب صالح واقعة طريفة، إختاره المدرّسون أن يرحّب بالحاكم الإنجليزي عندما زار المدرسة، لأنه كان أفضل زملائه في إجادة اللغة الإنجليزية ووقف أمامه ليردّد أمامه 'عاش الحاكم'.

إنتقل الطبيب صالح إلى مدينة أم درمان بعد تكمّل دراسته الوسطى في بور سودان. والتحق بمدرسة 'وادي سيدنا' للتعليم الثانوي. وفي هذه الأيام كان عدد الطلاب الذين ينتقلون من المدرسة الوسطى إلى الثانوية في السودان يبلغ مائة وعشرين طالبا في العام وكان هذا العدد يشكل نخبة السودان وكانوا جميعا من النابيعين. كانت مدرسة وادي سيدنا تجري على نماذج معظم المدارس في إنجلترا وكانو يدرّسون فيها المواد التي يدرسها الطلاب في مدارس الأرسطراطيين الإنجليز وكان الإنجليزيون يهدفون بهاذا التعليم أن يعدّ نخبة من السودانيّين تدين لهم بالولاء، نفس الشيء الذي تابعوه في كلّ المواطن التي إستعمروها. كان الطبيب صالح معجبا بهذه المدرسة ويظهر إعجابه هكذا "كانت مدرسة وادي سيّنا مدرسة فاخرة بناها الإنجليز بناءا باذخا على غرار أعظم المدارس في إنجلترا وكنا ندرس تماما كما يدرس الإنجليز في مدارس الأرسطراطيين". يقول إبراهيم الصلحي، أحد أصدقاء الطبيب صالح "إنّقت الطبيب صالح "إنّقت الطبيب صالح لأول مرة أثناء فترة

الدراسة في المرحلة الثانوية بأمر درمان قبل انتقال مدرستنا إلى وادي سيدنا في نهاية عام 1945م، أيام كان التعليم في تلك المرحلة في السودان يقوم على أساس نمط بريطاني بحت، تأهيلا للنشرب بنمط حياة المستعمر وخدمة لأغراضه. إذ كانت وتيرة الحياة المدرسية على غير ما ألفناه في المرحلتين السابقتين الابتدائية والمتوسطة، فكانت جميع العلوم تدرس باللغة الإنكليزية ما عدا الدين واللغة العربية - ولو كانوا قد وجدوا إليهما سبيلا لما أبقوا على تدريسهما لنا بلغتنا العربية الأم. والهدف في الغالب الأعم كان لخلق الجيل المسوخ الذي يعمل وفق إرادتهم بقر محدود من العلم بما يفي بالغرض¹.

وفي عام 1949 إنتقل الطبيب صالح إلى الكلية الخرطوم الجامعية والتحق بكلية العلوم. كانت هذه الكلية تسهل للطلاب لأن يلتحقوا بكلّيات الطب والزراعة والصيدلية والبيطرية والهندسة. كان الطبيب صالح يرغب في دراسة الآداب وكان أستاذه الإنجليز مستر 'لانغ' يشجعه على ذلك. ولكن كلية الزراعة كانت ترقى من هذه الكليات في، هذه الأيام وكان الطلبة كلهم ينجذبون إلى هذه الكلية لأنها كانت تتيج لخريجها وظيفة محترمة وكانو يعتبرون مفتشين للزراعة ويعطون دارا فسيحة مع الخدم. فطبعاً انجذب الطبيب صالح أيضاً إلى هذا الفرع من العلم عندما رأى فيها شيئاً مريحاً، ولكنه لم يستطع أن يستمرّ دراسته فيها لأن هذه الدراسة كانت تطلب من طلابها بتشريح الأرانب والفئران والصراصير جزءاً لمناهج الدراسة، ولذلك هجر الطبيب صالح كلية الزراعة والتحق بكلية الآداب.

"وبدأ الطبيب صالح بهرب الى كلية الآداب ليستمع إلى محاضرات إنجليزي يدعى مستر هارت. وذات مرة إنتبه المحاضر الإنجليزي إلى أن الطالب الذي يناقشه ليس من طلابه، فسأله من أين تأتي؟ وعندما قال له: أنني أدرس في كلية العلوم، طلب أن يطلع على شهادته الثانوية، فوجده حاصلاً على درجات ممتازة في المواد

¹ العالم المفتوح في نذكر أكرم صالح، الطبيب صالح دراسات نقدية، داحسن أشهر الطبيب، ص - 134

الأدبية فاقترح عليه أن يلتحق فوراً بكلية الآداب، والذي حدث أن الإقتراح وجد صдаه معمقا كراهية الطيب صالح لدراسة العلوم دون أن يقنعه تماماً بالآداب فكانت النتيجة أنه ترك الإثنين¹. قرّر الطيب صالح قطع دراسته الجامعية الزراعية والتحق بالتدريس ليدرّس اللغة الإنجليزية في مدرسة الشيخ لطفي في رفاة بوسط السودان. وانتقل منه إلى معهد بخت الرضا حيث أمضى نحو خمسة أشهر. نال البكالوريوس في العلوم من جامعة الخرطوم، ثم تابع تحصيله العالي الجامعي في الكلية الملكية بجامعة لندن وحاز على ليسانس في علم الشؤون الدولية.

وفي سنة 1952 أعلنت هيئة الإذاعة البريطانية عن حاجتها في قسمها العربي إلى محرّرين ومذيعين ومترجمين سودانيين في إطار سياستها بتنويع طاقمها من مختلف الأقطار العربية. وكان الطيب صاحب آنذاك يعمل مدرّساً ومع ذلك كان يفكر أن يعود إلى جامعة الخرطوم. وعندما سمع عن إعلان الهيئة الإذاعة البريطانية قدّم طلباً إلى هذا المنصب وحاز في إمتحان القبول في مكتب الخرطوم ليسافر إلى لندن عام 1953.

يقول الطيب صالح في هذا الصدد "كنت أدرّس في جامعة الخرطوم فضقت بها وتركتها. عملت فترة قصيرة في التدريس في بلدة رفاة. لم يكن لدي ماذا أريد أن أفعل، ولكنني أحسّ بطريقة مبهمة أن الذي أريده لن يتحقق، وأن الذي سوف يتحقق ليس هو الذي أبحث عنه. كنت أسمع الإعلانات من إذاعة أم درمان أن إذاعة لندن تطلب مذيعين. ولم أكن أظن الأمر يعنيني، فلم يخطر في بالي أن أكون مذيعاً. وذات يوم قلت لصديقي بل أخي فتح الرحمن البشير: ما رأيك؟ قال لي 'لم لا'. قدّمت بعد إنتهاء

⁽¹⁾ جريدة الوطن، العدد 730، سبتمبر 1997

موعد تقديم الطلبات بين الجدّ والمزاح. ومن هنا إلى هنا وجدتني فجأة في لندن في عز الشتاء"¹.

وفي عام 1953 غادر الطيب صالح السودان إلى بريطانيا العالم المختلف من بلده الحار والألفة والحبّ والشفقة بين الناس. "عند وصولي إلى لندن لسعني البرد وأحسست بزمهرير داخلي... فاجأني هذا الطقس فقد جئت من منطقة حارة، وها أنذا أصل إلى منطقة باردة جدا. كانت هناك سحابة من دخان أسود فوق سماء لندن"². ولم يكن الطيب صالح سعيدا على الإطلاق في هجرته إلى لندن ولم يرغب أن يترك ورائه أهله وأحبابه وداره الفسيحة والتواصل الإجتماعي وحرارة بلده. ولذلك كان متوترا وضيقا في عيشته في لندن في أيامه الأوانلة هناك حيث كان يحنّ حنينا إلى بلده الشغوف وقريته الرؤوفة. يقول في حوار مع هالة البدري من مجلة 'الخليج' القاهرية هكذا "معايشة الحياة في الغرب تجربة كبيرة لأنني ذهبت إلى لندن في أوائل العشرينات من عمري ووجدت حياة مختلفة عما تعودت عليه، وجدت نفسي أعيش في غرفة من أربعة جدران بعد أن كنت أعيش في بيوت لها أحواش واسعة، ووجدتني أعتمد ذاتي، وأنا قادم من بلد كله أهلي آلاف البشر والفضاء في السودان واسع. عليّ التأقلم لكنني تأقلمت لأن الكائن الحي يتأقلم، ولكن هذا كله لم يغيّر تكويني الداخلي، ظلّ في أعماق الإنسان السوداني كما هو إستفدت من التجارب وتعلّمت الإعتدال على نفسي وأن أعيش في مجتمع يعتمد على الغزلة مع بعض التعديلات نأخذها من هذه المجتمعات المعقدة التي تطورت من الناحية المادية - مجتمعات صناعية - وهذا بطبيعة الحال يغير من أسلوب العيش".

وهو يقول في موضع آخر "قضيت أشهرا في لندن أول وصولي لا أكاد أكل شيئا، والروائح المنبعثة من أجسام البشر رائحة الصوف المبتلّ. والبرد برد ينفذ ليس إلى عظامك فقط، ولكن إلى أعماق روحك، طبقات من الصوف بعضها فوق

⁽¹⁾ المصدر السابق

⁽²⁾ جريدة الوطن، العدد 730، سبتمبر 1997

بعض، أثقال تحملها وتسير بها ولا تدفأ، والزحام والضوضاء واللغة الغربية، لغة غريبة تخاطب بها قوما غرباء كأنك شخص آخر، كأنك لست أنت، وتمرّ عليك لحظة تحسّ فيها بالفعل أنك لا تدري من أنت، وأين أنت، إنها لحظة حاسمة فإمّا أن تعود حيث أتيت إلى اللغة الأليفة والأماكن الأليفة والوجوه الأليفة، وإمّا أن تواصل السير إلى حيث لا تعلم إلى أين. كرهت كل ذلك في بداية الأمر كان صوتي في الإذاعة يخرج ضعيفا مترددا خاليا من الرنين، وخطواتي تتعثّر في شارع المدينة الكبيرة، وعقلي كالمشلول لا تألف الطعام"¹.

في نفس السنة التي ذهب الطبيب صالح فيها إلى لندن إكتشف موهبته الأدبية واستمّد مناخها الإبداعي من واقعه السوداني، وقد كان السودان لا يزال يخضع لسلطة الإستعمار البريطاني، حيث عرض معاناة بلده ورأى حقوقه تدارس فتنامى لديه الوعي الوطني مقابلا التعسف الإستعماري.

وفي لندن، عمل الطبيب صالح في القسم العربي في بي بي سي، وشغل منصب مدير قسم الدراما التلفزيوني الناطق العربية وسرعان ما تفجّرت مواهبه وإبداعاته. يذكر عبد الرحيم الرفاعي الذي كان يعمل في بي بي سي مع الطبيب صالح، عن وصول هذا المنصب إلى الطبيب صالح "حينما عدت من عملي في تونس رئيسا لقسم الدراما بعد إستقالتي من البي بي سي إثر العدوان الثلاثي على مصر عام 1956، كان المستر هوايتهد رئيس السابق في بي بي سي قد وعدني كتابيا بعمل رئاسي إذا عدت إلى الإذاعة البريطانية بعد عودة العلاقات الدبلوماسية بين مصر وبريطانيا، ولكني حينما وصلت إلى لندن في أواخر عام 1959 لأتسلّم هذا العمل الرئاسي الموعود، لم أجد شيئا في إنتظاري. فقد كان أخونا جمال الكناني رحمه الله قد تسلّم رئاسة أهمّ قسم في الإذاعة وقتذاك؛ وهو قسم الدراما والبرامج الترفيهية والوثائقية، وكان الطبيب صالح قد عيّن وكيلا له، فأين موقعي إذن؟ وفجأة شاء القدر أن يتقدّم جمال الكناني بإستقالته، ويفرغ منصب الرئيس، ولكن هناك

⁽¹⁾ سيدي الطبيب الحشوم والوقور، محمد بن عيسى، الطبيب الصالح دراسات نقدية، دا حسن أبشر الطبيب، ص - 19

الطبيب الذي يحقّ له. بطبيع الحال تولى منصب القيادة الذي خلى باستقالة الكفاني، فذهبت أنا إلى المستر وترفيلد أشكو إليه عدم تلبية شرط عودتي إلى لندن بتولى منصب قيادي، فاقترح عليّ الرجل حلاً للمشكل يتوقف تنفيذه على الطبيب صالح، وقال إذهب وأقعع الطبيب أن يتنازل عن حقه في رئاسة كلّ القسم بفروعه الثلاثة؛ الدراما والبرامج الترفيهية ومشكورا على تقسيم القسم إلى قسمين: قسم للدراما وقسم للمنوعات والبرامج الترفيهية. فأصبحت أنا رئيسا لقسم البرامج الترفيهية وتسلم هو الدراما، على أن يصبح كل قسم إدارة مستقلة¹. وهكذا وصل إلى الطبيب صالح قسم الدراما في الهيئة الإذاعة البريطانية في لندن.

كان مديعا ذا صوت واضح مبين يجذب السامعين إليه بحلاوة صوته ونبرته وكلماته. "لقد حقق الطبيب صالح في إذاعة لندن ما لم يبلغه سوى قلة من النوايع، فكان المذيع الالامع ذا الصوت العميق الدافئ الودود، الذي يشدّ الأذن والقلب معا. حين يقرأ حديثا تشعر وكأنك تستمع إلى صديق تأنس إليه يحدثك من مقعد مريح مقابل وأنتما تجلسان حول مدفأة.. وحين يدير حوارا يسحر ضيفه بقدر ما يسحر المستمع! وحين يقرأ الشعر يكاد جهاز الراديو أن ينقلب إلى تلفزيون ينقل خيالات الشاعر صورا تتراقص أمام عينيك"². حينما كان الطبيب صالح يشرف على قسم الدراما في الإذاعة في بي بي سي، كان الممثلون المصرون الكبار يتقاطرون حوله ويرتاضون لأسلوبه في التعامل. كان من بين هؤلاء الممثلين يوسف وهبي وعباس فارس ومحمود السباع وأمينة رازق ومحمد توفيق وأمينة نور الدين وفردوس حسن وسليمان نجيب وعبد الوارث وعمر الحريري... إلخ.

يقول الطبيب صالح عن القسم العربي في بي بي سي "في الأوقات الأزمات السياسية في الخمسينات والستينات وقد تحولّ القسم العربي في الهيئة الإذاعة البريطانية إلى منبر حرّ ليس له نظير في كلّ الإذاعات العربية. وقد فرض مستر

(1) أكرم النانس ، عيج الرحيم الرفاعي، الطبيب صالح دراسات نقدية، دا حسن أبشر الطبيب، ص - 52
(2) صديق الطبيب، صالح أحمد صالح، الديب صالح دراسات نقدية، دا حسن أبشر الطبيب، ص - 44

ووتر فيلد، رئيس الأعلى لبي بي سي، حماية كاملة على الموظفين العرب، فلم يكن أحد يستطيع أن يمسّ أحدا منهم بسوء. وله موقف شهير، أصبح يضرب به المثل في تاريخ هيئة الإذاعة البريطانية. عام 1956، أثناء حرب السويس، حين هاجمت بريطانيا وفرنسا وإسرائيل مجتمعة على مصر، غضب رئيس الوزراء سير أنتوني إيدن، إن هيئة الإذاعة البريطانية والقسم العربي خاصة تهاجم سياسة حكومته وتعطي حيزا كبيرا لهجوم زعماء المعارضة. فحاول أن يفرض رقابة عليها. فتصدى له كبار موظفي الهيئة وعلى رأسهم مستر ووتر فيلد ومنعوه من ذلك. وليس من المبالغة القول إن محاولة إيدن التدخل في عمل هيئة الإذاعة، كانت من الأسباب التي أدت إلى إستقالته. إلى هذا الحد بلغ نفوذ هذه الهيئة الفريدة التي ليس لها نظير¹. إختارت هيئة الإذاعة البريطانية الطيب صالح واحدا من بين الصفوة من مذيعيها الذين نقلوا للعالم مراسيم تتويج الملكة إليزابيث الثانية في اليوم الثاني من شهر يونيو 1953.

إهتمّ الطيب صالح خلال سنواته الأولى بالمرسح وقرأ كثيرا من الكتب في الأدب والفن والتاريخ والاجتماع. كان مولعا بأدباء في الأدب العربي والأدب العالمي. "نال الطيب صالح مكانة إجتماعية وأدبية سامية في مجتمع الإذاعة وأروقتها ومنندياتها، أذكر أن إعتدنا أن نجلس بعد ساعات العمل في كافيتيريا الإذاعة، وكان يدور نقاش جدي يتناول مواضيع سياسية وأدبية شتى يشارك فيه عرب من جنسيات مختلفة وبريطانيون وآخرون. وكان أكثر ما يبهرنني وأنا أستمع إلى الطيب وهو يسهم في ذلك النقاش فضلا عن بلاغته وتمكنه من الكلمة عربية كانت أم إنكليزية، عمق ثقافته وسعة إطلاعه. أسمعته يحاور البريطانيين في أدب شكسبير وتينيسون ولورد بايرون ويحارب العرب بالعمق والتمكن ذاتهما، في الأدب العربي من عصور المتنبي وأبي نواس وابن الرومي وذو الرمة ومرورا بشوقي وحافظ وطه حسين إلى عصر نجيب محفوظ ويوسف إدريس ونزار قبّاني وصلاح عبد الصبور وأحمد عبد المعطي حجازي ويطوف معهم في

⁽¹⁾ العالم المفتوح في تذكر أكرم صالح، الطيب صالح دراسات نقدية، د\ حسن أبشر الطيب

بساتين بيرم التونسي وصلاح جاهين وفؤاد حداد والحدلو والعبادي والراضي من أمراء الزجل السوداني. ويحفظ من أقوال كل هؤلاء وأشعارهم الكثير¹.

كان لندن مسرحا عند الطيب صالح لتفجير موهبته الأدبية الباهرة، فهذه النقلة في الزمان والمكان وما خلقته من تناقضات صنع عالم الطيب صالح الروائي. وأتاحه العمل في الإذاعة البريطانية فرصا لأن يتعرف على كثير من الأصدقاء من الأقطار العربية والأخرى، وأوجد له العمل المناسبات لأن يزور إلى العواصم العربية وأن يتعرف على أهلها. وهكذا أصبح لندن بوابة للطيب صالح لأن يدخل إلى عالم ملكاته الأدبية وإلى عالم بلاد المختلفة.

في لندن مال الطيب صالح قليلا إلى الاشتراكية الفابية. كان من أبرز أعضائها من الأدباء الإنكليزي برنادشو وأوسكار ويلد، وه. ج. ويلز. يقول الطيب صالح نفسه عن هذا الموضوع هكذا "كانت مدرسة لندن للإقتصاد التي أنشأها حزب العمال قريبة من مقر هيئة الإذاعة البريطانية، فتابعت المحاضرات ودرست هنالك العلوم السياسية وتعمقت في قراءة الفابيين ووجدت نفسي أميل إلى الاشتراكية العمالية". وكذلك كان للطيب صالح علاقة متينة بجماعة الكويكرز وهذه الجماعة كانت تبغي الاندماج الحقيقي في المجتمع الإنكليزي وانتهى بتأقلم وقبول عميق. "ربما تأقلمت أكثر مما ينبغي، لكن أعضاء أندية الكويكرز من أطيب البشر ومعروف عنهم أخلاقهم الفاضلة وهم يعتنقون مذهباً مسيحياً قريباً جداً من الإسلام لأنهم وحدانيون وليس لهم كنيسة".

زار الطيب صالح بيروت للمرة الأولى في العام 1958، عندما كان لا يزال عاملاً في هيئة الإذاعة البريطانية، فتعرف إلى يوسف الخال وأدونس. وكان لبيروت تأثيراً واضحاً على مسيرته الأدبية. أقام في لبنان فترة طويلة، تعرف خلالها

⁽¹⁾ صديق الطيب، صالح أحمد صالح، الطيب صالح دراسات نقدية، دا حسن أبشر الطيب، ص - 45

إلى كتاب وفنانين عديد من لبنان، والطيب صالح يعتبر أن شهرته في العالم العربي إنطلقت من بيروت التي أحبّه وأحبّ ناسها وطبيعتها وتجوّل كثيرا في شوارعها.

وبدأ في عام 1960م حياته الصحفية والإعلامية عندما تولى تغطية أعمال الجلسة العامة للأمم المتحدة بنيويورك كمراسل لإذاعة بي بي سي البريطانية. تزوّج الطيب صالح امرأة إسكتلندية اسمها جولي ماكلين عام 1965م وأنجب منها ثلاث بنات؛ زينب، سارة وسميرة. تزوّج امرأة تنتمي إلى ثقافة مختلفة وواجه كثيرا من الأسئلة عن هذا التعايش بين الحضارتين المختلفتين. مرة عبّر الطيب صالح بشفافية في حديثه حين سئل عن الصعوبات التي يواجهها أحيانا نتيجة لهذا الاختلاف في الثقافة والمزاج قائلا: الأمر ليس بسيط في كلّ الأوقات، لكنّها امرأة في غاية الطيبة، ومتفهمة ووهبتني ثلاث بنات جميلات، وأظنّ أنّ أفضل ما فعلت هو أنني فكرت منذ البداية أي أنّ محاولة لسودنتها ستكون مضرّة بها وبي فقبّلتها كما هي وقبّلتنني كما أنا.

عاد الطيب صالح إلى بلده السودان عام 1966 وربطته صداقة محمد أحمد محجوب أحد أقطاب حزب الأمة الإسلامية واقترح عليه بعد عودته إلى السودان أن يتبوأ منصب مدير الإذاعة السودانية لإرتباطه بهيئة الإذاعة البريطانية، لكنه قبل منصب مستشار. وهكذا تولى وظيفة مستشار في الإعلام والإذاعة بوزارة الإعلام السودانية. وأصبح كاتب نصوص للإذاعة السودانية حيث إشتهر بسرده 'سيرة ابن هشام' في برنامج سيّد ابن هشام، وبتقديم مقابلات إذاعية مع رواد سودانيين في الأدب والفن. لكنه ترك هذه الوظيفة بعد سنتين وعاد إلى لندن واشتغل مابين العامين 1968 – 1974 منصب مساعد رئيس منتج البرامج لهيئة الإذاعة البريطانية وكلفه أن يعدّ المنشورات الثقافية وبرمجتها. وفي ذلك الوقت كان رئيسا لفريق يشتمل من خمسة عشر عضو.

إستقال الطيب صالح من بي بي سي عام 1974. وبعد ذلك ذهب إلى قطر وتولى هناك منصب مدير العام لوزارة الإعلام خلفا لمحمود الشريف

الذي أصبح رئيساً لتحرير الصحيفة الأردنية اليومية 'الدستور' وكمستشار ثقافي لليونسكو. عمل الطبيب صالح سبع سنوات في قطر، شكلت هذه السنوات محطة مهمة من حياته، سافر خلالها إلى الهند وتايلندا وأستراليا واليابان ودول أوروبية مختلفة. ولكنه كان يحبّ البلد قطر وأهله حباً عميقاً في قلبه وهو يظهر عن هذا الحبّ خلال أقواله هذه "كانت حياتي في قطر هادئة ورائقة خاصة أن أسرّتي معي وبناتي آنذاك صغيرات فأدخلتهنّ مدرسة إنجليزية ممتازة. كانت الحياة سهلة، واكتسبنا صداقات طيبة، وجدت في قطر وضعاً يناسبني تماماً ويتلائم مع طباعي، لم يكن مطلوباً مني إعلان الولاء لأحد لكنني بتلقائية أحببت البلد وأهله ومنحتهم ولائي، ولم يكن التطبيع والمدح يروق القطريين. لذلك وجدت نفسي في وضع مريح وأمضيت هناك فترة مفيدة ومثمرة جداً"¹. ثم عاد الطبيب صالح ليتولّى منصباً دولياً في مقرّ المنظمة الدولية للتربية والثقافة والعلوم في باريس.

مكث الطبيب صالح طول حياته خارج السودان مشدوداً إلى السودان الذي لم يفارق مخيلته ولا حياته، ظلّ على علاقة وطيدة وبما طرأ عليه من تحولات في السياسة والإجتماع. كانت أحلام العودة إلى السودان هاجسة في مخيلته. ويؤكد هذا قول الطبيب صالح نفسه ردّاً على السؤال الذي طرحه عليه الأستاذ خالد الأعيسر في حوار تلفزيوني "ألم يحزن وقت هجرة الطبيب صالح جنوباً للإستمتاع بدفء العشيرة والأهل بعيداً عن بلاد تموت من البرد حيتانها كما وصفتها؟ فجاء رد الطبيب صالح عليه رداً حزيناً "أنا دائماً أقول حين أواجه بهذا السؤال بأنني أحمل السودان بين أضلاعي... ولست في حاجة إلى أن أعود إليه لأنني عايش فيه... وفي هذا الزمان أصبح الوجود الجسماني لشخص في مكان جغرافياً ما مهمّ ولكنه ما هو مهم جداً.. في فترات كنت أزور السودان كثيراً وكان الناس أعزّهم في السودان أحياء.. فقلو.. الموت ما قصر، أخذ كثيرين من الأعزاء، لكنني أحبّ جداً أن أتمكن من زيارة السودان على فترات قصيرة. الآن لا أستطيع أن أسافر، لكن

⁽¹⁾ جريدة الوطن، العدد 730، سبتمبر 1997

عندي أمل قويّ، إن شاء الله قبل ما نودّع هذه الدنيا، نزور البلد، ونشّم هواها، ونشّم تربتها، ونرى ما بقي من الأصحاب"¹.

وفاته

توفي الطبيب صالح في إحدى مستشفيات العاصمة البريطانية لندن في ليلة الأربعاء 18 شباط فبراير 2009 الموافق 23 صفر (1430هـ). في فتراته الأخيرة أصيب بفشل كلوي الذي اضطرّه إلى إجراء عمليات غسيل كلّي ثلاث مرّات في الأسبوع. وكان يستدعى إلى متبرّع لإجراء عملية زراعة كلّي. فتقدّم شاب سوداني لتبرّع كليته للأديب العبقرى الطبيب صالح، وبدأت الإستعدادات لإجراء العملية الجراحية لزراعة كلّي في إحدى مستشفيات دبي. ولكن فجأة ساءت الأحوال وحدثت بعض التعقيدات في حالته المرضيّة التي أدّت إلى تأجيل العملية. لأن الأطباء إكتشفوا في حين إعدادهم لتلك العملية أن الأديب يعاني من ضيق في الشرايين ويحتاج إلى دعامة. فأجريت له عملية الدعامة التي لم تسمح بإجراء عملية زراعة الكلّي. وبعد ذلك أصيب بجلطة في القلب ثم إنتقلت إلى المخ مما جعله يمكث لفترة طويلة في العناية المكثفة بمستشفى برومتن في وسط لندن. ثم نقل إلى مستشفى ويمبلدن بالقرب من منزله بجنوب غرب لندن. وقد حاول الرئيس السوداني عمر البشير ونائبه علي عثمان محمد طه وكبار المسؤولين في الدولة والسفارة السودانية في لندن لأن يعيد الأديب إلى حالته الصحيّة السليمة وكانو يتابعون إجراءات علاجه ويستفسرون حالته الصحيّة للإطمئنان عليه طوال فترة علاجه في المستشفى. ولكنه رحل إلى جوار رحمة الله في ليلة الأربعاء 18 شباط فبراير 2009 الموافق 23 صفر (1430هـ).

رافق جثمانه إلى السودان شقيقه بشير محمد صالح وصديقه محمود عثمان صالح ودفن في مقابر البكري في أم درمان، المدينة التي قال عنها

⁽¹⁾ المصدر السابق

الطبيب صالح "هي المدينة التي ترنو إليها باقي بلاد السودان. كان كل واحد منا يجد أن لديه أقارب أو أهلا في أم درمان. مكانا ميكروكوزم .. لقد بدأت أم درمان تتكون بكيفية طبيعية لكننا كسرناها لسوء الحظ"¹.

يعتبر الطبيب صالح من أعلام الأدب العربي، وهو رجل

مع ميول إسلامية. يقول أحد أصدقائه في لندن "بينما كنا جلوس في إحدى بنايات لندن في شقة وكان الطبيب صالح جالسا معنا وكنا نتذكر الصحابة. فذكر الطبيب صالح قصة بلال بن رباح، وكنا نتحدث فنهلت الدموع من الأديب الطبيب صالح. مع وقت الصلاة المغرب فقام أحد الحضور ذو صوت جميل بالأذان. فذكر الطبيب صالح أن هذه البناية كانت بناية ومكتب ونستقن تشرشل أحد سياسي بريطانيا وداعم إسرائيل الأول. فقال لو يدرى تشرشل أن الأذان يصدق في مكتبه ماذا سيفعل؟

ومعروف عن الطبيب صالح موقفه السلبى من نظام الإنقاذ الذي تبوأ السلطة السودانية عبر إنقلاب حزبىران يونيو 1989. وراجت عنه مقولته الشهيرة "من أين جاء هؤلاء" التي تنبأها حينذاك الكثيرون من المثقفين السودانيين. واعدت السلطة السودانية إلى منع أعمال الطبيب صالح الأدبية من التدريس في جامعة الخرطوم. ومع هذه الأعمال من قبل الحكومة في بلدته السودان، لى الطبيب صالح دعوة النظام للعودة إلى السودان العام 2005، فعاد ليشترك في المهرجان "الخرطوم عاصمة للثقافة العربية" ليكون نجم المهرجان.

وكان الطبيب صالح متواضعا تماما مع أنه كان في قمة الشهرة، خاصة بعد نشر روايته 'موسم الهجرة إلى الشمال' التي أختيرت ضمن أفضل مائة رواية في تاريخ الإنسانية. يقول الطبيب صالح بتواضعه الجم "أقول لك صادقا ليس لديّ أيّ إحساس بأهمية ما كتبت، ولا أحسّ أنني مهمّ، هذا ليس تواضعا لكنها الحقيقة، إذا اعتقد

¹ جريدة الوطن، العدد 730، سبتمبر 1997

الناس أن ما كتبته مهمّ فهذا شأنهم لكنني قطرة في بحر، قصيدة واحدة للمتنبّي تساوي كل ما كتبته وأكثر". يتحدّث عبده خال، الروائي السعودي عن الجوانب الإنسانية والشخصية للطبيب صالح "حضرت للطبيب صالح الكثير من المحاضرات والندوات. فشخصية الطبيب صالح ودودة لطيفة يشعرك بشيء من الإخوة والصدّاقة. قلّمًا تراه ضاحكا ولكنه يضحك في بعض أعماله، وهو محبّ للحياة".

يذكر عبد الرحيم الرفاعي أحد أصدقاء الطبيب صالح حياته في لندن مع الطبيب صالح "تشاركنا العيش سوياً، وسرعان ما أدركت ميزات الطبيب صالح إلى جانب الذكاء الوقاد والثقافة الشاملة في اللغتين العربية والإنجليزية. أهمّ تلك الميزات الطباعية الإنسانية العالية والكرم، ولا بدّ أن يكون الطبيب من الأحفاد السودانيين لسلالة حاتم الطائي! ما أذكره جيداً عن تلك الفترة التي عشناها سوياً قرب ريجنس بارك في لندن، أنّ الطبيب صالح كان ملازماً للكتاب باستمرار، ومعظم وقته في المنزل كان يقضيه بصحبة الكتب، وكان زائراً مستديماً للمكتبات يبحث عن آخر الإصدارات يشتري منها لنفسه وكثيراً ما كان يهدي من بعضها أو يلفت نظري إلى بعض ما قد يهمّني الإطلاع عليه سواء في موضوع الفلسفة أو موضوعات المسرح والدراما والفن عموماً"¹.

وهو نموذج يجمع في شخصيته بين الوطنية السودانية وبين الثقافة العربية. وهو مثقف غربيّ ولكنه يحمل في نفسه هموم السودان وهموم أمّته العربية التي منها تفجّرت ثقافته ولغته. وإن كان يعيش في الغرب في تطوّرهِ، لم ينس جذوره الأصلية ولم يغيب من نفسه أنّه ابن العربي ولم ينس أحواله السائدة من الفقر والتخلف والآلام. كان عاشقاً لوطنه السودان وأصالته العربية. وكان له علاقة وطيدة بقريته كرمكول من إقليم مروي. والقارئ الذي يقرأ كتبه والناظر الذي ينظر إلى ثقافته وتفكيره يرى إمام الطبيب صالح الكثيف بكل التفاصيل اليومية الدقيقة في العيش وأعمال قبيلته الكابية. يقول د. أمير

⁽¹⁾ أكرم الناس، عبد الرحيم الرفاعي، الطبيب صالح دراسات نقدية، د\ حسن أبشر الطبيب، ص - 50

تاج السر الروائي السوداني وإبن شقيقة الطيب صالح، من العاصمة القطرية الدوحة للعربية نت "كان إنسانا في كل مراحل حياته، مثالا للسوداني البسيط الذي تشاهد نمودجه عادة في القرية كأحد المزارعين، وكانت له علاقته المميزة بصلة الرحم مع شقيقته التي هي أمي، وكان حريصا على أن يأتي لزيارتها في الدوحة.

NB 6067

وفي الكتاب صدر حديثا عن دار العودة بعنوان "الطيب صالح عبقرى الرواية العربية" لمجموعة مؤلفين، يقول محى الدين سبى عن هذا الأديب "منذ عامين إلى اليوم، لم أجمع بأديب عربى من مشرق وطينا أو مغربه إلّا وكان الأديب السودانى الطيب صالح مدار حديثنا ومثار إعجابنا ومحلّ تقديرنا، يستوي في ذلك الأدباء والشعراء والنقاد ومتقفو القراء ممّن أتيح لهم أن يطلعوا على إنتاجه القليل المنشور في المجلات الأدبية حتى غدا الطيب صالح معلما على القصة العربية الجديدة والإنتاج الأدبي المتميز. والأديب الذي كان أن ولد ناضجا بالغ النضج في نظرتة وأسلوبه ومعالجته".

كان إبننا حنونا لوطنه السودان وأصبح السودان بحنان إبنها المدلل الأديب الطيب صالح نجما من النجوم تلمع في سماء الأدب العربي ومنحها الروائي إسما عظيما في المحافل الأدبية والفضائيات، بعيدا من إرث الحروب، ونزوات السياسة البغيضة في السودان. كانت كلّ كتاباته تنضج بمعلوماته الثرة في الشعر والشعراء والتاريخ والتجارب الإنسانية والسياسية. جاء في مقدمة لقاء مع الطيب صالح في المجلة الوطن العربي من القاهرة "عندما تجلس إليه لتحاورة تشعر حينها أنك لا تجالس رجلا عاديا، بل هو موسوعة تمشي على القدمين، فلا تملّ عنده أحاديث الأدب، وقضايا الشعر ولا يصيبك الضجر وهو يطارحك السياسة، ولذين لا يعرفون، فالرجل سياسي من الوزن الثقيل، وأنه كان لونه الأدبي قد طغى لدى متلقي المعرفة والثقافة"¹.

⁽¹⁾ روائع الأدب السودانى، مجلة الوطن العربى، القاهرة، 20 - 12 - 1996



وهذا هو روائيتنا السوداني الفقيه الطيب صالح، ويجود

أن ينتهي هذا الفصل ببعض الأبيات عنه كتبها الشاعر السوداني المشهور سيد أحمد
الحدلو:

الطيب صالح

إسم على مسمى

سامق كقمة جبل التاكا

مزهر كهضبة جبل مره

معطاء كنهر النيل

راكز كأهرامات البركل

ومتواضع كنخيل بلادي،

الطيب صالح،

ابق لنا

ابق للقلم والقرطاس

وللهيل والليل

ابق للحرية والدموقراطية

وحقوق الإنسان

ابق للسودان القادم من كل الرياح

وفي كل الرياح

وطنا سالما

وطنا غانما

وطنا كسباناً... وطنا ربحاناً¹.

¹ إسمك صار وطناً، سيد أحمد الحدلو، الطيب صالح دراسات نقدية، ص - 52

الطيب صالح و"موسم الهجرة إلى الشمال"

مشاعر العرب ضد الإستعمار كما تظهر فيها

دراسة نقدية

أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها

قدّمتها

حسينة. ب

تحت إشراف

بروفسور الدكتور أحمد إبراهيم رحمة الله

الرئيس السابق (المتقاعد)

قسم اللغة العربية بجامعة كاليكوت



قسم اللغة العربية

جامعة كاليكوت

كيرلا ، الهند

2012م

الفصل الثاني

الملاحم الإبداعية في كتابة الطبيب صالح

الطبيب صالح هو روائي شافق عملاق في الأدب العربي مع مميزات أدبية بارزة. عندما نعتبر مؤلفاته الأدبية نتعجب لأهم ميزاتها وخصوصياتها المملوذة المبينة، ونشعر أن كل هذه المؤلفات قد ركبت من عنصرية واحدة. مؤلفاته الأدبية هي مثل الأزهار التي تفتحت من غرس واحد. يقول أمي إبعاد بوسقلا الكاتب الإسرائيلي في هذا الصدد "في هذا السياق، من الإهتمام أن أستشهد خليل النعيمي الذي سئل في مقابلة إذا كان يعتبر أنه (الطبيب صالح) كتب رواياته باعتبارها أعمالا من عضوية واحدة، فقال : لاحظت هذا منذ وقت قصير. إنها مثل بناء منزل مع عشرات من الغرف التي تفتح بعضها إلى البعض".¹ ولكنها في الوقت نفسه يمكن لنا أن نقول أن كل هذه المؤلفات تستلّق بإفادتها وبفتيتها حتي لتكون لها كيانا قائما على ذاتها ولها وجوديتها حرة. فإنّ نلاحظ إلى العناصر التي تجعل مؤلفات الطبيب صالح مميزة بهذه الميزة.

الوحدة في التشخيص

ومن الواضح أنّ مؤلفات الطبيب صالح ملوذة بشخصيات رئيسية وثانوية. وطبعا هذا الأمر شائع في النصوص الأدبية العربية والعالمية. فإنّ ما هي الخصوصية عند الطبيب صالح في هذا الأمر. التأمّل بأعماله الأدبية مع ترتيب صدورّها توضح أنّ شخصياته تنمو وتتحدّ وفقا لمتغيرات ومقتضيات الزمان والمكان. أي أنّ الكاتب يخلق نفس الشخصيات ثانيا وثالثا ومرارا في أعماله الأدبية. فمثلا يظهر شخصية 'الراوي' في أغلب أعماله وهو الذي يروي القصة. تلعب هذه الشخصية دورا مهما في عالم الطبيب صالح الأدبية أمثال مؤلفاته 'حفنة تمر' و'موسم الهجرة إلى الشمال' و'ضوء البيت' و'مربود'.

¹ 135 p. Ami Elad Bouskila, a study of Al Tayyib Salih and his work, Voices of exiles –

وكذلك هناك شخصية "محجوب" الذي يظهر في 'نخلة على الجدول' و'موسم الهجرة إلى الشمال' و'عرس الزين' و'ضوء البيت' و'مريود'.

الراوي هو نموذج لمتعلم سوداني الذي ولد ونشأ في قرية سودانية ثم غادر بلده إلى بلد أجنبي لإستمرار دراسته. وبعد ذلك عاد إلى قريته وأصبح موظفا في المدينة. والآن هو يجول بين المدينة والقرية؛ بين وظيفته وعيشه في القرية. يظهر الراوي في مختلف أطوار حياته خلال مؤلفات الطيب صالح المختلفة. مثلا يصور الراوي طفولته وبعض الحوادث المتعلقة بطفولته في قصة 'حفنة تمر'. أما عند وصول القراءة إلى الرواية موسم الهجرة إلى الشمال يرى نفس الراوي مخرجا في الأوربا وعائدا إلى قريته مشتاقا إلى أهلها وعطرها وجمالها. والآن أصبح موظفا في قسم التعليم في الخرطوم عاصمة السودان. أما عند مراجعة الرواية الأخيرة للطيب صالح 'بندر شاه' في جزئها - 'ضوء البيت' و'مريود' أصبح الراوي متقاعدا من وظيفته وعاد إلى قريته لأن يعيش فيها حتى أواخر أيامه وأن يموت فيها وأن يقبر فيها.

أما شخصية 'محجوب' هو شخصية أبدعها الطيب صالح في أول إبداعه الأدبي هو قصته الأولى 'نخلة على الجدول' ويظهر محجوب مرارا في أعمال الطيب صالح الأدبية. يظهر محجوب في 'نخلة على الجدول' وهو يمثل الشاب من القرية الذي يشتغل بزراعته وحقله وهو مزارع يؤمن بالله إيمانا عميقا لأن يزول بعض المشاكل من حياته مثل الفقر والدين. وهو يأتي مرة أخرى في الرواية 'عرس الزين' والآن هو رجل في متوسط العمر يتناول أمور القرية ويدبر كل الأحداث فيها أمثال الأمور المتعلقة بالمسجد والعرس والموت والحوادث الأخرى التي تحدث في القرية. أما في الرواية 'موسم الهجرة إلى الشمال' أصبح محجوب زعيم القرية، هو رئيس لجنة المشروع الزراعي الذي بدأ حديثا في القرية وكذلك هو زعيم سياسي ينتمي إلى الحزب الاشتراكي. أما في بندر شاه، قد تغير الأحوال وأصبح محجوب هرما وأضاع منه الحكم والقيادة وأصبح ساقطا من قمة

حكمه بتقدّم الزمان والتغيّرات التي حدثت في أسلوب الحياة الإجتماعيّة والسياسيّة في المجتمع السوداني. وأصبح الجيل الجديد الشاب الذي يدّعي للحكم الديمقراطي قاعدا في القرية.

والشخصية الأخرى التي تتكرر في النصوص الأدبية للطيب صالح هو شخصية 'الجدّ'. هو رمز للإستقرار والإثبات طوال هذه النصوص. يظهر في 'حفنة تمر' و'موسم الهجرة إلى الشمال' ولكن عندما وصل إلى 'بندر شاه' أصبح واحدا من ذكريات الرواي. كان 'شخصيّة "سعيد البوم" مصدر سخرية في رواية الطيب صالح الثانية 'عرس الزين'. ولكنه يظهر في 'بندر شاه' بعد أن دار الزمان وقد أصبح سعيد عشا البايتات بعد أن كان بوما، تزوّج بنت الناظر وصار يعتلي مئذنة الجامع داعيا إلى الصلاة ويتعبّر أسلوب حديثه ومنطقه وإهتماماته وأصبح القائل "أنا سعيد عشا البايتات ود زايد ود حسب الرسول عربيّ حرّ، على اليمين أهلي في سودري يحجبو ضوء الشمس مالي أنا مسلم موحد لله".

والأمر الملحوظ هنا هو أن ظهور هذه الشخصيات يتكرّر خلال رواياته في أدوار مختلفة وفي أطوار مختلفة من عمرهم. ومنح الطيب صالح إهتماما لكل هذه الأطوار في مستوى مختلفة من حياة هؤلاء الشخصيات وعرضها أمام القارئ في كلّ معانيها. والتناول في هذه الطريقة من الشخصيات الإبداعية الأدبية قدرة إبداعية متفرّدة التي يمتلكها الروائي الفنان الطيب صالح. إستطاع أن يجسد صورة حيّة لشخصياته في مراحل مختلفة من عمرهم. يتحدث كل شخصياته في كل حالة بلسانهم وفق ما تستوجبه مستوجبات الزمان والمكان.

ومع هؤلاء الشخصيات الخالدة في عالمه الأدبي، ترك الطيب صالح بعض شخصياته تماما بدون خلقها واستعادتها مرة أخرى إذ لم يرى لهم أيّ دور يلعبون به في المرّة الثانية. ومن فئة هذه الشخصيات "مصطفى سعيد" الذي لا يظهر إلا في

روايته 'موسم الهجرة إلى الشمال' وكذلك "الزئير" الذي كان محورا يدور حوله كل وقائع الرواية في 'عرس الزئير' ولم يبدعه ثانيا سوى بعض الذكر عنه في 'ضوء البيت'.

الوحدة في الموضوع

والميزة الثانية الواضحة في أعمال الطبيب صالح هي تكرار الموضوعات التي عالجهما الروائي. يأتي الطبيب صالح بموضوع واحد ويتناولها في غالب مؤلفاته. ولكن الأمر العجيب هنا، وإن كان يعالج نفس الموضوع في كثير من مؤلفاته، وهو لا يسبب إلى سأم القراء ولا يؤدي إلى مللهم، لأنه يعالج موضوعا واحدا في شتى ألقها ومختلف نطاقها. ومن موضوعات هذه الفئة 'المقابلة بين الحضارتين أو بين الحضارة الشرقية والغربية'. وربما كان السبب إلى هذه الظاهرة، ذلك أن الطبيب صالح قد عاش في هاتين الحضارتين وفهم كل صعودهما وهبوطهما وتعمق إلى جذور كلتا الحضارتين. أتى الطبيب صالح بهذا الموضوع وتناولها في روايته المشهورة 'موسم الهجرة إلى الشمال' وبعض قصصه أمثال 'خطوة للأمام' و'لك حتى الممات' و'هكذا يا سادتي' و'رسالة إلى إيلين'.

والموضوع الآخر الذي يتكرر حينا بعد حين في مؤلفات الطبيب صالح هو 'المصادمة بين القرية والمدينة'. يظهر هذا الموضوع في قصته 'نومة ود حامد' و'موسم الهجرة إلى الشمال'. وكذلك يتكرر الموضوع 'المصادمة بين القديم والجديد' في بعض مؤلفاته أمثال 'ضوء البيت' و'مريود'. والموضوع الآخر هو 'العلاقة بين عامة الناس والحكومة' الموجود في 'نومة ود حامد' و'ضوء البيت' و'مريود'.

القرية والسودان

الملاحظة إلى مؤلفات الطبيب صالح تبين أن الروائي الطبيب صالح يدير أحداث رواياته وقائعها في موقع واحد أي أن هذا الأديب العملاق يأتي بروايته

دائرة داخل موقع واحد. وهذا الموقع هي القرية 'ودّ حامد' التي تقع في شمال السودان وجعل هذه القرية سودانا مصغرا واشتغل عليه. استطاع الطيب صالح أن يقدم في أعماله القليلة صوراً دقيقة للقرية السودانية والتراث الشعبي ونماذج من الشعر الشعبي السوداني والتقاليد الاجتماعية في السودان. وهذه القرية المتخيلة صورة لقرية كرمكول التي تقع عند منحى النيل في شمال السودان. "كثيرون يرون أن عبقرية الروائية الطيب صالح كان تأكيداً لمقولة مشيعة الإنسان ابن البيئة. فمن يعرف روايات الطيب صالح يعرفون أيضاً أنها جزء لا يتجزأ من الواقع في قرية صغيرة إسمها كرمكول تقع عند إنحناء النيل الكبرى في شمال السودان. من هذه القرية خرج على الدنيا نجم الرواية السودانية الطيب صالح. كل الكتب التي وضعها الطيب صالح استمدت من بيئة هذه القرية البسيطة، البيئة التي تنتمي إلى الأخلاق، وجذورها مرتبطة بالدين بالعادات والتقاليد"¹.

تدور أحداث رواياته جميعاً في إطار هذه القرية. أخذ الطيب صالح أبطاله من هذه القرية وصاغ أوصافه وصوره في بيئتها وبتّ رواه وأفكاره خلالها وبرز الطابع السوداني في دقة وجمال ووصف الحياة في القرية السودانية في أوضح وصوفها. تقول فاطمة شرف الدين، كاتبة لبنانية "وإن شرب (الطيب صالح) من مياه نهر التيمز، فقد ظل وفيّاً لحضارة مروي القديمة. فما انقطع عن خرب سواقيه ولا عن مجرى نهريه ولا عن تلك النخلة في بيت جدّه الضاربة عروقها في الأرض"². نرى أن هذه القرية تظهر في عديد من مؤلفات الطيب صالح أمثال 'دومة ود حامد' و'حفنة تمر' و'نخلة على الجدول' و'عرس الزين' و'موسم الهجرة إلى الشمال' و'ضوء البيت' و'مريود'. يقول أمي إلعاد بوسقيلا "يخلق الطيب صالح في أعماله عالماً بديلاً لذلك الذي عاش فيه في انكلترا، عالماً الذي تركه عندما كان شاباً، ولكنه كان مستوعباً في داخله. وفي معظم أعماله الأخيرة يعطي الطيب صالح صورة مفصلة ومعقدة عن القرية السودانية التي ولد وترعرع فيها.

(1) لقاء مع الأديب الطيب صالح – www.youtube.com

(2) مجلة الدوحة، ص 125

ومن الواضح أن هذا ليس عالما مفتعلا لا صلة له بالواقع. على العكس من ذلك، هو حقيقي وعميق ملموس مبني على أساس قرية ود حامد الفعلي في شمال السودان. إلا أن المؤلف الذي قطع نفسه عن تلك الحياة، يخلق طبقات جديدة لم تكن جزءا من القرية الأصلية، ولكن هي ثمرة خياله"¹.

ارتبطت أعمال الأدبية للطبيب صالح بقرى السودانية الشمالية، وأظهر معالمها في كتاباته التي خلّدت كثيرا من ملامح المكان وأساطيره ورموزه. وقد ترك الأديب الطبيب صالح قريته مؤقتا حينما سافر إلى أم درمان لدراسته الثانوية وبعد ذلك تركها حينما كان في الأربعين من عمره إلى إنجلترا لطول الوقت. ولكنه كان ملتصقا بهذه القرية طوال هذا الوقت. وبالرغم من البعد في المكان نراه مبيّنا عن قريته خلال سطور مؤلفاته مضيفا إلى قريته أوصافا حقيقة وأوصافا خيالية. "كانت القرية له مثل جنة مفقودة التي كان يعود إليها سائحا أو زائرا"². فقرية ود حامد الخيالية التي ابتكرها الروائي وبيئتها هي نفس البيئة لقريته كرمكول في شمال السودان الحاضنة للحضارات السودانية القديمة. فهو نفسه نتاج لهذه البيئة الغنية بالموروث الثقافي التي منحت رواياته هذا العمق وهذا الثراء.

توجد مؤلفاته الأدبية محافلا بمشاعر الإنتماء والحنين إلى الجذور والنيل والنخيل وأشجار الدوم والحقول، حتى يقال أن الطبيب صالح عندما كان ينزل مدينة خلال رحلاته الطويلة التي زار فيها دولا كثيرة كان أول ما يبحث فيها هو الأنهار ويستعيد ذكرياته مع شجرة الدوم على ضفة النيل ويروي مشاعره تجاه شجرة إستظل بها طويلا في بلاده. وكذلك يقال عنه أنه كان يحمل جوازا من اليونسكو التي كان يعمل فيها إلا أنه كان يعتز بهوية بلاده، وكان يفضل أن يخرج ذلك الجواز السوداني الأخضر رغم عواقب ذلك. يقول الطبيب صالح في إحدى مقالاته "ما كان أهون أن أ طرح

¹Voices of exiles – A study Al Tayyib Salih and his work, Ami Elad Bouskila, p: 136

²Voices of exiles – A Study of Al – Tayyib Salih and his work, p: 3

عني هذا العينة، و أ طرح الحبل السري الذي يربطني إلى هذا الوطن المستحيل، ما كان أسهل أن أبل تابعية بتابعة وجوازاً بجواز، لكن حاشا والله لا أفعل، سوف أتثبت بهذا الجواز كالذي يقبض على الجمر، أمشي به في مناكب الأرض بإصرار فيه معنى التحدي والغيط والحسرة" وهو الذي قال "أن الشخص الذي يطلق عليه لفظ كاتب أو مبدع يوجد طفل قابع في أعماقه، والإبداع نفسه فيه البحث عن الطفولة الضائعة. ويقول أيضا حين كبرت ودخلت في تعقيدات الحياة كان عالم الطفولة بالنسبة لي فردوسا عشت خلاله متحرراً من الهموم، أسرح وأمرح كما شاء لي الله. وأعتقد أنه كان عالماً جميلاً... وذلك هو العالم الوحيد الذي أحبيته دون تحفظ، وأحسست فيه بسعادة كاملة وما حدث لي لاحقاً كان كله مشوباً بالتوت.

عبر الطبيب صالح عن تجليات الثقافة السودانية وقيمها والتقاليد القروية خاصة قرية ود حامد التي تحاول الصمود أمام التقدم والتغير والحداثة. خلط معظم أعماله بين العربية الفصحى المعاصرة واللهجة السودانية وظل حريصاً على تأكيد ولأنه لثقافته السودانية الشمالية والوان الحياة فيها. كان دائماً حنياً إلى وطنه وهو يقول "أهم شيء صنعه في الرواية العربية، أنني أضأت منطقة مظلمة في الوعي العربي الحنين للوطن... عنصر طاغ في كتاباتي النوستولوجيا"¹. وجدير بالإشارة إلى حوار أجرته الصحفية المصرية سوسن الدويك مع الطبيب صالح، لإلقاء الضوء على ولائه في أصالة السودانية في كتاباته.

سوسن: "أهلك قالوا لك:- والله ياهو.. دا كلامنا ذات، ولكن فيه شويه لولو، قلت لهم هذه اللولو هي التي يسمونها فنا. هل هذا هو الوجه الآخر لإنصاف الحقائق التي تحدثت عنها؟". الطبيب صالح:- "هذا الحديث الذي ذكرته صحيح. فهذا قريب لي إسمه محبوب، شخصية ظريفة، وهو لم يسمع بالإبداع أو شيء من هذا القليل، ولا يعرف القراءة. ولكنه طلب من

¹ منقول عن السودان أون لاين

أحد الشباب المتعلمين بالطريقة أن يقرأ له الرواية، فقرأها، فوجد أنه كلامه. وهذا التعبير دا كلامنا هات ولكن فيه شويه لولة على قدر بساطته، فهو يشير إلى بساطة الناس وفطرتهم الذكية وهو لاء الناس مش لعبة! وأنا أسميهم خبراء الحياة"

سوسن:- "السودان أحمله بين جوانحي أينما ذهبت، هذا هو الوجد الأول البديهي والانهائي، هكذا قلت كأنك تحمل السودان بين الجوانح ولا نحس أنك فارقه لحظة. ما موقع السوداني على خريطة حياتك؟"

الطبيب صالح:- "السودان... ولدت في أرضه فيه مهبط رأسي، ويقال إن الإنسان يظل عالقا به وما زلت يقربني الدبة في شمال الأوسط من السودان، أنني إغتربت عن السودان، فالغربة تؤكد إحساس الإنداء. صحيح أنني أرى أن الوجود الجسدي بالمكان ليس مهما خصوصا بالنسبة لكاتب أو لفنان، ولكن حساس الغربة موجود عندي وأعامل معه بطرق مختلفة.. تعامل لا يخلو من عنصر الوجد ولكن ليس وجعا دائما أو مستمرا في 24 ساعة في اليوم.. أحيانا أنساه¹.

حرك الطبيب صالح قلمه وريشه لأن يخدم التراث السوداني. قال مرة، حقيقة التراث أنه موجود في دما وجزء من تكويننا هو ميراثنا. واتجه الطبيب صالح بكل طاقاته ومكانته الأدبية للاكتشاف عن أصول الحياة السودانية وعن ثقافتها وجذورها التي تعمقت في التراب السوداني. وعرض أمام العالم إن للمجتمع السوداني له فلسفته في الحياة وقيمه وتقاليد ونظمه التي بها استطاع أن يمسك إمساكا شديدا على كيانه أمام تيار الإستعمار الذي طال فترات من السنوات وإستطاع هذا المجتمع أن يبقو وجدانه من التمزق أمام الهجمات الشرسة من الإستعمار. يبدي الطبيب صالح هذه الحقيقة على لسان الراوي عن جذه في روايته موسم الهجرة إلى الشمال "أنني كنت منذ صغري تتخذ خيالي حكايات الماضي، أذهب إلى جذي فيحدثني عن الحياة قبل أربعين عاما، قبل خمسين عاما،

¹ منقول عن السودان أون لاين

لا بل ثمانين عاما، فيقوَي إحساسي بالأمن"¹. وهذه الإشارة إلى حكايات الماضي من الجدّ إلى الحفيد هي إشارة إلى تاريخ الماضي وإلى الأحداث الماضية وتواصل الأجيال الجديدة بالماضي وعلاقتها به. فالطبيب صالح يؤمن بماضي مجتمعه العميق وتاريخه وأصالته وجذوره ويحسّ بالأمن والإطمئنان عندما ينظر إلى الماضي والمستقبل. ويعبّر أيضا عن هذه المشاعر على لسان الراوي في موسم الهجرة إلى الشمال "ونظرت خلال النافذة إلى النخلة القائمة في فناء دارنا، فعلمت أن الحياة لا تزال بخير، أنظر إلى جذعها القويّ المعتدل، وإلى عروقتها الضاربة في الأرض، وإلى الجريد الأخضر المنهدل فوق هامتها فأحس بالطمأنينة. أحسّ أنني لست ريشة في مهبّ الريح، ولكّني مثل تلك النخلة، مخلوق له أصل، له جذور، له هدف"². فإذن كان الطبيب صالح يحبّ أن يلجأ إلى تراثه وحاول إحيائها خلال كتاباته.

رسم الطبيب صالح حياة السودانيين الإجتماعية واليومية في صورة جميلة ورسمها بريشه في ألواح واضحة في أعماله الأدبية وصبغها بصبغة رائقة جذابة في ألوانها المتنوّعة الحقيقة. وقد عرض حياتهم حتى أدقّ الأمور في حياتهم اليومية أمثال شرب القهوة اليومية والمكاملة والمسامرة في فناء الدكاكين الصغيرة. الطبيب صالح "هو حريص على لقطات من القرية ويركز عليها مثل العرس، عرس الزين وعرس سعيد الذي استغرق سبع صفحات. وجمعية القرية التي استغرقت صفحات. وهو حريص على أن ينقل لنا أحاديث الفلاحين حين يتسامرون، ما يشغلهم من صغائر الأمور التي يقضون فيها أكثر حياتهم، لاهين ضاحكين، حياة بسيطة لا تعرف التعقيد ولا قسوة الصراع، ولا تأليه المادة، حياة على الفطرة يفوح منها عبق الودّ، ورائحة الأرض الخيرة، وعرق المزارعين، وروح التعاون بين أهل القرية"³. "دخل محجوب دكان سعيد ووضع قطعة نقد على الطاولة، فأخذها سعيد في صمت وأنزل من الرفّ علبة سجائر بحارى ووضعها في يد محجوب

(1) موسم الهجرة إلى الشمال، الأعمال الكاملة الطبيب صالح، ص - 12

(2) المصدر السابق، ص - 15

(3) قضايا في الأدب والنقد، الدكتور ماهر حسن فهمي.

ومعها الباقي، قطع معدنية صغيرة. يشعل محجوب سيجارة وشدّ منها نفسين أو ثلاثة.. وظلّ سعيد مشغولاً بتفريغ علب من صناديق ووضعها على الرفّ. بعد ذلك تحرّك محجوب وجلس قبالة الدكان ليس على الكنية ولكن على الرمل مكانهم المفضّل، حيث ضوء المصباح يمسّهم بطرف لسانه. فإذا ماجو في ضحكهم أحياناً تراقص الضوء والظلّ على رؤوسهم، فكانهم غرقى في بحر يغطسون ويطفون"¹.

بيّن الطيب صالح أهل القرية السودانية كأثهم مطبوعين بالإخلاص والعفو في علاقاتهم التبادلية. إنهم يظهرون ما يفكرون ويبينون للآخرين عن خطيئاتهم وذنوبهم كما ترى آمنة غيابة سعادية في وقت جنازة أمّها عيبة من قبلها في رواية عرس الزين. وهم ينغمسون في المزاح والفكاهات ولا يختبؤون شيئاً عندما يذكرون عن مشاعرهم في الأمور المختلفة حتى في الأمور تتعلق بالجنس. كما يظهر الطيب صالح في موسم الهجرة إلى الشمال عن بنت مجذوب، هي جميلة مع أنها وصلت سبعين من عمرها، وهي تحادث عن تعلقها الجنسية مع أزواجها وتبينها للرجال بغير حياء وخجل. وهم مسرورين في حياتهم ويفرحون في كلّ الأمور ويضحكون صوت مرتفع ويصيحون في حالة الفرح والغضب كما يقول الطيب صالح في موسم الهجرة إلى الشمال "ونحن في بلد إذا غضب فيها الرجال، قال بعضهم لبعض: يا ابن الكلب"².

أهل القرية في أعمال الطيب صالح يدينون إلى الإسلام وهم متّقون ومع ذلك يشربون الخمر في حفلاتهم وجماعاتهم، ولكنّ كثيرون يحاولون أن يتبعوا الشروط الدينية في حياتهم اليومية، وهم يؤدّون الصلاة في المسجد حينما سمعوا الأذان. وفي جهة أخرى هناك البعض الذين لم يدخلوا المساجد في حياتهم. وهم يحتفلون بتقاليدهم الشعبية وتراثهم الدينية والثقافية. يذهبون في عصر الأربعاء إلى الدومة ويزورزن ضريحة الرجل الصالح ود حامد ويجتمعون تحت ظلّ الضريحة ويبتهلون لصاحب الضريحة بالدعوات

⁽¹⁾ عرس الزين، الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 257
⁽²⁾ موسم الهجرة إلى الشمال، الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 18

والتعجب والدموع والأنين. وهم يحتفلون إحتفالا كثيرا وبرونها فرصة سعيدة. يحتفلونها بالغناء والرقص والصيحة كما يحتفلون حفلة العرس والمآتم والختان.

وكذلك يشير الطبيب صالح عن نبالة المجتمع السوداني

والى عظمته وكرمه وجوده في روايته ضمّ البيت. يبين هذا خلال أقوال محمود أكبر العضو في المجتمع حينما يبين لضمّ البيت الرجل الغريب الذي ظهر فيهم يوما واحدا عن قيم أهل القرية ورأيهم ونظرتهم. "يا عبد الله. نحن كما ترى نعيش تحت ستر المهيمن الديان. حياتنا كدّ وشظف لكن قلوبنا عامرة بالرضى قابلين بقسمتنا قسمها الله لنا. نصلي فروضنا ونحفظ عروضا متحرمين ومثلزمين على نوايب الزمان وصروف القدر. الكثير لا يبطرنا والقليل لا يقلقنا، حياتنا طريقها مرسوم ومعلوم من المهد إلى اللحد. القليل عندنا عملناه بسواعدنا ما تعدينا على حقوق إنسان ولا أكلنا ربا ولا سحت. ناس سلام وقت السلام ناس غضب وقت الغضب. ما يعرفنا يظننا أننا ضعاف إذا نفخنا الهواء برميّنا، لكننا في الحقيقة مثل شجر الحراز النابت في الحقول. وأنت يا عبد الله جيتنا من حيث لا ندري، كفضاء الله وقدره أفاك المروج على أوبابنا ما نعلم أنت مين وقاصد وين. طالب خير وطالب شرّ. مهما كان نحن قبلناك بين ظهرانينا زي ما نقبل الحرّ والبرد والموت والحياة. نقيم معنا، لك ما لنا وعليك ما علينا، إذا كنت خير تجد عندنا كل خير، وإذا كنت شرّ فالله حسينا ونعم الوكيل".¹¹

يعرّف الروائيّ القوم العادي في السودان قوما ذا قلب

منشرح وواسع يستطيع أن يستقبلوا إليهم الرجال والشخصيات الذين ينتمون إلى الأديان والثقافة الأخرى وغير دينهم الإسلام. يضيئ الروائي هذه الحقيقة على لسان محمود لضمّ البيت الذي لم يذكر عن دينه. عندما فهموا أنّ ضمّ البيت ليس من دينهم، عرضوا عليه دين الإسلام ولكنهم لم يجبروه أن يدين بها ولكن محمود قال له "يا ضمّ البيت. نحن ناس مسلمين. لكن ما عندنا تشدد في موضوع الدين كل نفس بما كتبت، والله مخير في عبادته. ولو

¹¹ ضمّ البيت، الأعمال الكاملة للطيب صالح، ص - 382

كنا نعلم لك ملة لتركناك على ملتك. أمّا وأنت لا تعرف أنت من أيّ دين، فإيه رأيك ندخلك معانا ملة الإسلام، نحن نكسب ثواب وإنّ تنجو من غضب الله، ويسهل عليك التعامل مع ناس البلد، إذا حبّبت تستقرّ من ناحية الزواج والصهر"¹.

النزعة الصوفية والأساطير

الأثر الديني الصوفي شائع في إبداعات الأدبية السودانية، لأن جوّها الديني منتزع إلى النزعة الصوفية، والسودانيون يؤمنون بكرامات الرجال الصالحين وأولياء الله الفاضلين. وهذه المشاعر الدينية الصوفية قويّة في أنفسهم ومنعكسة في كلّ أعمالهم. يقول الدكتور إبراهيم الشوش الكاتب السوداني المشهور "وقد ظلّ هذا الشعور الديني منذ القرن السادس عشر الطابع الصوفي ونظام المريدين والقوّة الخارقة الكامنة في الأولياء والصالحين لا الجانب الفقه العلمي، ذلك لأنّ الجانب الصوفي بما فيه من تمثّل ملموس ومحسوس ومثير للخيال، كان أقرب إلى وجدان الجماهير، وأكثر قدرة على إشباع إحتياجاتهم الروحية. كما أن الإعتقاد بوجود قوى تتمتع بقدرات خارقة قادرة على قهر كلّ قوة دنيوية، يمنحهم الملجأ والسند في مواجهة قوى مادية لا قبل لهم بها ولا يجدون لها تفسيراً"². فالناس يؤمنون بأولياء الله الصالحين وبقدرتهم للإتيان بالمعجزات والكرامات وبتقواهم وبخشيتهم من الله وتجاب دعواتهم وشفاعاتهم. ومن العناصر التي يتكرر في مؤلفات الطيب صالح المعجزات والأحلام والأساطير. يزيد شمول هذه العناصر جمال العالم الأدبي للطيب صالح ورواقها وذوقها. يقول رجاء النقاش الناقد المصري في هذا الصدد "كان الفتح الأدبي والروائي الذي قدمه الطيب صالح للرواية، هو أنه لجأ إلى نبع جديد لم يشرب

(1) المصدر السابق، ص - 484

(2) الأثر الديني الصوفي في أعمال الطيب صالح، د/ محمد الشوش، الطيب صالح دراسات نقدية، حسن أبشر الطيب، ص - 157-158

منه أحد من قبل في مجال الأدب الروائي العربي. لقد تجاوز الطيب صالح العالم الروائي الواقعي إلى عالم آخر أسطوري"¹.

وقد إمتلئت كتابات الطيب صالح بالنزعة الصوفية والتيار الصوفي نتاجا لعلاقة السودان بالصوفية وطرقها وشعائرها التي لا تزال بارزة في التدين عند السودانيين في الداخل والخارج. ولجأ إلى توظيف هذا التراث الديني الصوفي في أعماله الإبداعية، ومن الواضح أن أغلب شخوص الطيب صالح يمتلكون ملامح صالحة وحسنة التي يمتلكها أولياء الله الصالحون. وللتصوف سطوة كبيرة، وهذا أمر واقع في السودان. فهذا الأمر مركزي وقيمة أساسية في كتابات الطيب صالح. فهو تأثر بمنطق السودان وسكونها وهدوئها الدينية والرجال الصالحين وقبابهم وضريحهم المنتشرة في كل أركان قرى السودان.

توجد نماذج كثيرة لهذه المعجزات والأحلام والأساطير التي تعلقت برجال الصالحين أمثال 'الشيخ ود دوليب' في 'نخلة على الجدول' و'واد حامد' في 'دومة ود حامد' و'الحنين' و'الزين' في 'عرس الزين' و'بندر شاه' في 'ضوء البيت' و'البلال' و'نصر الله ود حبيب' في 'مريود'.

وفي قصّة 'نخلة على الجدول' تتضح ملامح الصوفية في كرامات شجرة النخلة يمتلكها محجوب. وقد جلبت هذه النخلة الكرامات والخيرات لصاحبها الذي وجد هذه النخلة حينما كانت شتلة من ابن عمّه الذي رماها بعيدا. كانت خالية من الأضرار لاتصلح للغرس. فالتقطها محجوب ونفض عنها التراب وغرسها على حافة الجدول قريبا من الساقية وواراها التراب وفتح لها الماء بعد أن تلا آيات من القرآن وردّ في شيء من الخشوع "بسم الله، ما شاء الله، لا حول ولا قوة إلا بالله" مثلما كان يفعل أبوه كلما

⁽¹⁾ مريود قصيدة في العشق والمحبة، رجاء النقاش، الطيب صالح دراسات نقدية، حسن أبشر الطيب، ص - 211

يغرس شتلة أو حصد نباتاً. ولم ينس أن يصبّ في الحفرة قليلاً من ماء الإبريق الذي يتوضأ به أبوه تيمناً وتبرّكاً. واعتقد محبوب أنه تزوج بنتاً وأنجبت له بنتاً وتملك على قطع كامل من نعجة واحدة وأصبح ثرياً، كل هذه حدثت بعد ستة أشهر من غرس هذه النخلة وكل هذه حصلت عليه نتيجة لكرامتها. والآن قد أصابت القرية من القحط والفقر. ويؤمن أهل القرية أن هذه الحادثة حدثت تحقيقاً لنبوءة 'الشيخ ود دوليب'. لقد أُنذر الناس في يوم من الأيام أنه سيأتي عليهم يوم، يصير فيه اللبن كثيراً تافهاً مثل الماء، وتصير كيلة الذرة بقرشين ويصبح ثمن النعجة ريالين¹.

والكرامة تتركز حول 'الشيخ ودّ حامد' في قصّة دومة ود حامد. يزور أهل القرية ضريحة ودّ حامد ويبتهلون به ويقدمون نذرهم إليه. ودّ حامد حسب رواية أهل القرية كان مملوكاً لرجل فاسق، وكان من أولياء الله الصالحين، كتم إيمانه من سيّده ولم يجرأ على أن يصلي جهاراً أمام الناس حتى لا يصبح حرّاً من سيّده الفاسق. وعندما ضاق له الحياة مع ذلك السيد، دعا الله أن ينقذه منه. فهتف به هاتف أن يفرش مصلاته على الماء، وسأله الهاتف أن ينزل من الماء عندما تقف به مصلاته على الشاطئ. وقفت به المصلاة عند موضع الدومة الآن. وتظهر الكرامة خلال الأحلام والرؤيا. "وهكذا يا بني. ما من رجل أو امرأة أو طفل أو شيخ يحلم في ليلة إلا ويرى دومة ودّ حامد في موضع ما من حلمه. يقصّ الرجل "أنه رأى نفسه في أرض رملية واسعة رملها أبيض كلجين الفضة. مشى فيها فكانت رجلاه تغوسان فيقتلعهما بصعوبة. ومشى حتى لحقه الظمأ وبلغ منه الجوع، والرمل لا ينتهي عند حدّ. ثم صعد تلاً، فلمّا بلغ قمّته رأى غابة كثّة من الدوم في وسطها دومة - دومة طويلة، بقية الدوم بالنسبة إليها كقطع الماعز بينهن بغير. وانحدر الرجل من التلّ، وبعدها وجد كأن الأرض تطوي له. فما هي إلا خطوة بخطوة وخطوة،

⁽¹⁾ نخلة على الجدول، الأعمال الكاملة للطبيب صالح، ص - 458

حتى وجد نفسه تحت دومة ود حامد. ووجد إناء فيه لبن رغوته معقودة عليه كأنه حلب لساعته، فشرب منه حتى إرتوى ولم ينقص منه شيء¹.

و"الحنين" في رواية 'عرس الزين' رجل صالح منقطع لعبادة الله وأحدث كثيرا من الخيرات في القرية بدعائه "ربنا يبارك فيكم ربنا يجعل البركة فيكم". "بعد ذلك توالى الخوارق معجزة تلو معجزة، بشكل يأخذ باللب. لم تر البلد في حياتها عاما رخيا مباركا مثل (عام الحنين) كما أخذوا يسمونه. صحيح أن أسعار القطن إرتفعت إرتفاعا منقطع النظير في ذلك العام، والحكومة لأول مرة في التاريخ سمحت لهم بزراعته بعد أن كان ذلك وقفا على مناطق معينة في القطر. وصحيح أيضا أن الحكومة لغير ما سبب أو لسبب خفي لا يعلمونه، بنت معسكرا كبيرا للجيش في الصحراء على بعد ميلين من بلدهم. والجنود يأكلون ويشربون، فانتعشت البلد من توريد الخضروات واللحوم والفواكه واللبن للجيش. حتى أسعار التمر إرتفعت إرتفاعا ليس له نظير في ذلك العام. وصحيح أيضا أن الحكومة قرّرت أن تبني في بلدهم مستشفى كبيرا ومدرسة ثانوية ومدرسة للزراعة، ومرة أخرى عادت الفائدة على البلد...كيف تفسر هذا؟ عبد الحفيظ يعلم السرّ، فهو يقول لمحجوب وهو يجمع بين عينيه الحقل الواسع الذي هو حقله، والريح تلعب بالقمح فتثني صفوفه فكأنه حوريات رشيقة تجفف شعرها في الهواء: معجزة يا زول، ما في أدنى شك².

والمعجزة الأخرى التي حدثت تحقيقا لقول حنين هي عندما قال للزين "الزين مبروك. باكر يعرس أحسن بت في البلد". وبعدين تزوّج الزين أحسن بنت في البلد و أجملها، نعمة بنت حاج إبراهيم. وكذلك أصبح سيف الدين، الرجل العنيد القاسي رجلا طيبا تائبا إلى الله، بعد الحادثة التي تشاجر فيها الزين وسيف الدين وأصلح الحنين بينهما صلحا.

⁽¹⁾ دومة ود حامد، الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 506

⁽²⁾ عرس الزين، الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 237 - 238

أمّا عن الزين، روجت أمه أنه وليّ من أولياء الله. وقوي هذا الإعتقاد بصداقة الزين مع الحنين الذي لا يأنس إلّا إليه. والأمر الآخر الذي يشير إلى أن الزين ولي الله هو رواية أمّه والنساء اللاتي حضرن ولادتها للزين. وهن يروين أن الأطفال يستقبلون الحياة بالصريخ، أما الزين ولد إنفجر ضاحكا. وكذلك كان للزين صداقة مع الأشخاص يعتبرهم الناس من الشواذ، كان الزين يساعدهم ويرحمهم. وكل هذه الأمور أدت إلى الإعتقاد بين الناس أن الزين ولي من أولياء الله تعالى.

وفي رواية "مريود" هناك علاقة متينة بين 'الشيخ نصر الله ود حبيب' و'بلال' كما كانت العلاقة بين الزين والحنين في عرس الزين. وفي هذه الرواية تكثرت روحية الكرامة وتسمو العلاقات فوق المادية. بلال كان إسمه حسن. عندما سمع الشيخ نصر الله صوته الجميل علمه الأذان وجعله مؤذنا وكان يقول له "طوبى لمن شهد صلاة الفجر في المسجد على صوتك يا بلال، فوالله إن صوتك ليس من هذه الدنيا ولكنه نزل من السماء". وكان بينهما علاقة إحترامية. يروي الناس "أنه كان يؤذن لصلاة الفجر، تحسّ أن الصوت لا يصل إليك من مئذنة الجامع، ولكنه ينبع من قلبك. ويوم الناس بالصلاة الشيخ ود حبيب نصر الله. كان الجامع يمتلئ كل صباح بالمصلين، غرباء ولم يرههم الناس من قبل. كانت أبواب السماء مفتوحة في ذلك الزمان كما قالو ولمّا ماتا انحسرت ظلال الرحمة. وأغلقت أبواب الملكوت إلى يومنا هذا"¹. ويأتي الطيب صالح ببعض الأقوال الصوفية على لسان الشيخ نصر الله ود حبيب عن فخر السلطان والحكم، يقول "والله والله الذي لا إله غيره، إن أمراء المسلمين، إذا أخذ منهم الإغترار، وتزينت لهم الدنيا وهي دار البوار وأعجبتهم حالهم وكثرة إنصارهم وسكروا بكأس السلطان وبدا لهم أنهم أقوياء مخلدون في محاسبهم، ضربهم الله بصولجان عزته، وقصّهم ظهورهم، بسيف نقمته، وسلط عليهم سيوف أهل الكفر، ومكن منهم أعدائهم، وأخرج لهم من مكامن جحورهم من يكيّدون لهم ويغالبنهم

⁽¹⁾ مريود، الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 439 - 440

حتى يذهب الغالب والمغلوب، والطالب والمطلوب، فينقلبون وكأنهم أعجاز نخل خاوية، أو كهباء ذرته الريح في يوم صفصف كما فعل الله بقوم عاد وثمود، فالبدار البدار"¹.

وكذلك عندما يبين الطيب صالح عن وفاة بلال، فترتعث نفوس القراء وتضيئ بروحية كرامته وتمسك قلوبنا بدون زلة من إنتباه هذا المنظر "وذاث فجر إستيقظ الناس على صوته، ينادي من على مئذنة الجامع. صوتا وصفه الذين سمعوه بأنه كان كأنه مجموعة الصوت، وأخذت تكبر وتكثر وتعلو وتتسع، فكأنها مدينة أخرى في زمان آخر. قام كل واحد منهم من فراشه وتوضأ وسعى إلى منبع الصوت، كأن النداء عناء وحده في ذلك الفجر. ولما وقفوا للصلاة رأوا بلال يلبس كفنا، وكان الجامع غاصا بخلق كثير، من أهل البلد ومن غير أهل البلد. كان أمرا عجبا. كبر للصلاة كما كان يفعل أيام ود حبيب، ثم وقف ليصلي بهم، فلم يقف أمامهم حيث كان يقف الشيخ، بل وقف معهم في الصف الأول، وهو على تلك الهيئة. قرأ صورة الضحى بصوت فرح فإذا بالآيات نضرة كأنها عناقيد كرم. وبعد الصلاة إلتفت إليهم بوجه متوهج سعيد وحياتهم مودعا وطلب منهم ألا يحملوه على نعش بل على أكتافهم، وأن يدفنوه بجوار شيخه نصر الله ود حبيب، على أن يتركوا بينه وبين الشيخ مسافة تقتضيها أصول الإحترام والتبجيل. بعد ذلك تمدد على الأرض عند المحراب وتشهد واستغفر، والناس ينظرون في رهبة ودهشة، ثم رفع يده كأنه يصافح أحدا وأسلم روحه إلى بارئها. وحمله من موضعه ذاك من الجامع إلى المقبرة، وقالوا أنه مشى في جنازته خلق كأن الأرض إنشقت عنهم. ودفنوه عند الشروق فيما رووا، وأم بهم الصلاة رجل مهيب لم ير وجهه أحد ولكن أكثرهم قال أنه كان كأنه الشيخ نصر الله ود حبيب. وحدثوا أنه ما من رجل شهد وفاة بلال إلا وقد إشتهى أن تقبض روحه في تلك الساعة فقد جعل مذاق الموت في أفواههم كمذاق العسل."².

⁽¹⁾ المصدر السابق، ص - 452 - 453

⁽²⁾ مريود، الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 440-441

يقول الدكتور إبراهيم الشوش "في مريدود ينتقل الطيب صالح من معتقدات جمهرة العامة في بساطتها التي تبرزها حكاياته الأولى 'دومة ود حامد' و'عرس الزين' إلى محاولة التنقيب عن الأصول الأولى لهذه المعتقدات، راجعا في الطريق نفسه الذي سلكته الصوفية عند القرون، حين إنتقلت من ممارسات لقلة من الصفوة إلى نشاط ينتظم جمهور العامة. يريد بذلك أن يصل إلى أن الدعوة إلى الإصلاح الديني، كما الدعوة إلى التطور المادي، لا تكونان بمحاولة إجتثاث هذه المعتقدات قسرا، أو إنتزاع الناس من أحلامهم وتراثهم، وإنما من طريق فهم هذه المشاعر، والوصول إلى ينابيعها الروحية الأولى، ومن ثم تنقية ما شابه من الخرافة والدجل والأوهام"¹.

فخلال هذه النصوص الأدبية وهذه الشخصيات التي تنتمي إلى الصوفية، يمكننا أن نفهم أن الطيب صالح إنتقل من عالم الواقعية التقليدية إلى المشهد الصوفي والأسطوري. وهذا التنتقل قد أضافت على النصوص الطيب صالح نوعا من الحركة والتجدد في إطار الفعل الإنساني المقيد بقيم الواقع الإجتماعي. لأن الطيب صالح كان يحاول دائما أن يصنع التحدي ويبعث الإستجابة داخل نسيج الروائي، وكانت الإستجابة في كثير من الأحيان تأتي في شكل إرادة إنسانية قاذحة في موروثات واقع العيش وأحيانا معضدة بالسند الصوفي الذي يجسده إرادة الله في الأرض.

ومن الأجر القول أن هؤلاء الرجال الذين يصورهم الطيب صالح في أعماله الروائية والقصصية أولياء الله، كانوا رجالا صالحين متقين الذين اشتغلوا في عبادة الله تعالى. وليسوا يدعون أن لهم بعض القدرة العجيبة أو القدسية وليسوا لم يغشوا الناس العاديين وليسوا محتاجين إلى أي أمتعة مادية. ولكنهم كانوا صالحين للأعمال الحسنة وكانوا يدعون الله لأن يحدث الأعمال الطيبة وكانوا يساعدون الفقراء والمساكين. وكانت قدرتهم وملكتهم تحدث نتيجة لعمق إيمانهم بالله ونهيبهم عن المنكر. والطيب صالح هنا لم يدع

⁽¹⁾ الأثر الديني الصوفي في أعمال الطيب صالح، إبراهيم الشوش، الطيب صالح دراسات نقدية، د\ حسن أبشر الطيب.

أن هؤلاء الناس يحملون بعض القدرات الكبرى من الله تعالى. وهذا البعد الواقعي السحري هو أحد من العوامل التي جعلت أعمال الطيب صالح قادرة على أن تسلك ضمن شمولية كونية من حيث إن الإرث السحري الغامض خاصية حضارية إنسانية مشتركة. فكل إنسان في كل مكان هو ناتج لأسطورة أو أساطير متجذرة في ذلك المكان.

البيئة والطبيعة

يتميّز عالم الطبيب صالح الأدبي بشمولها من الرسومات الجميلة من البيئة والطبيعة. وقد رسمها الطبيب صالح مثل كانتات حية ومنحها الإهتمام كما منح لأشخاصه في نصوصه الأدبية. النهر والأشجار والنبات والزرع والحصاد وفيضانات النيل - علامات الأرض في خريطة القرية - تتردّد كثيرا ما حينا بعد حين في سطور هذه النصوص الأدبية وهي أيضا تلعب دورا مهما في هذه الأعمال الأدبية.

الشجرة هي منبع الحياة يحتاج إليه كلّ الناس. يصوّر

الطبيب صالح النخلة نقطة مركزية في حياة بسيطة كما كان الحال في أمر محبوب في قصة 'نخلة على الجدول'. وهذه النخلة تقوم كرمز للأمل والرجاء. كان محبوب يؤمن أنه قد حصل على كل حسن حظّه من الحياة بسبب معجزة نخلته. أنه تزوج وأصبح أبا لبنت، كل هذا وقع بعد غرسه النخلة بستة أشهر وكانت هذه النخلة تجري معه في كلّ أحوال حياته، في فرحه وحزنه وارتياحه وقلقه. هنا أصبحت الشجرة شريكا وزميلا يشارك مع الإنسان في كلّ أحواله. وفي قصة 'حفنة تمر' عرض الكاتب النخلة كأنما تشعر وتحسّ مثل الإنسان والحيوانات الأخرى. "حانر لا تقطع قلب النخلة" يذكر الراوي "أخذت أفكر في قول مسعود "قلب النخلة" وتصورت النخلة شيئا يحسّ له قلب ينبض، وتذكرت قول مسعود لي مرّة حين رأيّ أعبث بجريد نخلة صغيرة "النخيل يا بني كالأدميين يفرح ويتألم"¹.

وفي قصة 'دومة ود حامد' هناك شجرة الدوم تمثل كلّ

الأفكار الأصلية والكريمة وغير المتقطعة في قرية صغيرة بعيدة التي تقع على شاطئ النيل. "ها هي ذي.. دومة ود حامد. أنظر إليها شامخة برأسها إلى السماء. أنظر إليها ضاربة بعروقها في الأرض. أنظر إلى جذعها المكثّن الممتلئ كقامة المرأة البدينة، وإلى الجريد في أعلاها كأنه عرف المهر الجامحة. حين تميل الشمس وقت العصر، ترسل الدومة ظلها من

⁽¹⁾ حفنة تمر، الأعمال الكاملة الطبيب صالح، ص - 491

هذه الربوة العالية عبر النهر، فيستظلّ به الجالس على الضفة الأخرى. وحين تصعد الشمس وقت الضحى، يمتدّ ظلّ الدومة فوق الأرض المزروعة والبيوت حتى يصل إلى المقبرة. أتراها عقابا خرافيًا باسطا جناحيه على البلد بكل ما فيها؟¹.

يصور الطيب صالح النهر - النيل - منبعًا للقوة التي تدافع

الصراعات داخل الراوي في 'موسم الهجرة إلى الشمال'. هنا إستخدم الروائيّ النهر في إتجاه إيجابي، إذ غلب الراوي على صراعاته الداخلية وأراد أن يستمرّ حياته لتقدّم قريته ولمنع أهلها. أما بالنسبة إلى مصطفى سعيد في نفس الرواية، يحيل النهر كملجئ ومفرّ لإخفائه، واستعمل النهر وسيلة لنهايته عندما إنتحر غارقا في نهر النيل. النهر يعطي ويأخذ كما في أمر مصطفى سعيد وضو البيت. "هذا النيل كائن حيّ يفيض بالماء والشعر والغموض والسحر ويعاشر الناس معاشرة الأحياء للأحياء، يخاطبهم ويتحدث إليهم ويفاجئهم ويغضب ويفرح ويعلن رأيه في المشكلات والأزمات. فالنيل في أدب الطيب صالح له عمقه، وأصالته... هو الكائن الحيّ وكبير الكبراء، الذي يكشف فيه الإنسان نفسه، ويستمتع إلى الأصوات الداخلية العميقة في قلب روحه، وفي النيل يبدأ الإنسان حياته، وفيه تنتهي هذه الحياة، أن كان للحياة مع النيل نهاية. وفي النيل يجرب الإنسان ويحسّ بالخطر والخوف ويقترب من الموت، وفي النيل يولد الحب الكبير، وفي النيل تولد الأحران وتذهب الأحران، فمنه يخرج العذاب وفيه تتطهر النفس وتهلّل وتغسل كلّ ما أصابها من جراحات وهموم"².

كان الطيب صالح يحبّ دائما أصوات قريته مثل

خشخشة الجريد اليابس وأنين السواقي ودوامة النهر وتصايح الناس. يقول في موسم الهجرة إلى الشمال على لسان الراوي "أرخيت أذني للريح. ذاك لعمرى صوت أعرفه، له في بلدنا وشوشة مرحة. صوت الريح وهي تمرّ بالنخل غيره وهي تمرّ بحقول القمح، وسمعت هديل القمري.. أسمع أنين السواقي على النهر، وتصايح الناس في الحقول، وخوار ثور أو نهيق

¹ دومة ود حامد، الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 504

² مريود قصيدة في العشق والمحبة، رجاء النقاش، الديب صالح دراسات نقدية، د\ حسن أبشر الطيب، ص - 217 - 218

حمار"¹. وإن كان الطيب صالح يعبر عن البيئة السودانية وطبيعتها، يمكن أي قارئ أن يقرأ رواياته ويشعر أن هذه الروايات تعبر عنه في أي مكان في العالم ويشعر أنها تعبير عن الإنسانية بعامة.

التغيرات الاجتماعية

الأدب هو مرآة المجتمع وناطق عن الحقائق الاجتماعية.

فمن يلاحظ النصوص الأدبية للطيب صالح، فيدرك أن القول المذكور عن الأدب أمر حقيقي بالضبط. إن الأعمال الأدبية للطيب صالح منعكسة على المجتمع السوداني، ويرصد فيها تفاصيل الحياة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية في السودان. أي أنها تظهر نواحي الاجتماعية والتغيرات التي حدثت في المجتمع السوداني، خاصة التغيرات الاجتماعية التي حدثت بعد النصف الثاني للقرن العشرين. وتعمق النظر إلى هذه الأعمال الأدبية يوضح عن عرض هذه التغيرات الاجتماعية حسب ترتيبها التاريخي.

في قصته 'دومة ود حامد' تحاول الحكومة السودانية أن تجبر التغيرات على القرية واد حامد. في هذا الوقت، لم يعارض أهل القرية مفهوم التغير الاجتماعي وتقدمه إلا بعض منهم الذين أصروا على التمسك بالأمور القديمة وبجذور المجتمع. ولكن في الحقيقة ليسوا معارضين على التطور، بل عارضو على الطريق الذي استخدمته الحكومة لتطبيق التغير الاجتماعي. وذلك عندما قدمت الحكومة في عهد الحكم الإنجليزي لتنظيم مشروع زراعي، وقالوا أن خير موضع لإقامة مكنة الماء هو الموضع الذي يقع فيه الدومة التي يباركها أهل القرية. عندما سمعوا بأمر قطع الدومة "هبوا آخرهم هبة رجل واحد وسدوا على مفتش المركب السبيل"². وكذلك عندما قدمت الحكومتان بعدها

⁽¹⁾ موسم الهجرة إلى الشمال، الأعمال الكاملة للطيب صالح، ص - 11-12

⁽²⁾ دومة ود حامد، الأعمال الكاملة للطيب صالح، ص - 504

لإقامة محطة الباخرة عند الدومة عارضوها، لأن الباخرة تقف عندهم في عصر يوم الأربعاء، اليوم والوقت الذي يزورون فيه ضريح ود حامد عند الدومة.

أما رواية 'عرس الزين' تعرض بعض حدوث التجديد في شتى مجال الحياة في القرية السودانية، إذ أن الحكومة السودانية بدأت أن تنظم مشروعا زراعيًا كبيرًا وبدأت القرية أن تستعمل طلبات الماء بدلًا من السواقي في مجال الزراعة. "قررت الحكومة أن تنظم أراضيهم كلها في مشروع زراعي كبير تشرف عليه الحكومة نفسها بما لها من قوة وسلطان. وجدوا بلدهم فجأة تعج بالمساحين بالمهندسين والمفتشين. والحكومة إذا عزمت على أمر فإنها قادرة على تنفيذه. فما هو إلا يوم في أثر يوم وشهر يعقبه شهر، حتى قام على ضفة النيل في بلدهم بناء شامخ من الطوب الأحمر مثل المعبد يلقي ظلّاه على النيل وبعد ذلك بقليل، بين لغط العاملين وقرقعة الحديد إذا بعجلات ذلك المارد تدور وإذا بمصاصاته تشفط من ماء النيل، كما يشفط الرجل الشاي، في لمح البصر، كميات لا تقوي عليها عشرات من سواقيهم في عشرات الأيام. وإذا بالأرض على إتساعها من ضفة النيل إلى طرف الصحراء يغمرها الماء، بعضها أراض لم تر الماء منذ أقدم السنين، وإذا بها بعد قليل تمج بالحياة"¹.

أما في 'موسم الهجرة إلى الشمال' تقدّم المجتمع كثيرًا. وقد بدأت مشروعات زراعية التي عارضها أهل القرية في قصة 'دومة ود حامد'. وقد بدأ أهل القرية أن ينظموا المشروعات الزراعية تحت زعامة محبوب. وكذلك ظهرت هناك المجتمعات التعاونية، وشاع استعمال طلبات الماء طوال القرية. يقول الراوي عن هذا التغير "رأيت البلد يتغير في بطن. راحت السواقي. وقامت على ضفة النيل طلبات لضخ الماء. كل مكنة تؤدي عمل مائة ساقية. ورأيت الضفة تقهقر عاما بعد عام أمام لطمات الماء. وفي جانب آخر يتقهقر الماء أمامها"². ولكن من الواضح أن هذه التغيرات لم تعمقت عميقا

⁽¹⁾ عرس الزين، الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 238 - 239

⁽²⁾ موسم الهجرة إلى الشمال، الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 14

حتى أن تغير أسلوب حياة القرية وطريقتها. تشير أقوال محبوب للراوي إلى هذه الحقيقة "الدنيا لم تتغير بالقدر الذي تظنه. تغيرت أشياء. طلمبات الماء بدل السواقي. محاريث من حديد بدل محاريث الخشب. أصبحنا ترسل بناتنا للمدارس. راديوها. أوتومبيلات. تعلمنا شرب الويسكي والبيرة بدل العرقي والمريسة. لكن كل شيء كما كان"¹.

في 'ضوء البيت' قد توسع رحاب هذا التغير كثيرا، إذ تقدم جيل الشاب الجديد لأن يقلب أسلوب حياة القرية ونظمها وقواعدها. أسقطوا محبوب وفريقه من الحكم في القرية وأتوا بأسلوب ديموقراطي في المجتمع. تزعم 'طريفي' ابن أخت محبوب لهذا الانقلاب. يقول 'طاهر ود الرواسي' أحد شخوص هذه الرواية في هذا الصدد "حكاية غريبة حصلت ما عرفنا أولها من آخرها. أولادنا أصبحوا ضدنا. المدارس فتحناها بالعرق والتعب والجري هنا وهنا، طلعت أولاد يتفاصحو علينا. البلد أثارها اتلخبطت تحت رجلينا ونحن نايمين نوم العوافي"². هكذا أصبحت هذه النصوص الأدبية منعكسة عن التغيرات في المجتمع السوداني حسب ترتيب وقوعها.

شخصيات المرأة

وقد أتى الطيب صالح بشخصيات أنثوية في غالب أعماله الأدبية، أما بالنسبة إلى الشخصيات الذكور، شخصيات المرأة قليلة جدا في أعماله. وهذه القلة من الشخصيات الأنثوية تنعكس على نظام المجتمع السوداني آنذاك، المجتمع المسيطر من الرجال. ولكن مع قلة شخصيات المرأة في عالم الطيب صالح الأدبي، أن الأغلب منها تملك على شخصيات قوية ومنحهن الروائي مكانا كافيا فيها. يصور الطيب صالح رجاءه وأمله في تغيير المجتمع السوداني وتجديده وتطوره خلال هذه الشخصيات الأنثى. وقد أتى لهذا الهدف بفتيات ترفض قواعد المجتمع السوداني وتقايله.

⁽¹⁾ المصدر السابق، ص - 109

⁽²⁾ ضوء البيت، الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 323

"إن المرأة عند الطبيب صالح قويّة جدا وذات إدارة صلبة وقدرة على الاختيار في كل الأمور وبالذات في ما يتصل بأمور الزواج والحب، والمرأة في أدب الطبيب صالح أيضا تتطلع دائما إلى الامام، وتختار الأحسن والأفضل، وتحلم أحلاما زاهية عن المستقبل. هذه المرأة القوية صاحبة الإدارة والتطلع في أدب الطبيب صالح، لا علاقة لها بالمرأة المتهالكة الضعيفة التابعة والمسحوقة والتي تشبع صورتها في أدبنا المكتوب عن الريف العربي"¹. تتميز المرأة في حكايات الطبيب صالح بمعاملاتها وأخلاقها في مجتمع مسيطر من رجل. يرسم الطبيب صالح المرأة قويّة وكثير الكلام ومبسوطة أيضا. تعارك على أحوال المرأة السائدة في المجتمع وتحاول أن تكون لها نفوذا في الحياة الفردية والاجتماعية في المجتمع السوداني حيث كان التعليم والأمور والقرارات الأخرى في أيدي الرجال. فهاجمت على هذه السيطرة كما فعلت 'نعمة' و'فاطمة' و'مريم'.

ومن هذا النوع من الفتيات، "نعمة بنت حاج إبراهيم" في رواية 'عرس الزين'. تعلمت نعمة مع الأولاد، الأمر الذي يعتبره المجتمع السوداني المحافظ ضدا لقواعدها. هذه الشابة رفضت أباه وإخوتها في أمر زواجها واختارت من الذي أحبته في نفسها زواجا لها. هكذا أصبحت زوجة الزين.

وكذلك هناك "حسنة بنت محمود" في رواية 'موسم الهجرة إلى الشمال'. كانت زوجة مصطفى سعيد. وتغيّرت كثيرا بعد زواجها من مصطفى سعيد وأصبحت مختلفة من الفتيات في القرية في المجتمع السوداني. عندما إختفى زوجها لم تسمح أن تعيش مع أي رجل آخر. ورفضت خطابة ودّ الرئيس، الأمر الذي عرض عليها أبوها وإخوتها. ثم عندما أجبرت لهذا الزواج، قتلت ود الرئيس زوجها الثاني وقتلت نفسها.

وفي هذا المجموع من الفتيات "فاطمة بنت جبر الدار" في رواية 'بندر شاه'. وهي أيضا تعلمت مع الأولاد وحفظت القرآن. وهي رمز للفتيات التي

⁽¹⁾ مريود قصيدة في العشق والمحبة، رجاء النقاش، الديب صالح دراسات نقدية، دا حسن أبشر الطيب، ص - 22

ترجو إلى التغيرات في المجتمع السوداني الذي يتمسك بقواعدها ونظمها. "مريم" أخت محبوب في رواية 'مريود' تعلمت مع الأولاد مثل نعمة وفاطمة. وكانت تؤمن في العدالة بين الجنس. كانت جريئة حتى أن تتعلم في مدرسة الأولاد - التي لا تسمح التعليم إلا الأولاد - وهي ذاهبة إلى المدرسة في زيّ الأولاد، وأصبحت متفوقة على كلهم في القراءة والكتابة وقراءة القرآن. وكانت ترجو أن تكون للقرية تسهيلات مثل ما في المدن. "نسكن البندر. سامع؟ البندر. المويه بالأنابيب والنور بالكهرباء والسفر سكة حديد. فاهم؟ اتمبيلات وتطورات. أسباليات ومدارس وحاجات وحاجات البندر. فاهم؟ وكانت تحلم أن تكون لها عشرة أولاد، وأن يكونوا جميعا من أهل العصر والتقدم وأن يكونوا أطباء ومهندسين ومحامين ونظار المدرسة ومدرسين الذين يحترمهم المجتمع.

وهناك فتاة أخرى "حواء بنت عربي" في 'مريود' التي إختارت زوجا الذي أحبته؛ بلال. وهي مثل حسنة بنت محمود لم تعش مع أي رجل آخر بعد موت زوجها. "كانت في ود حامد امرأة صاعقة الحسن تدعى حواء بنت العربي، هبتت من ديار الكبابيش مع أبويها في سنوات قحط وجذب. فماتا عنها، وبقيت وحدها. تنشط وتغزل وتعمل في دور الميسورين في البلد. ووصفوا أن وجهها كان كفلق الصباح، وشعرها أسود كالليل مسدل فوق ظهرها إلى عجيزتها. وأنها كانت فرعاء لفاء، طويلة رموش العينين، أسيلة الخدين، كان في فمها مشتار عسل، وأنها كانت مع ذلك شديدة الذكاء، قويّة العين، مهذارا، حلوة الحديث، متبرجة، في حديثها شيء من تفحش وتغنج. فأرادها الكثيرون. ومنهم بعض عراة أهل البلد، فتمنعت واعتصمت ولم تقبل منهم طالب حلال وحرام". أحبّت بلال وأخبرته عن رغبتها فيه ولكنه لم يأذن حيث أنه كان من الصوفيين يبعد من الأمور الدنيا. ولما أعيثها الحيلة لتنته من محاولتها إقتربت من الشيخ نصر الله ود حبيب، شيخ بلال وشكت له وأخبرته عن حاجتها. فأشار الشيخ على بلال أن يتزوجها. فتزوجها بلال واجتمعا ليلة واحدة وحبلت منه تلك الليلة نفسها وسرحها بلال. أبت أن تتزوج أي رجل آخر بعد أن سرحها بلال، ولكنها إنصرفت لتربية ابنها. يقول ابنها طاهر "ما رأيت حبا مثل حبّ تلك

الأم. وما شفت حنانا مثل حنان تلك الأم. ملئت قلبي بالمحبة حتى صرت مثل نبع لا ينضب"¹.

هكذا يصوّر الروائي الطيب صالح هذه الشخصية كأنها ناجحة في إرادتها وحصلت على الأمور التي أرادت في الحياة بقوة إرادتها وعزمها. "إنها نموذج للإنسان الكامل، إذا اعتبرنا أن الإنسان الكامل هو الذي يعيش حسب خطته، لا حسب خطة الآخرين، أو بعبارة أخرى هو ذلك الإنسان الذي يعيش كما يؤمن ويعتقد لا كما يؤمن الآخرون ويعتقدون"².

فمن الواضح أنّ الطيب صالح له وجهة نظر خاصة نحو المرأة. وكان ينظر إليها نظرة إحترامية وكان يعتبرها صاحبة ثقافة وقيم إنسانية. ليست هي غارقة في مظاهر التخلف وليست بعيدة عن التقدم والتغيير. وكان يؤمن أن لها قوة وتأثيرا لأن تتقدّم إلى الحياة الصحيحة والخصبة، ويمكن لها أن تجدد الحياة والإنسان، لها قلب بصيرة ورغبات مشتتة التي تملأ حياتها وهي جريئة لأن تتكسر الحواجز والقيود والحدود التي تسدّ أمامها الطرق لأن تنال على رغباتها في الحياة.

المقابلة بين الشرق والغرب

يتأثر عالم الأدباء الشخصي طبعاً على عالمهم الأدبي. لعبت حياة الطيب صالح الشخصية دوراً هاماً في ازدهار حياته الأدبية. فالطيب صالح نفى نفسه إلى لندن عام 1954، وبدأ أن يكتب من هناك عن وطنه السودان وإفريقيا والعرب في اللغة العربية. ومنذ ذلك الفترة كان يتجول بين البلاد الأوروبية والبلاد العربية لأهداف مختلفة جزءاً من وظيفته في ينسكو. وهذه الحالة من الترحال والتنقل بين الشرق والغرب والشمال والجنوب أكسبته كثيراً من التجارب بأحوال الحياة والعالم وقضاياها. وعرض هذه التجارب

⁽¹⁾ مريود، الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 455

⁽²⁾ مريود قصيدة في العشق والمحبة، رجاء النقاش، الطيب صالح دراسات نقدية، د| حسن أبشر الطيب، ص - 22

خلال كتاباته ومؤلفاته. وقد عرض كثير من الأدباء في مؤلفاتهم عن تجاربهم في البلاد الغربية، ولكن الاختلاف بينهم وبين الطيب صالح، أن هؤلاء الأدباء عادوا إلى وطنهم بعد الحصول على أهدافهم والطيب صالح لم يعد إلى وطنه إلا للزيارة إليها بعض الحين وإستقرَ حياته طويلا في البلاد الغربية حنينا إلى وطنه وأهله وثقافته.

وقد تعمق إحساس الطيب صالح في الاختلاف بين الشرق والغرب بسبب طول حياته في لندن وكذلك بزواجه إلى امرأة إسكتلندية. أظهر هذه النواحي في مختلف مؤلفاته. طبعا شهد الطيب صالح هذه المواجهة أو المصادمة في أحسن صورتها وأقبحها، وعبر عن تلك التجارب تدريجيا في مؤلفاته في كلمات وأسلوب يخرق إلى نفوس القراء. يقول الناقد المشهور ماهر حسن فهمي "تناول كتاب القصة فكرة الإحتكاك بين الشرق والغرب والعودة برؤية جديدة من زوايا مختلفة منذ 'حديث عيشى بن هشام' للمويلحي إلى عصفور من الشرق لتوفيق الحكيم والحي اللاتيني لسهيل إدريس إلى الطيب صالح في أكثر من قصة. ولكن الطيب صالح يختلف عنهم جميعا، فقد استغرقت هذه الرؤية كل قصصه من دومة ود حامد إلى مريود"¹. أظهر الطيب صالح خلال رواياته وقصصه عن الأفكار الغربية الخطيئة عن العرب والإفريقيين. وقد أتى بهذا الموضوع أولا في قصته القصيرة 'رسالة إلى إيلين' وبعد ذلك في قصصه الأخرى أمثال 'الشيئ الآخر' و'إذا جاءت' و'هكذا يا سادتي' و'مقدمات'. وتناول هذا الموضوع في قمته ووصل إلى أوجه في روايته المشهورة 'موسم الهجرة إلى الشمال'.

أسلوبه الشعري

تتحلى كتب الطيب صالح بالبساطة والجاذبية والإثارة والصدق والأصالة والأسلوب المتميز. ومن الواضح أنّ أية كلمة أو حرف من أعماله الإبداعية تفيض فيها قريحة الكاتب. ولغته في كتاباته على الرغم نثريتها، أقرب إلى الشعر

⁽¹⁾ قضايا في الأدب والنقد، ماهر حسن فهمي، ص - 312

حتى مع إمتزاجها الكثير باللهجة العامية السودانية. حتى يمكننا أن نقول أنه شاعر في ثوب روائي ولغته لغة شاعر التي تتسم بالقدرة الباهرة في التشكيل اللغوي الموحى والنسيج الشعري الشجي المرهف الذي يكتسب وهجا وفنا صادقا أخذا وقدرة عالية على الإيحاء وأنه جعل الشعر حاضرا وبصورة جلية في كل ما كتب. وعباراته جميلة تعتمد على لغة عربية وأناقة شاعرية غنية مستعينة بروح اللهجة العامية مع المحافظة على الصياغة الفصحى والبساطة.

وبحسب النقاد أن فن الروائي الطيب صالح أصبح مميزا حيث أنه يلتصق بالأجواء والمشاهد المحلية، وترفعها إلى المستوى العالمية من خلال لغة متلامسة بالواقع خالية من الرتوش والإستعارات منجزا في هذا مساهمة جديدة في تطوّر بناء الرواية العربية ودفعها إلى أفق جديدة. ويمتلك في إقتدار أدوات فنه بالقدر الذي جعل له أسلوبه المميز وطريقته المتفرّدة في التعبير التي تتسم بالثراء الفكري والفني.

ومن البارز أن كتابات الطيب صالح صالحة دائما لإثارة الالهشة وهي غنية بالحياة، وروحها تبعث مع كل قراءة جديدة. ولم يخلق الطيب صالح عددا من الإثنيات الأدبية والشخصيات الخيالية ولم يحاول أن يصبح مشهورا أمام العالم بخلق الإبداعات الأدبية العديدة إلا أنه أصبح مشهورا بأعماله الأدبية القليلة في العالم العربي والغربي حتى وصل اسمه في أوساط لجنة جائزة نوبل للأدب. كان يحاول أن يعرض وطنه العتيق السودان وقرأها وحياتها في مختلف أطوارها في حياتها الاجتماعية والسياسية أمام العالم.

الطبيب صالح و"موسم الهجرة إلى الشمال"

مشاعر العرب ضد الإستعمار كما تظهر فيها

دراسة نقدية

أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها

قدّمتها

حسينة. ب

تحت إشراف

بروفسور الدكتور أحمد إبراهيم رحمة الله

الرئيس السابق (المتقاعد)

قسم اللغة العربية بجامعة كاليكوت



قسم اللغة العربية

جامعة كاليكوت

كيرلا ، الهند

2012م

الباب الثالث

موسم الهجرة إلى الشمال

الفصل الأول

مدخل إلى الرواية

الفصل الثاني

تطلع إلى نص الرواية

الفصل الثالث

التشخيص في الرواية

الفصل الرابع

الإستعمار – أسبابه ونتائجه

الفصل الخامس

المشاعر ضد الإستعمار في الرواية

الفصل السادس

المواجهة بين الشمال والجنوب\ الشرق والغرب

الفصل السابع

الثقافة ما بعد الإستعمار

الفصل الأول

مدخل إلى الرواية

صدرت الرواية موسم الهجرة إلى الشمال أول الأمر في العددين الخامس والسادس من مجلة "حوار" اللبنانية عام 1966، ولاقت واسع النطاق من النقد والقراء على حدّ سواء، وقد دفع هذا الإقبال دار العودة في بيروت إلى نشرها في طبعة مستقلة. وفي عام 2001م تمّ الإعراف بهذه الرواية موسم الهجرة إلى الشمال على يد الأكادمية العربية في دمشق باعتبارها أفضل الرواية العربية في القرن العشرين. وأختيرت هذه الرواية ضمن أفضل مائة عمل روائي في تاريخ الإنسانية عام 2002 وفق قرار إتّخذه مائة من كبار الكتاب الذين ينتمون إلى 54 دولة والذين يمثلون ثقافات العالم المتنوّعة وبينهم أربعة من النوبليين وهم وولي سونيكّا من نيجيريا، نادين قولدمير من جنوب إفريقيا، ف. س. نيبول من ترينداد وشيموس هيني من إيرلندا. وكان بين هؤلاء العمالقة أيضا رجال ونساء من العرب والمسلمين لا ينكر إسهامهم في الحقل الأدبي وهم آسيا جبار من الجزائر، أمين معلوف وحنان الشيخ من لبنان، نور الدين فرح من الصومال، صنع الله إبراهيم ونوال السعداوي من مصر، عبد الرحمن منيف من المملكة العربية السعودية وسلمان رشدي من الهند، شار كمال من تركيا، فؤاد التركلي من العراق وسيمين بهباني من إيران. وكذلك أختيرت هذه الرواية في العديد من الجامعات كمصدر للمعرفة البحثية المتعلقة بدراساته ما بعد الإستعمار.

مثلت هذه الرواية على المسرح على أيد المدير يعقوب الشرقاوي في بيروت في أوائل العام 1970م ولعبت على المسرح في اللغة العبرية في إسرائيل على أيد ممثل فلسطيني محمد بكري عام 1990م، وعرضت من قبل شيخ الإسلام الحاج أحمد في يوليو 1996م في معهد الموسيقى والمسرح في السودان. عرضت هذه

الرواية على مسرح شكسبير الملكي في لندن عام 2006 من إخراج البريطاني ويليام جالانسكري، وتأليف مسرحي للنيجيري بيبى باندلي. ويستمر المحاولة أن يحول هذه الرواية إلى عمل فيلم سينمائي على أيد المدير الكويتي خالد صديقي. وكذلك أصدرت بنكين بوكس هذه الرواية عام 2003 وهذه الرواية هي النص الأول الذي ظهر أول الوقت في سلسلة الكتب الكلاسيكية لبنكن بوكس.

ترجمت الرواية 'موسم الهجرة إلى الشمال' إلى عشرين

لغة. ترجمها جونسون ديفس إلى اللغة الإنجليزية (Season of migration to the north) في 1969، إلى الفرنسية على يد فادي نعوم في اسم *Saison de la migration vers le nord* في عام 1972م، وإلى اللغة الإيطالية على يد فرانسيسكو لجيو في اسم *(La Stagione della Migrazione al Nord)* في العام 1992م، وإلى الهولندية من قبل كيس ويرستينغ عام 1985م في اسم *(Seizoen Van de Trek naar het Noorden)*. ترجمها إلى اللغة الروسية ولادمير شغل عام 1975م، وإلى اللغة الألمانية على يد رجينا كراتشولي في اسم *(Zeit Nordwan derung)* عام 1998م وإلى العبرية من قبل توبا شموش عام 1973 في اسم *(Onat HaNedida el Hatzafon)*. وكذلك ترجمت هذه الرواية إلى اللغات النرويجية والتركية ولغة يوغوسلافيا واللغة التشيكوسلوفاكية والمجرية والصينية.

موسم الهجرة إلى الشمال هي الرواية الثانية للطيب

صالح، وهي حسب قوله إستمرار لبعض قصصه القصيرة أمثال 'رسالة إلى إيلين' و'إذا جاءت، و'هكذا يا سادتي' و'المقدمات' حيث أن هذه الرواية وهذه القصص تتناول القضية المواجهة بين الحضارة الشرقية والحضارة الغربية، وإكتشاف ذوات الجيل القرن العشرين التي كشفت على مدى قرون من الخمول والإستعمار.

وأثناء حكم جبهة الإنقاذ الإسلامية التي حكمت السودان

من عام 1989 إلى 1995 صدرت الحكومة قرارا بمصادرة الرواية 'موسم الهجرة إلى

الشمال' وباقي أعمال الطبيب صالح ومنعهنّ من التداول، ومن التدريس في الجامعات السودانية، بحجة تضمّنها مشاهد جنسية. وبسبب تناولها بأمور الجنس والمرأة وقد منع توزيع هذه الرواية في الكويت، والمجلس الأعلى للجامعات في مصر قد أصدر قرارا بمنع تدريس الرواية في الجامعات المصرية قبل ذلك في سنة 1986. حين منعت السلطات السودانية، صدرت في مصر طبعة شعبية من الرواية ضمن إصدارات مكتبة الأسرة. وكذلك منع تداول أعمال الطبيب صالح وبخاصة موسم الهجرة إلى الشمال في كثير من الدول العربية. عندما أصدرت الحكومة السودانية هذا القرار وقد عبرت سببه في حيثياته هكذا "الرواية بذينة وبها ألفاظ تثير الخلاعة، وتبعث على التهلك والسفور. وتتافي أخلاقيات وقيم سودانيين".

وفي هذه المناسبة كتب الطبيب صالح في المجلة اللندنية

عام 1991 مقالة تحت عنوان 'من أين جاء هؤلاء' تسائل فيها عن حكام حكومة الإنقاذ في الخرطوم في السودان. كتب فيها هكذا "هل السماء لا تزال صافية فوق أرض السودان أم أنهم حببوا بالأكاذيب؟ هل ما زالوا يتحدثون عن الرخاء والناس جوعى؟ وعن الأمن والناس في ذعر، وعن صلاح الأحوال والبلد في خراب؟ من أين جاء هؤلاء، أما أرضعتهم الأمهات والعمات والخالات؟ أما أصغروا إلى الرياح تهب من الشمال والجنوب؟ أما رأوا بروق الصعيد تشيل وتخفت؟ أما شافوا القمح ينمو في الحقول وسيانط التمر مثقلة فوق هامات النخيل؟ أما سمعوا مدائح الحاج الماحي⁽¹⁾ وود سعد⁽²⁾، وأغاني سرور و خليل الفرح وحسن عطية والكابلي وأحمد المصطفى؟ أما قرأوا شعر العباسي والمجنوب؟ أما سمعوا الأصوات القديمة وأحسوا الأثواق القديمة؟ ألا يحبون الوطن كما نحبهم؟ إذا لماذا يحبونه كأنهم يكرهونه ويعملون على إعمارهم وكأنهم مسخرون لخرايبه؟ هل حرائر النساء من حمرة

⁽¹⁾ ولد الشيخ الحاج الماحي بن محمد بن الشيخ بن أحمد بن عبد الله عام 1789م في قرية الكاسنجر قرب مدينة كريمة وتوفي بها

1871م

⁽²⁾ ولد الشيخ أحمد ود سعد بقرية الهبجي بالشمال سنة 1816م. كان شاعرا ومذاحا عاش في فترة الحكم المصري والمهدي. وتوفي عام 1926م

الود وحمرة الشيخ ما زلن يتوسلن في شوارع الخرطوم؟ هل ما زال أهل الجنوب ينزحون إلى الشمال وأهل الشمال يهربون إلى أي بلد تقبلهم؟ هل أسعار الدولار لا تزال في صعود والأقذار الناس في هبوط؟ أما زالوا يحملون أن يقيموا على جثة السودان المسكين خلافة إسلامية سودانية يبايعها أهل مصر وبلاد الشام والمغرب واليمن وبلاد جزيرة العرب؟ من أين جاء هؤلاء الناس؟ بل من هؤلاء الناس؟¹

وبهذه المناسبة قرّر أعضاء الجريدة الإتحادي السودانية التي تصدر مرتين في الأسبوع السبت والثلاثاء أن يعدّوا إعداد ملفّ خاص دفاعا عن هذه الرواية. وشارك فيه كثير من الكتاب والمتقّفين السودانيين المقيمين في مصر وبعض دول المهجر. وكذلك صدرت منظمات المجتمع المصري والسوداني عشرات البيانات تنتقد فيها موقف جبهة الإنقاذ من هذه الرواية.

فصدر في العدد 222 للجريدة الإتحاد بتاريخ الثلاثاء 10 سبتمبر 1996 بمقالة بعنوان 'رسالة مفتوحة إلى الطيب صالح' جاء فيه "إن رواية موسم الهجرة إلى الشمال... هي هويتنا.. هي واقعنا الذي نعيشه يوميا.. هي قوميتنا، وملادنا الأخير وعاصمتنا من الذوبان في قلب أفكار بربريّة.. إنّ أصابع الزمن تدقّ على أبواب القرن الحادي والعشرين، تحذر من ولادة المنع والجماعات الفاشية، هؤلاء الذين لا يجيدون سوى المصادرة والتصفيات الجسديّة، إنّنا على وشك الخروج من التاريخ.. وأقول لكلّ كاتب محبّ للحرية، أنّ التحرر من الهمجية والدفاع عن الكتابة لا يأتي إلا عبر ما تكتب، هي الكتابة التي تدافع عن الكتابة... وأمّا كاتبنا الكبير الطيب صالح فأقول له أرجوك أن تدافع عن وجودك ووجودنا معك، بمزيد من الكتابة التي حرّمتنا إيّاها من زمن ربّما احتجاجا على تخاذلنا أمام الهمجية.. لكن المصيبة يا أستاذنا أكبر كثيرا من صمتك المحتج.. إنّ المزيد من الكتابة هو إحدى وسائل القيام من الكبوة التي سقطنا فيها جميعا". وكذلك أصدر المركز

⁽¹⁾ المجلة ، لندن، 5-11-1991

السوداني للثقافة والإعلام بمصر بياناً يستنكر مصادرة الرواية موسم الهجرة إلى الشمال جاء فيه "تحتّم علينا المسؤولية الثقافية، ونحن في هذه الغربة اللزجة، أن نناشد كلّ المؤسسات الثقافية أن تقف هنا ومع الأديب السوداني الطيب صالح، بأمل أن تفتح ألف زهرة وزهرة في حديقة العقل المفتوح لا المغلق"

وبعد أيام أرسل الطيب صالح رسالة إلى الجريدة الإتحاد يثني فيها على موقف الجريدة. جاء فيها: شكري وتقديري للجريدة ولكل الكتاب الذين رفضوا مصادرة رواية موسم الهجرة إلى الشمال وسعوا للدفاع عنها.. وأقول للجميع إن قرار المصادرة غبي فالرواية عمل أدبي موجود شائوا أم أبوا.

طبعاً هذه الرواية إبداعية أدبية خلقت من مواهب الروائي النفاذة والبلغة. وهي كما انتقدت السلطة السودانية والآخرين من النقاد والقراء تميل ميلاً قليلاً إلى النزعة الجنسية. يذكر بعض من شخصيات الرواية الذين يقومون على حافة القبر عن ذكرياتهم في شبابهم وهم يشاركون تجاربهم الجنسية مع أزواجهم. وفي الحقيقة هذا الأمر يشير إلى عمق صداقة هؤلاء الناس السودانيّين وقبهم. وهم لا يختجلون أن يبيحوا هذه الأمور من بين أصدقائهم الأقرب. هل هذه الأكلام من هؤلاء الشيوخ في أرذل عمرهم مثيرة الشهوات الجنسية والخلاعة، وتبعث على التهتك والسفور. والأمر الآخر هو أنّ الطيب صالح استخدم الجنس رمزا للسلاح رمى به الإستعمار الأوروبي الذي إغتصب جنسياً على البلاد الإفريقية والبلاد العربية. وعلى ذلك كان الروائي يفتح أمام القراء ثقافة الإستعمار الأوروبي خلال بطل الرواية ولكنّه يعيد بطله إلى إحساساته عن أكذوبة حياته ويجعل فيه الوعي أنّ العودة إلى أصول ثقافته وإلى قيمها هي مسلك النجاح من كذب حياته وخيانة نفسه. وهذا الأمر أمر مستحبّ من ناحية الروائي.

تعدّ هذه الرواية من أهمّ ما قدّمه الأدب العربي المعاصر في بحث وتأسيس أزمة علاقة المغترب العربي بالحضارة الغربية التي يعيش فيها.

يصف الكاتب فخري صالح بأن الرواية موسم الهجرة إلى الشمال هي الرواية الوحيدة التي استطاعت أن تطرح أسئلة معقدة عن تجارب الشعوب المستعمرة ومستقبل العلاقات بين الشمال والجنوب أو الغرب والشرق. وبذلك ثارت العديد من الجدل والأسئلة التي جعلتها هدفاً للتحليل والتساؤل بين بنيتها الروائية ومحمول هذه البنية. يظهر جبرا إبراهيم جبرا شاعر ومؤلف فلسطيني مشاعره عن هذه الرواية "هذه الرواية من أجمل روايات التي قرأتها في العربية. يمكننا أن نقول أن الطيب صالح قد حصل على العمق والتركيب والحب في ملعقة واحدة الأمر الذي في رأيي لم ينلها أحد من الكتاب الأدب العربي"¹. هذه الرواية تمتلك لونا من التجربة تراوح بين مستويات سرد خطابية وصفية وشفاهية تتناول المونولوج الداخلي للشخصية له نبرة خاصة. والطيب صالح في هذه الرواية يأخذنا بالزمن من مرحلة إلى أخرى بكل سهولة وإتقان، فتارة نجد نفسها في القرية السودانية الشمالية بكل تفاصيل الحياة القروية وتارة نجد في إحدى أرقى الأماكن اللندنية مع مصطفى سعيد.

أما عنوان هذه الرواية 'موسم الهجرة إلى الشمال' هو مركب من ثلاث كلمات هي 'الموسم' و'الهجرة' و'الشمال'. ومن القول أن كلمة موسم لها معنيان في القاموس. الأول هو الموسم يعني إلى ظاهرة طبيعية في وقت معين. والمعنى الثاني هو الحفلة أو العطلة مثلما يقال موسم الحصاد والأعمال الأخرى المتعلقة بالزراعة. فالكلمة 'موسم' باعتبار معناها الحرفي تشير إلى حالة أو حدث يتكرر مع مرور الوقت والذي يتكرر في الفضاء. فالكلمة تحمل معنى لازما الذي يعارض أحداثا ثابتة وأحوالا منعزلة في الطبيعة. وعندما تترجم الكلمة في ظروف سياسية فمعناها هو موسم قضاء الإمبريالية والاستعمار، القضايا المهمة في هذه الرواية. فالموسم هنا يشير أساسا إلى موسم آخر قبل أو بعد لواحد الذي هو معالج في الرواية.

(1) الرحلة الثامنة، جبرا إبراهيم جبرا، ص - 99

وكلمة الهجرة لها أيضا معنيان؛ معنى ديني ومعنى

مادي. في النظرة الدينية هي الهجرة التي تشير إلى هجرة النبي (ص) وأصحابه من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة. وفي الناحية المادية هذه الكلمة 'الهجرة' صالحة للترجمة في وجهتين. الوجهة الأولى هي حركة أو ظاهرة طبيعية من موقع إلى موقع آخر مثل حركة أكوام الرمل أو مثل هجرة الطيور. أما الوجهة الثانية هي هجرة تتعلق بالإنسان في مجتمع أو بلد مثل هجرة السودانيين إلى بلد آخر لأسباب إقتصادية وسياسية وثقافية وغيرها مثلما هاجر الراوي ومصطفى سعيد بطلا هذه الرواية إلى الغرب لسبب تعليمي.

وكلمة 'الشمال' تشير إلى جهة شمالية جيوغرافية. فإذا

كانت الهجرة إلى الشمال فالمهاجرون ينتمون إلى جهة أخرى أي إلى الجنوب أو الشرق أو الغرب. هنا يأتي الروائي بهجرة تحدث ضدا للهجرة التي تحدث في الطبيعة؛ من الشمال إلى الجنوب؛ يعني هجرة الطيور من البلاد الشمالية في موسم الشتاء والبرد إلى البلاد الجنوبية في طلب الدفئ والحرارة. ولكن هنا في الرواية تحدث الهجرة من الناحية الجنوبية إلى الناحية الشمالية.

فإذن يرمز هذا العنوان إلى السودانيين المتعلمين الذين

هاجروا من الجنوب إلى الشمال، ولكن هذه الهجرة كانت مؤقتة إذ أنهم عادوا إلى بلدهم بعد إتمام دروسهم في الشمال. وفي الرواية هناك مصطفى سعيد والراوي اللذان هاجرا إلى الشمال وعاش هناك فترة ثم عاد إلى السودان. بدأت هجرة مصطفى سعيد إلى الشمال من الخرطوم إلى القاهرة ثم من القاهرة إلى لندن وبعد ذلك عاد إلى الجنوب من لندن إلى الخرطوم ومن الخرطوم إلى القرية السودانية. والراوي أيضا يهاجر من القرية إلى لندن ثم عاد من لندن إلى قريته في السودان ومنها إلى الخرطوم ومن الخرطوم إلى القرية. "عنوان الرواية لا يتعلق بالناس فقط، لأنها تتعلق أولاً وقبل كل شيء للطيور. الرواية تحتوي إشارة خاصة لهذا عندما كان الراوي يكافح مع النهر والقرار بين الجنوب والشمال، إنها هي في

الواقع، مداولة بين الحياة والموت. حول موضوع النهر، أهمية نهر النيل بالنسبة إلى عنوان الرواية، إلى النص كله هو أيضا هام. يفيض النيل من الجنوب إلى الشمال، وعلى الرغم من أن تغيّر مسارها بسبب العوائق الطبيعية، فإنه يصل إلى الشمال في نهاية مطافه. لماذا؟ لأن البحر يتجه إلى الشمال وتفيض الأنهار إلى البحر. وهذا الفيضان الطبيعي لنهر النيل له انعكاسات رمزية. العرب المتعلمون في حالتنا هنا المثقفون السودانيون، مشيرا إلى مصطفى سعيد يذهب شمالا، أولا إلى القاهرة ثم إلى لندن ، ليصبح متعلما. خلال تلك الفترة (واليوم) ثقافة الشمال أو الغرب هي الثقافة المركزية حيث تتعلق بالعلوم والتكنولوجيا والصناعة والتعليم. وبعبارة أخرى الهجرة إلى الشمال، -مع أنها مؤقتة- هي نحو الثقافة الغربية التي ترمز الى التقدم، التقدم العلمي بشكل خاص. في الوقت نفسه، فهو يعتبر رمزا للمحتلّ الأجنبي. أعطى صاحب الرواية هذا العنوان بمثابة استفزاز، ليس من العرب ولكن بالأحرى الغرب، وخاصة من القارئ الإنجليزي. ومع أن النص ورد في شكل الرواية التي هي بطبيعة الحال، نوع الأدب الغربي، مضمونه هو مختلف تماما عما قد يتوقعه القارئ الإنجليزي"¹.

⁽¹⁾ Voices of exiles. A study of Al – Tayyib Salih and his work, Ami Elad Bouskila , P: 35-36

الفصل الثاني

تطلع إلى نص الرواية

تبدأ هذه الرواية بعودة طالب سوداني (راوي الرواية)

من لندن بعد إكمال دراسته التي استغرقت سبع سنوات حصل فيها على الدكتوراه في الشعر. عاد إلى قريته التي تقع على ضفة النيل في السودان. عندما وضع قدمه إلى ترابه الأصلي استقبله أهله وأهل القرية، وسألوه كثيرا عن الأوربيين وأجاب لهم في قدر استطاعه. رأى بين المستقلين رجلا غريبا ربعة القامة، في الخمسين من عمره، ذو الوجه الجميل وليست له لحية وشاربه أصغر قليلا من شوارب الرجال في البلد. عندما سأل الراوي عن هذا الرجل الغريب لجده فعرف أنه هو مصطفى سعيد الذي قدم من الخرطوم إلى القرية منذ خمس سنوات واشترى أرضا زرع بها وعمل بها وبني بيتا، ثم تزوج إحدى بنات القرية - حسنة بنت محمود - وأنجب منها ولدين. وأجمع أهل القرية أنه رجل صالح وطيب ولكنه غامض في الوقت نفسه ولم يعرف أيّ منهم عنه كثيرا. عندما سمع هذا، بسبب ما علفت صورة مصطفى سعيد في ذهن الراوي.

بعد يومين من عودة الراوي كان يقرأ في وقت القيلولة.

وفي ذلك الوقت جاء إليه مصطفى سعيد يحمل بطيخة كبيرة وسلّة مملوّة من البرتقال. تعذّر مصطفى سعيد للراوي في زيارته في وقت الظهيرة. عندما رأى الراوي هذا الأدب الجَمّ منه فتعجّب به وذكر أنّ الناس في قريته لا يبالغون بعبارات المجاملة ولا يهتمهم أن يقتنوا المعاذير في زيارتهم الآخرين في وقت الظهر أو العصر. فتعرقا بعضهما ببعض وازدحم كثيرة من الأسئلة عن مصطفى سعيد في رأس الراوي: من أين هو؟ وما هي قصته؟ ولماذا استقرّ في هذا البلد؟ أخيرا سأله هل هو صحيح أنه من الخرطوم. فقال له مصطفى سعيد، أنه كان تاجرا في الخرطوم، ثم قرّر لأن يتحوّل إلى الزراعة. وكان مشتاقا لأن يستقرّ حياته في

ناحية ما في قرية الراوي. فركب الباخرة ووصل إلى هذه القرية. ثم دعا الراوي للعشاء في بيته بعد يومين.

وبعد يومين ذهب الراوي للعشاء في بيت مصطفى سعيد، فوجد هناك زميله محبوب وعمدة القرية وسعيد التاجر. تعشّوا الطعام في الحديث والضحك، ولكن مصطفى سعيد كان كثيرًا يستمع إلى أكلامهم بدلا من أن يقول شيئا من نفسه. وعندما كان الآخرون يشتغلون بالكلام والضحكات، كان الراوي يرقب بيت مصطفى سعيد. فوجده بيتا عاديا منقسما إلى جزئين، جزء للنساء وجزء للرجال أو الديوان. ولكنه وجد في ناحية اليمين للديوان غرفة من الطوب الأحمر وسقفه كان مثلثا كظهر الثور. وذكر الراوي أن هذا السقف ليس عاديا في قريته. وبعد العشاء رجعوا إلى بيوتهم فسأل الراوي لمحبوب عن مصطفى سعيد، فلم يجبه إلا أن قال أنه رجل عميق.

ذات مساء دعى محبوب - زميل الراوي منذ طفولته ورئيس لجنة المشروع الزراعي الذي أحدث جديدا في القرية - الراوي لحضور إجتماع اللجنة. وكان بينهم مصطفى سعيد وكانوا مشغولين في أمر يتعلق بتوزيع الماء إلى الحقول. لأنّ بعض الناس منهم كانوا يفتحون الماء في حقولهم قبل موعدهم المحدد. فاحتدّ النقاش حول هذا الموضوع وتصايح الناس. فجأة رأى الراوي أن مصطفى سعيد يهبط واقفا فسكت الناس واستمعوا كلهم إلى أقواله. وقال لهم أن على أعضاء اللجنة أن يطيعوا شروطها والمخالفون عليها سيعاقبون. عندما رأى الراوي هذه الحالة ففهم أنّ هذا الرجل هو الأحقّ لأن يتبوّأ رئاسة اللجنة ولكنهم لم يختره لأنّه غريب عنهم وليس من قريتهم.

وبعد اسبوع من هذه الحادثة دعا محبوب الراوي إلى مجلس شراب. وحينما كانا يتكلمان جاء مصطفى سعيد إلى محبوب لأن يناقش معه عن أمر يتعلق بالمشروع. فأعطى محبوب لمصطفى سعيد كأسا من شراب ولكنه رفضه. فلما أجبره محبوب أن يشرب الشراب تقبّل مصطفى سعيد الكأس وشرب واحدا تلو واحد. وبعد أن

شرب، قليلا بدأ أن يلتفتي بطعم الخمر وبدأ أن يهذي ويردّد شعرا إنكليزيا بلهجة متقنة. أعجب الراوي بهذا الأمر لأنه لم يسمع أحدا في قريته يعني شعرا إنكليزيا وكان يظنّ أنه هو الوحيد في القرية يعرف الإنجليز. وفي ذلك الوقت نفسه فهم الراوي أن هناك بعض الغموض وراء شخصية مصطفى سعيد. فصرح به وأراد أن يعرف سر غموض ذلك الرجل وسأله عن سرّه وتابعه مع أسئلة كثيرة ولكن مصطفى سعيد لم يجبه إجابة صريحة.

أجبر الراوي مصطفى سعيد وهدّده لأن يبدي له قصة حياته فدعاه مصطفى سعيد في اليوم التالي إلى بيته. فأخبره كلّ شيء وبدأ أن يقصّ قصته بعد أن يعد القسم من الراوي بأنه لن يروح لأحد بشيء ممّا سيحدثه به في تلك الليلة. وبدأ أن يروي له قصته هكذا.

ولد مصطفى سعيد في الخرطوم ونشأ هناك يتيما. فقد مات أبوه قبل أن يولد ببضعة أشهر، لكنه ترك له ولأمّه المال ما يستر من الحال. وكان مصطفى سعيد ابنا وحيدا لأبويه. عاش وحيدا يتيما في ضواحي الخرطوم مع أمّه. كان مصطفى سعيد ولدا عبقريا ذو شخصية مستقلة وجادة منذ صغره. التحق بالمدرسة الابتدائية الإنجليزية على ضفاف النيل في الخرطوم ولم يبعثه إلى هناك أحد، ولكنه التحق بها وفق رأيه فقط. وكان له مقدرة عجيبة على الحفظ والإستيعاب والفهم. أكمل دراسته في المرحلة الأولى في عامين. تعلم اللغة الإنجليزية والجبر والهندسة في المدرسة الوسطى وأصبح أن يتحدث الإنجليزية بطلاقة. أكمل دراسته الوسطى في ثلاثة أعوام. ومنح منحة دراسية من الحكومة البريطانية لإستمرار دراسته. ثم طلب منه ناظر المدرسة الإنكليزي للسفر إلى مصر أو لبنان أو إنجلترا لدراسته العليا، فاختار أن يذهب إلى القاهرة.

دخل مصطفى سعيد مجّانا في مدرسة ثانوية في القاهرة ومنح منحة دراسية من الحكومة. مكث في القاهرة تحت رعاية مستر روبنسن ومستر روبنسن. ولما أتم دراسته الثانوية في القاهرة سافر إلى لندن عاصمة العلم والإستعمار

لدراسته العليا. بعد أن أكمل دراسته أصبح أستاذا محاضرا في العلم الإقتصادي في جامعاتها.

اجتذب مصطفى سعيد إلى نساء بريطانيا اللاتي يبحثن عن المغامرة في رجل إفريقي واجتذبهن سحر الشرق، بحكايته عن الغابة والحيوانات الإفريقية والنيل الفيضة بأسلوب جذاب. وقد ساق كلا من هؤلاء النساء إلى غرفة نومه التي تبخر فيها رائحة الصندل المحروق والند والبخور والطور العربية ووقعت في شبكته أن همد وشيلا غرينود وإسبلا سيمور من مختلف الطبقات في المجتمع البريطاني. كان مصطفى سعيد يتوهم كلا منهن بالزواج وانتحل إسما مختلفا زائفا مع كلّ منهن، فكان حسن، وتشارلز، وأمين، ورتشارد في وقت واحد. إنتحرت ثلاثة منهنّ عندما أدركن أنه هذا الرجل الإفريقي كان يغشهنّ بوسامته السوداء ورجولته الإفريقية السوداوية القويّة. ولكن مصطفى سعيد أصبح منهزما أمام امرأة واحدة؛ هي جين مورس. تابعها مصطفى سعيد لثلاث سنوات وهو يطاردها بكلّ سحره ووسامته. ولكنها خذلتة وأهانته أمام الآخرين. ولكن مصطفى سعيد أصرّ في نفسه لأن يوقعها في يديه فلم يوقف من مطاردتها. فحين ملّت جين مورس من مطاردته قرّرت الزواج منه. وكان هذا الزواج مبنيا على أساس الحقد والانتقام. دمرت جين مورس مصطفى سعيد وحتمت الكثير من كبريائه ولعبت معه لعب الخيانة والتحدي. وفي الأخيرة ما كان لمصطفى سعيد سبيلا إلا أن يقتلها. فقتل زوجته جين مورس وحكمت عليه المحكمة الإنجليزية السجن لسبع سنوات في لندن.

غادر مصطفى سعيد لندن بعد سبع سنوات من سجنه وتشرّد في أصقاع الأرض وأخيرا عاد إلى الخرطوم باحثا عن مكان الذي ينسى فيه ماضيه. وهكذا وصل إلى قرية الراوي واستقرّ فيها حياته. تزوّج بنت القرية حسنة بنت محمود وأنجب منها ولدين. وفي ليلة قانطة حينما فاض النيل فيها فيضانا كبيرا إختفى مصطفى سعيد من بيته فلم يعثر له على أثر واختفى من القرية كأنه كان حلما، تاركا زوجته وولدين.

ترك رسالة إلى الراوي يوصيه ويكلفه فيها بأن يكون وليا على زوجته وولديه وأن يرعى ولديه وأن يقوم بتربيتها على أحسن حال. وأيضاً ترك مصطفى سعيد مفتاح غرفته السرية في بيته التي لم يدخل إليها أحد وأخبره أن هذه الغرفة ستخبره بكثير من الأمور عن حقيقته التي كان الراوي فضولياً أن يعرفها.

عندما سمع الراوي قصة مطفى سعيد، فبدأ أن يذب إليه بعض المشاعر من القلق والإضطراب لأنه أحسّ بينه وبين مصطفى سعيد بعض المشابهة في تجربتهما إذ أنهما تعلما في أوربا وعادا إلى قريتهما. وأصبح الراوي هاجساً في هذا الأمر في كل الأحيان. ثم رحل الراوي إلى الخرطوم لأن يشتغل بوظيفته التي تسلمها في وزارة المعارف. وترك قريته وكان يعود إليها حيناً بعد حين لأن يزور أهله وأن يتناول أمور زوجة مصطفى سعيد وإبنيه تنفيذاً وصيته.

وأثناء الحوادث فجأة تقدم الشيخ وذ الرئيس إلى الراوي لأن يجعله واسطاً بينه وبين حسنة بنت محمود أرملة مصطفة سعيد لأن يحصل منها الموافقة على أمر زواجه من حسنة بنت محمود. فقصحه الراوي أن حسنة لم تقبل أي رجل أصغر من عمره زوجها لها. فقال وذ الرئيس أنها ستقبله إذا كان الراوي يجبرها على ذلك. أخيراً ذهب الراوي إليها وسألها عن زوجها مصطفى سعيدز فقال أنه كان زوجها وأبا كريماً ولا تعرف عنه كثيراً. فأخبره عن هذه الخطبة مع وذ الرئيس. فقالت أنها تريد أن تقضي باقي حياتها لابنائها ولا تريد الزواج من أي رجل. فأخبرها الراوي أن أباهما وإخوتها وافقوا على هذا الزواج. فقالت إذا أجبروها على هذه الزواج فسأقتل وذ الرئيس وسأقتل نفسها.

كانت حسنة شابة جميلة وقررت وأصرّت ألا تتزوج أحداً بعد موت زوجها مصطفى سعيد. ولكن وذ الرئيس الشيخ العجوز الذي بلغ أربل العمر

والمزوّج لكثير من النساء والذي يبذل إمراة كما يبذل حماره خطب إلى يد بنت حسنة بنت محمود وطلبها من أبيها وإخوتها. ولما أخبرها أبوها وإخوتها عن هذا الأمر رفضت هذه الفكرة. ولكن ودّ الرئيس أبى أن يتقبل فكرة أن ترفضه امرأة في القرية وخاصة امرأة أرملة. فأصر على هذا الزواج حتى حصل على موافقة أبي حسنة وأخويها. ولكنها كانت ترتاح إلى الراوي وطلبت نفسها من جدّه حينما كان الراوي غائبا من القرية - كان في الخرطوم - أن يعقد قرانه عليها، ولكن الجد رفض هذه الفكرة. أثناء ذلك أجبر والد حسنة إبنتها للزواج من ودّ الرئيس وزوجها بدون إذنهما. ولكنها رفضته كزوج ومنعته من الإقتراب منها ولمسها. صبر ودّ الرئيس معاملتها هذه لأسبوعين. وفي يوم من الأيام هاجم ودّ الرئيس على حسنة بنت محمود بعنف ووحشية. دافعت حسنة عن نفسها وقتلت زوجها العجوز وقتلت نفسها أيضا. هكذا تمّ هذا الزواج في مأساة عنيفة. كل هذه الأحداث حدثت حينما كان الراوي غائبا من القرية.

عاد الراوي إلى القرية إثر هذه الحادثة المأساوية التي

هزّت أركان القرية كلها. عندما وصل إلى قريته لم ير أحدا يصرّحه عمّا حدث بين حسنة بنت محمود ودّ الرئيس. أخيرا ذهب إلى بنت مجذوب زميلة جده وصرحت له كلّ الأشياء. وفي ذلك الوقت إكتشف الراوي أنه كان يحب حسنة بنت محمود مما يزيد من شقائه بموتها. ولم يمكن له أن يوافق على هذه الممارسات التقليدية نحو النساء في مجتمعه. ولكنه لم يتدخل إلى هذا الأمر حيث أنه كان مشغوبا إلى جدّه وصديقه ودّ الرئيس اللذان تتركز حياتهما تماما على نظم القرية التقليدية وقواعدها المتوارثة.

وبعد ذلك دخل الراوي إلى غرفة مصطفى سعيد الذي

لم يدخل إليها أحد حتى الآن إلا مصطفى سعيد نفسه. والراوي كان يريد أن يكمل ما بقي من خيوط قصّة مصطفى سعيد. كانت هذه الغرفة تماما على هيئة بناء إنكليزية في أكمل هيئتها وعدتها. عندما دخل إليها وجد صورة رجل ظنّ أنه مصطفى سعيد ولكن كانت صورته

المنعكسة في المرآة. وحتى هذه الغاية كان الراوي هاجسا بقصة مصطفى سعيد وتجاربه في الأوربا. وجد الراوي هناك كثيرا من الصور لمصطفى سعيد التي صوّرت في مختلف المواقف ورأى هناك بعض الألواح الزيتية للنساء، ففهم الراوي أن الصور في هذه الألواح الزيتية صور لعشيقات مصطفى سعيد في لندن. ووجد هناك كثيرا من الكتب للكتاب المشهورين والكتب التي كتبها مصطفى سعيد نفسه. قرّر الراوي بداية الأمر أن يحرق كلّ المحتويات في غرفة مصطفى سعيد، ولكنه أحسّ أن مصطفى سعيد قد أبقى مفتاح هذه الغرفة معه ليخرج منها صورة متكاملة تكون في صالحه.

وفي النهاية يصبح الراوي في القلق والإضطراب في أمر مصطفى سعيد وما حدث لحسنة بنت محمود. وأخيرا هو أيضا أراد أن ينهي حياته في نهر النيل كما فعل مصطفى سعيد. ونزل إلى الماء وأصبح أن يطفو وأن يغرق في الماء. وعندما وصل في وسط النهر أصبح بين الحياة والموت، ولكن فجأة أصبح واعيا عن ذاته. وأدرك أن حياته لها قيمة ويجب عليه أن يعمل كثيرا من الأعمال لنفسه ولقريته لأن يقدّمها إلى الأمام. وأخيرا إختار حياته في القرية مع أهله وصرخ للنجاة. وهكذا ولد الراوي إلى الحياة مرة ثانية كمولود جديد.

الطيب صالح و"موسم الهجرة إلى الشمال"

مشاعر العرب ضد الإستعمار كما تظهر فيها

دراسة نقدية

أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها

قدّمتها

حسينة. ب

تحت إشراف

بروفسور الدكتور أحمد إبراهيم رحمة الله

الرئيس السابق (المتقاعد)

قسم اللغة العربية بجامعة كاليكوت



قسم اللغة العربية

جامعة كاليكوت

كيرلا ، الهند

2012م

الفصل الثالث

التشخيص في الرواية

هذه الرواية موسم الهجرة إلى الشمال للروائي السوداني الطيب صالح تزخر بالعديد من الشخصيات الرئيسية والثانوية والهامشية. إختار الطيب صالح هذه الشخصيات ممثلين بالأعضاء في مستويات مختلفة في المجتمع السوداني والمجتمع الإنجليزي. نجح المؤلف نجاحا كاملا في تشييط هؤلاء الشخصيات وإحيائهم. يرمز مصطفى سعيد والرواي إلى جيلين مختلفين من المتعلمين المحلي، ومجرب يرمز إلى رجل قرويّ شاب. أما حاج أحمد يمثل طبقة المتقلدين القديم في المجتمع السوداني وبنيت مجنوب لها إمام تآم عن الأحداث في القرية. والشخصيات الغريبة تتمثلون بطبقات مختلفة في المجتمع الإنجليزي.

مصطفى سعيد

مصطفى سعيد هو بطل الرواية، تدور حوله الرواية موسم الهجرة إلى الشمال. وفي الرواية يمكننا أن نتعرف بصورة مصطفى سعيد تدريجيا. يرسم الروائي هذه الشخصية مثلما نجمع قطعات المرأة أو قطعات الورق التي تتأثرت هنا وهناك ونشكلها إلى صورة كاملة. والجمع من هذه القطعات المتناثرة عند الأشخاص المختلفة في الرواية مثل الراوي والمأمور المتقاعد وحسنة بنت محمود ورشارد وغيرهم، تجعل صورة مصطفى سعيد صورة إجمالية. مصطفى سعيد يمثل الجيل الأول من المتعلمين السودانيين الذين حصلوا على التعليم الأوروبي والذين قابلوا الغرب مقابلة تدور حول المرأة والجنس. ويمكننا القول أن مصطفى سعيد رمز إلى من رحل إلى العالم الغربي حاملا الحقد والثأر على الغرب الإستعماري. كان يحمل الحقد في قلبه نحو البريطانية التي إحتلت واستعمرت السودان والبلاد الإفريقية والعربية والشرقية.

تظهر شخصية مصطفى سعيد غامضة في أول الرواية ويعرفها القارئ تدريجياً ويعرف عن تاريخ حياته على أساس إستعادة الأحداث الماضية من حياته. ولد مصطفى سعيد في الخرطوم في 16 أغسطس 1898 ونشأ يتيماً، مات أبوه قبل مولده ببضعة أشهر ولم يكن له إخوة. كان والده غنياً ترك ثروة عارضة التي سمحت مصطفى سعيد أن يعيش عيشة على نفسه. كانت أمه عبيدة من قبيلة سودانية وتصورها الرواية امرأة غريبة غامضة منسجمة إليها وصامتة في غالب الوقت كما في أقوال ابنها مصطفى سعيد عنها. لم تكن هناك أية علاقة متينة بين الأم والإبن وكانت هذه العلاقة خالية من حب الأمومة وحنانها. كانت الأم تبدي كأنها ترتدي نوعاً من القناع على وجهها أي أنها لم تكن تعبر وتظهر أية عواطف نحو ابنها. يقول مصطفى سعيد للراوي حينما ذكر عن أمه "حين أرجع الآن بذاكرتي أراها بوضوح، شفتاها الرقيقتان مطبقتان في حزم، وعلى وجهها شيء مثل القناع لا أدري. قناع كثيف كأن وجهها صفحة بحر ليس له لون واحد بل ألوان متعددة. تظهر وتغيب وتتمازج، كانت كأنها شخص غريب جمعتني به الظروف صدفة في الطريق. ولعلني كنت مخلوقاً غريباً، أو لعلّ أمي كانت غريبة"¹. فليس من العجب أن مصطفى سعيد ودّع أمه بلا دموع ولا قبلات حينما غادر السودان إلى القاهرة لتعليمه العليا ولم يبك حينما أخبر بخبر موتها حينما كان في لندن.

كان مصطفى سعيد يحسّ فرحاً وكان سعيداً أن يكون حراً منذ طفولته وكان مختلفاً من زملائه ولا يتأثر بأية عوامل تأثرات في حياته. قال للراوي "أنتي منذ صغري كنت أحسّ بأنني... أنتي مختلف. أقصد أنتي لست كبقية الأطفال في سني، لا أتأثر بشيء، لا أبكي إذا ضربت، لا أفرح إذا أثني عليّ المدرّس في الفصل، لا أتألم لما

¹ موسم الهجرة إلى الشمال، الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 29

يتألم له الباقون. كنت مثل شيء مكوّر من المطاط نلقيه في الماء فلا يبتل، ترميه على الأرض فيقفز¹.

إلتحق مصطفى سعيد بالمدرسة البريطانية بخراطوم، وكان هذا القرار على إرادته وحدها بدون مشاورة مع أحد حتى مع أمّه. بيّن مصطفى سعيد عن عواطف أمّه حينما ذهب إليها بعد إلتحاقه بالمدرسة الإنجليزية في الخرطوم "عدت إلى أمّي في الظهر فسألني أين كنت، فحكيت لها القصة. نظرت إليّ برهة نظرة غامضة، كأنها أرادت أن تضمني إلى صدرها. فقد رأيت وجهها تصفو برهة، وعينها تلمعان، وشفتيها تقتران كأنها تريد أن تبتسم أو تقول شيئا. لكنها لم تقل شيئا².

كان مصطفى سعيد ذي مقدرة عجيبة على الحفاظ والإستيعاب والفهم منذ صغره. أظهر ذكاءا حادا منقطع النظير خلال مراحلته التعليمية وخاصة في إجادة اللغة الإنجليزية. ولكنه كان كتلة ذهنية مجردة من العواطف. يقول "عقلي كأنه مدية حادة تقطع في برود وفعالية. لم أبال بدهشة المعلمين وإعجاب رفقائي أو حسدهم. كان المعلمون ينظرون إليّ كأنني معجزة وبدأ التلاميذ يطلبون ودي. لكنني كنت مشغولا بهذه الآلة العجيبة التي أتيحت لي³.

أكمل مصطفى سعيد المرحلة الأولى من المدرسة في عامين، وأكمل المدرسة الوسطى بثلاثة أعوام. بعد ذلك إختار أن يذهب إلى القاهرة لدراسته العليا. هنا يظهر الروائي عن عدم التعلق العاطفي والحيبي وعدم الإيلاف بين مصطفى سعيد وبين أمّه قد بلغ إلى قمته، عندما أراد مصطفى سعيد إنها الوحيد أن يسافر إلى القاهرة لدراسته العليا. يقول مصطفى سعيد "ذهبت إلى أمّي وحدثتها. نظرت إليّ مرة أخرى، تلك النظرة الغريبة. أفترت شفتيها لحظة كأنها تريد أن تبتسم، ثم أطبقهما، وعاد وجهها كعده،

⁽¹⁾ المصدر السابق، ص - 30

⁽²⁾ موسم الهجرة إلى الشمال، الأعمال الكاملة الغريب صالح، ص - 31

⁽³⁾ المصدر السابق، ص - 32

قناعا كثيفا، بل مجموعة أقفعة. ثم غابت قليلا، وجالت بصرة وضعتها في يدي، وقالت لي: لو أن أباك عاش لما اختار لك غير ما اخترته لنفسك. إفعل ما تشاء. سافر أو ابق، أنت وشأنك. أنها حياتك، وأنت حرّ فيها. في هذه الصرة ما تستعين به. كان ذلك وداعنا لا دموع ولا قبل ولا ضوضاء. مخلوقان سارا شطرا من الطريق معا. ثم سلك كلّ منها سبيله"¹. أقام مصطفى سعيد في القاهرة تحت رعاية مستر روبنسن ومسز روبنسن الأوروبيان الذان كانا يعيشان في القاهرة، وليس لهما أطفال. أقام هناك وتخرج في كليتها بثلاثة أعوام.

بعد ذلك إختار مصطفى سعيد لندن لدراسته العليا وسافر

هناك. كان أول سوداني وصل إلى جامعة أوروبية وأصبح نوعا من المبعوث السوداني في أوربا يحمل رسالة كولونيالية مع أنه كان غير واعيا فيها. وحصل على التعليم الإنجليزي وأخيرا حصل على منصب مرتفع في المجتمع البريطاني. أصبح محاضرا في القسم الاقتصادي في جامعة لندن. وبالرغم من هذه التفوقات كان مصطفى سعيد يجري حياته في مجرى أخرى؛ المجرى المملوءة من الأمواج والصخور والصعود والهبوط. عندما وصل إلى لندن حقق إلى الحياة اللندنية حيث ضاعه أصله عندما رفض هويته الأصلية السودانية. وطلب وسيلة أخرى لأن يعيش في هذا العالم المغرب وكان يلتبس طريقا في الظلمات مع أنه كان مقفوقا في العلم والمعرفة والمنصب الوظيفي. كانت حياته في لندن تدور حول المرأة والجنس. أنشأ مصطفى سعيد علاقة ظاهرة مع أربعة نساء بريطانيات. ولكن هذه العلاقة مع هؤلاء النساء الإنجليزيات كانت علاقة غير عميقة وميكانيكية وكانت تحرك بغير وعي من الحب. وهذه الغفلة وغياب النفس في العلاقة وعدم الحب والعلاقة السطحية من مصطفى سعيد الرجل الإفريقي الوسيم القوي ذي الرجولة والقوة الجنسية القوية قد أدت بعضا من هؤلاء النساء الإنجليزيات إلى الإنتحار عندما خاب أملهنّ عنه. أخيرا إنتحرت ثلاثة منهن والأخرى تزوّجها مصطفى سعيد وقتلها أخيرا. إتهمت الحكومة البريطانية على مصطفى سعيد أنه قتل أربع نساء وحكمت عليه بالإعتقال في السجن لسبع سنوات.

⁽¹⁾ موسم الهجرة إلى الشمال، الأعمال الكاملة الغريب صالح، ص - 33

عندما أطلق سراحه ترك مصطفى سعيد الأوربا وتحوّل في البلاد المختلفة أمثال فرنسا وألمانيا والصين والدنمارك، ثم عاد إلى الخرطوم إلى مسقط رأسه وإلى أصله. اشتغل بالتجارة في الخرطوم. ولكنه كان قلقا دائما بذكرياته الماضية بئذن وقرّر أن يذهب إلى القرية في شمال السودان حيث حاول أن يبدأ حياته فيها بخطوة جديدة وحاول أن يبني حياته على أصل ذي جذور شامخة. وضح مصطفى سعيد عن مشاعره وعن قراره أن يسكن في هذه القرية بأقواله هكذا "كنت في الخرطوم أعمل في التجارة. ثم لأسباب عديدة قرّرت أن أتحوّل للزراعة. كنت طول حياتي أشتاق للإستقرار في هذا الجزء من القطر، لا أعلم السبب. وركبت الباخرة وأنا لا أعلم وجهتي. ولما رست في هذا البلد أعجبني هينتها. وهجس هاجس في قلبي. هذا هو المكان، وهكذا كان كما ترى لم يخب ظني في البلد ولا أهله"¹.

سكن في القرية واشترى مزرعة وبنى بيتا وتزوج بنتا

قروية وأصبح زوجا مخلصا لزوجته وأبا للولدين وشاعلا راحته وتعبه لإصلاح الناس في القرية. إستقرّ في القرية وحاول لتقّم القرية إلى الأمام في سبيل تطوّرها ونماؤها حيث أفاد القرية في العمل الزراعي والتجارة، وأعان أهل القرية في تطوّر أمورهم. يقول محبوب الذي كان زميلا للراوي منذ طفولته عن مصطفى سعيد وعن أعماله في القرية لتطوّر أمورها "رحمه الله، كان يحترمني وكنت أحترمه. لم تكن الصلة بيننا وثيقة أوّل الأمر. ولكن عملا معا في لجنة المشروع قويت علاقتنا بيننا. موته كان خسارة لا تعوض. هل تعلم، وقد ساعدنا مساعدة قيمة في تنظيم المشروع. كان يتولّى الحسابات. خبرته في التجارة أفادتنا كثيرا. وهو الذي أشار علينا بإستغلال أرباح المشروع في إقامة طاحونة للدقيق. لقد وفرت علينا أرباحا كثيرة، وأصبح الناس اليوم يجيئونها من أطراف البلد. وهو الذي أشار علينا أيضا بفتح دكان تعاوني. الأسعار الآن عندنا لا تزيد عن الأسعار في الخرطوم. زمان، كما تعلم كانت البضائع تأتي مرة أو مرتين في الشهر بالباخرة. كان التجار يخزنونها حتى تنقطع

¹ موسم الهجرة إلى الشمال، الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 20

كلية من السوق، ثم يبيعونها بأضعاف مضاعفة. المشروع يملك اليوم عشرة لوارى تجلب لنا البضائع كل يوم والآخر مباشرة من الخرطوم وأم درمان. ورجوته أكثر من مرة أن يتولى الرئاسة ولكنه كان يرفض ويقول أنني أجدر منه. العمدة والتجار كانوا يكرهونه كراهية شديدة لأنه افتتح عيون أهل البلد وأفسد عليهم أمرهم¹. وبهذا القول يمكن القول أن مصطفى سعيد كان له تأثيرا عظيما في القرية وتقدمها وتطورها، حيث كانت له تجربة في التجارة، وفوق ذلك كان محاضرا في علم الاقتصاد بجامعة لندن وله علم عميق في مجال الاقتصاد والتجارة. هو الذي ساعد لتقدم أعمال اللجنة الزراعية التي بدأت جديدا في القرية، وأشار على أعضاء اللجنة وسيلة لإيجاد أرباح هائلة خلال إنشاء طاحونة الدقيق في القرية.

هكذا كان مصطفى سعيد يعيش عيشة هادئة في القرية ووجد الاستقرار والأصل في تلك الحياة الريفية حيث كان يقوم هناك مخفيا عن ماضيه من أهل القرية. وبالرغم من تلك الإخفاء نفهم أن مصطفى سعيد كان قلقا ومتهورا وهو فاهم كاملا أنه من غير الممكن أن يسكن هادئا وفرحا في السودان أو في لندن. وأدرك أخيرا أنه لا يستطيع أن يعيش عيشة جديدة في هذه القرية. نتيجة لهذا الإدراك إختفى تعمدا في ماء نهر النيل.

يصور الطبيب صالح شخصية مصطفى سعيد شخصية ذات غموض وعجوبة منذ طفولته إلى موته. في طفولته كان طالبا ماهرا ذكيا يتفوق على أقرانه. وفي فترة شبابه في لندن كان شابا يخطئ في مهد من مختلف النساء. وهناك بعض الغموض في موته أيضا؛ وفي الحقيقة لا يصرح الروائي ماذا حدث لمصطفى سعيد. هل هو مات غرقا في نهر النيل أو أنه إنتحر بوسيلة أخرى أم إختفى من القرية وعاد إلى أوربا. ولكن أهل القرية يعتقدون أن مصطفى سعيد مات غرقا في ماء نهر النيل في موسم فيضان النيل الذي يحدث مرة خلال كل عشرين أو ثلاثين سنة وتصبح هذه الفيضانات أساطير

¹موسم الهجرة إلى الشمال، الأعمال الكاملة الطبيب صالح، ص - 111

يحدث بها الآباء لأبنائهم. ولكن عندما أهل القرية أن مصطفى سعيد قد مات غرقا فإن هناك أيضا بعض الغموض؛ وقد مات كثير من أهل القرية غرقاء في هذا الفيضان الذي حدث في النيل هذه المرة. ولكن المروج حمل جثث كلهم إلى الشاطئ، ولكن لم تكن بينها جثة مصطفى سعيد.

وكان هناك مختلف الآراء والإذاعات عن إخفاء مصطفى سعيد القرية. وقد رأى بعض من أهل القرية أن مصطفى سعيد لا بد قد مات غرقا وأن جثمانه يستقر في بطون التماسيح التي ملأ بها الماء في تلك المنطقة. وأما محبوب كان له رأيا آخر في إخفاء مصطفى سعيد. يقول للراوي "العمدة والتجار كانوا يكرهونه (مصطفى سعيد) كراهية شديدة لأنه فتح عيون أهل البلد وأفسد عليهم أمرهم. بعد موته قامت إشاعات بأنهم دبروا لقتله"¹.

وهنا حسنة بنت محمود زوجة مصطفى سعيد ترى أن زوجها كان يعد لموته، إذ هي تقول للراوي "كأنه كان يحسن بدنو أجله. وقبل اليوم، يوم... قبل موته بأسبوع رتب كل شؤونه. كانت له أطرافا جمعها، ديونا دفعها. قبل موته بيوم دعاني وحدثني بما عنده. أوصاني كثيرا على الولدين. أعطاني الرسالة المختومة بالشمع. قال لي. أعطها له (لراوي) إذا حدث شيء. وقال لي إذا حدث شيء فأنت تكون وصيًا على الأولاد. قال لي إستشر به في كل ما تفعلين. بكيت وقلت له: إن شاء الله مافي عوج. فقال فقط من باب الإحتياط والدنيا غير معروفة"².

وبهذه الأقوال يتضح الأمر أن مصطفى سعيد كان يعد لأن يختم حياته. وليس هناك أي تبرير لأن يدعي أن مصطفى سعيد قد مات غرقا لأن مصطفى سعيد كان يجيد السباحة والراوي يقرّر هذه الحقيقة "كان مصطفى سعيد حسب

⁽¹⁾ موسم الهجرة إلى الشمال، الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 111

⁽²⁾ المصدر السابق، ص - 101

علمي يجيد السباحة". ومن المفهوم أنّ مصطفى سعيد مات متعمداً لأنه يقول في رسالته إلى الراوي يجعله وصياً على أولاده وزوجته "إنني لا أدري أيّ العاملين أكثر أنانيّة، بقائي أم ذهابي. ومهما يكن فإني لا حيلة لي. لا جدوى من خداع النفس. ذلك النداء البعيد لا يزال يتردّد في أذني. وقد ظننت أن حياتي وزواجي هنا (في القرية) سيسكتانه. ولكن لعلّي خلقت هكذا، أو أن مصيري هكذا، مهما يكن معنى ذلك، لا أدري إنني أعرف بعقلي ما يجب فعله، الأمر الذي جربته هذه القرية مع هؤلاء القوم السعداء. ولكن أشياء مبهمة في روحي وفي دمي تدفعني إلى مناطق بعيدة تتراى لي ولا يمكن تجاهلها"¹. خلال هذه الأقوال يبيّن مصطفى سعيد أنّه كان راغباً في الحياة في القرية مع أهلها ولكن لم يستطع أن يعيش بينهم مختلفاً ما في نفسه ومخدعاً نفسه وأهل القرية. كان يعرف أنّ العيش هو الحسن الذي يحتاجه عقله ولكنّ النداء الغريب إلى الموت لا تزال تردّد في نفسه. ولذلك إختار الموت على الحياة في القرية.

هكذا جعل الروائي الطبيب صالح بطله مصطفى سعيد

شخصيّة تراجيدية أو مأساوية إذ أنهى حياته أو إختار موته من نفسه. فإذن ما هو الأمر الذي أدّى مصطفى سعيد إلى هذه النهاية المأساوية. والأمر صريح هو إحساس مصطفى سعيد بمشاعر العزلة والإغتراب من مجتمعه.

أحسّ مصطفى سعيد هذه التجربة الإغترابية حينما كان

يعيش في الشرق والغرب. حينما كان يعيش في لندن بين أهل أوروبا والغرب أحسّ الغربة والألم، ولكنه لم يحاول أن ينهي حياته هناك إذ كان يفكر أنّه يمكن أن يبعد هذا القلق والإضطراب في نفسه عندما يعود إلى بلده أو إلى أصله وعندما يعيش هناك مع أهله الساذج والسعداء. حاول مصطفى سعيد للإندماج بين أهل القرية مشغلاً بالأعمال الزراعيّة وأثنى عليه أهل القرية بخدماته لهم وقريتهم. وبالرغم من هذه الحقائق أن مصطفى سعيد كان يحسّ

⁽¹⁾ موسم الهجرة إلى الشمال، الأعمال الكاملة الطبيب صالح، ص - 76 - 77

بعضاً من الإغتراب والعزلة والبعد من القرية وأهلها. وحينما يثني أهل القرية على مصطفى سعيد كانوا يرونه غريباً عنهم أو كانوا يعتبرونه بعيداً عنهم. وهذا نفهمه عندما نسمع إلى أقوال الراوي في رأي أبيه عن مصطفى سعيد "قال أبي أنّ مصطفى سعيد ليس من أهل البلد لكنه غريب جاء منذ خمسة أعوام، إشتري مزرعة وبنى بيتاً وتزوَّج بنت محمود. رجل في حاله، لا يعلمون عنه الكثير"¹. وكان أبو الراوي يلوم قبيلة محمود أبي حسنة حينما زوَّج ابنته لمصطفى سعيد الغريب منهم. هو يقول "تلك القبيلة، لا يبالون لمن يزوَّجون بناتهم"².

كان مصطفى سعيد يعيش بين أهل القرية كابحاً إنكليزيته؛ حيث أنه أقام مكتبة في غرفته السرية في بيته. ولم تكن هذه المكتبة تشتمل أيّ كتاب في اللغة العربية وكانت هذه الغرفة تتكلم وتبرز كلّ الظواهر في العالم الإنكليزي، حيث أن أرضية الغرفة كانت مغطاة بأبسطة فارسية، وكانت هذه الغرفة تشتمل "من مدفأة إنكليزية بكامل هيئتها وعدتها، فوقها مظلة من النحاس وأمامها مربع مبلط بالرخام الأخضر ورفّ المدفأة من رخام أزرق وعلى جانبي المدفأة كرسيّان فيكتوريان مكسوّان بقماش من الحرير المشجر بينهما منضدة مستديرة عليها كتب ودفاتر"³. هكذا أقام حياته في القرية بناءً على أكذوبة. وعندما أراد أن يقصّ قصّته للراوي حاول أن يفكك بناء الأكذوبات التي تحيط حوله. يقول شعره الذي كتبها على رغبته في الخلاص من هذه الأكذوبات.

"عريدت في الصدر آهات الحزين

ودموع القلب فاضت من تباريح السنين

ورياح عصفت بالحب والحدق الدفين

وبقايا صلوات ضمّها الصمت العميق

هينمات ودعاء ونواح وزعيق

⁽¹⁾ موسم الهجرة إلى الشمال، الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 12

⁽²⁾ المصدر السابق، ص - 16

⁽³⁾ المصدر السابق، ص - 143

وغبار ودخان غم للساري الطريق
ونفوس مطمئنات وأخرى هلعة
وجباه صاغرات وأخرى...¹.

حاول مصطفى سعيد أن يكبح ماضيه وأن يتركها إلى ما وراء ذكرياته، ولكنه لم يستطع أن ينجح في هذه المحاولة. هذه الحقيقة واضحة في الرسالة التي كتبها للراوي، تدلّ أقواله فيها أنه لم يمكن أن ينسى الأحداث التي حدثت في أيامه الماضية ولم يستطع أن يرتاح حياته في القرية السودانية كما أراد من قبل "لا جدوى من خداع النفس. ذلك النداء البعيد لا يزال يتردد في أذني. وقد ظننت أن حياتي وزواجي هنا سيسكتانه". وأظهر رجاءه ورغبته للراوي أن لا تكون حياة إبنيه مثل حياته ورغب في نشأة إبنيه "مشبعين بهواء هذا البلد وروائح وألوانه وتاريخه ووجوه أهله وذكريات فيضانته وحصاداته وزراعاته"². أحسّ مصطفى سعيد أن يهجر القرية وعائلته حيث أنه لم يستطع أن يصل إلى هدفه إذ كانت حياته في القرية أيضا مبنية على أكذوبة أخرى. ولذلك أحسّ أن الإنتحار هو الطريقة لأن يتخلص من هذه الأكذوبات. "يكون الإنتحار هربا من الأكاذيب. رحلة إلى المجهول يتحوّل مصطفى سعيد إلى رمز للمنفى لا رجعة فيه التي هي تركة الاستعمار"³. كتب في رسالته للراوي "إنني لا أدري أي العاملين أكثر أنانية، بقائي أم ذهابي"⁴. كان يحسّ الصراع بين الأمرين؛ الأمر الذي يعرفه منطقيا أي الحياة في القرية، وبين الأمر الذي يحسّه في قلبه إجباريا أي الإنتحار. واختار الأمر المجبر لأن يصبح صريحا لنفسه وأن يترك خيانة نفسه. ولذلك أجبر مصطفى سعيد الراوي لأن يخبر إبنيه عن أبيهما وعن حياته التي كانت مملووة بالأوهام حتى ذلك الوقت. ولكن عندما ترك حياته في

(1) موسم الهجرة إلى الشمال، الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 16-161

(2) المصدر السابق، ص - 76

(3) Tayib Salih: Ideology and craft of fiction, Wail Hasan, P: 112

(4) موسم الهجرة إلى الشمال، الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 76

القرية وعندما عرض حقيقة حياته على الراوي وعندما سمح له أن يفتح أبواب الحقيقة للعالم، فتبرأ مصطفى سعيد من الأوهام والأكذوبات التي كانت حياته في القرية مبنية عليها.

ولكن عندما فتح مصطفى سعيد أبواب حياته للراوي لم يفتح له الأبواب الكامل أي أنه لم يقصّ عليه قصته كاملاً. لأنه كان يعرف أن الراوي الذي كان مشتاقاً بالغاً للمعرفة عن حقيقته سوف يجد قصته من الرأس إلى الذيل خلال محاولاته المختلفة، كما فعل الراوي أن يجمع الأحداث المتعلقة بـ مصطفى سعيد خلال الأسباب والطرق المختلفة. عرف كثيراً عن مصطفى سعيد من المأمور ورتشارد ومسر روبنسن، ومن وزير التعليم والتربية، ولكن كلهم وصفوه أوصافاً مختلفة وكثيراً من الوقت كانت أوصافهم عنه متعارضة بعضها ببعض.

يقول عامي إلاد بوسقيلا "ومن الطبيعي أن يشعر مصطفى سعيد الإغتراب في أوروبا، أما فشله في إخماد الجذور في بلده، في الخرطوم، مدينة ولادته، أو محاولته للعودة إلى القرية السودانية النائية ليست كذلك. إجتمع التشرد وانعدام الجذور. كان لديه في لندن غرفة تحتوي على العالم الشرقي، بينما في أقصى القرية السودانية كان لديه غرفة تحتوي على العالم الغربي. التشرد، والغربة والاغتراب والقلق هو ما قد يؤدي المؤلف في النهاية لإخفاء مصطفى سعيد في النهر، بدلاً من أن تعلن أنه قد مات¹.

عند تحليل شخصية مصطفى سعيد، فيوضح أنه أصبح نقطة بداية لهدم نظام الأبوية في السودان. تأثرت زوجته حسنة بنت محمود بنمط حياته المدنية ورفضت تقاليد المجتمع السوداني وقواعده ونظمه. حينما أصبحت حسنة أرملة بعد غياب زوجها أو موته رفضت أن تتزوج ودّ الرئيس الشيخ العجوز معارضة على أقوال أبيها وإخوتها وأصرّت على عزمها. ولكن عندما أجبرت بهذا الأمر وقع الزواج بينهما ولكنها

Voices of exiles A study of Al Tayyib Salih and his work, Ami Elad Bouskila, P: 116(1)

قتلت الشيخ وقتلت نفسها. حصلت حسنة على هذه الشجاعة والثبات من تأثيرها بزوجها مصطفى سعيد. هكذا أصبح مصطفى سعيد سببا لزلزلة سيطرة الشيوخ والرجال في القرية. وعندما نلاحظ إلى علاقة مصطفى سعيد مع زوجته السودانية حسنة بنت محمود، نراها علاقة تعارض تماما بعلاقاته مع النساء الأوروبيات. هنا هو زوج مثالي وله دور عظيم في بناء الحياة العائلية والقرية نفسها. بنى الحياة مع زوجته وإبنيه وأهل القرية؛ حياة على أساس الحب والود والمساواة والرغبة المادية والروحية وامتناز على الآخرين في ذكائه وعمق شخصيته وقدرته على العمل والإنتاج.

يتعارض الشخصيات الأخرى في هذه الرواية في آرائهم عن مصطفى سعيد وهم ينظرون إليه بأنظار مختلفة ومتعارضة. مصطفى سعيد شخص عبقرى ذو عقل حاد، وهو رجل يتابع كثيرا من النساء مثل شخصية دون جوان، وهو متعلم ومصلح للقرية ود حامد. هو قاتل زوجته أي أنه قتل زوجته الإنجليزية جين مورس وفي نفس الوقت هو زوج مثالي بالنسبة إلى زوجته السودانية حسنة بنت محمود وأب حنون لإبنيه. ينظر إليه واحد من طلابه في لندن وحدا من الإفريقيين العظماء الذين عرفوه، ولكن رتشارد الرجل الإنجليزي يعدّه حمقا. والأمور المتقاعد ينكر مصطفى سعيد طفلا مقهورا الذي ضاع سبيله. ويؤمن منصور أن مصطفى سعيد كان مأمرا للإنكليز حينما يراه حاج أحمد رجلا صالحا لم يبد منه شيئا منفرا طول إقامته في البلد وهو يحضر المسجد بانتظام ويسارع بزراعته وقطعه في الأفراح والأثرار. ومحبوب يقول بعد شربه من الكأس أن مصطفى سعيد هو النبي الخضر الذي يظهر ويختفي حيناً بعد حين. هكذا تتعارض الأقوال والآراء في مصطفى سعيد.

مصطفى سعيد هو مثقف كولونيالي. لعب كثيرا من الدور التي ساعد بها الإنجليز لإقامة أهدافهم في مستعمراتهم. طبعا وقد أعطى الإنجليز لهؤلاء الرجال مثل مصطفى سعيد تعليمًا وإنجليزياً حديثاً لأن يشتملواهم حسب أغراضهم.

ولذلك يمكننا أن نرى أن المأمور المتقاعد الذي كان زميلا لمصطفى سعيد في مدرسته الابتدائية يقول للراوي عنه "كنا واثقين أن مصطفى سعيد سيصير له شأننا يذكر. كان أبوه من العبايدة، القبيلة التي تعيش بين مصر والسودان. إنهم الذين هربوا سلاطين باشا من أسر الخليفة عبدالله التعايشي، ثم بعد ذلك عملوا روادا لجيش كتشنر حين إستعداد فتح السودان. ويقال أن أمه كانت رقيقا من الجنوب. من قبائل الزاندي أو البارياء، الناس الذين ليس لهم أصل، هم الذين تبوؤوا على المراتب أيام الإنكليز"¹. ورجل إنجليزي آخر الذي كان يعمل في الوزارة المالية قال للراوي عندما ناقشه عن واحد من زملائه في إنكلترا، وعن أول سوداني الذي تزوج امرأة أوروبية "مصطفى سعيد كان أول سوداني تزوج إنكليزية، بل أنه كان أول سوداني تزوج أوروبية إطلاق. تزوج في إنكلترا وتجنس بالجنسية الإنكليزية. أنه قام بدور خطير في مؤامرات الإنكليز في السودان في أواخر الثلاثينات. أنه من أخلص أعوانهم. وقد إستخدمته وزارة الخارجية البريطانية في سفارات مربية في الشرق الأوسط. وكان من سكرتيري المؤتمر الذي انعقد في لندن سنة 1936"². هنا يؤكد الروائي الطيب صالح ويصرح عن الدور الخطير الذي لعبه المثقف الكولونيالي في إكمال أهداف قوات الإستعمار. إستعملت القوات الغربية المستعمرة هؤلاء المثقفين الكولونيين لتشييد الإستعمار على أيادي هؤلاء الناس. وفي الحقيقة قام الإستعمار واستمر الإستعمار على أكتاف هذه الطبقة من الموظفين.

قتل مصطفى سعيد زوجته الأوروبية ومعاملته مع النساء الأخرى الأوروبية قادتهن إلى الإنتحار. كان مصطفى سعيد غير قادرا أن يصبح أوروبيا صحيحا وكان عديم الطاقة لأن يرجع إلى أصله، أو إلى حضارته الأصلية السودانية. وهذان العنصران يقودانه إلى أن يعامل متغيرا مع قدر الآخرين.

⁽¹⁾ موسم الهجرة إلى الشمال، الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 63

⁽²⁾ المصدر السابق، ص - 65

مصطفى سعيد وعطيل

يشبه الروائي الطيب صالح بطله مصطفى سعيد بعطيل

لشكسبير في هذه الرواية. عطيل شخصية شكسبير هو ضابط إفريقي عربي في مجلس الشيوخ في وينييس. يظهر الروائي هذا التشابه في الرواية عندما يروي مصطفى سعيد للراوي عن علاقته بإسبلا سيمور إحدى نساته في لندن "سألتني ما جنسك؟ هل أنت إفريقي أم آسيوي؟ قلت لها: أنا مثل عطيل عربي وإفريقي. فنظرت إلى وجهي وقالت: نعم أنفك مثل أنوف العرب في الصور. لكن ليس شعرك فاحما ناعما مثل شعر العرب. نعم هذا أنا. وجهي عربي كصحراء الربع الخالي، ورأسي إفريقي يemor بطفولة شريرة"¹.

وكذلك يقول مصطفى سعيد أن عطيل صحيح وهو

أكذوبة، وفي الحين الآخر هو يقول أنه ليس بعطيل، عطيل أكذوبة. هنا يظهر الاختلاف بين العطيل ومصطفى سعيد؛ عطيل كان يحبّ ديمونا مع الاختلافات بينهما في الحضارة والثقافة واللون والجنس، حينما علاقة مصطفى سعيد بالنساء الأوروبيات لم تكن على أصل الحبّ والعشق. عندما يقول مصطفى سعيد أنا ليس بعطيل، العطيل أكذوبة، يشير الروائي الطيب صالح إلى أن العلاقة الحبيّة بين الحضارتين وبين الثقافتين أكذوبة وأنه من غير المحتمل أن يكون هناك علاقة رومانطيقية بين ثقافتين مختلفتين. ولذلك وهو يقول على لسان مصطفى سعيد أن عطيل كان أكذوبة أو أن حبه مع زوجته ديمونا كان أكذوبة.

وكذلك من البارز أن علاقة عطيل ومصطفى سعيد

بالنساء الأوروبيات تقع في مستوى مختلفة. علاقة عطيل مع ديمونا هي علاقة عاطفية حينما كانت علاقة مصطفى سعيد بالنساء الأوروبيات علاقة إنتقاميّة. كان عطيل سرورا مع زوجته ديمونا وختم نفسه هذه العلاقة الحبيّة بأيديه حينما قتل زوجته لأنه كان حسودا مع زوجته. أما مصطفى سعيد لم يقتل زوجته جين مورش بحسده نحوها ولكن كان في نفسه

⁽¹⁾ موسم الهجرة إلى الشمال، الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 48

بعض الدوافع المخفية لإجراء تلك الممارسة. أن مصطفى سعيد تعامل مع هؤلاء النساء الأوروبيات بمشاعر إنتقامية في قلبه على العالم الأوربي أي كان يرى هؤلاء النساء رمزا للثقافة الأوروبية ورمزا لبريطانيا مركز الإستعمار الذي إستعمر وطنه السودان وإفريقيا والعالم العربي كلها لفترات طويلة. يقول أمي إيلاد بوسخلا "قال الطبيب صالح في المقابلات أن شخصية مصطفى سعيد هو مزيج من شخصيات مختلفة، ولا يمكن أن يوجد في الواقع. إنه يعتبره كتلة من عناصر عنيفة شيطانية، ملائكية، صورة من دون جوان الذي هو في نفس الوقت زوج جيد ومجرم يدمر ضحاياه الإناث، ومع ذلك هو صاحب صورة عبقرية الذي يعمل ويبنى ويساهم في الحياة. يرى في مصطفى سعيد شخصية خيالية التي ترى فيه الجوانب الروحية والسياسية والثقافية المرتبطة بمشاكل الإنسان".¹

وجد كثير من القراء التشابه بين مصطفى سعيد

وصاحبه الطبيب صالح. وهم يقولون أن الطبيب صالح يعرض خلال هذه الشخصية تجاربه الشخصية في حياته في العالم الغربي. فلنستمع إلى أقوال محمد المهدي الكاتب السوداني في هذا الصدد. هو يقول هكذا في حوار مع حبيب حيدر من مجلة فضائات الوسط عندما سألته عن رأيه عن التشابه بين مصطفى سعيد والطبيب صالح. فقال "هذا السؤال يكاد يكون سؤال أي كاتب، ويكاد يكون سؤالاً مركزياً. فالطبيب صالح كما لاحظته في الورقة وذكرت هو أصلاً يرفض الربط بين الكاتب وشخصه، وإلا فإنه يكون بذلك المرأة بنت مجنوب، أو يكون هو شخصية الزين. فهو يقول أنا أكتب من الخيال، ولكن قد تحمل إحدى الشخصيات بعضاً مما عندي وسمة مني، فأنا صاحب مصطفى سعيد. وعشت في لندن وتزوجت إنجليزية وليس هذا التطابق بالضرورة تطابقاً حقيقياً لأن كثيراً من المثقفين وأبناء السودان الذين سافروا إلى إنجلترا في الخمسينات في نفس فترة الطبيب صالح. هم يقتربون من شخصية مصطفى سعيد بشكل أو بآخر. لكن الطبيب صالح نظرياً يرفض هذا الأمر ويقول إن هناك شخصية قريية مني فهي إما شخصية الزين لأنه أهمل. أو شخصية مجيد، هذه

¹Voices of exiles. A study of Al – Tayyib Salih and his work, Ami Elad Bouskila, p: 119

الشخصية أقرب إلى نفسي وأنا أتمنى أن يصفوني الناس به أو يقولون أنه تشبهني"¹. ويوجه الحديث إلى الذين يربطون بين مصطفى سعيد وبين الروائي قائلا أنا مصطفى سعيد ولست مصطفى سعيد، أنا هو لأنه نبع من أوهامي وتخيلاتي، ولكنني لست هو، وهو لا وجود له وحتى لو افترضنا وجوده فهو مختلف مني.

الراوي

يمثل الراوي في هذه الرواية الجيل الثاني من المتعلمين في المجتمع السوداني الذين ذهبوا إلى البلاد الغربية للحصول على التعليم الحديثة وعادوا إلى بلدهم بعد إكمال دراستهم هناك. وصلوا إلى الغرب وتعرفوا بالجوانب الطيبة والرديئة والنواحي الصالحة والفاصلة في المجتمع الإنجليزي الغربي. وفي النظرة الأولى يفهم القراء أنّ الراوي ليس له اسم معين في هذه الرواية. هو رجل من قرية من القرى السودانية الشمالية. ذهب إلى لندن وتعلم هناك وحصل على الدكتاتورية في الأدب الإنكليزي وعاد إلى بلده وتزوج بنتا من قريته، والآن هو موظف حكومي في مدينة الخرطوم.

وفي الحقيقة، لم يظهر الروائي كثيرا من المعلومات عن هذه الشخصية وحياته. وفي بداية الرواية نرى الراوي عائدا إلى بلده بعد إكمال دراسته التي استغرقت سبع سنوات في أوربا؛ في لندن. وفي اللحظة الأولى في الرواية يظهر الراوي موقفا مختلفا من الموقف المألوف عند أبناء المستعمرات الذين تعلموا في الغرب وعادوا حاملين على مشاعر الإحتقار بثقافتهم وأمتهم. ولم هذه العقدة، مع أنه كان يحسّ بالخلع من ثقافته وأصوله. كان يريد أن يثبت بأصله وثقافة بلده، وتؤكد في نفسه أنه يتمكن إعادة إنتماءه إلى مجرى الحياة في قريته. كان يحنّ إلى أهله ويشعر بالإعتزاز والإمتلاء الروحي بينهم. وقد كان لحظة عودته إلى القرية لحظة الفرح والمرح كما كان يشعره كلّ إنسان الذي عاد إلى بلده وأصله بعد غيبة طويلة. وهو مسرور ومتفائل واعتقد عن ملائمة إلى طريقة الحياة

⁽¹⁾ مجلة فضانات الوسط، العدد 282، 18 فبراير 2010

في القرية التي تركها قبل سبع سنوات. هنا يظهر الراوي موقفه نحو البلاد الأوروبية التي قضى فيها سبع سنوات وموقفه نحو بلده وأهله. كان حنيناً إلى بلده طول حياته في أوربا التي يصفها بلادا تموت من البرد حيثانها. "عدت إلى أهلي يا سادتي... عدت وبني شوق عظيم إلى أهلي في تلك القرية الصغيرة عند منحنى النيل. سبعة أعوام وأنا أحد إليهم وأحلم بهم. ولما جئتهم كانت لحظة عجيبة أن وجدتي حقيقة قائمة بينهم. وفرحوا بي وضجوا حولي. ولم يمض وقت طويل حتى أحسست كأنما ثلجا يذوب في دخليتي. فكانني مفرور طلعت عليه الشمس. ذاك دفئ الحياة في العشيرة، فقدته زمانا في بلاد تموت من البرد حيثانها"¹. وبهذا الأقوال يوضح الراوي شوقه الفياض إلى قريته وأهلها. وإن كان غائبا من قريته منذ سبع سنوات لم تبعده هذه الغيبة والبعد عن بلده وأهله ولكن بالعكس قد قربه إليه. يقول وائل حسن "الكلمة 'عدت' يشير أيضا إلى العملية النفسية المهمة التي تتكشف داخل الراوي في هذه الرواية: عودة المكبوت. عودة 'أنا' إلى 'أهلي' والإهتمام بمكان أصليته يتأكد عن إنتهاء غياب طويل غير مرغوب فيها، كأن قلبه قد تحولت إلى قطعة من الجليد وأصبح محموما ومريضا"². عودته إلى أهله هي عودته إلى الحياة، حيث أن حياته كان موقفا وقلبه كان مفرورا وكان محمى حينما كان في الأوربا. وهو رأى بلده مكانا للصحة والشمس ودفئ الحياة. ويصور الأوربا عكسا للشرق: أوربا مكان البرد الشديد المهلك الذي يموت الإنسان والحيوان بشدة بردها، فقد بلده زمانا في "بلاد تموت من البرد حيثانها".

ولم يبين الراوي عن حياته وأحواله في الرواية حيث أنه يتركها من السامعين قائلا أنه تعلم الكثير وغاب عنه الكثير في أوربا، لكن تلك قصة أخرى. كان الراوي يريد أن ينسى حياته وأن يقهرها مصرّحا أن حياته هناك ليست مهمة من عودته إلى بلده. وقد زال ستر الثلج من أمامه واستطاع أن يرى الأشياء والأمر واضحة في بلده وفي قريته. كان الراوي يدرك أنه حياته مرتبطة ببيئة قريته، وقريته هي مصدر إستقرار

¹ موسم الهجرة إلى الشمال، الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 11

² Tayeb Salih Ideology and craft of fiction, Wail Hasan, p: 118

حياته ودوامها. وقد أدرك أن غيبته الطويلة من القرية وحياته في البلاد الغربية لم تبعده من روح قريته وأصلها. ذكرياته عن ألامه وترهات حياته في الطفولة وفي الشباب كلها أزالته منه مشاعر الإغتراب والإقتلاع من أصله وثبتت في نفسه مشاور الإستقرار. زادت ثقته وتأكدته عن حياته عندما نهض من النوم في اليوم التالي بعد عودته وأرخى أذنه للريح "ذاك لعمرى صوت أعرفه له في بلدنا وشوشة مرحة. صوت الريح وهي تمرّ بالنخل غيره وهي تمرّ بحقول القمح"¹. شاهد النخلة التي تقوم أمام داره وقول "نظرت خلال النافذة إلى النخلة القائمة في فناء دارنا، فعلمت أن الحياة لا تزال بخير، أنظر إلى جذعها القويّ المعتدل، وإلى عروقها الضاربة في الأرض، وإلى الجريد الأخضر المنهدل فوق هامتها، فأحسّ بالطمأنينة. أحسّ أنني لست ريشة في مهبّ الريح، ولكنني مثل تلك النخلة، مخلوق له أصل، له جذور له هدف"². يصرّح الراوي في هذه الأقوال كيف كان يحسّ الإغتراب والإنعزال في البلد الأجنبي وكيف يحسّ الآن عن ثبات أصله وإرتباطه بالبلد وتريح نفسه حيث أنه يحبّ العيش في الإستقرار ولا يحبّ التحويل. لم يحسّ بعضاً من الصراع والقضايا عن شخصيته وهويته. وعندما ازدادت علاقته مع جدّه إزداد تفاؤله وثقته عن الحياة "أذهب إلى جدّي، فيحدثني عن الحياة قبل أربعين عاماً، وقبل خمسين عاماً، لا بل ثمانين، فيقوّي إحساسي بالأمن"³.

قال الراوي بعد قليل من الأيام من عودته إلى بلده "كنت سعيداً تلك الأيام، كطفل يرى وجهه في المرآة لأوّل مرة"⁴. يبيّن هذا القول أن الراوي كان سعيداً حتى الغاية عندما رأى الأشياء في أيامه الطفولة والشباب في القرية وأدرك أن تعلّقه ببلدته وقريته ضاربة تحت الأرض وهو صاحب هوية في القرية التي غابها لسبعة أعوام. "هذه المقارنة بطفل يرى وجهه في المرآة لأوّل مرّة مهمّة الغاية في وجهة نظر التحليل

(1) موسم الهجرة إلى الشمال، الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 12

(2) المصدر السابق.

(3) المصدر السابق ص - 15

(4) المصدر السابق، ص - 14

النفسي. لأنها تشير مباشرة إلى مفهوم جاكس لاكان⁽¹⁾ 'مرحلة المرأة'. لاكان يوضح عن لحظة إعتراف الذات، وهي عندما يشاهد الطفل صورته لأول مرة في المرأة. وهذا هو وقت مولود هوية الطفل، وفي هذه النقطة تنمو شعوره بأنه مميز ومستقل عن أمه والآخر⁽²⁾. فعندما يرى الطفل صورته في المرأة لأول مرة يصبح سعيدا لأنه أدرك ذاته. وهكذا، كان الراوي مثل الطفل الذي وجد صورته لأول مرة في المرأة عندما شاهد مواقعه وأشياءه المحبة في طفولته وشبابه فأصبح سعيدا مثل الطفل وأدرك بأن له ذاته وهويته في بلده.

يقرر الراوي أنه مختلف تماما عن مصطفى سعيد الذي أصبح ممزقا بين الثقافتين الشرقية والغربية والذي إقتلع من الأصول والجذور، هو يقول "أنني من هنا. أليست هذه حقيقة كافية؟ لقد عشت أيضا معهم (مع الإنكليز) ولكنني عشت معهم على السطح لا أحبهم ولا أكرهم. كنت أطوي ضلوعي على هذه القرية الصغيرة، أراها بعين خيالي أينما إلتفتت، أحيانا في أشهر الصيف في لندن إثر هطلة مطر كنت أشم رائحتها. في لحظات خاطفة قبيل مغيب الشمس كنت أراها. في أخريات الليل كانت الأصوات الأجنبية تصل إلى أذني كأنها أصوات أهلي هنا. أنا لا بدّ من هذه الطيور التي لا تعيش إلّا في بقعة واحدة من العالم. الوجوه هناك، كنت أتخيلها قمحية أو سوداء فتبدو وجوها لقوم أعرفهم. هناك مثل هنا ليس أحسن ولا أسوء. ولكنني من هنا، كما أن النخلة القائمة في فناء دارنا، نبتت في دارنا ولم تنبت في دار غيرها⁽³⁾.

وكان موقف الراوي نحو أوربا موقفا مختلفا من موقف مصطفى سعيد. نظر مصطفى سعيد إلى أوربا بعين مملووة بالإنقاص والتحدّي والثأر لأنّ لندن إحتلت بلده السودان وهي كانت مركزا للقوى الإستعمارية بين مختلف البلاد الأوروبية التي إحتلت واستعمرت مختلف البلاد العربية والإفريقية والشرقية. ولكن موقف الراوي نحو

(1) جاك ماري إميل لاكان (1901-1918) كان محلل النفسي والطبيب النفسي الفرنسي الذي قدم مساهمات بارزة في مجال التحليل النفسي والفلسفة.

(2) Tayeb salih ideology and craft of fiction, Wail Hasan, p: 119

(3) موسم الهجرة إلى الشمال، الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 59

أوربا مختلف. وهو لا يحب أوربا ولا يكرهها. وهو مولود في السودان ومتعلم في أوربا وله أيضا نزاع هوية في داخله. ولكنه لا يحاول أن ينتقم لوطنه ضد الإستعمار البريطاني مثل ما فعل مصطفى سعيد. وكان يعدّ الشرق شرقا والغرب غربا مثل مصطفى سعيد، ولكن ليس له مشاعر الحقد والانتقام نحو الأوربا الإستعماري. عتقد أن الذين قدموا إلى بلده سيغادرون يوما ما وتعود أدواتهم الكولونيالية إلى ملك البلد.

هنا جدير بنا الذكر أن مصطفى سعيد من الجيل الأول من المتعلمين السودانيين الذين تجربوا تجاربا قاسية مريرة من الإحتلال البريطاني على بلادهم السودان. وهذه التجربة قد جعلت قلوب هؤلاء الرجال مملوءة بمشاعر الحقد والكراهية والثأر والحسد نحو المحتلين على بلادهم. أمّا الراوي هو ينتمي إلى الجيل الثاني من المجتمع السوداني الذي لم يذوقوا ويتجربوا كثيرا من مرارة الإحتلال البريطاني وإستعمارها على بلادهم. وربما هذا قد جعل قلب الراوي قليلا من اللين والرقّة نحو المحتلين. هنا يختلف الراوي من مصطفى سعيد لأن الراوي له صفات محترمة ويؤدّي دورا إيجابيا للجيل الثاني من المتعلمين السودانيين من أوربا ويبحث هويته ودوره في الشرق. "فهو يسعى إلى سدّ الفجوة بين مسقط رأسه وعاداته وتقاليده، وقواعد المجتمع السوداني، القرية على وجه الخصوص والقيم والأعراف الغربية"¹.

يلعب الراوي في هذه الرواية دورا لأن يبيّن معلومات مصطفى سعيد بطل الرواية. ينسج الراوي قطع حياة مصطفى سعيد خلال سرد قصّة حياته في ليلة واحدة وخلال الورقات والصور والدوريات التي وجدها في غرفته السريّة. وفي بداية الرواية نفسها يظهر الراوي موقفا مختلفا من موقف مصطفى سعيد نحو اللأوربا، ومع هذه الإختلاف يختار الراوي أن يروي قصة مصطفى سعيد بدلا من قصته وأحداثه. فكان الراوي هو الوحيد الذي يعرف عن حياة مصطفى سعيد وكان منجذبا ومشتاقا إلى معرفته.

Voices of exiles – a study of Al Tayyib Salih and his work, Ami Elad Bouskila, P: 144 ⁽¹⁾

وسع كان متناقسا ومتحديا لمصطفى سعيد، لأنه كان يظن أنه هو الوحيد الذي حصل على التعليم العصري الإنجليزي بين أهل قريته الصغيرة الواقعة على منحى النيل. عندما شاهد الراوي مصطفى سعيد يعني بعض الآبيات الشعرية الإنجليزية ذات ليلَة فأدرك أن مزيته الوحيدة في تلك اللغة الإنكليزية في قريته قد أصيبت بالتهديد، ولذلك يسأل لمصطفى سعيد أن يقصّ له قصّة حياته. والراوي يوضح عن شوقه هذا في كثير من الأماكن في الرواية. "لا أعلم تماما ماذا أثار فضولي، لكنني تذكرت أنه يوم وصولي كان صامتا"، "كان جدي يحدثني عن حاكم غاشم، حكم ذلك الإقليم أيام الأتراك ولست أعلم مالذي دفع مصطفى سعيد إلى ذهني"، "إزدحمّت أسئلة كثيرة في رأسي: من أين هو. ولماذا إستقرّ في هذا البلد وما هي قصته؟"، "وخفت أن يفلت الرجل قبل أن أعلم عنه شيئا". هكذا يكرّر الراوي حيناً بعد حين أنه كان منجذبا دائما إلى معرفة مصطفى سعيد.

إختار مصطفى سعيد الراوي أن يقصّ عليه قصّته.

عندما يستمع الراوي إلى هذه القصة فاحسّ بعض القلق والإضطراب في نفسه. يتأثر بقصّته وعندما كان يستمع إليها كان يلاحظ في داخله قصّة نفسه. وعندما أتمّ الإستماع إلى سرد حياته أحسّ الراوي أنّ قريته التي رآها رمز الإستقرار والأمن والثبات حتى الآن، قد أصيبت ببعض من العناصر الغريبة والقلق، إذ أنه رأى تشابها قليلا في ماضيه وماضي مصطفى سعيد. وعندما سمع عن إنتحاره، فخاف عن كون التشابه بينه وبين مصطفى سعيد في الحاضر والمستقبل. وخشى أن يكون له نفس المصير كما حدث لمصطفى سعيد. أصبح هاجسا على ماضي مصطفى سعيد ومعاني حياته المقهورة. وفي الأخيرة أصبح الراوي ذاهلا ولم يستطيع أن يميز بين هويّته وبين هويّة مصطفى سعيد. لأن الراوي هو أيضا مأخوذ باتصالات الحضارات بين الإنجليز والسودان وهو أيضا مدرك كثيرا عن طبيعة هذه العلاقات، وملاقات الحضارات بين السودان والقوة الإستعمارية خلال كشفه لحياة مصطفى

سعيد وتاريخه. وأظهر إحساسه بأقواله "هل كان من المحتمل أن يحدث لي ما حدث لمصطفى سعيد؟ قال إنه أكذوبة؟ فهل أنا أيضا أكذوبة؟"¹.

وعندما أصبح الراوي قلقا ومزعجا بماضي مصطفى

سعيد، فهو أيضا يصبح مضطربا بحياة مصطفى سعيد الحاضر، وعندما يرى مصطفى سعيد منتميا إلى القرية وإلى قومه، فهو يحسّ في قلبه مشاعر الإعتزال والإغتراب، ويزعج نظرتة وعلاقته الإيجابية التي شيّدها بنفسه وبقريته، حتى أحسّ أن مصطفى سعيد يحلّ محله في القرية. يلعب مصطفى سعيد دورا حيّا في مجتمعه وأصبح مزارعا ماهرا؛ الشغل الذي أراده الراوي من قبل. يحسّ إحساس الإبعاد والحرمان أوّل الوقت عندما يسخره مصطفى سعيد عن دراسته وامتنيازته في الشعر قائلا "نحن هنا لا حاجة لنا بالشعر. لو أنك درست علم الزراعة أو الهندسة أو الطب، لكان خيرا ويضيف الراوي أنظر كيف يقول نحن ولا يشملني بها، مع العلم بأنّ البلد بلدي وهو - لا أنا - الغريب"². يثير هذا القول يثير في نفسه وعيا عن خدمته لإصلاح قريته. فأحسّ عن عدم قدرته ودوره في إصلاح قريته عندما قاله صديقه محجوب عن عدم التسهيلات في مجال الصحة والتعليم في قريته. "وأنت ماذا تصنع في الخرطوم؟ ما الفائدة أن يكون لنا ابن في الحكومة لا يفعل شيئا"³.

كان تأثير قصة حياة مصطفى سعيد على الراوي عميقا

حتى بعد إخفاء مصطفى سعيد من القرية. يظهر الراوي عن هذا التأثير هكذا، "مات مصطفى سعيد منذ عامين ولكني ما أفتأ أقابله من حين لآخر. لقد عشت خمسة وعشرين عاما، وأنا لم أسمع به ولم أره. ثم هكذا فجأة أجده في مكان لا يوجد فيه أمثاله. وإذا بمصطفى سعيد رغم إرادتي جزء من عالمي، فكرة ذهني، طيف لا يريد أن يمضي في حال سبيله"⁴. يصبح الراوي متوترا بهذه المشاعر المضطربة في نفسه ويحسّ أنه لا يستطيع أن

⁽¹⁾ موسم الهجرة إلى الشمال، الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 58

⁽²⁾ موسم الهجرة إلى الشمال، الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 19

⁽³⁾ المصدر السابق، ص - 126

⁽⁴⁾ المصدر السابق، ص - 60

يخلص من تأثير قصّة حياة مصطفى سعيد حتى بعد موته وتصيده ذكريّاته حتى بعد السنين من غيابه من القرية. وهو يحسّ أنّ صورة مصطفى سعيد تتابعه في كلّ مكان، تتابعه خارج القرية وفي المدينة خرطوم حيث يعمل هناك في القسم التربية والتعليم. عندما كان الراوي في رحلة بالقطار بين الخرطوم والأبيض كان هناك معه موظف متقاعد الذي كان يزامل مصطفى سعيد في نفس الفصل في المدرسة الابتدائية الإنكليزية في السودان. روى هذا الرجل كثيرا من ذكريّاته عن مصطفى سعيد. وكذلك عندما كان الراوي في الخرطوم عرض عليه طيف مصطفى سعيد خلال ذكريّات زميله الآخر. يقول الراوي "وفي الخرطوم أيضا عرض لي مصطفى سعيد، بعد محادثتي مع المأمور المتقاعد بأقلّ من شهر، كأنه جنّ أطلق من سجنه"¹. وأصبح طيف مصطفى سعيد لا يزال دائما مع الراوي. وهكذا أصبح الراوي مرتبطا برباط نفسيّ بـ مصطفى سعيد، ولكنه أصبح مرتبطا به برباط ماديّ حينما غادر مصطفى سعيد القرية معينا الراوي موصيه لتولي أمور زوجته وإبنه وعندما أوكله غرفته السرية.

وقد عيّن مصطفى سعيد الراوي وصيًا على أمور زوجته وعلى إبنه وعلى أملاكه وثورته ومفتاح غرفته السرية. وأخبره مصطفى سعيد أن دخوله إلى هذه الغرفة السرية سيعطي له مزيدا من المعرفة عن قصّة حياته ويستطيع أن يحقق كل حبّ استطلاعته نحوه. فيفهم الراوي أن هذا المفتاح هو مفتاح أن يحلّ الغموض واللغز عن مصطفى سعيد.

ومن الواضح أنّ الراوي قد تغيّر فهمه ووعيه في الأمور بسبب تعلمه ومكوّنه في أوربا خاصة في نظريته نحو النساء؛ النظرة التي تخالف تماما بنظرة الرجال الآخرين في البلد على الأكثر. كان الرجال ينظر إلى المرأة كبضاعة لإرضاء شهواته الجنسية فقط، ويمكنهم أن يتركها بعد حاجته وأن يبدلوا امرأة جميلة أخرى

⁽¹⁾ موسم الهجرة إلى الشمال، الأعمال الطاملة الطيب صالح، ص - 64

من المرأة السابقة. وكان الرجل حرّاً في زواجه ويستطيع أن يمتلك نساء أكثر حسب مشيئه. أمّا الراوي كان يرجو أن تكون المرأة حرة في كلّ الأمور خاصة في تعيين مستقبلها. وهذا واضح في ردّه عندما سأله ودّ الرئيس عن وساطته وإذنه في زواجه مع حسنة، ولكنه في أوّل الوقت لم يرد أن يدخل إلى هذا الموضوع حيث أنه كان يعتقد أن حسنة لها حريّتها في اختيار مستقبلها. فقال لودّ الرئيس "لا فائدة. أنها لا تريد الزواج إطلاقاً. لو كنت منك لتركت هذا الموضوع البتة"¹. أمّا بالنسبة إليه كان يحبّ حسنة بنت محمود، ولكن لا يمكنه أن يميّز مشاعره نحوها، هل هو الحبّ نحوها أم الحقد لمصطفى سعيد.

وكان يدرك عن الظلم الذي مارسها مجتمعه نحو حسنة بنت محمود، ولكنه لم يتجرأ أن يردّ عليه. كان يخبئ مشاعره ودعّمه نحو حسنة بنت محمود لسبب ولائه بقريته وجدّه وصديق جدّه ودّ الرئيس. نفهم هذا الحال الفزع من الراوي عندما قاله صديقه محجوب عن الحدث المأساوي حول موت حسنة بعد قتلها لزوجها الثاني العجوز ودّ الرئيس وأشار محجوب أن حسنة كانت مجنونة. عندما قال هكذا رفض الراوي هذا الرأي ودافع دورة حسنة في نفسه. كان ردّ الراوي على هذا القول رداً في حال جنوني، "قلت له وأنا أبذل جهداً كبيراً حتى لا أبكي، حسنة لم تكن مجنونة. كانت أعقل امرأة في البلد. أنتم المجانين. كانت أعقل امرأة في البلد وأجمل امرأة في البلد، حسنة لم تكن مجنونة"². وكذلك عندما قال محجوب عنها أنها لم تكن تساوي مليماً ولولا الحياء نرميها في البحر بدلاً للدفن، فأمسك الراوي حلق محجوب وهو لا يعرف ما هو العاطف الذي قاده إلى أن يفعل هكذا لصديقه. هو يظهر عن هذه الحادثة هكذا "العالم فجأة إنقلب رأساً على عقب. الحبّ؟ الحبّ لا يفعل هذا. إنه الحقد. أنا حاقّد وطالب ثأر وغريمي في الداخل ولا بدّ من مواجهته"³. وتابع لهذا الشجار لم يكن يظن أنه هو الحبّ أداه إلى هذا الحال الجنون ولكنه في الحقيقة هو إنتقامه وغرامته نحو مصطفى سعيد. ومن القول هنا أن الروائي يصوّر الرجل المتعلّم

(1) المصدر السابق، ص - 105

(2) موسم الهجرة إلى الشمال، الأعمال الكاملة، الطيب صالح، ص - 140

(3) المصدر السابق، ص - 141

الغربي غير موفورا من التجربة وهو غير قادر أمام الأزمات. عندما نصحه محبوب أن يزوج حسنة فرفضه. ولكن عندما حدثت الحادثة المأساوية أصبح حزينا في أمرها واتهم على القرية بعدم مساعدتها نحو حسنة. فيقول له محبوب "المدارس والتعليم رفعت قلبك. تبكي كالنساء"¹.

وفي هذا الحال يدرك الراوي أنه لا يزال مضطربا وقلقا ولم يختر شيئا في حياته، حينما إختار مصطفى سعيد على الأقل الموت. وأحس أن مصطفى سعيد غالب عليه في هذا الأمر. فأصابه بعض المشاعر من الحقد والحسد نحوه. أراد أن يدخل إلى غرفة مصطفى سعيد السرية لأن يقابله وأن يثار عليه بإحراق غرفته. وعندما حاول الراوي كثيرا لأن يتخلص من المشابهة بينه وبين مصطفى سعيد لم يستطع لهذا الأمر. عندما دخل إلى هذه الغرفة رأى مصطفى سعيد، ولكن كانت هي صورته المنعكسة في المرأة. "وقع الضوء على عيني لوقع الانفجار. وخرج من الظلام وجه عابس زاما شقيقه أعرفه ولكنني لم أعد أذكره. وخطوت نحوه في حقد. إنه غريمي، مصطفى سعيد. صار للوجه رقية، وللرقية كثفان وصدر ثم قامة وساقان. ووجدتني أقف أمام نفسي وجها لوجه. هذا ليس مصطفى سعيد. أنها صورتي، تعكس في وجهي من مرآة"².

فأراد أن ينهي اللقاء بينه وبين مصطفى سعيد بطريق آخر. وأراد أن ينهي حياته كما فعل مصطفى، ونزل في النيل. وفي الماء صارع بينه وبين صورة مصطفى سعيد صارع بين حضارة بلده والحضارة الدخيلة إليه من الغرب. سبح في النهر وأصبح في منتصف النهر. وقع بين الشمال والجنوب. ولم يتمكن أن يقدم ويتأخر. أصبح في صراع شديد بين الجهتين. كانت نفسه مائلة إلى شمال وكانت نفسه مائلة إلى الجنوب. ولكن الروائي توجه الراوي إلى اتجاه الذي لم يختره مصطفى سعيد. وقد نهض من حالته الغيبوبة ووجد في داخله شوقا قِيَاضا إلى الحياة، الحياة بين أهله وأهل القرية مستخدما

⁽¹⁾ المصدر السابق، ص - 140

⁽²⁾ موسم الهجرة إلى الشمال، الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 42

أدوات الشمال والجنوب، مستخدما إيجابيات الحضارتين. "كان ذهني قد صفي حينئذ، وتحدّدت علاقتي بالنهر، إنني طاف فوق الماء ولكنني لست جزءا منه. فكرت إذا أنتي مت في تلك اللحظة، فإنتي أكون قد متّ كما ولدت، دون إرادتي، طول حياتي لم أختّر ولم أقرّر. إنني أقرّر الآن أنني أختار الحياة. سأحيا لأنّ ثمة أناس قليلين أحب أن أبقى معهم أطول وقت ممكن ولأنّ عليّ واجبات يجب أن أؤديها لا يعنيني إن كان للحياة معنى أو لم يكن لها معنى. وإذا كنت لا أستطيع أن أغفر فسأحاول أن أنسى. سأحيا الحياة بالقوّة والمكر"¹.

محبوب

محبوب هو رمز لشاب سودانيّ مزارع غير متعلّم. هذه الشخصية نراه في مختلف أطوار حياته خلال مختلف مؤلّفات الطيب صالح. هو زميل الراوي يسكن في القرية وهو رئيس لجنة المشروع الزراعي. وكان يوافق معتدلا على تقاليد القرية وترائثها وعلى تقدّم القرية. كان له رأيا خاصا على حصول التعليم خاصة على أنه مزارع في القرية السودانية. قال الراوي عن صديقه محبوب "كان محبوب مثل سنيّ، فضينا طفولتنا معا وكنا نجلس على درجين متلاصقين في المدرسة الأوليّة. وكان أذكى مني، ولما إنتهينا من مرحلة التعليم الأولى قال محبوب، هذا القدر من التعليم يكفي، القراءة والكتابة والحساب، نحن ناس مزارعون مثل آبائنا وأجدادنا كلّ ما يلزم المزارع من التعليم ما يمكنه من كتابة الخطابات وقراءة الجرائد ومعرفة فروض الصلاة. وإذا كانت لنا مشكلة نعرف ننفاهم مع الحكام. مضيت أنا في ذلك السبل، وتحول محبوب إلى طاقة فعّالة في البلد، فهو اليوم رئيس لجنة المشروع الزراعي والجمعية التعاونيّة، وهو عضو في لجنة الشفخانة التي كانت تتمّ، وهو على رأس كل وف يقوم إلى مركز المديرية لرفع الظلمات.

⁽¹⁾ المصدر السابق، ص - 86-87

وحين جاء الإستقلال أصبح محبوب من زعماء الحزب الوطني الإشتراكي الديمقراطي في البلد¹.

ومع أن محبوب كان في هذه المناسب المرتفعة في البلد كان يعتقد أن زميله الراوي هو الناجح في الحياة حينما كان الراوي يعتقد أن محبوب هو الذي نجح في الحياة. يقول الراوي في هذا الصدد "كنا أحيانا نتذاكر أيام طفولتنا في القرية فيقول لي: لكن أنظر أين أنت الآن، وأين أنا، أنت صرت موظفا كبيرا في الحكومة، وأنا مزارع في هذه البلدة المقطوعة. فأقول له بإعجاب حقيقي: أنت الذي نجحت لا أنا، لأنك تأثر على الحياة الحقيقة في القطر. أما نحن فموظفون لا نقدم ولا نؤخر. الناس أمثالك هم الورثاء الشرعيون للسلطة. أنتم عصب الحياة. أنتم ملح الأرض"².

يبين الروائي الطيب صالح خلال هذه الشخصية أن الأمر المهم للفرد هو أن يشتغل مباشرة بالأمور الإجتماعية وتطور مجتمعه. وليس من المهم أن يكون الشخص مستمدا من التعليم والفنون من المدارس ولكنه عليه أن يكون مملوءا بمعرفة الناس وأحوال بلده وواعيا عن واجبه نحو مجتمعه وبلده. وهو يقول هؤلاء الناس هم عصب الحياة وملح الأرض.

كان محبوب كان على تقاليد القرية ونظمها حتى في أمر الزواج الذي لا يقرّر طاعة البنت أو كرهها في أمر زواجها. كان يقاطع الراوي في رأيه في أمر زواج حسنة بنت محمود مع ودّ الرئيس. كان الراوي لا يوافق على أمر زواج حسنة مع ودّ الرئيس العجوز بدون إذننها حيث كان محبوب يوافق على هذا الامر قائلا للراوي، أنت تعرف نظام الحياة هنا المرأة للرجل. والرجل رجل حتى لو بلغ أرذل العمر.

⁽¹⁾ موسم الهجرة إلى الشمال، الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 107

⁽²⁾ موسم الهجرة إلى الشمال ، ص - 107 - 108

كان محجوب يوافق على تغيير القرية وتطورها ومع

ذلك كان يؤمن أن التحديث في قريته لم يؤدّ إلى كثير من التغيرات في البلد، وكان يرى أن الأحداث التي تدعى بإسم النشأة والتطور جعلت بعضا من التغيرات السطحية فقط في القرية. قال مرة للراوي "الدنيا لم تتغير بالقدر الذي تظنه، تغيرت أشياء، ظلمبات الماء بدل السواقي، محاريث من حديد بدل محاريث الخشب، أصبحنا نرسل بناتنا للمدارس، راديوهاوت أوتوموبيلات. تعلمنا شرب الويسكي والبيرة بدل العرقي والمريسة. لكن كل شيء كما كان"¹. بكونه إشتراكيا لم يستطع أن يقرّر التغيرات الإجتماعية السطحية ولكن كان يدعو إلى أن يحدث التغيرات العميق في المجتمع حتى في تقاليده وعرفه. وكان يعرف أن هذا التغير لا يحدث في قريته من هؤلاء موظفي الحكومة مثل الراوي الذي يوافق على كلّ تقارير الحكومة البلدية، ولذلك كان يأمل أن "الدنيا تتغير حقيقة حين يصير أمثالي وزراء في الحكومة"².

كان محجوب مزارعا في القرية ولكنه كان صاحب

شخصية تفكر وتناقش في الأحوال السياسية في السودان خاصة في أخبار الخرطوم - عاصمة السودان - في أمور الفضائح والرشاوي وفساد الحكام. وكان محجوب يشكو دائما من موقف الحكام الذين لا يبالون في تطور القرى والذين يحاولون في تجديد المدينة وتغييرها ونشأتها فقط. أظهر محجوب كلّ مشاعره الغضب في هذا الأمر إلى الراوي عندما قال له الراوي عن تنظيم مؤتمر لمناقشة سبل توحيد أساليب التعليم في القارة كلها. فردّ له محجوب "فليبنوا المدارس أولا ثم يناقشوا توحيد التعليم. كيف يفكر هؤلاء الناس. يضيعون الوقت في المؤتمرات والكلام الفارغ ونحن هنا أولادنا يسافرون كذا ميلا للمدرسة. ألسنا بشرا؟ ألسنا ندفع الضرائب؟ أليس لنا حق في هذا البلد؟ كلّ شيء في الخرطوم. ميزانية الدولة كلها تصرف في الخرطوم. مستشفى واحد في مروي نسافر له ثلاثة أيام، النساء يمتن

(1) المصدر السابق، ص - 109

(2) موسم الهجرة إلى الشمال، الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 109

أثناء الوضع. لا توجد داية واحدة متعلمة في هذا البلد. وأنت ماذا تصنع في الخرطوم؟ ما الفائدة أن يكون لنا ابن في الحكومة ولا يفعل شيئا"¹.

فإذن محجوب هو رمز للشباب السوداني العادي الذي تساوت فيه عناصر التقليد وتراث المجتمع ونظمها وكان يبتغي إلى تغيير البلد ونشأتها وتقدمها الذي يؤدي إلى إصلاح الناس والقرية والمجتمع والوطن كله. وهو الذي يحلم أن يحدث هذا التغيير والإزدهار في بلده على أيديه مع أنه يدرك أنه من المستحيل أن يحدث هذا.

حاج أحمد

حاج أحمد هو جدّ الراوي، وهذه الشخصية أيضا تتكرّر خلال أعمال الطيب صالح الأدبية. الجدّ حاج أحمد هو رمز للشيخ القروي السوداني الذي نشأ على التقاليد ونظم المجتمع السوداني وتأصلّ عليهما وله جذور عميقة راسخة إلى تراب التقاليد السودانية. يصوّر الروائي حياة حاج أحمد منبعًا للسهولة والاستقرار والأمن والالتزام. كانت هناك علاقة حبيّة وطيدة بين الراوي وجدّه حاج أحمد. يقول الراوي عن هذه العلاقة "أذهب إلى جدّي، فيحدثني عن الحياة قبل أربعين عاما، قبل خمسين عاما لا بل ثمانين، فيقوّي إحساسي بالأمن. كنت أحبّ جدي ويبدو أنه كان يؤثّرني. ولعلّ أحد أسباب صداقتي معه، أنني كنت منذ صغري، تشدّ خيالي حكايات الماضي، وكان جدّي يحبّ أن يحكي، ولما سافرت خفت أن يموت في غيبتي. وكنت حين يلمّ بي الحنين إلى أهلي أراه في منامي"².

يرسم الروائي هذه الشخصية رمزا للاستقرار والثبات وله جذور عميق في إمساك الأمور الدينية. هذا ما نراه في أقوال الراوي عن جدّه "سمعتّه

⁽¹⁾ المصدر السابق، ص - 125-126

⁽²⁾ موسم الهجرة إلى الشمال الأعمال الكاملة الطيب صالح، 16

يتلو أوراده إستعدادا لصلاة الصبح. ألا ينام أبدا؟ صوت جدّي يصل. كان آخر صوت أسمعته قبل أن أنام وأول صوت أسمعته حين أستيقظ. وهو على هذه الحال لا أدري كم من السنين كأنه شيء ثابت وسط عالم متحرك"¹. وكان الجدّ متقشفا في الحياة وكانت حياته تنسجم مع الطبيعة وظواهرها، يبين الطيب صالح عن هذه الحقيقة على لسان الراوي "مصير داره مرتبطة بمصير الحقل، إذا اخضرّ الحقل إخضرّت الدار، وحين يجتاح القحط الحقول يجتاحها هي أيضا"². ومع هذا التقشف والسهولة كان حاج أحمد يلتزم له بعضا من الترف والنزهة في لوازمه تتعلق بالصلاة "الفروة التي يصلي عليها عبارة عن جلود ثلاثة نمور مخططة في جلد واسع. وإبريق الصلاة من النحاس عليه تصاوير ونقوش، وله طشت من نحاس أيضا. وهو يفخر خاصة بمسبحته لأنها من خشب الصندل ويداعب حبّاتها، ويمسح بها وجهه ويستنشق رائحتها"³.

كان حاج أحمد نقطة لمحبة حفيده وحفيده كان يفخر بجدّه في سهولته وتقشفه وجرأته للعيش أمام صعوبات وعضلات كثيرة. يفهم الراوي أن الرجال المتقشفون في الحياة مثل جده حاج أحمد، هم فلاحين فقراء بمقاييس العالم الصناعي الأوربي. "ولكنني حين أعانق جدّي أحسّ بالغنى. أنه ليس شجرة سنديان شامخة وارفّة الفروع في أرض منّت عليها الطبيعة بالماء والخصب، ولكنه كشجيرات السيّال في صحارى السودان، سمكة اللحي حادة الأشواك، تقهر الموت لأنها لا تشرف في الحياة. وهذا وجه العجب. أنه عاش أصلا رغم الطاعون والمجاعات والحروب وفساد الحكام. وها هو ذا الآن يقترب من عامه المائة، أسنانه جميعا في فمه، عيناه صغيرتان باهتتان، تحسب أنهما لا تريان، ولكنه ينظر بهما في حلقة الليل، جسمه الضئيل منكمش على ذاته، عزام وعروق

(¹) المصدر السابق، ص - 58

(²) المصدر السابق، ص - 82

(³) موسم الهجرة إلى الشمال، الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 82

وجلد وعضلات، وليست فيه قطعة واحدة من الشحم، يقفز فوق الحمار نشيطا، ويمشي في غبش الفجر من بيته إلى الجامع"¹.

ومثل الراوي كان حاج أحمد نقطة حبّ عند مصطفى سعيد أيضا: كان مصطفى سعيد صديقا حميما لحاج أحمد وكان يقول عنه أنه رجل فريد من نوعه. وأصبح مصطفى سعيد زعلانا لمحجوب عندما قال أن حاج أحمد رجل مخرف. فزعل جدّا وقال "لا، لا تقل هذا. حاج أحمد جزء من التاريخ"². هكذا كان مصطفى سعيد يقدر تقديرا بالغاً لحاج أحمد في نفسه.

وكان حاج أحمد مختلفا من أقرانه في المجتمع السوداني الذي يكثر فيه الرجال الزواج من النساء. كان لا يزال ملتزما على زوجة واحدة حتى لم يتزوج مرة أخرى بعد موت زوجته. فبهذا الأمر تعرّض الشيخ لسخريات أقرانه. يسخره صديقه ودّ الرئيس المزوج لكثير من النساء ويقول للراوي "ماذا يفهمك أنت في هذا الأمور(في الزواج) أنت وحاج أحمد كلّ واحد منكم إكتفى بإمرأة واحدة. ولما ماتنا وتركناكما لم تجدا الجرأة على الزواج. حاج أحمد هذا طول اليوم في صلاة وتسبيح كأن الجنة خلقت له وحده"³.

ومع هذه الصفات من التقشف والإستقرار والجرأة، يصبح الجدّ حيرانا وفزعا أمام الأزمة التي حدثت في القرية؛ عندما قتلت حسنة بنت محمود زوجها الثاني ودّ الرئيس وقتلت نفسها. ولم يستطع أن يقرّر هذا الأمر ان يحدث من أيدامرأة في مجتمعه. يوضّح الراوي حالة جدّه هكذا في هذا الموقف "وجدته راقدا على سريره في حالة من الإعياء لم أعرفها فيه. كان كأنما ينبوع الحياة عنده قد نضب فجأة. ظللت جالسا وظل هو لا يتكلم. فقط يتأوّه من أن لآخر. ويتقلب على سريره ويستعيز بالله من الشيطان

(¹) المصدر السابق، ص - 84

(²) المصدر السابق، ص - 112

(³) موسم الهجرة إلى الشمال الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 87

الرجيم. وبعد إنتظار طويل قال يخاطب سقف الغرفة "لعنة الله على النسوان، النسوات أخوات الشيطان، ودّ الرئيس ودّ الرئيس، وانفجر جدّي يبكي، إني لم أره يبكي في حياتي. بكى طويلا ثم مسح دموعه بطرف ثوبه وصمت حتى ظننته قد نام"¹. يقول أمي إيلا بوسخلا عن هذه الشخصية حاج أحمد "يقوم الجدّ راسخا مثل صخر جبل طارق، يقوم راسخا أمام تيار الوقت وأحوالها الرفعة والنازلة. إنما الوقت الوحيد الذي نرى فيه حاج أحمد في حالة مأساوية هو عندما تقتل حسنة بنت محمود ودّ الرئيس وإنتحارها بعده. وقد تحير الراوي عندما وجد جدّه باكيا مثل رجال آخرين. يرى الراوي جدّه جزءا من الطبيعة وبيئة مادية للقرية السودانية"².

حسنة بنت محمود

حسنة بنت محمود، هي رمز إلى شابة قروية سودانية في المجتمع السوداني الحديث بعد الإستعمار البريطاني. هي نموذج شابة قروية التي تفوقت على أقرانها. حسنة بنت مولودة في القرية السودانية المتمسكة بتقاليدها وقواعدها ونظمها المتوارثة، وكانت عليها تلك الصفات للبنت القرية قبل زواجها لمصطفى سعيد المتعلم بالتعليم الإنجليزي والمتأثر بحضاراتها. ولكن عندما تزوّجت مصطفى سعيد تدخلت إليها بعض الصفات للنساء المدنية ويؤمن أهل البلد أنها تأثرت لقيم مصطفى سعيد. يذكر الراوي عن حسنة بنت محمود وأيامهم الطفولة حينما كانت طفلة شرسة تتسلق الشجر وتصارع الأولاد. وكانت هي فتاة تسبح معهم عارية في النهر. يقول محجوب عنها للراوي "الحقيقة أنّ بنت محمود قد تغيّرت بعد زواجها من مصطفى سعيد. كلّ النسوان يتغيّرن بعد الزواج

⁽¹⁾ المصدر السابق، ص - 130 - 131

⁽²⁾ voice of exiles – a study of Al- Tayyib Salih and his works, Ami Elad Bouskila, p: 121

لكنها هي خصوصا تغيّرت تغيّرا لا توصف. كأنها شخص آخر حتى نحن أندادها الذين كنا نلعب معها في الحيّ، ننظر إليها اليوم فنراها شيئا جديدا. هل تعرف؟ كنساء المدن"¹.

ولكن الروائيّ لم يبيّن كيف كانت العلاقة بين حسنة وزوجها مصطفى سعيد. عندما سألتها الراوي عن هذا الأمر فلم تجبه إجابة صريحة. وقالت "كان أبا لأولادي، إذا صدق ظني فإن الصوت لم يكن حزينا. بل كانت فيه مناغات... نعم ذلك هو: كان زوجا كريما وأبا كريما. طول حياته لم يقصر معنا"². وبهذه الإجابة لم توضّح للراوي وقرّاء الرواية أنها تحبّ زوجها أم لا. ولكن نفهم أنها كانت تطيع نظم الحياة وقواعدها في المجتمع السوداني المسيطرة من الرجال والشيوخ قبل زواجها بمصطفى سعيد، لأنها لم تكن تعرف كثيرا عن زوجها مصطفى سعيد ولم تبحث عنها قبل زواجها به حتى أنها لا تعرف شيئا عنه إلا أنه جاء إلى القرية من الخرطوم وكان يعمل في التجارة هناك. وكانت لا تعرف لماذا جاء هنا ولم تبحث عمّا في الغرفة السريّة الخاصّة لمصطفى سعيد في بيته حينما كانا يعيشان تحت سقف واحد.

ولكن حسنة حاولت أن تعارض قواعد المجتمع وسيطرة الرجال حيث أنها لم ترد أن تتزوّج ثانيا لرجل آخر بعد موت زوجها مصطفى سعيد. هذه الإرادة أو الفكرة كانت غير سائدة في المجتمع السوداني أو أنها كانت تعتبر عكسا لنظم المجتمع السوداني وقواعدها. فإذن يمكننا أن نقول أنّ حسنة كانت متأثرة بأفكار زوجها مصطفى سعيد، وبدأت أن تفكر مثل المرأة الغربية ليست كمثّل المرأة الشرقيّة.

عندما طلب ودّ الرئيس الزواج من حسنة بنت محمود رفضت هذا الأمر وأصرّت على إرادتها. وقد شاور الراوي - الذي كان معينا وصيًا عليها بعد موت مصطفى سعيد - معها عن فكرة ودّ الرئيس للخطبة معها. ولكنها عارضت على هذا

⁽¹⁾ موسم الهجرة إلى الشمال، الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 110

⁽²⁾ المصدر السابق، ص - 99

الأمر. يبين الراوي عن هذه الحادثة هكذا. قال لها "التعلق بالماضي لا ينفع أحدا. عندك الولدان، وأنت ما زلت شابة في مقتبل العمر. فكري في المستقبل. ومن يدري لعلك تقبلين واحدا من الخطاب العديدين الذين يطلبونك. أجابت فوراً الأمر الذي أدهشني "بعد مصطفى سعيد لا أدخل على رجل. قلت ودّ الرئيس يريد زواجك، أبوك وأهلك لا يمانعون، كلّفني أن أتوسط له عندك. أخيراً أحسست بصوتها في الظلام كأنه تصل "إذا أجبروني على الزواج فأني سأقتله وأقل نفسي". هذا القول ليس قول الذي قالها محضاً، ولكنه قول ينبع من قلبها الإصراري على إرادتها وقلبها غير المطواع أمام أوامر الرجال المسيطرين على فكر النساء وإرادتهن. نرى الإصرار والتعديل في فكرتها وخيالاتها من فكر البنات الأخرى في المجتمع السوداني. ترفض تقاليد المجتمع ونظم القرية وقواعدها. وبهذه الأمر نفسها لعنتها القرية كلها ورائها مرة شيطانية. وعندما أجبرت حسنة للزواج مع الشيخ ود الرئيس فعلت نفس الفعل الذي قالت للراوي؛ قتلت ودّ الرئيس وقتلت نفسها. رأت القرية كلها هذه الحادثة حادثة مأساوية وكرثة وقعت عليها.

وبجملّة القول أن العديد من شخصيات الطبيب صالح الروائية قد أصبح لهم وجود حيّ مائل في نفوس الكثير من القراء وهو رسمها رسماً مشبعاً بالحياة والحركة. وهم يتكلمون لنا في الأوقات عندما ننظر إليهم ويصنّون لنا ما أراد بهم مبدعهم من الإرادة والفكر. وهم يمشون في فناء نفوسنا إياباً وذهاباً ويحومون حول وجداننا. وهذه موهبة إبداعية من أديب حساسٍ الذي يحسّ نبضات مجتمعه وحركات أناسه وهو يظفر ظفراً بارزاً عندما يمكن له أن يوصل تأثير هذه النبضات والحركات في نفوس قرّائه خلال هذه الشخصيات النابضة الحية.

الطيب صالح و"موسم الهجرة إلى الشمال"

مشاعر العرب ضد الإستعمار كما تظهر فيها

دراسة نقدية

أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها

قدّمتها

حسينة. ب

تحت إشراف

بروفسور الدكتور أحمد إبراهيم رحمة الله

الرئيس السابق (المتقاعد)

قسم اللغة العربية بجامعة كاليكوت



قسم اللغة العربية

جامعة كاليكوت

كيرلا ، الهند

2012م

الفصل الثالث

الإستعمار - أسبابه ونتائجه

الإستعمار هو ظاهرة تهدف إلى سيطرة دولة قوية على دولة ضعيفة، وبسط نفوذها لإستغلال خيراتها في المجالات الاقتصادية والإجتماعية والإستراتيجية. ويجري النهب والسلب المنظم لثروات البلاد الضعيفة فضلا عن تحطيم كرامة شعوب تلك البلاد وتدمير تراثها الحضاري والثقافي وفرض ثقافة الإستعمار إلى مرحلة الحضارة. وهناك تعريف آخر هو أن الإستعمار هو إستعباد الشعوب وإستغلال ثرواتها وتسخير إمكانياتها لخدمة الدول الغالبة القوية الأجنبية سواء من الناحية السياسية أو الاقتصادية أو الإستراتيجية. وفي اصطلاحها الإستعمار يشير إلى ظاهرة سياسية إجتماعية وثقافية تشمل إقامة مستوطنات أوروبية خارج أوربا منذ القرن الخامس عشر وإستيلاء الدول الأوروبية سياسيا وإقتصاديا على مناطق واسعة في جميع القارات الأخرى، بما في ذلك إخضاع الشعوب القاطنة فيها لحكم الدول الأوروبية، وإستغلال كنوزها الطبيعية وعمل الشعب الأصلي لصالح الدول الأوروبية. إنتهى الإستعمار تدريجيا خلال النصف الآخر من القرن العشرين ولكنه يعتبر من أكثر الظواهر السياسية تأثيرا على صورة العالم المعاصر.

يعرف قاموس كولن الإنجليزي (Collins English)

(dictionary) الإستعمار أنه مشروع الحصول والقيام بالمستعمرات خاصة لإستغلالها. والقاموس مريم وبشر يقول أن الإستعمار هو سيطرة قوة على منطقة غير مستقلة وعلى أهلها. والموسوع ستانفورد الفلسفي يبين مصطلح الإستعمار أنه عملية إستيطان الأوربا وسيطرتها السياسية على المناطق الأخرى في العالم؛ تشمل الأمريكا وإستراتاليا والنواحي من إفريقيا وآسيا. يقول روجر تكنور في مقدمة كتابه 'الإستعمار - نظرة نظرية' الإستعمار هو علاقة بين الأغلبية المحليين والأقلية الأجبيين. ويأخذ الحكام المستعمرون القرارات

الأساسية المتعلقة بعيش المستعمرين وهم ينفذون هذه القرارات بينهم. أمّا نظرة الماركسية عن الإستعمار هو أنّ الإستعمار شكل من الرأسمالية الذي يؤدي إلى الإستغلال وتحويل المجتمع. يلتصق الإستعمار بتقدّم تطوّر غير إستوائي. يقول الماركس الإستعمار هو أداة للفناء الكامل والإعتماد على الآخر والإستغلال المنظم منتجا الإقتصاد المشوّه والفقر البالغ.

تطوّر مفهوم الإستعمار عبر مراحل متداخلة، وبدأ أن يتحوّل إلى أسماء مختلفة أمثال 'الإستعمار الإستيطاني' و'الإستعمار الإستغلالي' و'الإستعمار الجديد' أو 'الإستعمار الحديث'. الإستعمار الإستيطاني هو إنشاء مستعمرات أي محطات تجارية أو تجمّعات سكانية مأهولة بمواطني دولة معيّنة خارج أراضي هذه الدولة، واستخدام هذه المستعمرات لتعزيز تأثير هذه الدولة على المحليين أو لتثبيت سيطرتها على الطرق أوالمعابر أو المواقع الإستراتيجية أو الأراضي الخصبة أو المناجم. شاع هذا النوع من الإستعمار منذ القرن السادس عشر وحتى منتصف القرن العشرين. وفي الأحيان الكثيرة تطوّر فرق ثقافية وسياسية بين سكان المستعمرات وبلدانهم الأصلية، ممّا أدى إلى انفصالهم عن دول الأمّ وإنشاء دولة جديدة. والإستعمار الإستغلالي أو الإمبريالي هو تسلط دولة سلتها مباشرة على إقليم خارجيّ برسائل سياسية أو إقتصادية أو عسكرية. والإستعمار الجديد أو الإستعمار الحديث هو السيطرة المباشرة على دول معيّنة بأدوات أو سياسية أو إقتصادية أو ثقافية.

تاريخ الإستعمار

الإستعمار هو ظاهرة قديمة لها أصول تاريخية بعيدة بدرجة أو بأخرى. قديما كان الإستعمار فصولا متلاحقة أو متداخلة من الهجرات والغزوات ولكن هذه كانت أقرب إلى الحركات غير الهادفة. وفي ذلك الزمان كان الإنسان بعيدا عن الإستقرار والتوطن والإرتباط الوثيق المحدّد بأرض محدّدة. أمّا عندما تطوّر المجتمع والحضارة وإزداد الإرتباط عضويًا ومجتمعيًا بين الجماعات والأقاليم ومع إطاراد نموّ الدولة

كشكل سياسي، فأخذت الحركات البشرية بالتدريج أن تتجه إلى اتجاه أوضح نحو الإستعمار. الكلمة 'كولني' (colony) الإنجليزية اشتقت من الكلمة اللاتينية 'كولونيا' (colonia) يعني 'الإستيطان' و'المزرعة' والكلمة 'كولونس' (colonus) تعني 'المستوطن والمزارع' والكلمة 'كولير' (colere) تعني 'الزراع'.

الإستعمار المذكور هنا جذوره فتضرب في أعماق عصر الاكتشاف الجغرافية في القرن الخامس عشر والسادس عشر الميلادي. إكتشف البرتغال وإسبانيا الأراضي الجديدة عبر البحار وبنوا المعابر. واقتسمت هذه الأراضي الجديدة بين الإمبراطورية البرتغالية والإمبراطورية الإسبانية. وأخذ هذان البلدان البداية في إنشاء المستعمرات في أوّل الوقت في العالم.

في القرن الخامس عشر إكتشف ملّاح البرتغاليون الجزر الأطلسية مايديرا وجزر الأزور والرأس الأخضر (كيب ويردي) ووصلوا حتى إلى شاطئ الإفريقي الغربي. وفي السنة 1488 إكتشف برنولوميو دياس أنه من الممكن أن يحل حول إفريقيا تنويرا على رأس الرجاء، وهذا الإكتشاف أدى إلى تمهيد السبيل لواسكو دا جاما للوصول إلى الهند عام 1498م. وفي عام 1492 خرج كريستفور كولومبس الإسباني لأن يكتشف طريقا إلى آسيا وكان يحلر نحو الغرب. ولكنه وصل إلى جزر بهاما في قارة الأمريكئة الجديدة. وفي 1521 وصل فرديناند ماجلان إلى الفلبين.

وفي القرن السادس عشر تبخر البرتغال نحو آسيا ووصلوا إلى موزامبيق ومدغشقر وسري لانكا وماليزيا وأندونيسيا وتيمور الشرقية والصين ويابان. وكذلك إستولوا على جزر البحرين وأقاموا فيها الحصون والمواقع والمصانع وظلوا فيها نحو قرن كامل حتى تمكن العرب من طردهم. وفي العقد الثاني من نفس القرن هاجموا عدن مرتين ولكن بدون جدوى، وكذلك فعلوا بمسقط ونجوا في البقاء هناك نحو نصف

قرن. واستقرت قوة البرتغال على كل سواحل الهند والمحيط الهندي وكذلك استولوا على ساحل غرب إفريقيا (ساحل الذهب) وشرق إفريقيا. وأصبحت المواقع البرتغالية على ساحل غرب إفريقيا محطات لحشد وتصدير الرقيق. وفي الاتجاه العكس استعمروا البرازيل الإقليم الواسع. وأسست الإسبانيا في آسيا إمبراطورية بحرية التي تضم من المحطات التجارية المسلحة طول مساراتهم التجارية أمثال غوا وماكاو وملقى.

وفي نهاية القرن السادس عشر إنكمشت البرتغال أمام إسبانيا. ومن ناحية أخرى ظهرت هولندا كقوة بحرية صاعدة وانتهزت فرصة تحطيم البرتغال على يد إسبانيا لأن ثرت دورها وتجارتها ومستعمراتها. وكانت تلك بداية دخولها إلى دائرة الإمبراطورية. واختفى من البرتغال مواقعها ومستعمراتها في الهند واحدا تلو واحد.

بعدما وصل كولومبس إلى جزر الهند الغربية وأمريكا الوسطى إتجه الإسبان إلى الشمال عبر هضبة المكسيك وفيما بعد وصلوا إلى فلوريدا وكاليفورنيا. ومن أمريكا الوسطى أيضا عبروا برزخ وتمددوا على طول ساحل أمريكا الجنوبية الغربي حتى انتهى في سهول الأرجنتين. وقد تمّ كل ذلك قبل أن يقضي القرن السادس عشر.

كان لإسبانيا إمبراطورية كبرى في أوربا وكان لها أملاك واسعة في إيطاليا وآلت إليها الأراضي المنخفضة هولندا وبلجيكا وتطلعت إلى السيطرة على أوربا جميعا. فلقد كان المنافس والعدو الأكبر لإسبانيا على القارة هو فرنسا. فحاولت أن تغزو مع فرنسا ولكنها فشلت. في نهاية هذا القرن حاولت إسبانيا الغزو مع إنجلترا بالأرمادا. ولكن هذه المحاولة أيضا قد فشلت في سنة 1588م ووضع هذا الفشل حدا لإسبانيا كقوة بحر. وانتهت أطماع السيادة الإسبانية.

ولم تلبث القوى الجديدة فرنسا وهولندا وبريطانيا أن تتخاطف من الإسبانيّات قوتها في جزر الهند الغربيّة. إنترعت بريطانيا جميعا وبعض جزر الأنتيل الصغرى في القرنين السابع والثامن عشر، واحتلت فرنسا جلي جواييلوب والمارتينيك كما اقتسمت الإثنان هايتي. أمّا هولندا والدنمارك إقتسمت ببعض الجزر الصغرى إلى أن تظهر الولايات المتحدة في القرن التاسع عشر. وهكذا تدهورت الإسبانيّات وآل دوره العسكري إلى فرنسا وآل دور البرتغال التجاري إلى هولندا.

ظهرت هولندا في القرن السابع عشر إلى الأمام كقوة بحريّة تجارية إستعماريّة. بدأت أن تطمح على المستعمرات البرتغاليّة وانترعت السيادة من البرتغال في جزر الهند الشرقيّة. وهي بذلك ورثت إمبراطوريّة البرتغال كما ورثت موقعها الجغرافي ودورها التجاري وفي الطريق إلى الهند أقاموا مستعمرات ساحليّة في ساحل غانّة. وبعدها إمتلكوا جزيرة موريشس وأخيرا إحتلوا على جزيرة سيلون. وفوق ذلك غامر الهولنديون من جزر الهند الشرقيّة جنوبا حتى كشفوا ساحل شمال أستراليا لأول مرة في بداية القرن السابع عشر. وكذلك كشف تازمانيا ونيوز يلندا في النصف الأول من نفس القرن. أسسوا مستعمرات في برازيل وجيانا. وكانوا هم الذين إكتشفوا لأول مرة رأس هورن وامتلكوا مفتاح مدخل أمريكا الشماليّة في نيو أمستردام (نيو يورك فيما بعد).

بدأت في القرن السابع عشر كلّ من فرنسا وإنجلترا أن تتطلع وتخرج إلى البحر، وتنافست هولندا على التجارة العالميّة والقوة البحريّة. وفي القرن الثامن عشر فقدت هولندا معظم تجارتها وخسرت كلّ قوّاتها البحريّة. إنقضت إنجلترا على مستعمرات هولندا في الشرق الأقصى وأصبحت هولندا حليف بريطانيا.

وقد بدأت فرنسا أن يتزعج الأراضي المنخفضة (بلجيكا) من إسبانيا في منتصف القرن السابع عشر. وبدأت حروبها ضدّ هولندا مستفيدة من تحالف إنجلترا معها في بعض الحالات وسقطت قوة هولندا على يد فرنسا في نهاية القرن. ولكنّ

فرنسا لم تستطع أن تسيطر على تجارة هولندا ولكن بريطانيا هي التي سيطرت على تجارة هولندا.

جمع فرنسا قواها مع إسبانيا خلال القرن عدّة مرّات في حروب مطولة ضدّ بريطانيا بسبب توسّع تجارتها توسعا خطيرا. ولكنّ السيادة الفرنسية في أوربا وصلت إلى قمتها بعد ثورة نابليون. حاول أن يؤسّس إمبراطوريّة في الشرق في مصر والشام. وفي المرحلة التالية حاول أن يغزو مع بريطانيا وأجرت الحصار لبريطانيا لأنّ تحرّمها من كلّ تجارة في أوربا. وفي هذا السبيل أخضع أوربا كلها عدا السويدا والنطاق العثماني كما انتهى به إلى حملة الروسيا الفاتلة.

وفي النصف الأوّل من القرن السادس عشر وصلت فرنسا إلى السنت لورنس وأسست في النصف الأوّل من القرن التالي مستعمرتها الكبرى في كيبك (كويك) وكندا. هبطت في النصف الثاني من القرن السابع عشر مع مسيبي حتى وصلت إلى الخليج لاسال وأسست مستعمرة لوزيانا. ثمّ اتجهت فرنسا إلى جزر الهند الغربية ونجحت في أن تنتزع عددا من جزرها الصغرى من إسبانيا أهمّها جوا ديلوب والمارتنيك.

ثمّ اتجهت فرنسا إلى الهند وأنشأت مجموعة من القواعد التجارية على سواحل الهند شرقا وغربا. وقد نشطت تجارة فرنسا مع هذه المستعمرات نشاطا كبيرا في القرن السابع عشر ولكنّ المنافسة مع بريطانيا خسرت كثيرا من تلك التجارة ثمّ من تلك المستعمرات. فضاعت منها الهند بعد حرب السنوات السبع مع بريطانيا التي انتهت في 1763 ولم يبق لها إلّا بعض السواحل في شاندراناغور ويانون وبونديشيري وكريكال وماهي. ثمّ إنتقل صراع فرنسا وبريطانيا إلى كندا ونجحت البريطانية في هذا الصراع. ولم يبق لفرنسا إلّا جزيرتي سان بيير وميكلون.

والنجاح في أرمادا عام 1588 فتح لبريطانيا الباب على مصراعيه لتدخلها إلى الميدان البحري والتجاري الجديد مع إفتتاح القرن السابع عشر. وقد أسست بريطانيا أول مستعمرة في فرجينيا في 1607 وقبلها بقليل أنشأت شركة الهند الشرقية ووصلت سفنها إلى الهند وشاركت في تجارتها. ثم فقدت فرنسا الهند التي غزتها بريطانيا وضمتها إليها في 1763.

وفي تلك الفترة في 1783 خسرت بريطانيا مستعمراتها الثلاث عشرة في أمريكا اللاتينية حينما ثارت هناك حرب الإستقلال. فاتجهت نظرة البريطانيا نحو إفريقيا وآسيا والمناطق الهادئة. هزمت بريطانيا فرنسا عام 1815 وأصبحت أكبر إمبراطورية في العالم. إنتزعت الكاب من هولندا وحصلت على سنغافورة بالشراء البخس في 1819 كما كانت ضمت مالطة أثناء الصراع.

أقامت بريطانيا في بداية القرن التاسع عشر عددا من المستعمرات في أستراليا. وقد كانت نيو ساوث ويلس أول مستعمرة أسترالية. ثم أنشأت مستعمرة جديدة في كونيغ لاند وفان ديمزلاند (تسمانيا حاليا) وغربي أستراليا وجنوبها. أما نيو زيلاندا لم تصبح مستعمرة إلا عام 1840.

وفي نهاية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين أنشأت اليابان إمبراطورية ضمت من كوريا وتايوان. وخلال الحرب العالمية الثانية وسّعت اليابان إمبراطوريّتها على حساب بعض المستعمرات الصغيرة التي كانت تسيطر عليها دول غربية. إلّا أن هذه الإمبراطورية سقطت بعد أن هزمت اليابان عام 1945 وتحولت هذه المناطق مرّة أخرى إلى مستعمرات غربية.

وفي الثورة الصناعيّة في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين تطوّر الإستعمار في كلّ من إفريقيا وآسيا. وفي هاتين القارتين سعت

الدول الصناعية إلى الحصول على المواد الخام لمصانعها والأسواق لمنتجاتها الصناعية. إنقسمت إفريقيا من قبل بلجيكا وفرنسا وألمانيا وبريطانيا والبرتغال وإسبانيا ولم يبق من المناطق الإفريقية مستقلة إلا أثيوبيا وليبيريا. أرادت بريطانيا البلاد الإفريقية واحتلت على مصر عام 1882 وعلى اليمن الجنوبي عام 1839 وعلى السودان عام 1898 وكينيا وأوغندا في عام 1895م. واحتلت بلجيكا على كنفو منذ 1885 إلى 1908م. حاولت إيطاليا أن تسيطر على الصومال وإرتريا في عام 1899 وغلبت فرنسا على الجزائر عام 1830 وتونس عام 1881 وجيبوتي عام 1884.

عندما إنتهت الحرب العالمية الأولى عام 1914 قسم الحلفاء الناجحة في الحرب البلاد ألمانيا والإمبراطورية العثمانية بينهم وأبقوها معهم كأقاليم تحت إنتداب عصبة الأمم. وكذلك قسمت الإتفاقية سايكس بيكوت في عام 1916 الشرق الأوسط بين بريطانيا وفرنسا ووعد إعلان البلفور عام 1917 للحركة الصهيونية الدولية عماد البريطانية كلها في إنشاء وطن يهودي في فلسطين. احتلت بريطانيا على العراق عام 1918 وفلسطين عام 1917 والأردن عام 1920. وكذلك إستولى فرنسا على سوريا ولبنان عام 1920 وسيطرت الإيطالية على الصومال عام 1927 وليبيا عام 1911. وهكذا في عام 1914 إدعت القوى الغربية أن 85% من ساحة الأرض كانت على شكل مستعمرات، محميات، بلاد تابعة وأرض خاضعة وكومنولث.

بعد نهاية الحرب العالمية الثانية عام 1945، أسست هيئة الأمم المتحدة عام 1962 لجنة خاصة حول تحليل الإستعمار وسميت هذه اللجنة لجنة 24. سعت هذه اللجنة أن تشتغل بأعمال تحليل الإستعمار وتخليه. بعد إنتهاء الحرب العالمية الثانية كانت القوات الأوروبية تعدم من الأموال الهائلة والعدم السياسي لأن تقهر الثورات التي تحدث في البلاد البعيدة منها. وكذلك واجهت هذه القوات الإعتراض من القوات الجديدة؛ من أمريكا والإتحاد السوفيتي. وفي هذه الحالة إستقلت كثير من البلاد من الإستعمار

الأوروبي. إستقلت كوريا في عام 1945 وفلسطين عام 1948 ومصر عام 1954. وانسحبت القوات الأوروبية من إفريقيا في 1950 و1960 وانسحبت من هونغ كونغ في عام 1997. غادرت فرنسا فيتنام في 1954 وتركت مستعمراتها الإفريقية الشمالية في 1962. وكذلك تركت البرتغال مستعمراتها الإفريقية عام 1970.

أهداف الإستعمار

كان هناك بعض الأسباب والأهداف والأغراض وراء محاولة الإستعمار وبناء المستعمرات من قبل البلاد المختلفة وإحتلالهم على البلاد الأخرى.

الأهداف السياسيّة

حينما ظهرت القوّات والمراكز الجديدة بين الدول العالمية، فحاولت كلّ دولة لأن تحسن أحوال مركزها الإستعماري للمنافسة مع المراكز المتقدّمة على سلم القوى الدولية، حيث أن هذا التحسين وسّع دائرة نفوذها إلى المجتمع الدولي وأصبح أكثر قدرة على التحكم في القرارات الدولية وتوجيهاتها بين البلاد العالمية. ومن الجدير بالذكر عن مؤتمر برلين عام 1884. عقد هذا المؤتمر بسبب الصراع بين الدول الإستعمارية على مناطق نفوذها. فكانت على الدول الإستعمارية أن تزيد مواردها لأن تعزّز مركزها الدولي في إطار هذا التنافس بين الدول المختلفة. فإذن لا بد لها أن تبحث موارد خارج حدودها. ولهذه الأحداث حدثت الإكتشافات الجغرافية الهادفة إلى البحث عن مناطق غنيّة بالموارد والإستثمار. وحدث الإحتلال العسكري المباشر على المناطق الغنية بالموارد. وكذلك إحتاجت الدول الإستعماريّة إلى تعزيز مركزها الدولي لأن تسيطر على المواقع التي تمثل مراكز ويمكن لها السيطرة على طرق المواصلات أو التسلط على منابع بعض الأنهار أو مجراها.

الأهداف الاقتصادية

كان الإستعمار تهدف إلى الإستغلال الإقتصادي من المنابع الطبيعية في المستعمرات، وإنشاء الأسواق الجديدة لمنتجات المستعمرين والحصول على المواد الخام لصناعتها. بدلت الثورة الصناعية في أوربا في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر واحتاجت الدول الأوروبية إلى المواد الخام لإنشاء صناعات جديدة، فاندفعت هذه الدول إلى البحث عن المواد الخام لصناعة المنتجات الجديدة. فبدأت أن تبحثها في أرجاء العالم واحتكرت على المواد المتنوعة من الدول المختلفة كما احتكرت على القطن في مصر والماس والذهب في جنوب إفريقيا والأراضي الزراعية في الإفرقي الشمالي.

الأهداف الدينية والثقافية

حاولت الدول الإستعمارية لأن تشكل مجتمع مستعمراتها على طرازها المجتمعي وجعلت هذا التشكيل على طراز منظم لأن يجعل هذا المجتمع من المستعمرات أكثر ارتباطا بالدول المستعمرة. حاولت البلاد الإستعمارية لبسط أسلوب حياتهم وراء حدودهم الوطنية. النظرة إلى خريطة العالم اللغوية تعرض أن لغة البلاد المستعمرة حلت مكان اللغة المحلية في كثير من البلدان المستعمرة. فمثلا المستعمرات الإسبانية في أمريكا اللاتينية تستخدم اللغة الإسبانية لغة رسمية، وكذلك تعدّ الإنجليزية لغة رسمية في المستعمرات البريطانية أمثال نيجيريا وجنوب إفريقيا وأصبحت اللغة الفرنسية لغة رسمية في مستعمرات فرنسا مثل تشاد ومالي والسنغال وأصبحت اللغة البرتغالية لغة رسمية في موزامبيق بوصفها مستعمرة برتغالية في الأيام الماضية.

أما في ناحية الأهداف الدينية، وقد حدثت عدد من الحملات الإستعمارية بوجود بعثات وإرساليات تبشيرية دينية ونحوا في تنصير قطاعات

من سكان المستعمرات مثلما وجدوا النجاح في الجزر الإفريقية مثل جنوب السودان وجنوب
نيجيريا.

الأهداف الديموغرافية

عندما إزداد عدد السكان في مناطقها أرادت الدول
الأوروبية أن تسيطر على أقاليم معينة لأن ينقل هذا الفائض السكاني إليها. ولذا عملت هذه
الدول الإستعمارية لأن تنمو على حساب المناطق للإفاضة إليها هذا الفائض السكاني. عندما
إشتدت البطالة في القرن التاسع عشر في أوربا قامت مدرسة الإصلاح الإستعماري التي
دعت لتحويل الفائض السكاني إلى المستعمرات واستخدامهم في الزراعة. قامت أوراب بنقل
الفائض السكاني إلى الأمريكتين ثم إلى إسبانيا وإفريقيا وأخيرا إلى أستراليا ونيو زيلندا كما
اتخذ الأوروبيون مواطئ أقدام إستعمارية في الجزائر وجنوب إفريقيا والهند وجنوب شرق
آسيا.

آثار الإستعمار

إنّ الإستعمار له آثار إيجابية وسلبية. مثلما قال الطيب
صالح "الإستعمار مثل مسرحية من مسرحيات شكسبير حيث الخير والشر يختلطان بصورة
مميّزة، تزخر بشخصيات بين المأساة والكوميديا والعبث، إمتزجت أهوائها وطموحاتها
وغرابات سلوكها بالمطلب الإستعماري"¹.

تأثير الإستعمار على الصحة

تشير المقابلة بين المكتشفين المستعمرين والسكان في
البلاد الأخرى في العالم إلى ظهور الأمراض والأسقام الجديدة التي سببت في بعض الأحيان

⁽¹⁾ وطني السودان، الطيب صالح، ص - 56

إلى وجود أمراض معدية بين الناس. ويقال أن الأمراض مثل مرض الجدري ومرض الحصبة والحمى المالاريا والحمى الصفراء والأمراض الأخرى كانت غير معروفة في أمريكا قبل الاحتلال الإنجليزي. وهكذا أدى الإستعمار إلى نشر هذه الأمراض في البلاد المختلفة. أصبح كثير من السكان البلدي والسكان الأجنبي ضحايا لهذه الأمراض وقصرت نسمة السكان في البلاد المستعمرة.

أما في الناحية الأخرى وقد بدأ أن يكتشف الحلول الطبية لأن يزيل هذه الأمراض. كما اكتشف والدمار هافكين ضابط من شركة الهندية الشرقية لقاحا ضد الأمراض الكولورا. وفي بداية سنة 1803 بدأت إسبانيا لجنة لأن ينشر لحاقا للمرض الجدري في المستعمرات الإسبانية. هكذا ساعدت هذه القوات الإستعمارية لأن يزيل هذه الأمراض وأن يزد نسمة سكان المستعمرات.

الغفلة في المواد الأغذية

أدى الإستعمار من قبل البلاد المختلفة إلى تناقل عالمي للبذور والحبوب والحيوانات خاصة بعد عام 1492م. وكذلك تبادلت الحيوانات أمثال الطماطم والذرة والبطاطا من بلد إلى أخرى.

تجارة الرقيق

كان الرقيق أعلى سلعة في التجارة الإستعمارية. كان دور البرتغاليين في تجارة الرقيق يقوم في مرتبة الأولى وكان للإنجليز بعدهم دورا كبيرا في هذه التجارة الآثمة. وكذلك شارك الهولنديون والفرنسيون في هذه التجارة بقر. "فإذا كان الهولنديون يقولون إن أمستردام قد بنيت على عظام الرنجة فمن الصحيح كل الصحة أن تقول إن لشبونة وليفربول قد بنيتا على عظام الرقيق السود ودماه. وقد شهد المحيط الأطلسي مثلثا دمويا يدور مع عقارب الساعة تبدأ فيه السفن بنقل بضائع ومصنوعات بريطانيا إلى

غرب إفريقيا حيث تستبدل بها شحنات آدمية. ثم تنطلق عبر المحيط لتفرغها في أمريكا الشمالية والوسطى والجنوبية ومنها تعود محملة بمحاصيل المداريات من سكر وروم وقطن وتبع... إلخ"¹.

مزق الإستعمار الوحدة في البلاد ونشر التفرقة بين أبناء البلاد الواحدة وأثاروا النعرات الدينية والمذهبية بين الطوائف المختلفة. وأصبح الإستعمار وزرا ثقيلًا على كاهل الشعب الفقراء من المستعمرات وسقط كثير منهم غير محتملين هذا العبأ الثقيل. وجدوا آبائهم وأبنائهم وأمّهاتهم وزوجاتهم تنهب وتسرق وتظلم أمام عيونهم ولا طاقة لهم إلا أن يغضّوا أبصارهم عن منظر هذه الممرسات الهنيئة. كانت قلوبهم ونفوسهم تندلع وتشتعل من نيران الحقد والغضب والانتقام نحو هذه القوّات الوحشية الإستعمارية وانتظروا فرصة لأن يصبّ كل هذا العبأ من الغيرة والغضب على هؤلاء الرجال الذين داسوهم تحت أقدامهم. والفصل الثاني يلقي الضوء إلى هذه المشاعر المضادة من قبل العرب والإفريقيا الذي ذاق مرارة الإستعمار لطول الفترات.

(1) إستراتيجية الإستعمار والتحرير، د. جمال حمدان، ص - 83

الطبيب صالح و"موسم الهجرة إلى الشمال"

مشاعر العرب ضد الإستعمار كما تظهر فيها

دراسة نقدية

أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها

قدّمتها

حسينة. ب

تحت إشراف

بروفسور الدكتور أحمد إبراهيم رحمة الله

الرئيس السابق (المتقاعد)

قسم اللغة العربية بجامعة كاليكوت



قسم اللغة العربية

جامعة كاليكوت

كيرلا ، الهند

2012م

الفصل الخامس

المشاعر ضد الإستعمار في الرواية

قال الطيب صالح خلال حوار أجرته معه الروائيّة

المصريّة هالة البدري عندما سألته هذا السؤال: لو إستعدت بطل روايتك موسم الهجرة إلى الشمال الآن هل سيعيش ويفكر بنفس الطريقة؟ فأجاب الطيب صالح "أظنّ أن الاشياء ما زالت كما هي، دارت هذه الرواية بين الحربين العالميتين وكانت لندن وأوروبا عموما مختلفة عما هي الآن وكان الإستعمار صريحا، كانت بريطانيا هي الدولة العظمى وليست أمريكا، والإنجليز مختلفون الآن. إذا أردت أن أكتب هذا لا بدّ أن أراعي هذه التغيّرات وقد لا أختار لندن للأحداث. إذ كانت هناك مواجهة في الماضي - وليس صراعا - بين الحضارة الغربيّة والحضارة العربيّة الآن أصبحت أكثر صراحة عن الإسلام، من هذه الناحية هي نفس القضايا وبعضها إزداد حدّة، والإستعمار الذي تمثله أمريكا بلغت به الجراة إلى أن يدخل بلدا عربيا قائما مهما كانت المبررات ويحطّمه، في الفترة السابقة كانوا يختشون قليلا"¹. ومن هذه الفقرة يتّضح لنا أنّ الأعمال الأدبيّة التي تعالج موضوع الإستعمار في حبكتها، والدراسة والنقد عن هذه الأعمال الأدبية ليست موضوع غير الإهتمام في هذا العصر. لأنّ الإستعمار قضية أبدية بالنسبة للإنسان عموما وخاصة للإنسان العربي وهذه القضية تشغل بال الكثيرين ممّن يهتمّ الأمر. وإن كانت ظاهرة الإستعمار بارزا في العالم في القرون الخامس عشر والسادس عشر والثامن عشر والتاسع عشر في صورة أكثر وضوح، الآن أنها تستعيد صورتها ووجوديتها في العالم في شكل غير مرئيّ وفي صورة غير بارزة وهي تقبض قبضتها على أعناق البلاد المختلفة بدون وعي من هذه البلاد.

⁽¹⁾ www.omferas.com \ تعرّف على الكاتب السوداني، هالة البدري، القاهرة ، 15\04\2005

فالدراصة عن الإستعمار في وجوها المتنوعة - في

الوجه السياسي والإقتصادي والفكري ليست دراسة تليق في فترة الإستعمار في القرن الثامن عشر والتاسع عشر فقط، ولكنها هي عمل يستحق أن يجري في الأوقات الحالية والحاضرة. لأن الإستعمار أو الكولونيالية تعيد إنبعائها بشكل جديد في كلّ فترة التاريخ الإنساني. وتظهر هناك كثير من التبريرات التي تدافع هذه الأنماط الجديدة من الإستعمار والكولونيالية.

تستعمل القوّات الإستعماريّة كثيرا من الشعار الجديدة

لأن تبرّر ممارساتهم الإستعماريّة البذيئة في مختلف أنحاء العالم. وهم يسمّون الإستعمار بأسماء جديدة مشوّمة أمثال 'التدخل الإنساني' و'التدخل لنشر الديمقراطية وحقوق الإنسان' وغيرها. وتتحرّك القوّات والجيش الإستعماريّة الغربية تحت هذه الشعارات الجديدة لتدخلهم إلى البلاد الأخرى واستعمارها كما جرت في كوسوفو والصومال وأفغانستان والعراق حتى في هذه الأيام. وبهذه الشعار والأسماء الجديدة يواصلون ممارساتهم الوحشية في البلاد المستعمرة ويستمرّون الإبادة والنهب والإستيطان والتدمير كما كانوا فعلوها في فترة الإستعمار القديم. فإذن من الواضح أنّ القوّات الإستعماريّة تبغي أن تبقى تملكها في صور وأوضاع جديدة تختلف عن الأوضاع القديمة في مظاهرها ومبناها، ولا تخرج عنها في جوهرها وممرها.

وقد عملت الشعوب المتنوّعة ثقافيا وتاريخيا وجغرافيا

على مقاومة ما تعرّضت له هويّتها وثقافتها من طمس، وهذا ليس فقط عن طريق حركات التحرّر الوطنية، بل من خلال كتابات متنوّعة. رأت السودان وأبنائها كلّ الوجوه السلبية والإيجابية للإستعمار ولايزالون يحتملون نتيجة الإستعمار ويحملون عبئه الثقيل على كتفهم. إن الإنسان الأسود قد عاش قرونا من التعذيب والإهانة من يد الغرب، وتركت هذه القرون في نفس إفريقيا جروحا لا تندمل بسهولة. فقد أثار هذا الإستعمار قلوب الناس وأبدوا هذه الثورة خلال طرق مختلفة. بعضهم اختاروا سبيل السلاح وسفكوا دمائهم ضدّ الإستعمار

وتحرير وطنهم من مخالب هذه الدابة الوحشية، وبعضهم فتحوا لسانهم وكلماتهم الحادة وصبّوا غضبهم الجامة لطرّد أهل الإستعمار وعوناته، أما بعضهم أخذوا أقلامهم وأوراقهم وعرضوا كلّ ما في نفوسهم من الألم والإضطراب والقلق عن الإستعمار وأبدوا غضبهم وحقدهم وثأرهم نحوه. لأنّ البندقية والقلم كلاهما سلاح في مواجهة العدوان والشراسة من ناحية الحاكم الغاشم الوطني أو من ناحية الحاكم الجارم الإستعماري كما قال صدام حسين 'القلم والبندقية لهما فوهة واحدة'.

وهؤلاء الكتاب هم الذين استطاعوا أن ينبتوا بذور الوطنية ووعي الإستقلال وتحرير الوطن في قلوب الناس وفي نبضاتهم. ومن هؤلاء الكتاب الطيب صالح الإبن الحنون من الوطن السودان. وقد أبدى هذا الروائي السوداني في روايته المشهورة موسم الهجرة إلى الشمال عن مشاعره وأفكاره عن الإستعمار وعن مشاعره المعارضة نحو الإستعمار، حيث أنه إبن من الوطن السودان من القارة الإفريقيا التي أصبحت مستعمرة للأوربا وخاصة للبريطانيا لفترة طويلة.

عرض الطيب صالح في هذه الرواية عن مساوي الإستعمار الأوروبي والبريطاني في البلاد العربيّة المختلفة. ولكنه إختار وطنه السودان لتقديم الأمور أمام القراء ولعرضها أمام عيونهم لأنه رأى ولمس وعانى ظاهرة الإستعمار خلال حياته. إختار بطله في هذه الرواية 'مصطفى سعيد' لأن يقّدّم آرائه ونظراته عن الإستعمار الأوروبي في مختلف بلاد العالم. وكذلك إختار بطلها الثاني الراوي لأن يقّدّم أمام القراء أفكاره ولمحاته عن أحوال العالم العربي ما بعد الإستعمار.

تتساوى حياة 'مصطفى سعيد' بطل الرواية بتاريخ إحتلال البريطاني في السودان. ولد مصطفى سعيد عام 16 أغسطس 1898، العام الذي حدثت فيه موقعة أتبرا بين أتبرا وأم درمان التي فيها هدم جنود كتشنر جنود المهدي وأكمل

فتح السودان في المدينة الخرطوم¹. كانت أم مصطفى سعيد جارية من السودان وكان أبوه ينتمي إلى قبيلة في السودان التي لعبت دورا مهما في إعانة كتشنر وتطبيق نظامه في السودان. يبين التاريخ أن بعض الفئات من القبيلة يبجا في السودان الجنوبي كانوا مولعين بالحكم المهدي في فترة حكمه في السودان وبقت بعضهم مولعين بالحكم العثماني في مصر. وإلى هذه الحقيقة التاريخية تشير الرواية حينما تقول عن أبي مصطفى سعيد. "كان أبوه من العبايدة، القبيلة التي تعيش بين مصر والسودان. أنهم الذين هربوا سلاطين باشا⁽²⁾ من أسر الخليفة عبد الله التعايشي، ثم بعد ذلك عملوا روادا لجيش كتشنر حين إستعداد فتح السودان"³. كانت القبيلة 'عبادة' تعيش على حدود مصر والسودان، ولذلك كانوا غير منتمين إلى مصر ولا السودان ولم يكونوا مولعين بالسودان. تقول الكتب التاريخية أن القبيلة 'عبادة' خدمت الجيوش الإستعمارية وضباطها بقواتها التي إستعملها لورد كتشنر خلال فتحه الثاني على السودان.

وعندما نشأ مصطفى سعيد وترعرع كان البريطانيان المستعمر قد فرض سلطانه على بلده. فرأى ما رأى من الفساد والقتل يجريها المستعمرون البريطانيون بين أهل بلده. فظلت في نفسه الرغبة في إلحاق الهزيمة بالمستعمر والثأر للآباء والإخوة الذين حصدهم رصاص المستعمر. فانتظر فرصة لإنتهازها في تحقيق رغباته الكامنة في أعماق قلوبه. وفي هذا الحال أخذ الولد أول قرار بمحض إرادته لأن يلتحق بمدرسة الكولونيالية وأصبح هذا القرار نقطة التحول في حياته. وهكذا إختارت حكومة بريطانيا مصطفى سعيد لأن يتعلم في مدارسهم الكولونيالية. أولا في السودان وبعد ذلك أرسلته في بعثة علمية إلى مصر ثم إلى لندن. كان ابن الإنكليز المدلل وأطلقوا عليه الإسم

⁽¹⁾ تأسست مدينة الخرطوم في عام 1821 باعتباره مقرا للجيش المصري لكنها نمت كمركز إقليمي للتجارة بما في ذلك تجارة الرقيق. في عام 1884 حصر جيش المهدي الخرطوم المحتلة من البريطانيين وقتل الجنرال البريطاني تشارلز غوردون.. سقطت المدينة في أيدي المهديين في يناير 1885، 26. وبعدها في عام 1898 إستعادت القوات البريطانية المدينة من المهديين.

⁽²⁾ كان سلاطين باشا (1858- 1932) Rudolf Carl Slatin ضابطا نمساويا يوظف في تركيا وأصبح سجيناً في عهد المهدي وما زال في هذا الحال حتى فترة عبد الله التعايشي. وكان سجيناً لإحدى عشرة سنة.

⁽³⁾ موسم الهجرة إلى الشمال ، الأعمال الكاملة ، الطبيب صالح - ص-63

'الإنكليزي الأسود' بسبب ولوعه باللغة الإنجليزية ومهارته في نطق الكلمات الإنجليزية مثل لغته الأم اللغة العربية. أما نسبته إلى الاسم 'الإنكليزي الأسود' هو نتاج الفكرة الإنجليزية لسيطرتهم غير المباشرة عليه. وفي الحقيقة كان الإنجليز يلمحون لأبناء الوطن الحكم ولكنهم تأكدوا لجعل رغبات هؤلاء الأبناء رغبات تناسب الإنجليز. وكان إرادتهم في تعليم أبناء الوطن لتكوين طبقة من الناس هم أسود في الأصل، وهم يليقون إلى وطنهم في دمهم ولونهم ولكن رغباتهم وآرائهم وخلقيتهم وعقليتهم كلها تكون على طراز الإنجليز.

كان مصطفى سعيد يتعلم في أوروبا عام 1916 عندما

كان السودان تحت الحكم البريطاني المباشر، وفي هذه السنة نفسها وقعت بريطانيا وفرنسا إتفاقية سايكس - بيكو⁽¹⁾ بينهما، وهذه الإتفاقية كانت توضح مدى تأمر فرنسا وبريطانيا على العرب. هي التي قسّمت العالم العربي إلى دائرتين؛ دائرة تحت نفوذ بريطانيا ودائرة تحت نفوذ فرنسا. وكانت هذه الحادثة بعد وعد بريطانيا للزعماء العرب الوطنيين بإستقلال بلادهم من الإحتلال البريطاني إذا ساعدوهم ضدّ الحكم العثماني. وكذلك أصدرت البريطانية إعلان بلفور⁽²⁾ عام 1918 الذي وعد فيه تأسيس دولة يهودية على أرض العرب، وأعلن حزب الأمم أنه يعيّن البريطانية والفرنسا حاكمين على هذه القطعة من الأرض. وفي هذه السنة نفسها عيّن مصطفى سعيد محاضرا في قسم العلم الإقتصادي بجامعة لندن. وعاد من البريطانية إلى السودان إلى وطنه عام 1953 قبيل إستقلال السودان من الإحتلال البريطاني.

⁽¹⁾ عقدت هذه الإتفاقية بين بريطانيا مثلها ماركس سايكس، وبين فرنسا ومثلها جورج بيكو، وباركت روسيا هذه المفاوضة واتخذت قرارا تتعلق بالبلدان العربية. منها إستيلاء فرنسا على الشام وإستيلاء بريطانيا على جميع المناطق الواقعة بين المنطقة الفرنسية والخليج العربي وغيرها.

⁽²⁾ أصدرت بريطانيا في 2 نوفمبر سنة 1917 م وعد بلفور على شكل خطاب وجهه وزير خارجيتها آرثر بلفور، إلى الزعيم الصهيوني اللورد رتشيولد وينص على: أن حكومة البريطانية تنظر ببعن الإرتياح إلى إنشاء وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين.

مصطفى سعيد وحربه الجنسية

دخل مصطفى سعيد إلى لندن محدداً بنفسه دوره وقضيته الأساسية "نعم يا سادتي إنني جئتكم غازيا في عقر داركم"¹. كان على مصطفى سعيد أن يذهب إلى بريطانيا غازيا كما جاء كتشنر غازيا إلى السودان في عقر داره من قبل وعليه أن يلعب دور كتشنر الذي لعبه في بلده السودان. وعين لنفسه رسالة في ذهابه إلى بريطانيا. وكانت هذه الرسالة المعينة عليه من نفسه أكبر طموحا وأكثر جسارة. آل على نفسه مهمة أن يستبيح بريطانيا مثلما استباحت بريطانيا مجتمعه وشعبه وأن يلحق ببريطانيا العار والهزيمة مثلما ألحقت العار والهزيمة بأهله ووطنه. كان مصطفى سعيد رئيسا لجمعية كفاح إفريقيا للإستقلال عام 1928 في لندن، ومع ذلك كان باحثا في علم الإقتصاد وألف أربعة كتب متعلقة بالإستعمار 'إقتصاد الإستعمار'، 'الإستعمار والإحتكار'، 'الصليب والبارود' و'إغتصاب إفريقيا'.

إن تحليل إسم الكتاب 'إغتصاب إفريقيا' يوضح أنّ هذا العنوان يشير إلى الإستعمار البريطاني الذي تجربته القارة الإفريقية، ويصور هذا العنوان المفهوم 'الإستعمار' ظلما يجري نحو النساء أو مثل ممارسة ظلم الرجال ومهاجمتهم الجنسية على النساء. يلمح هذا العنوان إلى الأوربا الكولونيالي في دور ذكوري يحتلّ أو يستولى على شرق أنثوي. فإذن يتقارب إغتصاب الرجال على النساء وإستعمار الدول الغربية على الشرق في هذا العنوان في معنى واحد.

إتجه الأوروبيون نحو البلاد الشرقية والبلاد العربية والإسلامية منذ زمن بعيد وكانت نفوسهم منجذبة إلى هذه البلاد الجميلة بطبيعتها. وقد ظهوروا عن فنتتهم هذه خلال كتاباتهم باستخدام خيالاتهم البالغة. فكتبوا عن هذه البلاد الجميلة الجذابة المملوءة من الخيرات البشرية والطبيعية والمعادنية في أحلى الأسلوب. وساهمت

⁽¹⁾ موسم الهجرة إلى الشمال، الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 104

كتابات الرحالة والمغامرين الأوروبيين منذ القرون الوسطى في ترسيخ الصور المألوفة عن الشرق والعرب والإسلام في أعماق أوروبّا. وكان هؤلاء الكتاب يذعمون رؤية عصر الإمبرياليّة. وكانت هذه الأنواع من الكتابات من باعثات الإستعمار الأوروبي في البلاد العربيّة والبلاد الشرقيّة. وقد أصبح هذا الفرع من الكتابة والكتاب مشهورا باسم الإستشراق والمستشرقين. وبهذه الكتابة ووصفاتها عن البلاد الشرقيّة والإفريقيّة في أحلى أسلوبها المثير بالشهوات، إنجذب الناس في المجتمع الغربي سواء من الرجال والنساء إلى هذه البلاد وطبيعتها وأناسها. وأصبحوا طامعين وطامحين إليها وصاروا جاعين إلى ملاقات هذه البلاد وتجرّب أهلها وإحساسها. وكان الشباب الغربيّون المتطوّرة مشتاقين دائما إلى الشرق، ودائما كان لهم هذه العاطفة.

صوّر المستشرقون في كتبهم عن البلاد الشرقيّة والإفريقيّة في صور جميلة جذابة مثلما يصفون وصفات الفتيات الجميلات. أو في نظرهم كان الشرق يحتلّ مكان امرأة جميلة جذابة مزيّنة بالحلي الذهبية والملوّنة بالحناء، وهي تغري الرجال بجمالها. وملؤوا كتبهم بالمفردات أمثال الحريم، والنساء المحجبات، والمزخرفات، وأسكن الفحل الرجولي، وهذه كلها صور مثاليّة جنسيّة هيّئتها فكرة الغرب عن لشرق. يقول ستيفون كونوي "طوال تطوّر الحضارة الأوروبية، سعى الغرب باستمرار لتحديد المشرق، والشرق، وجميع الأراضي البدائيّة خارج أوروبا آخرها المثير بالجنس¹. وعندما يحتلّ الغرب على الشرق وهو مثلما يطارد الغرب الذكر ويحاول للإضباط على الشرق الأنثوي الشهواني. وقد توافق الشرق دائما في الذهن الأوروبي بالتوقعات الجنسيّة إذ كان يبرّر في ثنّيا النصوص الخياليّة والأسطوريّة القديمة نموذج المرأة الغاويّة. يقول رنا قبّاني في الكتاب 'أساطير الغرب عن الشرق' "في عام 1598 طلبت الملكة إليزابيث من المدعوّ توماس دالام الذي صنع لها آلة أرغن أن يحمل الآلة ويقدمها هديّة منها إلى السلطان التركي الذي كانت تحاول كسب وذه لتحصل منه على تنازلات تجارية وتحالف عسكريّ.

¹Sex, politics and the post colonial predicament, Stephen Conway

وقد إبتهج السلطان بالهدية وألح على دالام كي يبقي في القسطنطينية. إلا أن الحنين إلى الوطن كان قد غلبه، فقرر العودة إلى الإنكلترا، ولكن ليس قبل أن يلقي نظرة على حريم السلطان: "كان الجدار سميكاً، ولما اقتربت من النافذة وجدت ذات قضبان حديدية متينة، لكنني تمكنت أن ألمح من خلالها ثلاثين من حظايا السلطان يلعبن بالكرة في باحة واسعة. لقد ظننت في الوهلة الأولى أن من أرى من شبان ولكن سرعان ما أدركت أنهن من فتيات عندما رأيت شعرهن يتدلى مصفوراً على ظهورهن وقد عقدت نهايته بشراية ذات لؤلؤة. لقد كن فتيات جميلات حقاً. وعندما أطلت تحديقي بهن بدأ مرافقي الذي أتاح لي رؤيتهن يتبرم بي، فلوى شفتيه وضرب الأرض بقدمه كي أشيح وجهي عنهن وما كنت راغباً في ذلك لأن المشهد كان يملؤني حقاً بالسعادة والنشوة"¹.

يبين إدوارد سعيد في كتابه 'الإستشراق' أن الجنس

أو صور الجنس هي من أدوات الإستعمار. وكان للمشرق طابعا جنسياً في لقاء فلوبيرت مع مومس مصرية. "وفي الحقيقة، وقد نتج لقاء فلوبير⁽²⁾ مع المومس المصرية نموذجاً مؤثراً للمرأة الشرقية على نطاق واسع؛ إنها لم تتحدث عن نفسها أبداً ولم تمثل عواطفها، ووجوديتها أو تاريخها. هو الذي تحدث لها ومثلها. كان رجلاً أجنبياً وغنياً عندما تقارن بها. وهذه هي الحقائق التاريخية للهيمنة التي سمحت له ليس لإمتلاك 'كوجوك هانم'³ جسدياً فقط، ولكن لأن يتحدث لها وأن يقول لقرائه بأية طريقة كانت هي "شرقية نموذجية". وحجتي هي أن موقف فلوبير من القوة في تعلقه مع كوجوك هانم، لا مثيل معزول. إنه يقف إلى حد ما عن نمط من القوة النسبية بين الشرق والغرب"⁴. وهذا يعني أن هذه المرأة عاهرة مع زبائن من الطبقة العليا ووصفها كأنها امرأة شرقية نموذجية، يرمز أيضاً إلى بلدها أو مصر. سيطر فلوبير الرجل الثري القوي على تلك المرأة. وهذا يشير إلى رمز القوة الغربية على الشرق،

⁽¹⁾ أساطير أوروبا عن الشرق، رناباني، ص - 37

⁽²⁾ جوستاف فلوبير Gustave Flaubert (1821 - 1880)، هو روائي فرنسي

⁽³⁾ كانت راقصة مشهورة بجمالها وجاذبيتها تنتمي إلى إسنا في مصر. وهي مذكورة في مذكرات الرحلة الأوروبية في القرن التاسع عشر خاصة للروائي الفرنسي غوستاف فلوبير ومغامر الأمريكي جورج وليام كورتيس.

⁽⁴⁾ orientalisms, Edward saeed , p: 23

وأيضاً يشير إلى دونية الشرق وتفوق الغرب عليهم. ويصور الشرق مرأة ضعيفة والغرب رجلاً ثرياً.

غرس الغرب المشرق مع هذه الهوية الجنسية التي تبرّر وتساعد في هيمنة الغرب على الشرق. كان الخيال الأوروبي يكمن وراء النزعة الجنسية صراعات القوة والضعف والغنى والفقر والسيادة والعبودية. فالرجل الأوروبي يستطيع أن يمتلك المرأة بقوة سلطانه التي بسطها على الأرض ويخضعها بنفوذ ثروته وبجبروته العسكري والآلة التي بين يديه. ويمكن للأوربا أن يحدّ العالم غير الأوروبي ويسيطر عليه ويستهلكه من ناحية جنسية. "صورة الشرق كما هي امرأة متوسلة، لا تزال جزءاً فاعلاً في المخيلة الغربية. فتابعاً على هذه الفكرة يمكن الغرب أن يهيمن على الشرق وأن يتسالمه بسهولة مثلما يجري مع المرأة"¹. وإذا لا يمكن أن يتسالم بها فيأخذها بالقوة والإجبار. وهذه الممارسة الجنسية بالقوة والإجبار هي الإغتصاب. فالإحتلال أو الإستعمار من قبل الغرب أو البلاد الأوروبية أو من قبل بريطانيا على الشرق أو على إفريقيا أو السودان بدون إذنهما وبدون إرضائهما، وإخضاعها بالقوة والإجبار يكون الإغتصاب نحوها. وإلى هذه الحقيقة يشير عنوان كتاب مصطفى سعيد 'إغتصاب إفريقيا'.

وفي الرواية يقدّم الطيب صالح هذه السياسة الجنسية في إطار تناقضيّ. وهو يستغلّ هذه الفكرة المسبقة من قبل الغرب لأن يهيمن على الغرب ويسيطر عليه. وهو يحاول أن يطبّق هذه الفكرة خلال بطله 'مصطفى سعيد'. هو يستغلّ الصور النموذجية الغربية والمثيرة ذاتها عن الشرق لإغواء النساء الأوروبيات. وهو يمارس في لندن إستعماراً جنسياً في مستواه الشخصي. يخبأ مشاعر حقه وإنّقامه نحو الإستعمار المعنون بميزات الجنس والعداوة على النساء. وهو يعيّن على نفسه مهمة الإنتقام لقومه ويستعمل الجنس سلاحه والنساء وسيلة لأن ينال إنتقامه. عبّر مصطفى مشاعره الإنتقامية

⁽¹⁾ Sex, politics and the post colonial predicament, Stephen Conway

نحو مستعمره السابق مثيرا الألام في النساء البريطانيات. أصبحت أجسام هؤلاء النساء ميدانا لأن يعقد إنتقاماته الرهيبية. واستطاع مصطفى سعيد أن ينجح في محاولاته بمكره وكيدِه حيث أن هؤلاء النساء كنّ يرونه صورة رمزيّة للجنس الشرقي. أي أنّ الغرب له نظرة مخطئة عن الإفريقيين وعن نظرتهُم إلى الجنس. يقول الطبيب صالح "ماذا حاولت هنا هو أن أطبق نظرة الأوروبيين المخطئة عن الإفريقيين لأن الأوروبيين يفكرون حتى اليوم أنّهم يعيشون على الخيالات والفكر الجنسيّة. وليست عندهم أية فكرة أخرى مسؤوليّة، وكانوا يرونهم أطفالا في عمليّة الحضارة".

وإذا كان البريطانيون المستعمرون شتوا هجومهم على إفريقيا وعلى البلاد العربيّة، فزعم مصطفى سعيد أنه يحتلّ على البريطانيين في بيوتهم وبلدهم وأن يحرّر إفريقيا بذكره. أدرك أن الغرب معتد والشرق معتدى عليه، وأنّ الشمال غار والجنوب مغرور. فأراد أن يرّد الاعتبار لشرقه لذاته وأن يقلب المعادلة. فأطلق صيحة عالية وأعلن في لندن أنه يحرّر إفريقيا ب... (كان يلوح إلى عضوة الذكرى) وأعلن أنه جاء إليهم غازيا "إني جئتكم غازيا"¹. "حدّد مصطفى سعيد سلاحه في هذه الحرب هو الجنس. لأنّ الجنس هو أصالة الإنسان وهو بقاء الإنسان ونماء العالم وتضخمه وازدياده. والجنس يكف العديد من الحقائق التي تتساب مع العاطفة لتحرق كلّ الدنس والحقارة والكذب والرياء وهو الرمز لتحوّل ما هو ماديّ في داخله وخارجه. إذن الجنس هو أكثر المقتنيات خطورة"². يحاول مصطفى سعيد أن يرّد تاريخ الاستعمار الأوروبي رمزيّا بواسطة الإنغماس في مغامرات جنسيّة مع النساء البريطانيات. كان عازما على تحرير إفريقيا من خلال إنتقامه من أوروبا بتهمة إغتصابه في إفريقيا. يرّد مصطفى سعيد الدور المغروض لقوّة الإستعمار على أنه مذكر عدوانيّ نشيط أمام المواطنين المستعمرين. فالمستعمر يأخذ

¹ موسم الهجرة إلى الشمال، الأعمال الكاملة للطيب صالح، ص - 69

² الطبيب صالح عبقرى الرواية العربيّة، ص - 127

الانتقام الجنسي من النساء المستعمر لأن يتعارض على عنف المستعمر، وتسلبه إلى أراضي الأصليين.

ولأن يحقق هذا الغرض إستخدام مصطفى سعيد فكر المستشرقين وما حوت كتبهم من الخيالات والصور المبالغة عن إفريقيا والبلاد العربية. وبكونه محاضرا في جامعة لندن في علم الإقتصاد، كان النساء البريطانيات يقدرن له مكانا عليا في نفسهن وحام النساء حوله من مختلف طبقات المجتمع البريطاني. يجيب الطيب صالح خلال هذه الرواية للمستشرقين الذين إصطنعوا القصص والأوهام الكاذبة عن الشرق وخاصة عن المرأة الشرقية. مثلا يقول جرارد نرول المستشرق والكاتب الفرنسي في كتابه 'السفر في الشرق' عن مصر والمصريّات اللاتي لبسن الحجاب. القاهرة هي مدينة مشرقية حيث لا تزال معظم المرأة فيها محجبات بشكل غير... وإذا قلت بالصدق وبالإخلاص، مصر لا تزال أرضا من الغموض واللغز، حيث يلف الجمال في الحجاب والضمادات... قف سنحاول لرفع زاوية من هذا الحجاب المتقشّف. وبالإضافة إلى ذلك، أليس هو العجب أن نرى في بلدان كانت يعتقد فيها أن المرأة سجيّة، آلاف من النساء في الشوارع وفي الأسواق والحدائق يمشين بلا هدف، مثنى أو برفقة طفل؟ حقا، المرأة الأوروبية لا تتمتع بهذا القدر الأكبر من الحرّية"¹. هذه الفقرة توضّح نظرة المستشرقين مثل جرارد الأوربي إلى المرأة الشرقية متاعا وسلعة ويرأها خالية من الشخصية ونظر إليها كرمز للمدينة القاهرة.

وهكذا عندما وصل مصطفى سعيد إلى لندن فنظر إلى النساء الأوروبيات أو البريطانيات في نفس النظر الذي نظر به جرارد ومثله من الأوروبيين إلى النساء الشرقيّات. يقول مصطفى سعيد عن إحدى المرأة - إزبيلا سيمور - التي إقتربت إلى مصطفى سعيد في لندن "سرنا معا، أحسّ بها إلى جانبي وهجا من البرونز تحت شمس يوليو... أحسّ بها مدينة من الأسرار والنعيم وسرّني أنها تضحك بسهولة. هذه السيدة، نوعها

⁽¹⁾ The women of Cairo, Gerard De Nerval, p:24

كثير في أوربا، نساء لا يعرفن الخوف، يقبلن على الحياة بمرح وحب استطلاع¹. إذا كانت المرأة في القاهرة الشرقية، في نظر جيرارد، صورة مبسطة وصامتة وغامضة كالنومياوات القديمة (ملفوفة في الحجاب والضمادات)، فإن المرأة الأوروبية عند مصطفى سعيد مخلوقات متجانسات ومتساويات تشبه تماثيل الفن الأوروبي، وموقفهن الحر في الحياة هو نقبض إلى النساء المحجبات الشرقيات التي لا صوت لهن². ولكن الاختلاف بين مصطفى سعيد وجرارد هو أن جرارد رجل أوروبي في الشرق ومصطفى سعيد هو رجل إفريقي عربي في أوربا، ويعلم نفسه جريئاً أنه قدم إلى أوربا لأن يتدخل إليها وأن يحتلّ عليها. "نعم يا سادتي إنني جنتكم غازيا في عقر داركم. قطرة من السم الذي حقنتم به شرابين التاريخ"³. هنا يبين الروائي الطبيب صالح أن الإستعمار هو الذي حقن في شرابين الناس خلال التاريخ سمّ الحقد والبغض والانتقام نحو البلاد الأوروبية الإستعمارية. فإذن أصبح الرجل المستعمر الابن من العالم الثالث مثل مصطفى سعيد أن يعدّ نفسه للانتقام من البلاد الأوروبية مثل بريطانيا وأن يبصق هذا السم على وجهها وأن يعيها أمام حركتها إلى الأمام.

كانت النساء الأوروبيات في نظر مصطفى سعيد رمزا للحكم والقوة. وكان الحكم والسيطرة أمرا غير موفورا عنده وأبناء العالم الثالث في فترات الإستعمار الأوروبي. فأراد أن يتحقق بالحصول على هذا الحكم وأن يكبح الضبط على هذا الحكم والقدرة في طريق الإحتلال على جسدها. وحاول أن يضبط ويسيطر عليها بأسطا الشركة التي إصطنعها الأوروبيون أنفسهم عن الشرق.

وقد أجاد المستشرقون والأوروبيون صورة خيالية وإغرائية عن الشرق وجمالها الطبيعية في نفس الأوروبيين وأصبحوا منجذبين إلى الشرق وإلى جمالها وحلاوتها. فنظر الأوروبيون إلى الشرق والجنوب نظرة مليئة بالسحر وروائح

⁽¹⁾ موسم الهجرة إلى الشمال، الأعمال الكاملة، الطبيب صالح، ص - 48

⁽²⁾ Tayeb Salih : ideology and craft of fiction, Wail hasan, p: 96

⁽³⁾ موسم الهجرة إلى الشمال، الأعمال الكاملة، الطبيب صالح، ص - 104

البخور والتوابل والأساطير، ومن جهة أخرى ثمة نظرة إستعلائية على الشرق والجنوب بوصفهما منطقتين جغرافيتين يقطنهما متخلفون يمكن إستعبادهم واستغلالهم. هنا إستخدم مصطفى سعيد هذه الحيلة نفسها لأن يجذب إليه المرأة الأوروپية وأن يجعلها فريسة لحقده و انتقامه وعنفه نحو إستعمار البريطانيا والبلاد الأوروپية على البلاد الشرقية والعربية.

إستخدم مصطفى سعيد هذه الأفكار أو العبارات

الأوروپية عن إفريقيا وسيلة لأن يجذب النساء إليه. بنى الأكاذيب وحكى حكايات شائنة عن وطنه. بسط مصطفى سعيد أمام هؤلاء النساء البريطانيات صورا خيالية مغرية عن الشرق وإفريقيا وعن السودان وعن النيل. وأصبح محبوبا بين النساء في الأوساط المحافظين والبرلئيين والبروهيمين وسرد خياله عليهن وقصّ عليهن القصص الخيالية الفانتزية عن النيل والتماسيح التي تسبح في النيل وتمشي في الشوارع، ورسم أمامهن الرسومات الخيالية عن الغابات والأدغال الإفريقية والسودانية التي تملأ من الأفيال والأسود والحيوانات المتوحشة والمتفرسة. ألقى محاضرة في جامعة أكسفورد عن الشاعر أبي نواس الذي عاش في العصر الوسطى. ألقى محاضرة عن هذا الشاعر في أسلوب ملق الذي ألفت أنظار العلماء والنقاد البريطانيين وكلهم ذاقوا هذه المحاضرة مع أنهم كانوا يعرفون أن الأمور التي يقولها مصطفى سعيد غير حقيقة. "قرأت لهم من شعر أبي نواس في الخمر بطريقة خطائية مضحكة، زاعما لهم أن تلك هي الطريقة التي كان الشعر العربي يلقي بها في العصر العباسي. وقلت في المحاضرة أن أبا نواس كان متصوفا، وأنه جعل من الخمر رمزا حمله جميع أشواقه الروحية، وإن توقه إلى الخمر في شعره كان في الواقع توقا إلى الفناء في ذات الله... كلام ملق لا أساس له من الصحة، لكنني كنت ملهما في تلك الليلة، أحس بالأكاذيب تتدفق على لساني كأنها معان سامية. وكنت أحس بالنشوة تسري مني إلى الجمهور، فأمضي في الكذب. وبعد المحاضرة إلتقوا حولي. موظفون عملوا في الشرق، ونساء طاعنات في السن ماتن أزواجهن في مصر والعراق والسودان، ورجال حاربوا مع كتشنر والنبي،

ومستشرقون، وموظفون في الوزارة الخارجية¹. هنا يسخر مصطفى سعيد من عقلية الغربية حين لقق لهم الأكاذيب حول شخصية أبي نواس وشعره. والسخرية هنا أن العلماء والباحثين من الغرب والذين حصلوا على المعرفة العميقة في الأدب العربي أصبحوا مغبين ومخدعين في محاضرات مصطفى سعيد إذ أنهم أصبحوا منجذبين إلى هذه الأقوال الكاذبة الملفوفة. هكذا خلال خطابه المتلاعب والتصاميم الماكرة الموضوعية، استطاع مصطفى سعيد أن يجذب إليه النساء الغربيات في أسهل طرق.

كان مصطفى سعيد مثل عطيل في طريقه لجذب النساء إليه. مصطفى سعيد يشبهه بشخصية 'عطيل' في مختلف المواضع في الرواية. أولاً حينما تعرّف مصطفى سعيد بفتاة لندنية إزبلا سيمور في أول الوقت، قالته "ما جنسك؟ هل أنت إفريقي أم آسيوي؟ قلت لها أنا مثل عطيل. عربي إفريقي. نظرت إلى وجهي وقالت: نعم أنفك مثل أنوف العرب في الصور. ولكن شعرك ليس فاحماً ناعماً مثل شعر العرب. نعم هذا أنا. وجهي عربي كصحراء الربع الخالي، ورأسي إفريقي يمور بطفولة شريرة"². واستغل مصطفى سعيد خيال هذه المرأة لأن يجذبها إليه مثلما فعل عطيل لأن يجذب إليه عشيقته الأوروبية ديدمونا:

Othello: Wherein I spake of most disastrous chances
 Of moving accident by flood and field,
 Of hair - breadth scapes imminent deadly breach,
 Of being taken by the insolent foe
 And sold to slavery; of my redemption thence,
 And with it all my travel's history;
 Wherein of antres and deserts idle,

⁽¹⁾ موسم الهجرة إلى الشمال، الأعمال الكاملة، الطيب صالح، ص - 150

⁽²⁾ موسم الهجرة إلى الشمال، الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 4

Rough quarries, rocks, and hills
Whose heads touch heaven,
It was my hint to speak – such
Was the process:
And of cannibals that each other eat,
The anthropophagi, and men whose heads
Do grow beneath their shoulders...
This is to hear
Would Desdemona seriously incline; but still the house affairs
Draw her thence
Whichever as she could with haste dispatch
She'd come again, and with a
Greedy ear
Devour up my discourse; which I observing
Took once a plaint hour and
Found good means
To draw from her a prayer of earnest heart
That I would all my pilgrimage dilate
Where of my parcels she had something heard,
But not intently, I did consent
And often did beguile her of tears
When I did speak of some distressful stoke
That my youth suffered.
My story being done,
She gave me for my pains a word of (sighs);

She wore, in faith 'twas strange; 'twas passing strange,
'Twas painful, 'twas wondrous pitiful....
She loved me for the dangers I had passed,
And I loved her that she did pity them"¹

وجد مصطفى سعيد نفس الطريقة لأن يغري إيزبلا
سيمور كما فعل عطيل لأن يقرب إليه عشيقته ديدمونا. قصّ مصطفى سعيد على إيزبلا
سيمور أخبارا كاذبة عن الأحوال الحزينة التي عاناها في الفرص المختلفة في حياته، وهو
يحكي لها الحكايات الخيالية عن بلده السودان "وصفت لها وصفا مهولا كيف فقدت والدي،
حتى رأيت الدمع يطفر إلى عينيها. قلت لها أنني كنت في السادسة من عمري، حين غرق
والدي مع ثلاثين آخرين في مركب كان يعبر بهم النيل من شاطئ إلى شاطئ. فصاحت في
نشوة: نايل؟ نعم النيل. أنتم إذن تسكنون على ضفاف النيل؟ أجل بيتنا على ضفة النيل تماما
بحيث أنني كنت، إذا استيقظت على فراشي ليلا، أخرج يدي من النافذة وأداعب ماء النيل
حتى يغلبني النوم"². وهو يستمر "رويت لها حكايات ملفقة عن صحارى ذهبية الرمال،
وأدغال تتصايح فيها حيوانات لا وجود لها. قلت لها أن شوارع عاصمة بلادي تعجّ بالأفيال
والأسود، وتزحف عليها التماسيح عند القيلولة. وكانت تستمع إليّ بين مصدقة ومكذبة.
تضحك وتغض عينيها، وتحمر وجنتاها. وأحيانا تصغي إليّ في صمت، وفي عينيها عطف
مسيحي. وجاءت لحظة أحسست فيها أنني انقلبت في نظرها مخلوقا بدائيا عاريا، يمسك بيده
رمحا، وبالأخرى نشابا، يصيد الفيلة والأسود في الأدغال. هذا حسن لقد تحوّل حبّ
الإستطلاع إلى مرح، وتحوّل المرح إلى عطف، وحين أحرّك البركة الساكنة في الأعماق،
سيستحيل العطف إلى رغبة أعزف على أوتارها المشدودة كما يحلو لي"³. وهكذا جذبّ

¹) The new Cambridge Shakespeare, Othello. Edited by Norman Sanders, Cambridge University press – 1984

² موسم الهجرة إلى الشمال، الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص – 48-49

³ المصدر السابق، ص – 47-48

الرجل النساء إليه بفلسفاته عن الشرق ومحاضراته عن العرب ووصفاته عن البلاد الإفريقية والعربية "أقرأ الشعر وأتحدث في الدين والفلسفة وأنقد الرسم وأقول كلاما عن روحانيات الشرق. أفعل كل شيء حتى أدخل المرأة إلى فراشي"¹.

لقد لعب بيت مصطفى سعيد في لندن دورا بارزا في جذب فتيات إنكلترا إليه، فبيته كان وكرا للأكاذيب الفادحة. في غرفته النوم قاد مصطفى سعيد النساء إلى عالم خيالي محاط بالبخور الإفريقية والتماثيل وغيرها من الزخارف التي وضعها عمدا. أعد مصطفى سعيد بيته وغرفته في لندن كمسرح تعرض صور الجمال الطبيعية الإفريقية والشرقية وملأها بالمواد والأشياء التي تثير خيالات المرأة الأوروبية الساردة في جمال الشرق وجذابته. وهذه الغرفة لم تكن غرفة شرقية عادية بل كانت على نحو ما يتخيل الغرب، غرفة نمطية ساخرة. وحول غرفته في الشقة في لندن الغربي إلى عالم شرقي مصغر في صورة جذابة كما وصفها وصورها الغرب في كتبهم. يقول مصطفى سعيد "غرفة نومي مقبرة تطل على حديقة، ستائرهما وردية منتقاة بعناية، وسجاد سندسي دافئ والسرير رحب مخداته من ريش النعام. وأضواء كهربائية صغيرة، حمراء، وزرقاء، وبنفسجية، موضوعة في زوايا معينة. وعلى الجدران مرايا كبيرة، حتى ضاجعت امرأة، بدا كأنني أضاجع حريما كاملا في آن واحد. تعبق في الغرفة رائحة الصندل المحروق والند، وفي الحمام عطور شرقية نقادة، وعقاقير كيماوية، ودهون ومساحيق، وحبوب"². أنظر كيف زين مصطفى سعيد غرفته النومية بالعطور والمساحيق النقادة الشرقية. وفي الموقف الآخر يقول كيف جذب واحدة من الفتيات إيزبلا سيمور إليه "تسقينني لذات الأكاذيب العذبة وأنسج لها خيوطا دقيقة مريعة من الأوهام. تقول لي أنها ترى في عيني لمح السراب في الصحارى الحارة. وتسمع في صوتي صرخات الوحوش الكاسرة في الغابات،... وفي لندن أدخلتها بيتي، وكر الأكاذيب الفادحة، التي بنيته عن عمد، أكذوبة أكذوبة. الصندل والند وريش

(1) المصدر السابق، ص - 39

(2) موسم الهجرة إلى الشمال، الأعمال الكاملة الطبيب صالح ، ص - 40 - 41

النعام وتمائيل العاج والأبنوس والصور والرسوم لغابات النخل على شطآن النيل، وقوارب على صفحة الماء أشرعتها كأجنحة الحمام، وشموس تغرب على جبال البحر الأحمر، وقوافل من الجمال تخبّ السير على كثبان الرمل على حدود اليمن، أشجار التبليدي في كردفان، وفتيات عاريات من قبائل الزاندي والنوير والشلك، حقول الموز والبنّ في خط الإستواء، والمعابد القديمة في منطقة النوبة، الكتب العربية المزخرفة لأغلفة مكتوبة بالخط الكوفي المنمق السجاجيد العجمية والستائر الوردية، والمرايا الكبيرة على الجدران والأضواء الملونة في الأركان"¹. تضمّ هذه الفقرة بخيالات الغرب الواسعة عن إفريقيا وعن الشرق، حيث أن هذه الغرفة تشمل على كثير من المواد الجميلة الرائعة والجذابة وتضمّ بكثير من الصور عن جمال الطبيعة الشرقية حيث هناك المواد وصور الأشياء المختلفة من مصر القديمة، والعالم العربي وباريس والسودان المعاصر. مصطفى سعيد يقول عن جذب الفئات الأخرى 'شيلة غرينود' "أغريتها بالهدايا والكلام المعسول. جذبها عالمي الجديد عليها. دوختها رائحة الصندل المخروق والند"². وهذه الزخارف الكاذبة في غرفته تظهر بوصفها معرض الإمبراطورية النفاقي. يقول وائل حسن "هذا النوع من المهزلة تنطوي على إثنيين من أشكال محدّدة من الذكورة التي ترتبط في خيالي الغربي مع الذكور غير الغربي: الرجل الإفريقي الشرقي المستبدّ وكاره النساء، والغيور والعنيف، يمثله على التوالي شهريار، الملك الفارسي من ألف ليلة وليلة وعطيل من مسرحية شكسبير. يمتلك هاتان الشخصيتان مظهرًا غريبًا الذي يستغله مصطفى سعيد. وعلى سبيل المثال، كانت شقته وشعر النبيذ العربي الذي يقرأه يثير بالنسبة للأوروبيين جواً من ألف ليلة وليلة ومسرحاً للعب التنكرية من دور السيد والجارية الذي يؤدّيه مصطفى سعيد وأن همند"³.

(1) المصدر السابق، ص - 153

(2) المصدر السابق، ص - 44

(3) Tayeb Salih: ideology and craft of fiction, Wail Hasan, p: 97

مصطفى سعيد الرجل الأسود

كان الأوروبيون يخافون الجنسية السوداء وكانوا يرونها نوعا من القوة التي تغلب عليهم. وكانت النساء الأوروبيات منجذبة تماما إلى الرجال السود لأنهن يرين أن الرجال السود لهم قدرة جنسية قوية عندما يقارن مع الرجال البيض. ولذلك كان الأوروبيون يمانعون العلاقات الجنسية بالسود في مستعمراتهم حيث أنهم كانوا يرون هذه القوة الجنسية السوداء قوة لا يستطيعون أن يغلبوا عليها. ويقال أنهم كانوا يعاقبون الرجال السود في أمريكا الجنوبي لتمازجهم الجنسي مع الأبيض، وكانوا يعاقبونهم بعقوبات الإعدام والخصي. كان الأوروبيون لا يخافون الجنسية السوداء بسبب العنصرية بين اللون؛ اللون الأبيض واللون الأسود، ولكنهم كانوا يرون الجنسية السوداء نوعا من القوة السودانية التي لا يمكن للأبيض أن يضبط عليها. وقد أدرك مصطفى سعيد جيدا عن خوفهم هذا عندما كان يحاول التعلق بالنساء البريطانيات.

وقد رأت نساء لندن مصطفى سعيد رجلا إفريقيًا وحاولن أن يقرأنه مثل نصّ مستشقيّ الذي يبين الجمال الشرقي، ورأت كلّ من هذه النساء لتحقيق رغبتهم عن الشرق وإشتياقهنّ إليه خلال مصطفى سعيد. فحاولت كلّ منهن أن يبلغن أيديهن إلى هذا الجمال الإغرائي الشرقي والإفريقي خلال تقرّبهنّ من مصطفى سعيد. ولذلك أصبحن جاهزات لتقديم أنفسهنّ إليه وإخضاعهنّ تحت قوّته الجنسية السوداء. وكانت هذه النساء يعتقدن في غرابته وغيّريّته والإختلافات بينه وبينهنّ. فإذن لم يكن هؤلاء الأوروبيات يرونه كرجل، ولكن كانت يرونه كرجل أسود. مثلا ترى شيلا غرينود جسم مصطفى سعيد رمزا أو صورة حقيقة للأرض الجذابة الإغرائية المرسومة والمصوّرة عن الشرق في الألواح. يقول مصطفى سعيد عن هذه المرأة "كانت تلحس وجهي بلسانها وتقول لي: لسانك قرمزيّ بلون الغروب في المناطق الإستوائية. كنت لا أشبع منها ولا تشبع مني. تتأملني كلّ مرّة كأنها تكتشف شيئا جديدا. تقول لي: ما أروع لونك الأسود، لون السحر والغموض

والأعمال الفاضحة"¹. ويقول أيضا عن أن همدن "رائتي فرأت شفقا داكنا كعجر كاذب. كانت عكسي نحن إلى مناخات استوائية، وشموس قاسية، وأفاق أرجوانية. كنت في عينيها رمزا لكل هذا الحنين... كانت تدفن وجهها تحت إبطي وتستنشق كلأها تستنشق دخانا مخذرا. تقول كأنها تردّد طقوسا في معبد: أحبّ عرقك. أريد رائحتك كاملة. رائحة الأوراق المتعفنة في غابات إفريقيا. رائحة المانجا والباباي والتوابل الإستوائية. رائحة الأمطار في صحارى بلاد العرب"².

وهكذا كان مصطفى سعيد رمزا غريبا لإفريقيا أو

الجنوب وجماله بين النساء الإنجليزيّات. ونظرت هذه النساء إليه كرجل وسيم إجتمع فيه كلّ جمال الشرق وصفات إغرائه وكانت داكنة جدّا. ونظرت هؤلاء بغضضن أبصارهنّ عن تعلمه الإنجليزي ولكنّه الإنكليزية لأنّ بشرته كانت داكنة جدّا. ونظرت هؤلاء اللواتي إلى هذا اللون الأسود الداكن رمزا للقوة الجنسية الرجولية ورأين هذا الأسود رمز الغموض والإغراء. وبهذا السبب حامت النساء حول هذا الرجل الإفريقي الأسود، فاستغلّ الرجل هذه الفرصة للوصول إلى هدفه وغايته. يذكر رجل إنجليزيّ عن مصطفى سعيد للراوي "أنه كان زير نساء. خلق لنفسه أسطورة من نوع ما. الرجل الأسود الوسيم، المدلل في الأوساط البوهيمية. ويقال أنه كان صديقا للورد فلان ولورد علان"³. كانت هؤلاء اللواتي يعتبرنه قوّة بدائية من إفريقيا أيضا، فيجب عليهنّ أن يستغله لتعويض النقص الذي لم يستطع الشباب الغربي أن يملأه نظرا لضعفه الجنسي. خلال فترة الإستعمار وفترة نهضة الحداثة، بدأ المجتمع الغربي الإستعماري الأبيض أن يربط الزنجيّ مع عضو التناسلية أو الجنس. وارتبط الرجل الإفريقي بمفهوم الغرائبية وغيرها من الصفات الجنسية النمطية. فأصبحت صورته مميزة بالقدرة الجنسية التي تعمل على زيادة رغبة المرأة البيضاء الجنسية نحو رجل أسود كأنه 'آخرها' الجذاب. ولذلك يمكن القول أنّ الرجل الأسود، لم يكن موضوع الإستعمار السياسي فقط

¹ موسم الهجرة إلى الشمال، الأعمال الكاملة، الطبيب صالح، ص - 48

² المصدر السابق، ص - 149

³ موسم الهجرة إلى الشمال الأعمال الكاملة الطبيب صالح، ص - 68

ولكنه أيضا كان فريسة جنسية للنساء الأبيض. ولذلك إستخدم هنا مصطفى سعيد هذه الأفكار الغربية الإستعمارية ضدّهم حينما كان يرغب في تحرير إفريقيا مع ذكره. ولذلك تمكن مصطفى سعيد أن يستخدم الجنس كشكل من أشكال الإنتقام نحو عنصرية الإستعمار. وخلال هذه الطريقة تمكن مصطفى سعيد رمز المستعمر أن يرفض المستعمر.

الفتاة رمز لطبقات المجتمع

تفوز تنكزية مصطفى سعيد البالغة في التحقيق بأهدافه. كذب على النساء حتى يدرجهنّ إلى سريريه. يفوز في أن يجذب النساء الأوروبيات بقصصه الخيالية وبياناته الوهمية عن الشرق وإفريقيا. جلب النساء من كلّ طبقات المجتمع البريطاني. "جلبت النساء إلى فراشي من بين فتيات جيش الخلاص، وجمعيات الكويكرز، ومجتمعات الفابيانين"¹. وإن كانت هذه الطبقات طبقات إجتماعية مختلفة من المجتمع البريطاني، فكانت كلّها تشارك في هوية واحدة وعنصرية واحدة وثقافة واحدة.

جذب مصطفى سعيد آن همند، الطالبة الأرسقراطية التي تدرس في الأدب العربي، وهي تمثل مجموع عقلاء الغرب الذين ينظرون إلى الشرق عالما جذابا. وعندما كان مصطفى سعيد يحاضر في لندن عن الشاعر العربي الكلاسيكي كانت آن همند من السامعين. إنجذبت إليه بفلسفاته الشرقية وكانت تعدّ أن تتحوّل إلى الإسلام أو البوذية بشغفها الجامح إلى الشرق وجذابته. كانت العلاقة بينه وبينها قائمة على الأكذوبات وانتهت بانتحارها "وذاة يوم وجدوها ميتة انتحارا بالغاز ووجدوا ورقة صغيرة بإسمي. ليس فيها سوى هذه العبارة : مستر سعيد. لعنة الله عليك"². كانت تطمح أن تستمرّ علاقتها بـ مصطفى سعيد، ولكن عندما أدركت أنها كانت ضحية لأكاذيب مصطفى سعيد قبل أن تكون مستغلة لإفريقيته. فضلت الإنتحار على القبول بالهزيمة أمام هذا الإفريقي الأسود.

(1) موسم الهجرة إلى الشمال، الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 40

(2) المصدر السابق، ص - 41

والمرأة الأخرى التي تقدّمت إلى حياة مصطفى سعيد هي شيلا غرينود التي تمثل طبقة النساء العاملات في المجتمع البريطاني. كانت شيلا غرينود تعمل خادمة في مطعم في وقت النهار وفي الليل كانت تواصل الدراسة في البوليتكنيك. والميزة عند هذه الطبقة أنها تدعو إلى المساواة والعدالة بين الإنسان في كل الأمور. "كانت تؤمن بأنّ المستقبل في العالم ستطلع للطبقة العاملة، وسيجيئ يوم تنعدم فيه الفروق ويصير الناس كلهم إخوة"¹. ولكن الروائي يعرض للقراء عن هذا الإدعاء أنّه كذب وتشويه وليس لهذه الدعوى أيّ ثبات وتؤكد بين هؤلاء الدعاة. ينهدم هذه الدعوى على لسان شيلا غرينود عندما تذكر لمصطفى سعيد عن أبيها وأمّها "أمي ستجنّ وأبي سيفتلكني إذا علما أنني أحبّ رجلا أسود"². هنا تنسى هذه الفتاة عن إدعاء طبقتها العاملة في المساواة بين الناس بدون النظر إلى لونهم ودينهم وثقافتهم وبلدهم. أدخلها مصطفى سعيد إلى فراشه وهو يؤكد أنّه يحمل في داخله نوعا من القوة الهلآكية لأن يدمّر هذا التمثال الغربي الإستعماري. "دخلت غرفة نومي بتولا بكرا وخرجت منها تحمل جرثوم المرض في دمها"³. وأخيرا هي أيضا إنتحرت كما فعلت آن همند.

وايزبيلا سيمور تمثل النساء الغربية اللبرالية التي تتجول في المجتمع للعثور على بعض الترفيه والإثارة. يشير الروائي إلى خلفية إيزبيلا سيمور من إسبانيا. هذه الخلفية ورائها (خلفيتها من أصل إسبانيا) تلعب دورا مهما في العلاقة بينها وبين مصطفى سعيد. قالت لمصطفى سعيد أنّ أمّها إسبانية، فقال مصطفى سعيد هذا هو السبب للتعارف السريع بينهما. "هل تدري أنّ أمي إسبانية؟ هذا إذن يفسر كلّ شيء. يفسر لقائنا صدفة، وتفاهمنا تلقائيا، كأننا تعارفنا منذ قرون. لا بدّ أنّ جدّي كان جنديا في جيش طارق بن زياد. ولا بدّ أنّه قابل جدّتك، وهي تجني العنب في بستان في إشبيلية. ولا بدّ أنّه أحبّها من أوّل نظرة، وهي أيضا أحبّته. وعاش معها فترة ثم تركها وذهب إلى إفريقيا

(1) المصدر السابق، ص - 146

(2) المصدر السابق.

(3) موسم الهجرة إلى الشمال، الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 44

وهناك تزوّج. وخرجت أنا من سلالة في إفريقيا، وأنت جئت من سلالة في إسبانيا"¹. هذا الذكر عن إسبانيا ذكر مصطفى سعيد بالوقائع التاريخية الحقيقية بين الشرق والغرب أو بين العرب والأوربا. فتح طارق بن زياد إسبانيا عام 711م وأسس هناك دولة إسلامية. ولكنّ الملكة البريطانية فيكتوريا طردت المسلمين من إسبانيا عام 1496م. "تخيّل برهة لقاء جنود العرب لإسبانيا. مثلي في هذه اللحظة، أجلس قبالة إيزبيلا سيمور، ظمًا جنونيّ تبدّد في شعاب التاريخ في الشمال"². فإذا رأى مصطفى سعيد نفسه فاتحا رمزيًا على إسبانيا الأوروبي وعلى الغرب خلال إخضاعه إيزبيلا سيمور في علاقتهما الجنسية. ماثل حربه الجنسية مع هذه المرأة من الأصل الإسباني بالحرب في القرن الثامن عندما فتح طارق بن زياد الأندلس أو إسبانيا. وأراد مصطفى سعيد أن يكون طارقًا جديدًا الذي ينتقم من الغرب لأجل وطنه. كانت إيزبيلا سيمور زوجة لجراح ناجح، وأمّا لبنتين وابن. قضت أحد عشر عامًا في حياة زوجية سعيدة. وكانت تذهب إلى الكنيسة في صباح كلّ الأيام الأحد بانتظام وتساهم في جمعيات البرّ. ولكن عندما تعرّفت بمصطفى سعيد فتركت كلّ هذه الأمور "واكتشفت في أعماقها مناطقًا مظلمة كانت مغلقة من قبل". أي تركت زوجها وابنتيها جريا وراء السعادة التي تحقّقها لها مصطفى سعيد الرجل الإفريقي الأسود. وأحبّت مصطفى سعيد حبًا يأخذ طابعًا إستعماريًا، الحبّ الإستعماري لمصالحه الكامنة في ثروات البلاد إلى احتلالها بأيّ ثمن.

المرأة رمز المدينة \ المدينة رمز المرأة

كانت أجساد النساء البيضاء أمكنة لمنافسة مصطفى سعيد مع الإستعمار لأنّ أجساد النساء تستحضر ربط المرأة الخصبة بأرض الأمّ. وبهذا السبب ربط مصطفى سعيد أجساد المرأة الأوروبية بأرض المدينة الأوروبية. فتحوّلت كلّ امرأة في عين مصطفى سعيد إلى مدينة، وحينما كان يخضع واحدة تلو واحدة كان مثلما

⁽¹⁾ المصدر السابق، ص - 52

⁽²⁾ المصدر السابق.

يخضع مدينة من مدن البريطانيا. حينما يصف مصطفى سعيد تعرفه إلى امرأة بريطانية أو حينما يبين عن مغامراته الجنسية مع هذه النساء كان يقترب المرأة بالمدينة أو يقترب المدينة بالمرأة. يماثل مصطفى سعيد النساء اللاتي وقعن في أيده بمدينة جبلية. أو كان يرمز بالمدينة وبالمرأة إلى الاستعمار.

بدأ مصطفى سعيد أن يرى المرأة والمدينة رمزا إلى الإستعمار منذ أن كان ولدا. سافر الولد مصطفى سعيد إلى القاهرة بعد إتمام دراسته الوسطى في السودان. فاستقبلته مسز روبنسن ومستر روبنسن في محطة القطار في القاهرة، وكانا هما توليا رعايته هناك وفق وصية ناظر مدرسته الوسطى مستر سكول الإنجليزي. عندما وصل مصطفى سعيد في القاهرة وجد مسز روبنسن الأمراة الأوروبية تضمه إليها. يقول مصطفى سعيد عن هذه الأونة "في تلك اللحظة، وأنا واقف على رصيف المحطة، وسط دوامة من الأصوات والأحاسيس، وزندا المرأة ملقتان حول عفتي، وفمها على خدي، ورائحة جسمها، رائحة أوروبية غريبة، تدغغ أنفي، وصدرها يلامس صدري، شعرت وأنا الصيني ابن الإثني عشر عاما بشهوة جنسية مبهمة لم أعرفها من قبل في حياتي، وأحسست كأن القاهرة، ذلك الجبل الكبير الذي حملني إليه بعيري، امرأة أوروبية، مثل مسز روبنسن تماما، تطوقني ذراعها، يملأ عطرها ورائحة جسدها أنفي. كان لون عينيها كلون القاهرة في ذهني، رماديا، أخضر، يتحول بالليل إلى وميض اليراعة"¹. هنا إختلط إكتشاف الولد عن طموحه الجنسية في وقت مشاهدته القاهرة ومسز روبنسن وفي وقت وعيه أنه أصبح محتلا بالفة تدخلية من امرأة أوروبية. وفي هذه النقطة نفسها يجعل مصطفى سعيد مصحوبا في نفسه بمشاعر الظلم والعنف التي يعيدها فيما بعد ضد كل امرأة قوية مدنية إمبراطورية ويرى كلا منهن جيلا أكبر يريد أن يحتلها فيما بعد.

¹ موسم الهجرة إلى الشمال، الأعمال الكاملة للطيب صالح، ص - 35

والآن جدير بنا الذكر عن إختيار الروائي الطيب صالح

المدينة القاهرة سببا لإثارة الفكرة الجنسية العدوانية في نفس مصطفى سعيد - المدينة رمز الإستعمار - بدلا من أن يثيرها في نفسه في المدينة لندن. هنا جدير بالذكر أن هجرة مصطفى سعيد وخضوعه إلى المجال الإمبريالية حدثت تدريجيا حيث أنه هاجر أولا إلى مصر بعد دراسته الوسطى، ثم إلى لندن لدراسته العليا. ومن المعروف في تاريخ الإستعمار البريطاني في السودان عن دور القاهرة أو مصر الذي لعبه في تسهيل البريطاني أن يحتل على السودان. المدينة القاهرة هي مدينة مصرية عربية أصبحت مهدا للنهضة الأدبية والإجتماعية العربية الحديثة، وهي مركز لعقول العرب والثوار الوطنيين الذين أعانوا وساعدوا المهدي وأنصاره في السودان، وكذلك ساهمت مصر كثيرا في الحركات النضالية التي رفعت صوتها ضد الإستعمار. ولكن مصر في الوقت ذاته كانت واسطة بين السودان وبريطانيا حيث أن السودان مضى في المرحلتين من الإستعمار؛ الأولى الحكم العثماني المصري من فترة 1821م إلى 1881م وثانيا جرت السودان تحت الحكم المصري الإنجليزي من 1898م إلى 1914. وكانت مصر حليفة مع بريطانيا في فتح السودان. فإن تقارب المدينة القاهرة في مصر والمدينة لندن في نفس مصطفى سعيد حيث أن هاتين المدينتين هما مقر الإستعمار الذي سيطر على بلده السودان. ولذلك رأى المدينة القاهرة مثل مدينة أوروبية "أحسست كأن القاهرة، ذلك الجبل الكبير الذي حملي إليه بعيري، إمراة أوروبية"¹. هذه المقارنة تشابه بين مصر والأوربا كقوات إستعمارية.

يقول مصطفى سعيد عن الوقت الذي أكمل فيه دراسته الوسطى في المدرسة البريطانية في السودان "قال لي ناظر المدرسة، وكان إنكليزيا، هذه البلد لا تتسع لذهنك، فسافر. إذهب إلى مصر أو لبنان أو إنكلترا. ليس عندنا شيء نعطيك إياه بعد. الآن. قلت له على الفور: أريد أن أذهب إلى القاهرة"². وكان مصطفى سعيد لم يحترم

⁽¹⁾ موسم الهجرة إلى الشمال، الأعمال الكاملة للطيب صالح، ص - 35

⁽²⁾ المصدر السابق، ص - 32

ولم يقيم المساعدات من الإنجليز لدراساته؛ تسهيلهم لسفره إلى القاهرة ودخوله مجاناً في مدرسة ثانوية ومنحة دراسية من الحكومة. هو الذي يقول "وهذه حقيقة حياتي، كيف قيّضت الصدف لي قوماً ساعدوني وأخذوا بي يدي في كلّ مرحلة، قوماً لم أكن أحسّ تجاههم بأيّ إحساس بالجميل. كنت أتقبل مساعداتهم، كأنها واجب يقومون به نحوي"¹. هنا ربّما مصطفى سعيد قد فهم في طفولته أنّ هؤلاء الإنجليز سوف يشكّله دمية تتحرّك حسب إشارتهم وإيمانهم ولهذا الغرض أنهم يسهّلون كلّ الوسائل أمامه لتربيته وتغذية عقله. ولذلك إستلم كلّ عونات البريطانيين بدون إحساس بالجميل والخير نحوهم ولكنّه إستلمها واجبا يقومون نحوه.

عندما شجّع ناظر المدرسة الإنكليزي المستعمر مصطفى سعيد على إختيار القاهرة أو لبنان أو لندن لإستمرار دراسته العليا، كان هذا الإنكليزي يمثّل أو يستوي إنجلترا مع البلاد العربيّة الشماليّة مصر ولبنان مصرّحاً للولد مصطفى سعيد أنّ هذه البلاد الثلاثة أكبر من بلده السودان وهي أكثر صالحة لدراسته العليا وبلده هو بلد أصغر أمام هذه البلاد. وهذا الموقف هو نوع من إستراتيجية الإستعمار؛ كان يبذر بذرة إحساس نقص القيمة والكراهيّة في داخل أبناء البلد أو المستعمرين نحو بلدهم. وكان من مشروعية الإستعمار التقسيم والحكم بين المناطق المختلفة من نفس البلد الذي إستعمره، وكذلك حاول المستعمرون لفصم عرى الوحدة بين المناطق المختلفة، وهذه المشروعيّة هي التي شيدّ بها الإستعمار البريطاني قبضتها على مستعمراتها في مختلف بلاد العالم. وهكذا عندما وصل مصطفى سعيد إلى القاهرة، فأدرك أنّ المدينة المصرية هي جسم لإمرأة أوروبية، ليست جسم إمرأة إفريقية أو عربيّة. "وأحسست كأن القاهرة ذلك الجبل الكبير الذي حملني إليه بعيري، إمرأة أوروبيّة مثل مسز روبنسن"². ومن القاهرة بدأ

(1) المصدر السابق.

(2) موسم الهجرة إلى الشمال، الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 35

مصطفى سعيد أن يتعرّف بالثقافة الغربيّة وآدابها المتنوّعة. تعلّم موسيقى باخ⁽¹⁾ وشعر كيتس وسمع عن مارك توين. وهكذا بدأ مصطفى سعيد أن يمتصّ الثقافة الغربيّة إلى داخله من القاهرة نفسها.

بعد القاهرة سافر مصطفى سعيد إلى لندن؛ قوّة إستعماريّة أخرى التي مارست الإستعمار على السودان. وكانت مدينة لندن لدى مصطفى سعيد جبلا أكبر من القاهرة يريد أن يحتلّها وأن يغرس علمه النجاح فيها. "كان كلّ همّي أن أصل إلى لندن، جبلا آخر أكبر من القاهرة"². هذه العبارة أنّ مدينة لندن هي غاية مصطفى سعيد وهي مستعمر آخر يريد أن يغلب عليه. عندما كان مصطفى سعيد يغري إيزبيلا سيمور فقال "المدينة قد تحوّلت إلى امرأة. وما هو إلّا يوم أو أسبوع، حتى أضرب خيمتي، وأغرس وتدي في قمّة الجبل. أحسّ بها مدينة من الأسرار والنعيم"³. هذه الإشارات إلى الرحلة من خيمة إلى خيمة أخرى والاتّصال والتحرّك من امرأة إلى امرأة أخرى كلّها من مزايا الحياة البدويّة، وهذه الأمور كلّها تضادّ الحياة المدنيّة والمستقرّة وليست هي من مزايا الحياة في المدن. إستطاع مصطفى سعيد أن يستمدّ كل الأنواع من العلوم الأوروبيّة الحديثة وأن يتمهّر ويغرق فيها. عرف عن حانات تشلسي وأنديّة هامبستد ومنتديات بلومزبري. "ثلاثون عاما كان شجر الصفصاف يبيض ويخضرّ ويصفرّ في الحقائق، وطير الوقوق يغني للربيع كلّ عام. ثلاثون عاما وقاعة ألبرت تغصّ كلّ ليلة بعشاق بيتهوفن وباخ والمطابع تخرج آلاف الكتب في الفنّ والفكر. مسرحيّات برنادشو تمثّل في الرويال كورت والهيماركت. كانت أيدث ستول تغرّد بالشعر، ومسرح البرنس أف ويلس يفيض بالشباب والألق. البحر في مدّه وجزره في بورتمث وبرايّتن، ومنطقة البحيرات تزدهي عاما بعد عام. الجزيرة مثل لحن عذب، سعيد حزين، في تحوّل سرايبي مع تحوّل الفصول. ثلاثون عاما وأنا جزء من كلّ هذا، أعيش فيه ولا أحسّ جماله الحقيقي، ولا يعنيني منه إلّا مايملاً فراشي

⁽¹⁾ يوهان سباستيان باخ (1685 – 1750) مؤلف موسيقي ألماني. يعتبر أحد أكبر عباقرة الموسيقى الكلاسيكية في التاريخ الغربي.

⁽²⁾ موسم الهجرة إلى الشمال، الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 36

⁽³⁾ المصدر السابق، ص - 49

كل ليلة¹. وهكذا عاش مصطفى سعدي في لندن مع كلّ مدّه وجزره ولكنه بقي غير لائقا بالحياة المدنيّة وبقي بلا أصول ولا جذور ولا نظام؛ يعيش بدويًا، يتحرّك من مكان إلى مكان، ينتقل من مدينة محتلة إلى مدينة أخرى ويقفز من مهد امرأة إلى مهد امرأة أخرى.

وقال في موضع آخر "انقلبت المدينة إلى امرأة عجيبة،

لها رموز وندائاتها ضربت إليها أكياد الإبل وكاد يقتلني في طلابها الشوق"². وهو يشير أيضا إلى إيزيلا سيمور "الأنثيّة الأرض". وهكذا وجد مصطفى سعيد كل امرأة مثل مدينة إستعماريّة. وكان يعتقد أنّ غلبته على المرأة الأوروبيّة جنسيًا هي عمل مجازي لإستعماره على أراضي تابعة للغرب.

تثير صورة المرأة في نفس مصطفى سعيد شعورا من

حب الإستطلاع العدواني، لأنه قد فهم أو أدرك من قبل أنّ الإمبراطوريّة البريطانيّة توسّعت تحت حكم امرأة بريطانيّة قادرة؛ الملكة فكتوريا التي يشار إلى فترة حكمها بالعصر الفكتوري. عندما نظر مصطفى سعيد إلى امرأة بريطانيّة رأى فيها صورة ملكة فكتوريا التي شيّدت بناء الإستعمار البريطاني على البلاد العربيّة والشرقيّة. وهو أيضا ذكر عن هذه الملكة خلال المحطة الفكتوريا في لندن والبحيرة فيكتوريا في مصر. فعندما كان يجد امرأة بريطانيّة أو يواجه معها كان مثلما يواجه الملكة فكتوريا هادية الإستعمار البريطاني وأراد أن يساقط كل من هذه الفكتوريّات جيّات أمامه بدون أنانيّة وفخر. "أيّما يتجه مصطفى سعيد في البريطانيّا يجد نفسه محاطا بصور فيكتوريا. محطة فيكتوريا التي وضع فيها مصطفى سعيد قدميه أوّلا عندما سافر من الجنوب إلى الشمال، هي نفس المحطة التي سافرت منها القوّات المسلّحة البريطانيّة في الاتجاه المعاكس؛ من الشمال إلى الجنوب. وكذلك هناك أيضا فيكتوريا أخرى في الجنوب - بحيرة فيكتوريا - في مصر. كان منبع نهر النيل لغزا وخامضا لآلاف من السنين ونسبه المصريين القدماء إلى آلهتهم. ولكن القادمين

⁽¹⁾ موسم الهجرة إلى الشمال، الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 45 - 46

⁽²⁾ المصدر السابق، ص - 44 -

الجدد، معهم أسلحتهم والمعدّات الحديثة والتكنولوجيا المتقدّمة، كانوا قادرين على ثني القدرة الإلهية وأن يبيحوا ويفشوا هذا السر. تحوّلت رحم الأم (رحم الأرض) إلى بحيرة إلى أن تكون البحيرة تحوّلت إلى امرأة. لكنها لم تكن إفريقيّة أو سودانيّة، ولكنها كانت بريطانيّة وكان اسمها فيكتوريا¹. هكذا جرت الممارسات الظالمة نحو إفريقيا والتسلّل إلى أسرارها في اسم امرأة بريطانية التي أخذت الأعمال الفضيعة الإستعمارية. جعل الإستعمار الملكة فيكتوريا امرأة قادرة وإلهة عنيفة، فإذن كان مصطفى سعيد يرى كلّ النساء الأوروبيات والبريطانيات مفوّضة أو بديلة للملكة فكتوريا.

مطاردة الصياد والفريسة \ الحرب بين المحارب والعدوّ

إنجذبت كلّ الفتيات البريطانيّات إلى مصطفى سعيد مسحورات في سحر الجنسيّة السوداء وفي فتنة الشرق وإغرائه. أمّا مصطفى سعيد لم يحبّ هؤلاء النساء ولم يعشق أيّتهن ولم يقدّم أية علاقة عاطفيّة معهنّ. كانت هؤلاء النساء في نظره بعض المدن أراد التغلّب عليها وكانت كلّ واحدة منهنّ درج السلم لأن يتسلّق إلى قمة هدفه. ولم ترق أي من علاقاته إلى مستوى الحبّ الحقيقي. وكانت هذه العلاقات بينه وبين هؤلاء النساء مبنية على الوهم والخداع مثل العلاقة بين المستعمر والمستعمر، تظهر الحبّ لأجل إستغلال الناحية الأخرى. "مصطفى سعيد لم يحبّ أية من هؤلاء الفتيات، لأنه كان يعلم علم اليقين أنّه قادم من عالم آخر، وأنّ بينه وبينهنّ عصرا من العنف الذي صنعه الأوروبيون. بينه وبينهنّ المستعمرون والغزاة الرومان، والصليبيّون والإنكليز، والفرنسيّون الذين اعتصبوا ثروات الشرق، ودمّروا حضاراته"². حاول مصطفى سعيد إستعمارهن وتأمّل أن تصيبهنّ عدوى الإستعمار، لكنّه إكتشف أنّ هذه الفتيات بالفعل حاملات أمراض الرجال البيض - لديهنّ مشاعر فطريّة الذات والتفوق والخطورة تجاهه. ونتيجة لهذا الإدراك ترك

(1) سيرة المقهور مع السلطة، دراسة في تحليل النسي للرواية موسم الهجرة إلى الشمال للطبيب صالح. منقولة من Tayeb Salih Ideology and the craft of fiction – Wail Hasan, p: 93

(2) موسم الهجرة إلى الشمال، أحمد عبد المعطي حجازي، الطبيب صالح دراسات نقدية، حسن أبشر الطبيب، ص - 204

مصطفى سعيد كل عطفه نحوهم واشتغل في قمة حملته عليهم. يقول في وقت علاقه مع إسبلا سيمور "لكن القمة صارت على بعد خطوة، وبعد ذلك أنقط أنفاسي وأستجم. ونحن في قمة الألم عبرت برأسي ذكريات بعيدة قديمة كبخار يصعد من بحيرة مالحة وسط الصحراء"¹. فإذا كان مصطفى سعيد حينما يشتغل في العلاقة الجنسية مع هؤلاء النساء يذكر عن الممارسات الوحشية التي مارسها المحتلون الغربيون على البلاد المحتلة العربية والإفريقية، وكانت هذه الذكريات عن الأحداث العنيفة خلال التاريخ تعلي في نفسه بنيران وقادة تصعد بخارها في قلبه كما تصعد البخار من بحيرة وسط الصحراء التي تغلي مانها بشدة الحرارة. كانت نيران الانتقام من الاستعمار الأوروبي تغلي أشد ضراوة في نفس مصطفى سعيد وتصعد بخارها كما تصعد البخار من البحيرة المالحة في وسط الصحراء الحارة الشديدة.

إستطاع مصطفى سعيد أن يستفيد بالعطف المسيحي الذي بسطته المرأة نحوه وجعل هذه العاطفة شبكته وفرش شبكته المخفية لصيد فريسته البريطانية. كانت إيزيلا سيمور تذهب إلى الكنيسة. ولكنها حينما تعرفت بمصطفى سعيد تخطت حدود دينها حتى أصبحت جاهزة لأن تتخلى من دينها لأجل الحصول عليه. قالت له "المسيحيون يقولون إن إلههم صلب ليحمل وزر خطاياهم. أنه إذن مات عبثاً. فما يسمونه الخطيئة إلا زفرة الإكفاء بمعانفتك يا إله وثيتي. أنت إلهي، ولا إله غيرك"². ومن الواضح في الرواية أن الراوي يفكر فيما بعد ما قال له مصطفى سعيد عن إيزيلا سيمور، كانت مؤمنة بالمسيحية حين قابلت مصطفى سعيد. كبرت دينها وعبدت إلهها كعجل بني إسرائيل. بالخرابة. بالسخرية. الإنسان لمجرد أنه خلق عند خط الإستواء، بعض المجانين يعتبرونه عبدا وبعضهم يعتبرونه إلهاً. أين الاعتدال؟ أين السخرية؟ هنا يسخر الروائي خلال لسان الراوي عن المواقف البريطانية والأوروبية نحو الناس الذين يحتلونهم. ينظرون إلى هؤلاء

⁽¹⁾ موسم الهجرة إلى الشمال، الأعمال الكاملة للطيب صالح، ص - 54
⁽²⁾ موسم الهجرة إلى الشمال، الأعمال الكاملة للطيب صالح، ص - 117

الناس ويصوّرونهم في صور سحرية وإغرائية خلال إبداعاتهم الأدبية ومفهوماتهم الإستشراقية. وينظرون إليهم في أنظارهم الطامحة التي تطمح إلى القوة السوداء الجسدية والجنسية فلا ترى عيونهم الفوارق العنصرية واللونية بينهم وبين هؤلاء الناس. أمّا في وجه آخر وهم يتعاملون مع هؤلاء الناس كما يتعاملون مع البهائم ويحتلون بلادهم الأمّ. وهم يعتبرون هؤلاء الناس السود مستعمرين وحشيين وبربريين بلا ثقافة عالية عندما ينظرونهم خلال عيونهم الملونة وخلال وعيهم بتفوقهم العنصري واللوني. ولم يحاول البريطانيون أن يفهموا الشرقيين كأناس مثلهم.

قدم مصطفى سعيد إلى بريطانيا مع إدراك أنّه مستعمر ومغلوب ووجد طريقا لانتقامه نحو الإستعمار خلال النساء. وقد بيّن الروائي أن العلاقة بين مصطفى سعيد والأوروبيات كانت مثل العلاقة بين الصياد والفريسة. كان مصطفى سعيد صيادا وهؤلاء النساء كانت فرائس. كان يطارد الفريسة ويبسط شبكته من الكذب والخيال الغربي عن الشرق والإفريقيا ووقعت الفرائس في شبكته. قال مصطفى سعيد "أقرأ الشعر، وأتحدّث في الدين والفلسفة، وأنقد الرسم، وأقول كلاما عن روحانيات الشرق. أفعل كلّ شيء حتى أدخل المرأة في فراشي. ثم أسير إلى صيد آخر"¹. يبيّن مصطفى سعيد إحتلاله على النساء البريطانيات بإشارات مثل 'وتر القوس المشدود' وإطلاق السهم' و'قلع الأوتاد' 'وظمان'. وهو يقول عن آن همند أنها "كانت صيدا سهلا"². ويصوّر مصطفى سعيد مقابلته مع إسبلا سيمور كأنه أصبح صيادا الذي وجد فريسة في شبكته "خرجت من داري سبت أشمشم الهواء، وأحسّ أنني مقبل على صيد عظيم... نعم هذه فريستي وسرت إليها... تفرّست في وجهها، فوجدت كلّ سمة من سماته يزيدني إقتناعا بأن هذه فريستي"³. ويقول أيضا حينما إعترفت به إسبلا سيمور "الطائر يا مستر مصطفى سعيد قد وقع في الشرك"⁴.

(1) المصدر السابق، ص - 39

(2) موسم الهجرة إلى الشمال، الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 40

(3) المصدر السابق، ص - 46 - 47

(4) المصدر السابق، ص - 49

يُصور مصطفى سعيد ممارساته الجنسية مع هؤلاء

النساء البريطانيات كالحرب مثل حرب العرب في الصحراء. ويرى إغراء المرأة إسترداداً للرجولة ومثيلاً للإحتلال أو الفتح على منطقة من الأرض، وإنتقاماً رمزيًا على الأوربا للجريمة التي ارتكبتها نحو البلاد الإفريقية والبلاد العربية والبلاد الشرقية كما يشير عنوان كتابه 'إغتصاب إفريقيا'. كان يشنّ نوعاً من الحملة الإمبريالية ضد النساء ضد البريطانيات مغرباً ومحترماً بهنّ. وكان يرى فتحه الجنسي شكلاً من الإستعمار العكسي ومقاومة للإستعمار المعادي. ومن الواضح أنّ وصفات مصطفى سعيد عن تعلقاته الجنسية مع النساء معجم حافل بالفاظ ذات صلة بالمعارك والحروب. وكانت رثوده الفعالة على الجرائم الوحشية الإستعمارية تغاز على مستوى شخصي. واستخدم التشبيهات الحربية في عزوته هذه. يعرض عزواته الجنسية في مفردات تتعلق بعملية عسكرية. وحينما كان يشغل بالنساء كان كمثل المحارب أو الغازي الذي يغزو مع عدوّه مع الرماح والنشوب "وبالليل أو اصل الحرب بالقوس والسيف والرمح والنشاب. رأيت الجنود يعودون، يملئهم الذعر من حرب الخنادق والقمل والوباء. رأيتهم يزرعون بذور الحرب القادمة في معاهدة فرساي"¹.

وهو يقول أيضاً عن غرفة نوم هكزا "غرفة نومي صارت ساحة حرب. فراشي كان قطعة من الجحيم"². وهو يبين في موضع آخر عن لياليه مع النساء البريطانيات "أقضي الليل ساهراً. أخوض المعركة بالقوس والسيف والرمح والنشاب"³. وهو يبين عن قدوم إيربيل سيمور إلى غرفته النوم وإغرائها بالروائح الشرقية "ملئت رثتيها بعبير، لم تكن تعلم أنه عبير قاتل"⁴. ولم يكن مصطفى سعيد يحسّ أية مشاعر عاطفية حينما يقود امرأة تلو امرأة إلى الإنتحار. "يتطلع سلطانه على النساء البيضاء باعتبارها إنتقاماً من السلطة التي طبقها الرجال البيض عليه وعلى شعبه"⁵. مصطفى سعيد الذي قدم

⁽¹⁾ المصدر السابق، ص -44

⁽²⁾ موسم الهجرة إلى الشمال، ص - 43

⁽³⁾ المصدر السابق.

⁽⁴⁾ المصدر السابق، ص - 52

⁽⁵⁾ Sexual politics, Season of migration to the north, Evelyn Aqad

إلى الأوربا غازيا يغزوا بذكره على النساء اللاتي يمثلن بأهم طبقات المجتمع البريطاني واستطاع أن ينال هدفه في صورة الأكثر حينما دمر الفتيات الثلاثة أولاً في أنفسهم وأخيراً في جسدهم واستطاع أن يكبح جماح مشاعره الإنتقامية نحو الإستعمار البريطاني والبلاد الغربية على البلاد الإفريقية والبلاد العربية.

قتل الفريسة والعدو

إعترف مصطفى سعيد أنه كان يغري النساء الأوروبيات مستثيراً رغباتهن الإستعمارية، ويشير إلى هذه الرغبات بالمثل 'البركة والجرثوم' قائلا 'كانت هناك ثمة بركة ساكنة في أعماق كل امرأة. كنت أعرف كيف أحركها'. وقال أيضاً أنه جعلهن أن يصيبهن بجراثيم مرض فتاك. "العدوى أصابتهن منذ ألف عام، لكنني هيجت كوامن الداء حتى استفحل وقتل". يقول وائل حسن "الظلام والبركة الساكنة ما زالت هي صور مألوفة عن اللاوعي، في حين أن المرض هو إستعارة يستخدمها مصطفى سعيد عن الخطر الكامنة في أعماق الهوية الجماعية المشيدة معارضة على الآخرين أو غير الأوروبيين البدائيين الغرباء الذين يعيشون بدون منطق وعقل وحضارة"¹. وكذلك قال مصطفى سعيد مزهواً عن نفسه عندما أدخل إيزبيلا سيمور إلى غرفته "كنت أعلم أن الطريق القصير الذي سرناه معا إلى غرفة النوم، كان بالنسبة لها طريقاً مضيقاً، يعقب بعبير التسامح والمحبة، وكان بالنسبة لي الخطوة الأخيرة قبل الوصول إلى الأنانية"².

يعرض الطيب صالح في هذه الرواية أن تنكزية الرغبات الممنوعة تساقط قناع الإستعماري من ثقافتها العالية المدعية ومن أمورها الأخلاقية إلى المستوى السفلي. أدركت هذه النساء عندما كانوا يعبدن مصطفى سعيد فيسقطن كل منهن من فوق الثقافة العالية إلى المستوى الوحشية والبربرية الأدنى. وعرفت

⁽¹⁾ Tayeb salih ideology and craft of fiction, Wail Hasan. P:101

⁽²⁾ موسم الهجرة إلى الشمال، الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 53

هؤلاء النساء أنهن يرتكبن إثما في حق بياضهن بإقامة علاقة مع أسود وزنجي. إنتهز مصطفى سعيد هذه الفرصة وخدعهن بحبه المتعمد ووعدته بالزواج منهن "خدعتها وغررت بها وقلت لها نتزوج زواجا يكون جسرا بين الشمال والجنوب، وحولت جذرة التطلع في عينيهما الخضراوين إلى رماد". وإنتحل إسما مختلفا مع كل النساء؛ كان حسن وتشارلس وأمين ومصطفى ورتشارد في آن واحد. وأخيرا فهمت هؤلاء الفتيات عن خداع هذا الرجل الإفريقي الأسود نحو الأبيض وانغمسن في خيبة الأمل والخراب وانتحرت كل منهن. وهكذا قاد مصطفى سعيد هؤلاء الأوروبيات إلى دمارهن الجسدي والعاطفي والروحي. فانتحرت كل منهن لأن مصطفى سعيد أفرغهن عاطفيا وتجاهلهن بعمد وقصد. واضطرت هؤلاء النساء بأن ترى أن مصطفى سعيد إستغل الصور الماضية الراسخة عن الشرق في نفوسهن وأسقطهن إلى هوة خالية من الأنانية والزهو. وهذا الإكتشاف عن الكذب والإستغلال من تجاه مصطفى سعيد دفعهن في نهاية المطاف إلى الإنتحار. وهكذا تمكن مصطفى أن يقتل هذه الفتيات البريطانيات على أيديهن أو سقطت الثقافة الأوروبية الإستعمارية جاثمة أمام المستعمر مستخدما فلسفاتها ونظرياتها وتخيلاتها وأفكارها الكاذبة. واجه مصطفى سعيد هذه الأكاذيب من الإستعمار الأوروبي مستخدما بالأكاذيب من عند نفسه. وردّ على مهاجمة كتشنر المستعمر الذي هزم بلده السودان بإفقار أهله هازما بريطانيا بهتكها واستباحة أعراضها.

ردّ على حرب مصطفى سعيد

إشتبك مصطفى سعيد في معركة عارمة مع الإستعمار حينما تعرّف بامرأة أخرى وهي جين مورس التي أصبحت زوجته فيما بعد. رأى مصطفى سعيد في هذه المرأة أقبح وجه الإستعمار وكانت تمثل الثقافة الغربية العنفوية والأنانية والتفريقية في أكمل صورتها. رسم الطيب صالح هذه الشخصية رمزا إلى الإستعمار ورمزا لا محدود للإمبريالية. ليست جين مورس مثل النساء الأخرى اللاتي إتصلن بمصطفى

سعيد مع أنّ علاقته مع أن همد وإسبلا سيمور وشيلا غرينود كانت تمهيدا لعلاقته بجين مورس التي تجمع فيها كلّ الخصائص التي مثلتها هؤلاء الغربيات الثلاثة. كانت هؤلاء النساء تعبد مصطفى سعيد وبرينه سيّدا وإلها وعرضن كلا من رغبتهنّ وفضولهن نحو إفريقيا والرجل الإفريقي الأسود ونجاه البلاد الشرقية خلال إنجابهنّ إلى مصطفى سعيد. أمّا جين مورس لم تتجذب إلى مصطفى سعيد خلال أساليب شتى التي استخدمها مصطفى سعيد لإيقاع المرأة في شبكته. فهي خصم مساوي له في جميع النواحي. لم تتجذب جين مورس لبيئة غرفة مصطفى سعيد ولا بعقله القاطع، ولكنها بالعكس حاولت وجهت لأن يدمّره نفسيا وجسديا. وبالحقيقة حاولت جين مورس لأن تدمر عقل مصطفى سعيد القاطع الذي تشبّهه نفسه بالمدينة الحاة أو السكين القاطع؛ ولم تقرب إليه مسحورة بالقوة العقلية التي كان يفخر بها مصطفى سعيد. كانت هذه المرأة تحارب نفسها مثل مدينة التي وقعت تحت حصار جيوش بلد آخر. كانت مثل الذي يدافع نفسها مدافعة لحمايتها من حصار مصطفى سعيد. دافعت قدام مصطفى سعيد نحوها وأذنته وأهائنه في أقصى الغاية، في أفصح صورة شيطانية. "هي التي تعبّر عن كلّ ما هو مريض، مشوّه، منحرف في الغرب. ومن أربع النساء، إنّها تمثّل أدنى المستوى من الإنسانية. إنّها تؤيّد الانحطاط والقيح والعنف في المجتمع الغربي في رؤية المؤلف، وهي تجمع اللقاء بين الرجل الشرقي والمرأة الغربية إلى ذروتها؛ إلى الرهينة المأساوية التي ليس منها خلاص إلا بالموت"¹.

كانت علاقة مصطفى سعيد مع جين مورس مثل حرب مفتوحة لأنها كانت تتابع كلّ الطرق السيئة وتمارس كلّ الممارسات الفاحشة لأن يجعله أن يحسنّ ويشعر بتفوقها عليه. تابعت كلّ طرق الخيانة المتكرّرة والإعتداء الجسدية نحو مصطفى سعيد. في أول الأمر، كان مصطفى سعيد يتابعها في كلّ موقع تذهب إليه لثلاث سنوات وكان يعاني منها حملاتها القويّة والجسديّة العنيفة المذلة خلال تلك الفترة. لم تسمح جين مورس مصطفى سعيد أن يلعب دور عليل أو شهريار عندها كما لعبه وتمهّر فيه عند

¹ "Voices of Exiles A Study of al – Tayyib Salih and his work, Ami Elad – Bouskila, P: 171"

إيزبيلا سيمور وشيلا غرينود وأن همند. كانت هؤلاء النساء الثلاثة يقرأن مصطفى سعيد كصورة رائعة جذابة للإفريقيا والشرق. أما جين مورس، فهي كانت تحاول أن ترسم مصطفى سعيد في ذهنها رسماً سلبياً. حفزت لأن تخضع مصطفى سعيد وأن تذله وتهينه وأن تقهر قوته الجنسية السوداء وغلبته على النساء الأوروبيات أو الثقافة الأوروبية. لأنها رأت أن هذه القوة الجنسية التي إختزقت في جسم مصطفى سعيد قوة غير قابلة أن يطبقها الأسود على الأبيض ولا تصلح هذه القوة أن تغلب على القوة الأوروبية. عندما كان مصطفى سعيد يحاول أن يقهر بالإنجليز جعلهم مسحورين ومجذوبين أمام قوته الجنسية، فحاولت جين مورس أن تخضع مصطفى سعيد وتهينه في نفس الطريق؛ كانت تذله في قوته الجنسية وتدافعها مثلما كانت تكافح للدوام على القوة الإمبريالية وسيطرتها على البلاد الأخرى.

ومن الموجود في الرواية أن مصطفى سعيد يعيد ذكره عن محطة فيكتوريا في لندن وعن عالم جين مورس. تمثل جين مورس بالمأساة بالنسبة لمصطفى سعيد. عندما ذكر مصطفى سعيد للراوي عن قدومه إلى لندن قال ثلاث مرّات كما أنه ينشد بيتاً من الشعر "حملني القطار إلى محطة فكتوريا، وإلى عالم جين مورس وإلى المأساة". ولا يضيف هذه المحطة فكتوريا إلى أيّ أحد من النساء الثلاثة الأخرى في حياته في لندن. وهذه الكلمات تشير إلى مدى تأثير جين مورس في حياة مصطفى سعيد في لندن. لم يبق ذكريات النساء الثلاثة أخرى جروحا غير مندلمة في نفس مصطفى سعيد، أما جين مورس بقيت في نفسه شوكة حادة تقطع نفسه ووجدانه منذ تلك الفترة التي تعرّف بها. ممانعة جين مورس العنيدة المذلة على إقدام مصطفى سعيد إليها وإهانتها عنه ومحاولتها لإخضاعه تحتها كلها جعلت نفس مصطفى سعيد مثلما تحمل حجراً ثقيلاً في داخلها.

بيّن مصطفى سعيد عن أن همند وشيلا غرينود وإيزبيلا سيمور أنهن ينتمين إلى طبقة إجتماعية معيّنة من المجتمع البريطاني، ولكنّه لم يخبر شيئا عن إنتماء جين مورس إلى طبقة معيّنة، ولم يعرف عن أصلها وأسرته وطبقتها ووظيفتها.

يقول عنها "لم تكن تعمل عملا ولا أعلم كيف كانت تعيش. أهلها من لينز، لم أقابلهم حتى بعد زواجي بها. كان أبوها تاجرا لا أدري في أية بضاعة، وكان لها حسب قولها خمسة إخوة وكانت هي البنت الوحيدة. كانت تكذب حتى في أبسط الأشياء. تعود إلى البيت بقصص غريبة عن أشياء حدثت لها وأناس قابلتهم لا يمكن أن يصدقها العقل. ولا أستبعد أنها كانت عديمة الأهل، كأنها شهرزاد متسولة ولكنها كانت مفرطة في الذكاء ومفرطة في الظرف حين تشاء"¹. وهي تمثل إغراء المدينة لندن ومحطة فكتوريا والإمبراطورية كلها وهي مثلها غير موفورة وغير مقبوضة مثل السراب "يلمع أمامي في مناهة الشوق".

بين مصطفى سعيد أن النساء الأخريات غير جين

مورس كنّ له صيدا سهلا، ولكنّ جين مورس كانت على عكسهنّ وكانت تناقضهنّ في بعض الأمور. أدركت جين مورس بتكرية مصطفى سعيد وبميزلته مع نساء الأوربيات وكانت تضبطه بنظرها غير المفهومة. يقول الراوي عندما شاهد صورة جين مورس بين صور النساء الأخرى في غرفة مصطفى سعيد "كلّ شيء في الغرفة منظم مرتب وموضوع في مكانه. إلا صورة جين مورس، كأنه لم يدر ماذا يفعل بها. احتفظ مصطفى سعيد صور الفوتوغرافية لكل النساء الأخريات، ولكنّ صورة جين مورس هذه تظهر كما رآها مصطفى سعيد لا كما رأتها آلة التصوير. نظرت إلى اللوحة بإعجاب. وجه مستطيل لامرأة واسعة العينين حاجباها ينعقدان فوقهما. الأنف يميل إلى الكبر والفم يميل إلى الاتساع والتعبير على الوجه شئ يصعب وصفه في كلمات. تعبير رهيب محير. الشفتان الرقيقتان مطبقتان كأنها تعضّ أسنانها والفكّ مائل إلى الأمام بكبرياء. هل التعبير في العينين غضب أم إبتسام؟ وثمة شئ شهوانيّ يرفّ على الوجه كله. هذه هي العقاء التي إفتست الغول"². رأى الراوي صورة جين مورس في غرفة مصطفى سعيد في بيته في السودان موضوعة بغير ترتيب حيث أن صور النساء الثلاثة الأخرى كانت مرتبة ومنسقة. هذا يشير إلى حياة جين مورس

¹ موسم الهجرة إلى الشمال، الأعمال الكاملة الطبيب صالح، ص - 163-164
² موسم الهجرة إلى الشمال، الأعمال الكاملة الطبيب صالح، ص - 162-163

وسلوكلها غير المنظمة؁ كانت حياتها تجري بلا قواعد ولا نظام وكانت إمراة مفتوحة لكلّ فلان وعلان مع أنّها كانت زوجة رجل. وهذا العدم من القواعد والنظم مبيّنة في وضع صورتها في غرفة مصطفى سعيد. لم يستطع مصطفى سعيد أن يفهم جين مورس حتّى لم يستطع أن يعيّن مشاعرها وعواطفها؁ أكان ذلك الإبتسام أم الغضب في عينيها؁ وشفاتها المطبقتان وعضّها الأسنان كلها تشير إلى سلوكها الإصراريّة العنيدة. توضّح صورة جين مورس عن عدم قدرة مصطفى سعيد لأن يقرأها وأن يفهمها. غموضها العنيد المتصلّب على شفتيها المغلوقّة والمضغوطة وعصيانها وطرستها السخرية في عينيها؁ كلها تشير إلى أثر طويل الذي تركته جين مورس على مصطفى سعيد؁ وتصرح هذه التعبيرات المختلفة على وجهها عن فشل مصطفى سعيد الكامل وعن عدم المعنى لغلبيته الماضية على النساء الإنجليزيّات والأوروبيّات.

كانت أعمال جين مورس ومعاملتها مع مصطفى سعيد تعارض على كلّ معاملات النساء الأخرى. كانت تتابعه في كلّ الأماكن وكانت تهينه بعدم وتسخره وترفض إقدامه وتذله أمام عيون الآخرين. لم تأثر فيها آخريّة مصطفى سعيد في أوّل مقابلة بينهما ولم تتحدّث إليه وكانت تنظر إليه بنظر صلف وبرود. وفي المرّة الثانية قالت له "أنت بشع؁ ولم ترى في حياتها وجهها بشعا كوجهك". وفي وقت آخر طلب الرجل منها أن تراقص معه؁ فقالت : "لا أرقص معك ولو كنت الرجل الوحيد في العالم". هذه الأقوال تصوّر غطرسة المستعمر وإحساسه بتفوّق حضارته إحساسا يقوده إلى رفض المستعمر وإحتقاره. وهكذا جرّدت جين مورس مصطفى سعيد من عرضه وحطّت قدره وأخزت برجوليّته ووسامته وجاذبيّة جنسيّته الإفريقية السودانية. ولكنّ مصطفى سعيد المصمّم حلف في نفسه أنه سيتقاضاها الثمن في يوم من الأيام؁ وتابع الرجل هذه المرأة السرابية لثلاثة أعوام لأنه كان يريد فتحا بارزا على هذه المرأة العنيدة الفتاكة وثقافتها الإستعماريّة القاتلة وانتظر فرصة لأن تساقطها منهزمة جاثية أمام قدميه.

وبعد المتابعة من ثلاثة أعوام ورائها، أخيرا طلبت جين مورس من مصطفى سعيد أن يتزوجها. "أنت ثور همجي لا يكلّ من الطرد. إنني تعبت من مطارديك لي، ومن جريي أمامك، تزوّجني"¹. فتزوّجها وكان هذا الزواج أوّل خطوة الهزيمة التي واجهها مصطفى سعيد من هذه المرأة. إنّصل الرجل بالفتيات الأخريات بلا عقد الزواج منهنّ، فتمكّن أن يحدّ أسلحته الجنسيّة في حربه مع هؤلاء الفتيات بلا إحساس من عواطف الشفقة والعطف وأصبح محاربا قاتلا غالبا على أعدائه المستعمرين. ولكن بالنسبة إلى جين مورس، بدأ مصطفى سعيد أن يواجه الفشل لأنّ زواجه مع هذه المرأة يهزم مهمته ورسالته في قدومه إلى عقر دار الإستعمار. أمّا جين مورس كانت تتعمّد أن تهزمه بهذا الزواج. عندما عقد الزواج بينهما كانت تبكي حتى قال المسجّل لمصطفى سعيد "زوجتك تبكي من شدة السعادة. إنني رأيت نساء كثيرات يبكين في زواجهنّ ولكنني لم أر بكاء بهذه الحرقّة. يبدو أنها تحبّك حبّا عظيما. إعتن بها. أنا متأكد ستكونان سعيدين"². ولكن بعد عقد الزواج تحوّل بكاؤها إلى ضحك وقالته وهي تقهقه بالضحك "يا لها من مهزلة". قهقهت المرأة وصرخت كأنها نجحت في خططها الخائنة واحتيالها في إسقاطه في هونها القائلة. واستند هذا الزواج على علاقة ضعيفة ومضطربة تهزّ بالإهتزاز الشديد بين هذين الزوجين. وكانت علاقتهما الزوجية تفتقر إلى الحبّ والرفقة. إنها كانت تكذب على زوجها في كثير من الأحيان بعد أن ترتكب الزنا مع الرجال وكانت تنفي عنه المتعة الجنسيّة، الفعل الذي تعارض مباشرة على أفعال النساء السابقات اللاتي إستسلمن تماما لرغبات مصطفى سعيد ولذاته وأذواقه.

كانت جين مورس ترفض أن ترقّد مع زوجها مصطفى سعيد ورفضت أن تستجيب لرغباته. كانت تغريه حين يتجّبها وتقرب منه حين يطاردها وترفض أن تستجيب لإغرائاته وتخونه بتعلقاتها مع الرجال الآخرين. كانت تخلق أمامه

⁽¹⁾ موسم الهجرة إلى الشمال، الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 43

⁽²⁾ المصدر السابق، ص - 166

أحوالا ضاربة لأن يهينه أمام الناس "وكان يحلو لها أن تغازل كل من هبّ ودبّ حين نخرج معا. كانت تغازل غرسونات المطاعم وسواقى الباصات وعابري السبيل وكان بعضهم يتشجّع ويستجيب ويردّ بعضهم بعبارات بذينة. فأتشاجر مع الناس وأضربها وتضربني في عرض الطريق"¹. وهكذا أذاقت جين مورس مصطفى سعيد شتى أصناف الإهانة والإحتقار، وهكذا هدمت مصطفى سعيد وأفنت مهارته في إغراء النساء وقوّضت ثقة نفسه عن مهارته في جذب النساء وسلبت وعيه في الضبط على نفسه.

كانت العلاقة بين مصطفى سعيد وجين مورس قائمة

على أساس الغشّ والخيانة والكره كما كانت العلاقة بين المستعمر والمستعمر، كلاهما ينتظران الفرصة ليوقع الآخر في الصدمة. إشتدت الحرب بين مصطفى سعيد وجين مورس في صورة لا هوانة فيها. وهي أصرت لأن تفككه جسدياً وعاطفياً وروحياً. هدمت كل المواد الثمينة من التحف الفنية والمقتنيات الخاصة التي كان يعتزّ بها مصطفى سعيد في حياته مثل الزهرية والمخطوط العربي النادر ومصلاة الحرير الإصفهاني. كان يقدر لهذه الأشياء قيمة عالية في نفسه. "وقد كانت لحظات النشوة نادرة بالفعل، وبقية الوقت نقضيه في حرب ضروسة لا هوانة فيها ولا رحمة. كانت الحرب تنتهي بهزيمتي دائما. أصفعها وتصفعني وتنشب أظافرها في وجهي ويتفجّر في كيائها. بركان من العنف فتكسر كل ما تناله يدها من أوان وتمزق الكتب الأوراق. كان هذا أخطر سلاح عندها. كل معركة تنتهي بتمزيق كتاب مهمّ أو حرق بحث أضعت فيه أسابيع كاملة". وعنما تمزق الكتب والورقات التي إستغرق مصطفى سعيد أسابيعا في تأليفها، فكانت كأنها تدمر عبقرية مصطفى سعيد ومهارته من عقله القاطع الذي كان يعتزّ به والذي كان يستخدمه لجذب الأوروبيين حوله بمحاضراته عن الإقتصاد المأسس على الحبّ لا على الأرقام ومحاضراته عن أبي نواس ومختلف فروع الأدب العربي وفلسفات الشرق وغيرها. كانت جين مورس تهدف إلى أن تسقطه إلى المأساة والكارثة وأن تشتت أحواله الروحية الداخلية. يبيّن مصطفى سعيد عن الوقت الذي أصبح

⁽¹⁾ موسم الهجرة إلى الشمال الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 170

فيه أكثر مهينا ومثلا أمامها. "خلعت ثيابها ووقفت أمامي عارية... تقدمت نحوها مرتعش الأوصال، فأشارت إلى زهرية ثمينة من الموجودة على الرف. قلت: تعطيني هذه وتأخذني. أشرت برأسي موافقا. أخذت الزهرية وهشمتها على الأرض وأخذت تدوس الشطابيا بقدميها حتى حولتها إلى فئات. أشارت إلى المخطوط العربي النادر على المنضدة. قالت: تعطيني هذا أيضا... أشرت برأسي موافقا. أخذت المخطوط القديم النادر ومزقته وملأت فمها بقطع الورق ومضغتها وبصقتها كأنها مضغت كبدِي، ولكنني لا أبالي. أشارت إلى مصلاة من حرير إصفهان أهدتني إياها مسز روبنس عند رحلي من القاهرة. أثنى شئ عني وأعز هدية على قلبي. قالت: تعطيني هذه أيضا ثم تأخذني. ترددت برهة ولكنني نظرت إليها منتصبة متحيزة أمامي... وهزرت رأسي موافقا، فأخذت المصلاة ورمتها في نار المدفأة ووقفت تنظر منذلة إلى النار تلتهمها فانعكست السنة النار على وجهها¹.

هذه الفقرة تبين عن أقصى الحد الذي وصل فيه جين

مورس في إهانتها بمصطفى سعيد. حاولت جين مورس أن تهدم قيم مصطفى سعيد الإنسانية في نفسه وتبليبه بأشدّ البلاء. وهي أيضا تحاول أن تقني القيم المادية والجمالية والروحية في نفس مصطفى سعيد. هذه الأشياء والمواد التي إحتاجها جين مورس من مصطفى سعيد تختلف في مستوى ثمنها وقيمتها وقدرها بالنسبة إلى مصطفى سعيد. ومن القول أن الإناء الإنجليزية الجميلة التي حولتها إلى قطع وقطع، ترمز إلى شخصية مصطفى سعيد الإنجليزية. وعندما تطلب جين مورس هذه الإناء منه وتكسر لها إلى القطعات وتدوسها تحت أقدامها فهي كانت تعامل معاملة المستعمرين الأثانيين، أي كأنها تقول له بإشارة واحدة أن وعد الإستعمار لأبناء مستعمراته عن إندماجهم إلى السكان المثقين الإنجليزيين كان وعدا مبنيا على الخيانة والخداعة، وفي الحقيقة أن المستعمر لا يسمحون لأبناء مستعمراته أن ينتموا إلى ثقافتهم العالية. والشئ الآخر الذي طلبته جين مورس منه هو مخطوط عربي نادر. وهذا المخطوط يشير إلى هوية مصطفى سعيد العربية الإسلامية. عندما أشارت جين

¹ موسم الهجرة إلى الشمال، الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 165

مورس إلى هذا الشيء أصبح حلقه جافاً وكاد يقتله الظماً وكان يعاني ألماً وضغطاً في قلبه مزيداً من الشيء المطلوب في المرة السابقة. كان يلتصق هذا المخطوط العربي النادر إلى قلبه وكبده، وعندما مرّفته جين مورس ومضغته وبصقته، أحسّ مصطفى سعيد أنها مضغته كبده وبصقته.

هذه السلوكيات والتصرفات من قبل جين مورس تظهر بالمارسات الوحشية من قبل الأوربا لأن تحتلّ على البلاد الأخرى وثقافتها وأن تستعمرها، وهي تسعى إلى هدم مراكز حضارة المستعمر المتمثلة في التراث والمعرفة والدين. وهي أيضاً تبين عن مهاجمات الأوربا القاسية العظيمة التي لا تحسنّ أية مشاعر من الشفقة والعطف عندما تهدم الثقافات الأخرى خلال طرقها في تحقيق شغفها في الحكم والسيطرة. "ومن الواضح أن مثل هذه الطريقة لوصف الأفعال من أيد جين مورس تعين واحدة من أبشع الصفات الهمجية التي منحت للأوروبيين تبريراً خلقياً في قهر إفريقيا وأمريكا. الخوف الأوروبي عن أكلة لحوم البشر كان كابوساً لمصطفى سعيد ولكن هذا الكابوس أصبح حقيقة على يد هذه فيكتوريا المتوحشة، التي لا تتردد في تدمير الثقافات والحصارات الأخرى في شهوتها في أمر السلطة"¹. عندما مرّقت جين مورس المخطوط العربي النادر أصبح مصطفى سعيد واعياً عن بداية انحطاط نفسه. ويختلّ هذا الوعي بالشاعر الهمجية وهذه المشاعر الهمجية تؤذيه إلى قتل جين مورس.

والشيء الأخير الذي طلبته جين مورس أن يعطيها هو المصلاة من الحرير الإصفهاني الذي يقرّها مصطفى سعيد قيمة روحية وعاطفية. لأن هذه المصلاة أهدتها له مسز روبنسن عندما غادر القاهرة إلى لندن بعد دراسته الثانوية. عندما أعطاها مصطفى سعيد لجين مورس كان يعاني بضغط أكثر في قلبه وعزم لأن يتبع جين مورس إلى الجهنم. لأن هذه المصلاة يراها أمّن شيئاً عنده وأعرّ هديّة في قلبه.

¹ Tayeb Salih Ideology and craft of fiction, Wail Hasan, p: 104

وجدير بنا الذكر أنّ مصطفى سعيد ينظر إلى مسز روبنسن - وهي أيضا امرأة أوروبية - بعين أخرى مختلفة من العين التي ينظر بها إلى النساء الأوروبيات الأخرى. مسز روبنسن هي أمّ حنينة بالنسبة إليه، وهي وزوجه مختلفان من الأوروبيين الآخرين في نظره. كلاهما يحبّان الثقافة الإفريقية والعربية وأدّى زوجها خدمات جليلة للثقافة العربية مثلما اكتشف لكثير من المخطوطات النادرة وشرحها وأشرف على طبعها. كانت مسز روبنسن بمثابة الأمّ الروحية لمصطفى سعيد. كانت تحنو إليه مثل ابنها المدلل وكانت تدرك بامتياز في قدرته العقلية والذكائية وصفاته الإنسانية. لم تنظر إليه كرمز للجمال الإفرقي وجاذبته الطبيعية. وإليزابيث بعد أن تعيش في القاهرة مع زوجها لمدة طويلة، كانت تتعلم عن الشرق وحضارته وتعلمت اللغة العربية وأحبّتها وأحبّت الأناس المتكلمين بها. وليست هناك علاقة بينها وبين الشرق على أساس الإستغلال والربح. ولذلك شدّ مصطفى سعيد بها علاقة مشيّدة على أساس الحبّ الروحي وحنان الأمّ. يقول الناقد رجاء النقاش في هذا الأمر "لقد أحبّته كجزء من حبّها للشرق، وفهمها. إستطاعت أن تصل إلى هذا المستوى من العاطفة النقية الصافية. عاشت في القاهرة طويلا مع زوجها، وتعلمت العربية وعاشت الناس في الشرق وأحبّتهم. لقد إكتشفت الشرق من جانبه الإنساني لا من جانبه الجسدي والمادي. ولذلك أحبّت مصطفى سعيد ووجدت سعادة غامرة في هذا الحبّ. ولم تطلب من مصطفى سعيد شيئا، بل كانت تساعد كلّمّا احتاج إلى المساعدة. إنّ لدّتها الكبرى هي في هذا الحبّ الصافي نفسه، وفي إكتشافها لروح الشرق الجميل: بترائه وتاريخه وشمسه وناسه. ولقد نظرت إليزابيث إلى مصطفى سعيد في ضوء رؤيتها للشرق كله"¹.

إحتلت جين مورس ومسز روبنسن محلا متناقضا

في نفس مصطفى سعيد. عندما أهدت مسز روبنسن المصلاة من الحرير الإصفهاني إلى مصطفى سعيد مشغوفة إلى الثقافة العربية وتربيتها، فجين مورس أشعلت هذه المصلاة وأحرقتها وهدمت الثقافة العربية. فهما تمثّلان قوّتين متعارضتين؛ الأولى هي قوّة الضوء

⁽¹⁾ الطيب صالح عرقي الرواية العربية، رجاء النقاش، ص - 29

التي تمثلها مسز روبنسن، وهذه القوة تحاول أن تنير ثقافة العربية وتحاول أن تلصقها إلى قلبها. أما القوة الثانية هي قوة الظلام التي تمثلها جين مورس، وهذه القوة تحاول أن تطفئ الأضواء في الثقافة العربية. وكلتا القوتين تنافسان أن تحتلنا على روح مصطفى سعيد.

كان مصطفى سعيد وجين مورس يشتركان في معركة

من أجل التفوق، ولم يتأخر أيّ منهما من هذه المنافسة والحرب. إنها كانت معركة تصدو العنف الذي يندلع ضروريا من رابطة الإستعمار. وقد فشل مصطفى سعيد في محاولته في إلقاء الضبط على جين مورس. ومن البارز أن مصطفى سعيد يستعير إستعارات مختلفة من الرموزات لأن يشير إلى هذا الفشل خلال إشاراته إلى جين مورس "غرفة نومي صارت ساحة حرب. فرائشي كان كان قطعة من الجحيم. أمسكها فكأنني أمسك سحابا، كأنني أضاحج شهابا، كأنني أمتطي صهوة نشيد عسكري بروسي"¹. هنا يقول مصطفى سعيد كيف كان يضيع مع جين مورس في الفراش الذي كان يحسه قطعة من الجحيم يغلي من النار الغليظة الحارة وكانت جين مورس مثل شهاب حارّ وقاد يحرق مصطفى سعيد تماما. كانت مثل سحاب لا يستقر في مكان معين تحرك من مكان إلى مكان أو من رجل إلى رجل آخر، أو لم تكن جين مورس في بالغ كفي مصطفى سعيد مع أنها كانت زوجته الشرعية.

إنّبه مصطفى سعيد بإنسا أنه تحول من حالة الصياد إلى

حالة الفريسة في علاقته مع جين مورس، وفهم جيدا أنه أصبح كمستعمرة تحت نفوذها وفقد هويته كرجل. عندما كانت جين مورس تدفعه إلى الوراء إلى دور الفريسة الإفريقية كانت تغلن دور الأوروبي الكولونيالي الذي يجوع جوعا طامحا إلى السلطة والحكم على البلاد الأخرى. وقد أدرك مصطفى سعيد برهية أنه ييثر بذرات هلاك نفسه في علاقته مع هذه الفتاة الشيطانية. وأدرك أن هذه المرأة تحمل في داخلها القوة الهلاكية التي إستخدمها نحو النساء الأخرى من قبل. كان مصطفى سعيد شهريارا سيّدا ناجحا عندما كان يتصل بالنساء

¹ موسم الهجرة إلى الشمال، الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 43

الثلاث الأخرى، أما عندما أصبح مع جين مورس جعلته شهریاراً رقيقاً منهزماً بدلاً من شهریار السيد الناجح. أصبح كأنه "شهریار رقيق تشتریه في السوق بدينار، صالاف شهرزاد متسولة في أنقاض مدينة قتلها الطاعون"⁽¹⁾ حينما قالت له أن همد "أنت مصطفى مولاي وسینا وأنا سوسن جاريك"⁽²⁾. وهكذا إختاراً دورهما في علاقتهما، مثلت دور الجارية ومثل دور السيد. هكذا كان علاقته مع أن همد هو السيد وهي العبيدة.

ومن المعروف أن شهرزاد في القصة ألف ليلة وليلة تمكن لها أن تضبط على زوجها شهریار وتوقفه من قتله العروس الجديدة عندما تنتهي كل ليلة وعندما يقرب الوقت من الصباح. سردت شهرزاد للملك حكايات غريبة وقصص خيالية في كل ليلة ولم تنتهي القصة حتى تصبح اليوم. ثم تستمر باقي القصة في الليلة التالية. وهكذا أكملت ألف ليلة وليلة حتى وقع الملك في الحب معها وتاب على قتله من النساء وأوقف إبتامه من النساء. كانت جين مورس مثل شهرزاد عند مصطفى سعيد. كانت تسرد له بعض القصص الخيالية والكاذبة كما كان مصطفى سعيد يحكي قصص خيالية عن إفريقيا والسودان مع النساء الأخرى في لندن. "كانت (جين مورس) تكذب حتى في أبسط الأشياء. تعود إلى البيت بقصص غريبة عن أشياء حدثت لها وأناس قابلتهم لا يمكن أن يصدقها العقل... كأنها شهرزاد متسولة⁽³⁾. أما قصصها لم تكن تحض على الأمور الفضيلة كما كانت قصص شهرزاد في ألف ليلة وليلة، كانت قصصها تشتمل بدروس خلقية حسنة تحفز على الفضيلة والأمر الطيبة.

وعلى تلك القصة يخطط الروائي الطيب صالح قصة مصطفى سعيد وجين مورس في نسج القصة بين عطيل الإفريقي وزوجته الأوروبية ديدمونا. أخذ ياجو منديل ديدمونا ووضعها في غرفة كاسيو - الموظف الأقرب من عطيل -

⁽¹⁾ موسم الهجرة إلى الشمال، الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 43

⁽²⁾ المصدر السابق، ص - 153

⁽³⁾ موسم الهجرة إلى الشمال، ص - 163

لأن يدلّ على خيانة ديدمونا لزوجها عطيل. ولكنّ هذه الحادثة كانت حادثة مصطنعة من قبل ياجو لأن ديدمونا كانت تحبّ زوجها عطيل حبّاً حقيقياً، ولم تخن زوجها. ولكنّ عطيل قتل زوجته معتقداً في خيانتها. وعندما أدرك عطيل الحقيقة قتل نفسه. يقول وائل حسن "لا تسعى جين مورس إلى تقويض دور كلّ من الجنسين المبنيّ اجتماعياً، وهي ليست صليبيّة نسويّة ضدّ الرجولة وضدّ كراهيّة مصطفى سعيد للنساء. إذا كان مصطفى سعيد يلعب شهريار، وهي تلعب شهرزاد، وإذا كان مصطفى سعيد يدّعي أنه عطيل، فإنها تصبح ديدمونا. شهرزاد وديدمونا هما عرضان نموذجان لرغبة الذكور؛ فتحاكي جين مورس بهما. وهي مثل شهرزاد التي تنجح في وقف قتل شهريار اليومي من عروس جديدة إنتقاماً على خيانة زوجته الملكة، فجين مورس تنتهي تدمير مصطفى سعيد النفسي من الفتيات الإنجليزيتين. ومع هذه المحاكاة تظهر هاتين المرأتين بعض التناقض : شهرزاد هي امرأة مطيعة تطيع بزوجها في كل الأمور مع أنها تمكر معه مكراً الذي تهدف به إلى إصلاح زوجه إصلاحاً اجتماعياً وأخلاقياً، أمّا شهرزاد الإنجليزيتية هي امرأة بغوضة مغرية تدمر زوجها وتحاول إلى هلاكه"¹.

وعلى منوال القصة في المنديل بين عطيل وديدمونا

هناك حادثة بين جين مورس ومصطفى سعيد. ذات يوم وجد مصطفى سعيد منديل رجل في غرفتهما ولم ترفض جين مورس الحقيقة. لأنها كانت تحاول أن تهين زوجها مصطفى سعيد وأن تحقره خلال هذه الحادثة. "كنت أعلم أنها تخونني. كان البيت يفوح بريح الخيانة. وجدت مرة منديل رجل، لم يكن منديلي. سألتها فقالت: أنه منديلك. فقلت لها: هذا المنديل ليس منديلي. قالت هبه ليس منديلك، ماذا أنت فاعل، قلت لها أنت تخونني. قالت إفرض أنني أخونك. صرخت فيها: أقسم أنني سأقتلك. ابتسمت ساخرة وقالت: أنت فقط تقول هذا. ما الذي يمنعك من قتلي؟ ماذا تنتظر؟ لعلك تنتظر حتى تجد رجلاً فوق... وحتى حينئذ لا أظنك تفعل

⁽¹⁾ Tayeb Salih Ideology and the craft of fiction, Wail Hasan, p: 102

شيئاً. ستجلس على السرير وتبكي"¹. وبهذا القول إستفرت جين مورس على مصطفى سعيد إستفزازاً عنصرياً "ستجلس على السرير وتبكي". وأعلنت أنّ مصطفى سعيد وأمثاله من إفريقيا ومن العرب ومن الشرق هم مثل الأطفال الذين يكون ضعفاء عندما يقعون أمام الأزمات والصعوبات العاطفية والأحوال الغضبية، ولا يمكنهم أن يردّوا على هذه الأحوال ولا يستطيعوا لوجود حلول هذه الأزمات. وكانت تزعم بهذا القول أنّ مصطفى سعيد منهزم وفاشل في محاولاته لإخضاع البريطانيا أمامه وكانت تحاول أن تهدم إدعائه عن تغلبه على الإستعمار والأوربا.

ومع أن مصطفى سعيد إنهزم في محاولته في إخضاع جين مورس وفي إخضاع الغرب في صورة كاملة كان ينتظر فرصة لأن تجعلها تحت تملكه، ليجري له ما في نفسه من الحيل والمكر. واختار هذه الساعة من إمتلكها لتكون ساعة الثأر والإنقام. لأن مصطفى سعيد كان يعرف أنه سوف يحول من حالة الفريسة إلى حالة الصياد ومن حالة شهريار الرقيق إلى حالة شهريار السيد. فانتظر لهذه الفرصة مع الصبر والإحتياط. وعندما آنت له هذه الفرصة إنتهزها حسب غرضه الكامن. أصبحت جين مورس فريسة في صيد مصطفى سعيد حينما سمحته أن يقتلها وأرادت أن تنهي حيلتها ومكرها وهي تريد أن تسخر للموت. في تلك الليلة كانت جين مورس عارية تماماً، والآن مصطفى سعيد (الشرق) يمكنه أن يسخر جين مورس (الغرب) لأوّل الوقت. يقول فرانك فانون "حقيقة الإستعمار العارية تثير لدينا الطلقات النارية والسكاكين القاتلة التي تخرج منها. لأنه إن كان الآخر سيكون الأوّل. فهذا فقط سيمرّ بعد صراع حاسم ومريّر بين كلا الطرفين"². كانت أعدت نفسها كاملاً بتعلقه معها وتأوّهت آهة أكثر ألماً.

"ها هي ذي سفني يا حبيبتي تبخر نحو شواطئ الهلاك.

ملت عليها وقبّلتها. وضعت حد الخنجر بين نهديها... قالت بألم: يا حبيبي ظننت أنك لن تفعل

⁽¹⁾ موسم الهجرة إلى الشمال، الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص 170

⁽¹⁾ Wretched of the earth, Frank Fanon

هذا أبدا. كدت أياس منك. وضغطت الخنجر بصدري وهي تصرخ متوسلة: تعال معي، تعال. لا تدعني أذهب وحدي"¹. قتلها مصطفى سعيد لأن تدمر كتلة الظلام في نفسها ولجأ إلى قتلها مع حدّ السكين بدلا من سكين رمزيّ أو بدلا من عقله الحادّ الذي أفنى بها الفتيات الأخريات من صورة الإستعمار الأوروبي وطموحه على تملك الآخرين. "قتل مصطفى سعيد الوجدان الأوروبي المعقد الذي يعلن كراهيته واحتقاره نحو إفريقيا، ثمّ يتمسك بها ويقبض عليها بأصابعه بل وينشب أظافره فيها حتّى لا تضيع... فموقف أوربا من إفريقيا هو تظاهر بالكره يقابله حرص على إفريقيا وتمسك بها مستبداً وعنيفا. وهذا هو نفس موقف الزوجة الإنكليزية من زوجها الإفريقي مصطفى سعيد... كانت تبدي له كرها وتمنعا واحتقارا وهي في الحقيقة تريده لتعتصره وتحقق متعتها ثمّ تعامله بعد ذلك كالكلب"².

وهنا تنتهي العلاقة بين مصطفى سعيد وجين مورس -

العلاقة المميّزة بالعنف والجنس المريض - وهكذا إستطاع مصطفى سعيد أن يهزم الإستعمار. يرمز قتل جين مورس إلى فتح مصطفى سعيد على الثقافة المحتلة. وإذا كانت جين مورس رمزا إلى كلّ المستعمرين، فيمكننا أن نفسّر إختيار مصطفى سعيد على قتلها كعمل يطهر تاريخ إفريقيا من خلال تحقيق التوازن على طريق الإنتقام والثأر وتحرير المستعمر من عبودية دائمة. لاحق مصطفى سعيد في أوربا خرابا ودمارا كثيرا، وهذا الخراب والدمار يماثل مماثلة للأعمال العنيفة القاسية التي قدّمها أيدي المستعمرين في المشرق، هم الذين غزوا على البلدان الأجنبية في صورة وحشية، ومارسوا الأعمال العنيفة الجنسية وجرحوا جرحا ثقافية، وولدوا الخوف وعدم الأمن في بيئة الناس المألوفة وحطموا هوية الشعب المستعمر. بعد استخدام عقله وجسده للسيطرة على ثلاثة النساء الأوروبيات عقليا وجسديا وروحيا - النساء اللاتي يمثلن الإستعمار الأنثوي - أفسد مصطفى سعيد المقعد الطويل الذي عقدت السلطة في الغرب.

(¹) موسم الهجرة إلى الشمال، الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 173

(²) الطيب صالح عبريّ الرواية العربية، مجموع من الكتاب، ص - 92

وفي خلاصة القول إعتقد مصطفى سعيد على معرفته الأكاديمية لتفكيرك نظام الحكم البريطاني وتقويضه، نظام الحكم الذي أدى وتساهم في تشكيل السلطة الاستعمارية البريطانية وظهورها. إذا كانت بريطانيا استخدمت معرفتها وأسلحتها المتطورة لإخضاع شعب بلد مصطفى سعيد؛ السودان وأهل البلاد الإفريقية الأخرى والبلاد الشرقية والعربية، فكان مصطفى سعيد أيضا يستخدم إستراتيجيات مماثلة لقمع عدوه وعدو بلده وأهل البلاد المستعمرات، ولكن كان هذه المرة عن طريق إستخدام عقله وقدراته الجنسية لإنجاز حملته.

مصطفى سعيد يواجه محاكمة الإستعمار

جست الحكومة البريطانية مصطفى سعيد بعد قتله جين مورس وأحضر في المحكمة لمحاكمته. تبين الرواية بيانات من المناظر عن محاكمة مصطفى سعيد في المحكمة البريطانية في أولد بيلي في لندن. وهذه المناظر مفعمة من المواقف عن العلاقة الكاذبة بين المستعمر والمستعمر. قال مصطفى سعيد عن محاكمته "جلست أسابيع أستمع إلى المحامين يتحدثون عني، كأنهم يتحدثون عن شخص لا يهتمي أمره". وكان المدعي العمومي كان يسأله مثلما يصارع "جثة". وكان الرجل يقوم هامدا مثل كومة رماد وكانت أجريته كلها في صورة صغيرة "بليا ولا أدري". كان قيام مصطفى سعيد في المحكمة مثل شخص لا يهتم أمره وحاله مثل الجثة بإجابة الأسئلة بنعم ولا أدري كلها يشير إلى أن مصطفى سعيد كيف أصبح خائبا من الأمل في أفعاله في لندن وكيف أصبح عقله - الذي كان يقطع الأمور ببرودة - جامدا وباردا لا يفعل في أي حركات. يشير حالته هذه إلى كيف ينفي الإستعمار شخصية المستعمر ويخفضها أمام شخصية المستعمر. سعى أستاذه في جامعة لندن بروفيسور ماكسول فستر كين لإخلاصه من المشقة وكان يرسم صورة عقل مصطفى سعيد العبقري الذي قتل زوجته متأثرا بالظروف التي جعلته إلى حالة الجنون. وبين الآخرين عن تعيينه محاضرا في علم الإقتصاد وقال لمن حضروا في المحكمة

"مصطفى سعيد يا حضرات المحلفين إنسان نبيل، إستوعب عقله حضارة الغرب لكنها حطمت قلبه"¹. كان يدّعي أن هذا الرجل الإفريقي أصبح عبقرية في علم الإقتصاد وفي أنواع من العلوم المختلفة لأنه إستمدّ الثقافة الغربيّة إلى عمقه ولكنّ نفسه لم تستطع أن تلاقى بهذه الثقافة لأنها كانت مملوءة من المشاعر الضعيفة والوحشية التي تخرق في قلوب الإفريقيين والعرب. وهو أيضا بيّن أن الفتيات الثلاثة لم يقتلوهنّ مصطفى سعيد ولكنهنّ سوف ينتحرن إن يقابلن مصطفى سعيد أو لم يقابلنه. لأنّ هذه الفتيات كانت مصيبات "بجرثوم مرض عضال أصابهنّ منذ ألف عام"² وهذا الجرثوم هو الذي قتل هذه الفتيات. وكان يرمز بهذا الجرثوم إلى الإستعمار الأوروبي الغربي وثقافته الأنانية التي تحاول أن تمتلك على البلدان الأخرى. وكان يشبّه الإستعمار مثل المرض العضال الذي ينتشر من واحد إلى واحد حتّى تأخذ المجتمع كله. طبعا كان الإستعمار جرثوما نبع في القرن الخامس عشر والسادس عشر في بلد أوروبية وانتشر من البرتغال إلى إسبانيا وإلى هولندا وإلى فرنسا وإلى بريطانيا وإلى البلاد المختلفة حتّى أصاب هذا المرض إلى عمق الغرب كله وأصبح جزءا لا يتجزأ منه. وكان يعني أن عدوى الإستعمار الأوروبي، وجرثوم السعي وراء السلطة على الآخرين قد أصابت هؤلاء السيّدات لأنهنّ قرّرن بوعي وعمد بالدخول إلى علاقة مع الرجل الذي كان في مثابة المظهر ماديًا وجسديًا، لتثبّت عقليتهنّ حول الشرق.

وحينما حاول البروفسور ماكسول فوستركين أن يخلص

مصطفى سعيد من المشنقة خطر له أن يصرخ في المحكمة في لندن "هذا مصطفى سعيد لا وجود له. إنه وهم، أكذوبة. وإنني أطلب منكم أن تحكموا بقتل الأكذوبة"³. وخطر له أيضا أن يصرخ في المحكمة "هذا زور وتلفيق. قتلتها أنا. أنا صحراء الظمأ. أنا لست عطيلًا. أنا أكذوبة. لماذا لا تحكمون بشنقي فتقتلون الأكذوبة"⁴. وبهذا القول كان يريد أنّه نتاج من

(1) موسم الهجرة إلى الشمال، الأعمال الكاملة الطبيب صالح، ص - 42

(2) المصدر السابق، ص - 43

(3) موسم الهجرة إلى الشمال، ص - 42

(4) المصدر السابق، ص - 43

أكاذيب مهمّة الحضارة الغربيّة ولذلك هو نفسه أكذوبة من عنده وكذلك هو نتاج من الثقافتين ولذلك كان يحسّ نفسه وهما أو كذبا. ولذلك سأل مصطفى سعيد أن يقتل هذه الأكذوبة التي نتجتها أوربا نفسها. عطيل هو مور، وهو بطل عربيّ الذي تمكّن من الحصول على مناصب رفيعة عسكريّة ومدنيّة في المجتمع الغربيّ البندقيّة. هنا يصرّح مصطفى سعيد أنّ عطيل هو نتاج الحضارة الأوروبية وحولته الأوربا من عدوّ تاريخيّ إلى خادم للمصالح الأوروبيّة. يعتقد مصطفى سعيد أن شخصية عطيل هو مجرد كذبة، وتمثيل نمطيّ للعرب غير المعقول والغضوب. وهو تلفيق ونتاج من الخيال الغربيّ الذي يبعد الآخر لأن يعرض أن هذا الآخر غير أخلاقيّ وغير عاقل وغير جديرة بالثقة. يقاوم مصطفى سعيد الفكرة لأن يصوغه مع مزاج عطيل لأنه لا يريد أن يقوم في المكان المنتصف، ليصبح مختلطا مثل عطيل، مثل السراب من طراز أصيل يقف بين ثقافات الغرب والشرق. ولذلك حاول أن يصرّح في المحكمة البريطانيّة أنه ليس عطيل، وليس هو خادم الأوربا وإصلاحه.

يقول وائل حسن في هذا الصدد "عطيل هو كذب لأنه هو منتج من الخيال الأوروبي وهو تجسيد للرجال الشرقيين الذين إن كانوا في حالة حسنة فهم أحسن، وإذا كانوا في حالة سيئة، فهم يتجاوزون حدود السيئة، وهو تمثيل مركب للضابط العربي الإفريقي الملقق من قبل الكاتب المسرحي الإنجليزي عام 1604م ومثله الممثلون البيض بإستعمال البارودة لتسويد أجسادهم وبدون إستعمال البارودة منذ 340 سنوات من تاريخ مسرح الأوربا. عطيل هو كذب بمعنى آخر: في الكذب حول مغامراته بين البهائم الوحشيّة في القرون الوسطى وهو أيضا يمثل نفسه زورا إلى البندقيّين وديدمونا"¹.

يرفض مصطفى سعيد كلّ هويّة التي منحها له الإنجليز ويعلم أن كلّ هذه الهوية كذب من الأكاذيب الأوروبيّة وهو يسأل في المحكمة أن يقتل هذه الأكذوبة المكوّنة من تجاههم. بروفيسور ماكسول فستركين، أستاذه في جامعة أكسفورد

⁽¹⁾ Tayeb salih Ideology and craft of fiction, P: 107-108

والذي كان من المؤسسين بحركة التسليح الخلقي في أكسفورد، والذي كان عضواً في اللجنة العليا لمؤتمر الجمعيات التبشيرية البروتستانتية في إفريقيا، قد أدرك تماماً أن الهوية التي منحها لمصطفى سعيد من قبلهم غير قيمة وغير موزونة عنده. وعندما أدرك عن هذه الحقيقة من قبل قتال لمصطفى سعيد "أنت يا مستر مصطفى سعيد خير مثال على أن مهمتنا الحضارية في إفريقيا عديمة الجدوى، فأنت بعد كل المجهودات التي بذلناها في تنفيذك كائك تخرج من الغابة لأول مرة"¹. هنا يصور هذا المعلم الكولونيالي طالبه من العالم الثالث طالبا غير مطيعا للاستعمار ورمزا لرسوب الرسالة الاستيعابية البريطانية. والسخرية هنا أن هذا الأستاذ البريطاني المستعمر لا يدرك أن محاولة الإنجليز خلال حركتهم التي تدعي بتثقيف الإفرقيين قد هدمت ثقافتهم الأصلية وأفعلتهم من أصلهم. وبدلاً من أن يدرك هذه الحقيقة، إدعى الأستاذ أنهم مخطئون في هدفهم وكان من عيبتهم تحركهم واشتغالهم بالحركة الثقافية بين الإفرقيين السود والبربريين الوحشيين الذين لا يمكن لهم أن ينسوا حياتهم البدائية في الغابة. وبهذا التأكيد أجبر المستعمرون أن يقرّوا على فشلهم في محاولتهم الإصلاحية الثقافية بين أبناء العالم الثالث. ولكنهم يسترون وعيهم من الفشل في أنفسهم بغير بونها أمام الآخرين. وخلال هذه الأقوال من هذا الأستاذ البريطاني المستعمر يعرض الروائي الطيب صالح الأكاذيب والخيانة المتوارثة في فكر الاستعمار وكان يتأكد بتأثير الاستعمار الهدام على المستعمر. وكان يقول أن مهمة الاستعمار البريطاني الحضارية في السودان والبلاد الإفريقية الأخرى والبلاد الشرقية كانت كذبا إستخدامها المستعمرون لإستغلال الأراضي وأهلها.

عندما أدرك الأستاذ ماكسول فستر كين هذه الحقيقة طلب للقضاة في المحكمة الإنجليزية لأن يخلص مصطفى سعيد من المشتقة معتبرا نفسه مجرماً من مستعمراتها. ولهذا الغرض وصف نفسه أمام القضاة صورة عقل مصطفى سعيد الحاذ والوقاد وبين ألامهم عن الظروف التي دفعت مصطفى سعيد إلى قتل زوجته. فأقرت

¹ موسم الهجرة إلى الشمال، الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 102-103

المحكمة المستعمرة عن فشل الأوروبين، وهذا الوعي عن الفشل أدت المحكمة لأن تقضي عقابه مصطفى سعيد وأن تقصر هذه العقابة إلى حبسه في السجن لسبعة أعوام بدلا من أن تقضي عليه المشنقة. عاقبوا عليه بعقابة خفيفة مع أنه ارتكب جريمة لعقابة المشنقة والإعدام. لأنهم إذا قضوا عليه بعقابة ثقيلة فهذه القضاء سوف تعني أن الإنجليزيين يعترفون علانية بأن التجربة البريطانية بين السود 'البربريين الوحشيين قد فشلت. فإنن دافعوا عن مصطفى سعيد في المحاكمة وتعذروا بممارساته من الخيانة والخدع وقتله من النساء الإنجليزيات من دون إدر اكهم تماما لماذا تصرف مصطفى سعيد هذه التصرفات نحو نسلهم.

قام مصطفى سعيد ساكتا وهامدا في المحكمة مثل كومة

رماد بدون مدافعة عن نفسه من التهمة عليه وبغير بون أمام المحكمة عن سبب إجراء جريمة القتل. وهذا الصمت والسكوت كان نوعا من التمرد من جهة مصطفى سعيد، لأنه كان يعلم إذا تحاكم المحكمة الإنجليزية عليه عقابا ثقيلا، فسوف يكون هذا العقاب ضربا على فخر المجتمع الإنجليزي. لأنهم كانوا يفتخرون من قبل أن مصطفى سعيد هو نموذج كامل لتسامحهم الحبي واللوني، وهم الذين سهّلوا له كلّ التسهيلات في الحصول على التعليم الحديث والفنون الجديدة وزواجه من إحدى بناتهم "أنظروا كم نحن متسامحون ومتحرون، هذا الرجل الإفريقي كأنه واحد منا، أنه تزوّج إبتنتا ويعمل معنا على قدم المساواة"¹. فإذا يعاقبوه بعقابة من المشنقة والإعدام، سوف تكون دعواهم عنه كاذبة وخالية من الحقيقة. كان مصطفى سعيد يدرك هذا الأمر تماما وفهم أن المحكمة الإنجليزية لن تتجرأ أبدا لأن تحكم حكما مثله. "صمته العنيد أثناء المحاكمة يعتبر عن تمرّده الذي لا يمكن ملفوظا بوضوح في سجلات الإندعام والدفاع. وهو لا يزال صامتا لأن إعلان القتل والإنتحار من مسؤوليته الشخصية سيكون سببا لنشر "الأوهام والأكاذيب" المدرج عليه. وإذا دافع عن نفسه معلنا أن سبب قتله جين مورس هو خيانتها عليه فسيُسجّل مصطفى سعيد في صورة نماذجية مثل

⁽¹⁾ موسم الهجرة إلى الشمال، الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 68

عطيل النبيل المغير القاتل الذي قتل زوجته ديدمونا بسبب خيانتها له¹. ففي هاتين الفرصتين يطلق مصطفى سعيد بريئا من ذنبه. ولكن نفسه كانت ترغب في إعلان قتله لأن القتل سيكفر عن أكاذبه في الحياة. ولذلك رغب أن يصرخ بقتل الأكذوبة. ولكنه كان يعرف أن الإعلان بقتل الأكذوبة لا يعني بإنعدامه فقط بل هو يعني أيضا بإعلان شجوب العملية التي بها حدّدت أوروبا الإستعمارية نفسها في معارضة الآخرين لها. فلن تصدر المحكمة الأروبية حكما مثله. وبكونه واعيا عن هذا الأمر أصبح مصطفى سعيد ساكتا في المحكمة.

عندما كان مصطفى سعيد يقوم في المحكمة منتظرا قضاء الحكم عليه كان يشاهد الذين حضروا حوله ورأى بعينه ليس هو الوحيد يقوم في قفص المتهم في المحكمة ولكن السودان والإفريقيا كلها تقوم هناك، وكذلك وجد كلّ البريطانيا والأوربا تجلس على مقعد القضاة. في هذا الحين سخر مصطفى سعيد الكنسل الدفاعي البريطاني والقضاة الإنجليزيين ورسم أمامهم أنهم ليسوا بمستحقين للمحاكمة عليه وعلى السودان وعلى إفريقيا. إتهم مصطفى سعيد أن أوربا وألغرب هو الذي قاد السودان وإفريقيا والبلاد العربية كلها إلى حالة إجراء الجريمة التي إرتكبها في لندن في مستواه الشخصي. كان ينظر إلى القضاة الإنجليزيين متهمين بالجريمة لأنهم بذروا بذرة الحقد والإنتقام في نفسه وفي نفس العرب وإفريقيا الذي يمثله، وأصبحت هذه البذرات أن تنفجر من قشورها وتنمي وتزهر وتبوح رائحتها السميّة وتثمر وتوّنح هذه الثمار التي تحمل في جوفها لبّا من السموم والمخاطر وانتشرت هذه الألباب في الأراضي العالميّة. وأصبحت هذه المخاطر وباءا وكارثة. فإذن ليس هو الذي يعاقب هنا، ولكن الأوروبيين والإنجليزيين هم الذين إرتكبوا الجريمة وهم الذين مستحقين للمعاقبة. وقال "إنني أسمع في هذه المحكمة صليل سيوف الرومان في قرطاجة²، وقعقة سنابك خيل النبي³ وهي تطأ أرض القدس.

(1) Tayeb Sallih Ideology and craft of fiction, Wail Hasan, P: 109- 110

(2) سلسلة من ثلاث حروب دارت بين روما وقرطاج من 264 ق . م إلى 146 ق . م. وعلى الأرجح كانت أكبر الحروب التي وقعت في ذلك الوقت.

(3) إدموند هنري هاينمان أنبي كان ضابطا وإداريا بريطانيا، اشتهر بدوره في الحرب العالمية الأولى حيث إستولى على فلسطين وسوريا عامي 1917 و1918.

البواخر مخرت عرض النيل أوّل مرّة تحمل المدافع لا الخبز، وسكك الحديد أنشئت أصلا لنقل الجنود. وقد أنشؤوا المدارس ليعلمونا كيف نقول نعم بلغتهم. إنهم جلبوا إلينا جرثومة العنف الأوربي الأكبر الذي لم يشهد العالم مثيله من قبل في السوم وفي فردان¹، جرثومة مرض فتّك أصابهم منذ أكثر من ألف عام. نعم يا سادتي، أنني جئتكم غازيا في عقر داركم. قطرة من السم الذي حقنتم به شرايين التاريخ"².

يذكر مصطفى سعيد عن الحروب المختلفة التي وقعت بين القوّات الإستعماريّة الأوروبيّة واستعمارها على البلاد المختلفة خلال تاريخ الإستعمار. وجدّير بالذكر هنا أنّ القرطاجيّين إنّما كانوا في الواقع أحفادا للكنعانيّين الذين هاجروا واستقروا في شمال إفريقيا والذين يسمّوهم الأوروبيّون بالفينيقيّين. حينما دخل النبي إلى القدس عام 1917 أعلن "اليوم إنتهت الحروب الصليبيّة" ولكن بدأت هناك الحروب الصهيونيّة. وأمّا الحرب في السوم بين فرنسا وحلفائها وبين الألمانيا في عام 1916 تعتبر من أكثر المعارك دموية في التاريخ، والحرب في فردون كانت من أطول المعارك وأشدّها شراسة في التاريخ. وهاتين الحربين هما مثال صارخ على العنف الأوربي الأهوّج. كان مصطفى سعيد يبوح في نفسه إنّ فعله الغزو في البرطانيا ما هو إلّا نتيجة حتميّة للعنف الأوربي الذي تراكم عبر التاريخ. وجدّير بالذكر هنا أنّ مصطفى سعيد وصل في لندن في عام 1916 حينما يجري هذه الحروب. "الذاكرة الجماعيّة واللاشعور الجماعي لكلّ عربيّ يحمل عن العنف الأوربي صور إحراق قرطاجة على يد الرومانيّين وما تلاه من إستعمار ألف عام للعرق السامي إلى أن حرّره العرب طول شواطئ المتوسط. مثلما يحمل ذكرى مائتي عام من تدمير الحضارة العربيّة على يد الصليبيّين؛ ولم يمض أربع مائة عام حتّى بدأ الإستعمار البريطاني والفرنسي للأراضي العربيّة ولم ينسحب هذا الإستعمار حتّى خلف سمّ

(1) كانتا من أكبر معارك الحرب العالميّة الأولى حدثت في عام 1916 بين القوّات الألمانيّة وقوّات الحلفاء.

(2) موسم الهجرة إلى الشمال، الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 104

الهجرة الصهيونية على الأرض العربية وراح يسعى ليمكن اليهود من رقاب العرب، ويمنع الوحدة العربية بكلّ ثمن وأيّ ثمن¹.

أصبح مصطفى سعيد صامتا في المحكمة ودعم لسكوته

بإشارته إلى حادثة تاريخية في تاريخ السودان في فترة الإستعمار البريطاني. "حين جيئ لكشنر بمحمود ودّ أحمد وهو يرسف في الأغلال بعد أن هزمه في موقعة عتبرا، قال له: لماذا جئت بلدي تخرب وتتهب؟ الدخيل هو الذي قال ذلك لصاحب الأرض، وصاحب الأرض طأطا رأسه ولم يقل شيئا. فل يكن ذلك شأنى معهم"². وهذه الأقوال تشير إلى غلبة القوة المصرية الإنجليزية تحت قيادة هربرت كشنر على قوة عبد الله التعايشي في السودان في موقعة عتبرا في أبريل عام 1898. وفي هذا المقطع يصوّر الروائيّ عن عجرفة المستعمر الدخيل التي بلغت مداها أن يعتبر نفسه صاحب الحقّ وصاحب الأرض. مثلما صمت محمود ود أحمد أين أرض السودان أمام إستجوابات كشنر الإنجليزي الدخيل إلى بلده، صار مصطفى سعيد أيضا صامتا أمام المحلفين في المحكمة الإنجليزية مع أنّه كان يريد أن يصرخ أمامهم كلّ ما في نفسه من الفكر والمشاعر. جعل الروائي الطبيب صالح الأمير السوداني محمود ود أحمد الجريء والشجاع صامتا ومطاطئا رأسه أمام تساؤلات كشنر الدخيل. لأنه رأى هذه التساؤل مثل - "لماذا جئت بلدي تخرب وتتهب؟" - ليس بسمتّع لردوده. ولكن وجد هذه الأسئلة سخريّة فاستبدل الإجابة بالصمت البليغ والطاطأة الساخرة. هنا أراد مصطفى سعيد أن يلعب دور كشنر مع محمود ود أحمد "فليكن ذلك شأنى معهم". وجد مصطفى سعيد الحلفاء البريطانيين في المحكمة صاحبي الأرض الأوربية والنساء البريطانيّات اللاتي إنتحرن وقتلن على أيده متهمين. ووجد نفسه غازيا ومستعمرا في الأرض البريطانيّة. "و أنا فوق كلّ شيء مستعمر. إنني الدخيل الذي يجب أن يبتّ في أمره"³. فكان يرجو أن يحكم عليه المشقة والإعدام ولكنه لم يستطع أن يحقق أمنيّته. ولكنه وجد

¹ الطبيب صالح عبقريّ الرواية العربية.

² موسم الهجرة إلى الشمال، الأعمال الكاملة الطبيب صالح، ص - 103

³ موسم الهجرة إلى الشمال، ص - 103

المحلفين - "الذين لو أنني طلبت إستئجار غرفة في بيت أحدهم فأغلب الظن أنه سيرفض، وإذا جاءت ابنة أحدهم تقول له إنني سألتزوج هذا الرجل الإفريقي، فيحسّ حتما بأنّ العالم ينهار تحت رجليه"¹ - كلّ واحد منهم في هذه المحكمة يسمو على نفسه لأول مرة في حياته لأنهم حكموا على هذا الرجل الإفريقي المجرم الذي قتل إحدى بناتهم وانتحر ثلاث بناتهم بسببه سبع سنوات من السجن وأخلصوه من جبل المشتقة. وهكذا سموا كلهم على نفسه. ولكنهم على رأيه كانوا يحرّمونه من النهاية التي يريدّها "نهاية العزاة الفاتحين" واكتفوا بالحكم عليه سبع سنوات سجن مثلما حرّموا محمود وّد أحمد من قبل من رجائه من الشهادة وأرسلوه أسيرا إلى المنصورة في المصر وظلّ في الأسر إلى أن توفي سنة 1956.

ومن القول أنّ المغامرات الجنسية التي أجراها مصطفى سعيد في لندن كانت حربا ونضالا على رأس الإستعمار والمستعمرين إنتقاما منهم لآلاف الذين فقدوا أرواحهم في موقعة أنبرا وموقعة كروي وموقعة أبا والحروب في فلسطين وغيرها من الحروب في مختلف بلاد العربيّة والإفريقيّة التي خاض فيها أهلها مع الإنجليز والأوروبيّ. وهذا النضال ليس نضال بين دين وآخر، كما أنّه ليس حرب بين جنس وجنس آخر أو بين مدينة وأخرى أو بين الشرق والغرب، بل هو كفاح مجتمع مظلوم ضدّ المجتمع الذي أوقع عليه الظلم والنل والإحتقار، وثورة مجتمع مقهور ضدّ السيطرة والاستغلال الذي كان عرضا لهم حتّى اليوم.

محصولات الإستعمار

ومما لا شكّ فيه أنّ سلبّيات الإستعمار أكبر بكثير من إيجابيّات الإستعمار. فمن مساوئ الإستعمار إستغلاله لخيرات البلاد الإقتصاديّة

⁽¹⁾ المصدر السابق.

والإجتماعية. جرى سلب منظم لثروات البلاد المستعمرة وتدمير تراثها الحضاري والثقافي وفرض ثقافة الإستعمار باعتبارها الثقافة الوحيدة القادرة على نقل البلاد المستعمرة إلى مرحلة الحضارة. ولهذا الغرض أنشأ السمتعمرون مدارسهم في البلاد المحتلة وطبقوا التعليم على المنهج الدراسي في لغتهم وحاولوا أشدّ المحاولة لمحو لغات الناس الأصلية. قبلًا كان في السودان الخلوة التي تدرس فيها القرآن والأمور الدينية والقراءة والكتابة. وعندما قدم الإستعمار الأوروبي أنشؤوا مدارس جديدة ولكنّ السودانيون لم يرغبوا في إرسال أبنائهم إليها. لأنهم كانوا يرون هذه المدارس والتعليم الإنجليزي عدوهم القاتل الذي جاء مع الإستعمار "يقول الروائيّ على لسان مصطفى سعيد بطل الرواية "كان ذلك الوقت أوّل عهدنا بالمدارس. أذكر الآن الناس كانوا غير راغبين فيها. كانت الحكومة تبعث أعوانها يجوبون البلاد والأحياء، فيخفي الناس أبنائهم. كانوا يظنونها شرًا عظيمًا جاءهم مع جيوش الإحتلال"¹. إجتهد الإستعمار أن يمزق أوصال الناس وإفساد ضمائرهم وأفكارهم وإنكار حقوقهم ورفض أحلامهم ونفي مستقبلهم. كبت الإستعمار حريّات الناس ونهب أموالهم التي كسبوها بعرقهم ودمائهم واستغلت البلاد المستعمرة هذه الأموال في تحسين أحوالهم وتحديث أسلحتهم لأن يرموها على أنفس هؤلاء الناس من مستعمراتهم. وقد أخفت هذه البلاد المستعمرة شراكها وراء مشروعاتها الإصلاحية والتطورية. طبعًا وقد أوجد الإستعمار الغربي أحدث التسهيلات في مجال الفنون والتكنولوجي والتعليمي في البلاد المحتلة. ولكنّ هذه التسهيلات كانت تهدف إلى إصلاح أحوالهم فقط.

ومن الصعب القول عن إيجابيّات الإستعمار. وكان لبعض أنماط الإستعمار فوائدًا ونوافعا في المجالات المختلفة خاصّة في مجالات التعليم والثقافة والأعمال المعماريّة والبنائية، لكنها لم تكن لأهداف نبيلة أو لخدمة مواطني هذه الدول المحتلة، ولكنها كانت لأجل مصلحة الإستعمار واستمرار بقاء سيطرته وإستيلائه وتملكه على الأراضي المحتلة. وإلى هذه الحقيقة يشير الطيب صالح على لسان مصطفى

⁽¹⁾ موسم الهجرة إلى الشمال، الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 30

سعيد إلى الحقائق "البواخر مخرت عرض النيل أول مرة تحمل المدافع لا الخبز، وسكك الحديد أنشئت أصلاً لنقل الجنود. وقد أنشئوا المدارس ليعلمونا كيف نقول "نعم" بلغتهم"¹. في هذه السطور يظهر الطيب صالح عن الأعمال البنائية المعمارية التي جرت من قبل الإنجليز في البلاد الأجنبية التي إحتلوا عليها وعن أهدافهم وراء هذه الأعمال. كانت هذه الأعمال البنائية في صالح البريطانيا ليس في صالح السودان وأبنائه. وكان هذا حال كل البلاد التي احتلت فيها بريطانيا وكل القوات الإستعمارية الأوروبية. وقد جاء الإنجليز بالبواخر الحديثة إلى السودان ومخرت هذه البواخر عرض النيل، ولم يكن هذا لتسهيل سفر الناس أو لأن يجلبوا إليهم الأطعمة والشراب وأن يزودوها بين أبناء الوطن، ولكنهم جاءوا بالبواخر لحمل المدافع والأسلحة الحديثة فيها لتظلم بها الأناس الأصليين وأن يهاجموا على أبنائهم وأمّهاتهم وبناتهم وأخيراً ليسخروا أرضهم كلها. وكذلك بنوا سكك الحديد وجاءوا بالقطار، وهذا لم يكن لتيسير ذهاب الناس وإيابهم، وخروجهم ورجوعهم ولكنه كان مبنياً لنقل الجنود والجيش لتشييد قوات الإستعمار على هذه البلاد. وبنوا المدارس الفاخرة الشائقة الحديثة بالأحجار اللامعة وزينوها بالحدائق والأشجار والأزهار، وأنشئوا فناء واسعة وعلموا أبناء الوطن المواد العلمية والعملية الحديثة، وعلموهم اللغة الإنجليزية وجعلوهم ماهرين ونابعين في تكلمها واستخدامها في حياتهم وجعلوهم مزودين بالعلوم والفنون واللغات. فلم يكن هدفهم به إلا إزدياد عبقرياتهم الذهنية والعلمية وأن يستفيدوا بهذه العبقرية لصالحهم ولصالح وطنهم الكبير وإجابة أبناء الوطن أو أبناء المستعمرين 'بنعم' فقط لأسئلة ساداتهم البريطانيين وأوامرهم. وجعلوهم مقرّين وموافقين ومطيعين على أية أوامر البريطانيين 'بنعم' ولم يستطع لهم أن يرفضوها في حالة الرفض ب 'لا'. مال رؤسهم إيجابياً في كل أمورهم وأوامرهم بدون نظر هل هي صالحة لهم أم فاسدة.

يوضّح الروائي الطيب صالح خلال هذه الرواية موسم

الهجرة إلى الشمال مساويئ الإستعمار ومنتجاته في البيئة الشخصية والإجتماعية والثقافية

⁽¹⁾ موسم الهجرة إلى الشمال، ص - 104

في البلاد التي أصبحت مستعمرات تحت نفوذ القوّات الكولونياية. يبيّن فيها عن التعليم الكولونيالي ووظائفه التي حصل عليها الأبناء المستعمرون في ذلك الوقت. يبيّن ذلك الأمر على لسان المأمور المتقاعد حينما قال للراوي عن زميله مصطفى سعيد في المدرسة الابتدائية. "وعلى أيّامنا كانت اللغة الإنكليزية هي مفتاح المستقبل- لا تقوم لأحد قائمة بدونها. كلية غردون كانت مدرسة إبتدائية كانوا يعطونها من العلم ما يكفي فقط لملء الوظائف الحكوميّة الصغرى- أوّل ما تخرّجت، إشتغلت محاسبا في مركز الفاشر. وبعد جهد جهيد قبلوا أن أجلس لإمتحان الإدارة. وقضيت ثلاثين عاما نائب مأمور. قبل أن أحال على المعاش بعامين إثنين فقط رقيت مأمورا. كان مفتش المركز الإنكليزي إلها يتصرّف في رقعة أكبر من الجزر البريطانية كلّها، يسكن في قصر طويل عريض مملوء بالخدم ومحاط بالجند. وكانوا يتصرّفون كالآلهة. يسخروننا نحن الموظفين الصغار أولاد البلد لجلب العوائد، ويتذمّر الناس منا ويشكون إلى المفتش الإنكليزي. وكان المفتش الإنكليزي طبعاً هو الذي يغفر ويرحم. هكذا غرسوا في قلوب الناس بغضنا، نحن أبناء الولد، وحبّهم هم المستعمرون الدخلاء"¹.

في هذه الفقرة يبيّن لنا الطيب صالح كيف كانت سياسة البريطانيين المستعمرين الأقوياء في مستعمراتهم، وكيف كان مكرهم في جعل المثقفين المستعمرين عبادا لسياستهم وكيف جعلوهم مكينة تتحرّك حسب إرشاداتهم. كانوا يهدفون إلى أن يتحقّقوا بأهدافهم المخبئة وراء الستار المشوّه في تعليم أبناء البلاد وتزويدهم بالتعليم الحديث. أبدلوا اللغة العربيّة في المناهج التعليمية في المدارس ووضعوا اللغة الإنكليزية في مكانها وكانوا يريدون بها أن يجعل المتعلّمين من مستعمراتهم ليتحرّكوا ألسنتهم إيجابيا بنعم لمطلوباتهم وأوامرهم. وكذلك حينما عيّنوا المثقف المستعمر في وطنهم في منصب الوظائف أجلسوهم في الدرجة السفلى ووهبوا المناصب الأعلى للأشخاص من مجموعاتهم. وكذلك يبيّن الروائي كيف مكر الإنجليز مكرًا في نبت البغض والكره والعنف في نفوس عامّة الناس

⁽¹⁾ موسم الهجرة إلى الشمال، الأعمال الكاملة، الطيب صالح، ص - 63

عندما أرسلوا الموظفين من البلد ليجلبوا العوائد الباهظة منهم. فهذا السبب أخذ أبناء الوطن أن يكرهوا وأن يتنمروا تجاه إخوانهم في وطنهم. هذا النوع من المكر كان من سياسات القوّات الإستعماريّة؛ أن تفرّق الشعب والإخوان بعضهم ببعض لتحقيق أهدافهم وأغراضهم الرابحة الهائلة. فالمستعمر نهب خيرات البلد وزرع البغض بين الأهل، ولم يكتف بذلك وإنما سعى إلى نشر ثقافته وفرض قيمه وذلك من خلال نشر لغته التي تشكل وعاء لهذه القيم وهذه الثقافة.

أسست الإدارة الإستعماريّة في مستعمراتها مؤسسات تعليميّة وغرست هذه المعاهد معرفة تتناقض إرث هذه البلاد المستعمرة التاريخي وتتأفر مع ثقافات مجتمعها. وكان هذا التعليم الإستعماري سطحيًا في أساليبها وأدواتها. غرس الصراع بين الطوائف والجماعات. وكان هذا التعليم يهدف إلى تحقيق الأغراض الإستعماريّة التي تتمثل في توفير الوظائفنيّة والكثائيّة والفنيّة وكان هؤلاء المتعلمين يعزّلون عن الدور القيادي المستقبلي الذي سوف يؤدّي إلى نشاطاتهم الفعاليّة لرفعة أوطانهم. وإلى هذه الحقيقة يشير قول الطبيب صالح على لسان مأمور المتقاعد " كلية غردون كانت مدرسة ابتدائية كانوا يعطونها من العلم ما يكفي فقط لملء الوظائف الحكوميّة الصغرى".

كان الإنجليز ينظر إلى مصطفى سعيد رجلا إفريقيا نبيلا الذي يمكن لهم أن يصوغوه في قالب إنجليزيّ ليساهمهم في تجهيز وطنهم أكثر مجهزا. فأصبح مصطفى سعيد رجلا إنكليزيا في ذواقه، في آرائه، في أخلاقه، وفي ثقافته. وجدوه مثل عطيل الذي يخدم وطنهم ويحتمي أرضهم. وفي هذه الفرصة يجدر بنا الذكر عن أقوال مصطفى سعيد عن إلتحاقه بالمدرسة الكولونيلالية في السودان. جاء إليه رجل إنجليزيّ وعرض عليه الفكرة عن إلتحاقه بالمدرسة. فلما رأى مصطفى سعيد الطفل البرنيطة أو الةبعة على رأس هذا الموظف تعجّب به. فوضعه الرجل على رأس الولد "فغاب وجهه كله فيها". فغياة وجه الإفريقي داخل البرنيطة الإنجليزيّة ترمز إلى أنّ الرسالة التعليميّة

الكولونيلالية تهدف إلى غيابة الثقافة الأصلية في جوف الثقافة الدخيلة وجعل المستوطنين أن يمتصوا ويعتقدوا في القيم والنظم التي عينتها لهم هذه الرسالة التعليمية وهدم الهوية الأصلية بدون العثور على جذورها وأصولها.

ويقال أن مصطفى سعيد حصل على وطنية بريطانية ولعب دورا هاما في مشروعية الإستعمار البريطاني في السودان. كان داعما إيجابيا للبريطانيين في السودان حتى أرسله المكتب الأجنبي البريطاني في رسالات مربية إلى البلاد الشرقية الوسطى. هكذا يصبح المثقف الكولونيلي ابنا مدلا لدى القوات الإستعمارية. ولم يكن في وسعة أية قوة إستعمارية أن تسيطر على البلاد الأجنبية الواسعة الشاسعة مثل السودان والهند إلا بمساعدة هؤلاء المثقفين بالثقافة الكولونيلية. إستخدمتهم الوزارة الخارجية البريطانية جاسوسا لهم. يشير الروائي إلى هذه الحقيقة حينما يقول عن مصطفى سعيد على لسان الرجل الإنكليزي الذي كان يعمل في الوزارة المالية "أنه (مصطفى سعيد) قام بدور خطير في مؤامرات الإنكليز في السودان في أواخر الثلاثينات. أنه من أخلص أعوانهم. وقد إستخدمته وزارة الخارجية البريطانية في سفارات مربية في الشرق الأوسط. وكان من سكرتيري المؤتمر الذي انعقد في لندن 1936¹.

وعندما يسمح الإستعمار مصطفى سعيد لإرتقائه إلى مركز عالي ولسموه إلى منصب مرتفع في المجتمع البريطاني وأن يصعد إلى أدرج عالية في الوظيفة حتى تعيينه محاضرا في إحدى جامعاتها وعندما زوجوا له إحدى بناتها، فكان يحاول الإنكليز أن يسيطر سيطرة كاملة على هذا المثقف بثقافتهم الإنكليزية الحديثة. وكان الإنكليز يدّعي حقه في تعيين إنسانية هؤلاء المثقفين أمثال مصطفى سعيد وأخلاقهم وهم كانوا يدّعون أن شرف تثقيف هؤلاء المستعمرين وإحالتهم من حالة بربرية همجية إلى حالة الثقافة العالية يردّ إلى نحن الأوروبيين المستعمرين. فبذلك أراد الإنكليز أن يبرح بوحه عن

⁽¹⁾ موسم الهجرة إلى الشمال، الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 65

مصطفى سعيد "أنظروا كم نحن متساحمون ومتحرّرون! هذا الرجل الإفريقي كأته واحد منا!
أنه تزوّج إبنتنا ويعمل معنا على قدوة المساواة"¹.

ولقد إحتكرت القوّات الإستعماريّة على المجال الإقتصادي في البلاد التي إحتلت عليها مثلما أصبح السودان ومصر حقولا لإنتاج القطن للصناعات الأوروبيّة. وسيطر الإستعمار على فكر أبناء الوطن، واحتقر أصولهم وتقاليدهم ورأى التخلف والجهل إنتشر في بلدهم في الحال الهنيئ ورأى مكانة الثقافة الإستعماريّة نقطة إنطلاق في تطوّر حياة هؤلاء أهل المستعمرات. وكان التعليم حقلا لإنتاج السيطرة الغربيّة على المستعمرات حتى إستمرّ نفوذ هذا الإستعمار والكولونيالية على البلاد ومستعمرات البلاد الأوروبيّة - البريطانيّات وفرنسا وهولندا وألمانيا وغيرها التي إستعمرت واحتلت على البلاد في القارة الإفريقيّة وآسيا - حتى بعد إستقلالها الوطني من برائين مخاليب هذه القوّات الإستعماريّة.

⁽¹⁾ موسم الهجرة على الشمال، ص - 65

الطيب صالح و"موسم الهجرة إلى الشمال"

مشاعر العرب ضد الإستعمار كما تظهر فيها

دراسة نقدية

أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها

قدّمتها

حسينة. ب

تحت إشراف

بروفسور الدكتور أحمد إبراهيم رحمة الله

الرئيس السابق (المتقاعد)

قسم اللغة العربية بجامعة كاليكوت



قسم اللغة العربية

جامعة كاليكوت

كيرلا ، الهند

2012م

الفصل الرابع

المواجهة بين الجنوب والشمال ١ الشرق والغرب

قضية المواجهة بين الشرق والغرب والمصادمة بين الحضارات ليست بقضية جديدة حدثت في العالم الحديث. ولكنها كانت جارية في العصور الجاهلية بين العرب والإغريق وبين العرب والروم والبيزنطيين وبين العرب والفرس. وما زالت هذه المواجهة بين الحضارات بعد ظهور الإسلام وعصور الخلافة الراشدين وفي الفترة الأموية والعباسية وفي وقت انتشار الدولة العثمانية وخاصة في القرن الخامس عشر والسادس عشر. وقد تبينت صدى هذه المواجهة في مختلف مجالات الحياة في كلتا الحضارتين؛ في الفن والأدب والعلم والموسيقى وغيرها.

بعد الفترات اتسعت دائرة هذه المقابلة وتحولت إلى مصادمة حضارية ودينية. وبدأ المسلمون والمسيحيون يعتبرون بعضهم البعض خطراً حقيقياً الذي يهدد هويتهم الدينية والثقافية. وكان هذا منذ احتلال إسبانيا على يد العرب في العام 711م في القرن الثامن، وكذلك منذ الحملات الصليبية التي بدأت من أواخر القرن الحادي عشر حتى الثالث عشر (1096-1291). "الحروب الصليبية بمزاجها وفظائعها نشرت مشاعر الكراهية بين الشرق والغرب وبين المسلمين والمسيحيين واليهود. رغم أن الحروب الصليبية كان المسؤول عنها الكنيسة الكاثوليكية اللاتينية، لكن ارتباطها بالمسيحية والصليب كان له أثراً بعيداً على المسيحيين في الشرق الأوسط الذين لقوا أنفسهم محشورين بين نار في حرب ما لهم يد فيها. الحروب الصليبية خلقت شكوكاً بين المسلمين والمسيحيين في الشرق الأوسط واستغلها المتعصبون الدينيون واليمين المتطرف في الغرب لنشر مشاعر الكراهية بين الطرفين. قبل الحروب الصليبية، المسيحيون في الشرق الأوسط ما كانوا يعانون من إضطهادات حقيقية من جهة الحكام المسلمين وكان هناك

مسيحيون كثيرون يشتغلون في مراكز عاليه وحساسة في الدولة، وكانت فيه علاقات بين المنطقة الإسلامية والبيزنطيين المسيحيين وكانت فيه حركة تجاريه والدارسون كانوا ينتقلون في الناحيتين بحريه. الحروب الصليبيه خربت هذه العلاقات كلها¹. أما المواجهة بين الحضارتين الغربيه والشرقيه قد بدأت في العصر الحديث بعد إحتلال الإفرنج على مصر عام 1798م. ومنذ هذه الحادثة بدأ إحتلال الغرب إلى الشرق في نطاق واسع. وتركت هذه الفتوحات والإحتلال من قبل فرنسا والبريطانيا على البلاد الشرقيه والغربيه آثارها الإيجابية والسلبية.

أنتجت هذه المواجهة في هذه الفترة نتائج كثيرة في مجالات الثقافة واللغة والفنون والأمور الإجتماعية والعلم والتكنولوجي وبدأت بعثات علمية للطلاب؛ وبدأ الطلاب في البلاد الشرقيه والغربيه والجنوبيه السفر إلى البلاد الغربيه أو الشماليه الأوروبيه لأهداف دراسية. وبهذه الوسيله إستطاع البريطانيا وفرنسا وغيرها من البلاد الغربيه الإستعمارية أن توسع نطاقها في الإحتلال وفي النفوذ على البلاد الشرقيه. وفي ذلك الوقت نفسه علمت القوات الإستعمارية هؤلاء طلاب العلم واللغة تحت نفوذهم وحاولوا أن يصوغوا عقلهم وفكرهم في قالب عقلهم وفكرهم. يقول آمي إلاد بوسكيلا في هذا الصدد "لم يكن هذا الأمر تناقضا لأنّ المثقفين العرب ورجال الدولة لا يتميرون بين الغزو العسكري والسياسي. وهم يؤكدون أن الغزو الثقافي على البلدان العربيه من قبل الغرب له عواقب وخيمة بعيدة على البلدان العربيه. وهذه العواقب وتدخل الإحتلال الغربي التدريجي قد قادت إلى حصول تحول من موقف ساذج بسيط إلى زيادة الشكوك والعداء"².

وقد تناول عدد من الأدباء العربي هذا الموضوع؛ الصراع أو المواجهة بين الثقافتين وأظهروه في مستوى مختلفه في إبداعاتهم الأدبية. وقد كانت هذه القضية محورا يدور حوله روايات كثيرة لعدد من الروائيين. سافر أكثر من

⁽¹⁾ حروب صليبيه www.qrz.wikipedia.org/wiki/حروب_صليبيه

⁽²⁾ Voices of Exiles. A study of Al – Tayyib Salih and his work, Ami Elad Bouskila, P: 156

هؤلاء الأدباء إلى البلاد الغربية للحصول على دراستهم العليا وكتبوا الشعر والروايات والقصص والمنتوجات الأدبية المختلفة وهم يظهرون فيها إنطباعاتهم وتجاربهم وفكرهم في البلاد الغربية وبيّنوا هذه الأفكار خلال أبطالهم الخيالي الذين سافروا إلى البلاد الغربية والشمالية. مثلاً نرى هذه الفكرة في كتاب طه حسين 'الأديب' (1935). سافر طه حسين إلى فرنسا للحصول على التعليم الجامعي وكذلك ذهب الكاتب المسرحي المصري توفيق الحكيم أيضاً إلى فرنسا وعالج هذا الموضوع في روايته 'عصفور من الشرق'. وكذلك هناك كاتب القصة المصري يحيى حقي الذي تعلم في إنجلترا وتناول هذا الموضوع في روايته 'قنديل أم هاشم'.

ومن البارز أن هذه المؤلفات الأدبية عموماً تشارك في حبكتها المركزية؛ هناك بطل هو رجل من الشرق وامرأة من الغرب. والبطل يقع في صراع مع المرأة الغربية. وربما نتيجة لهذه المصارعة العنيفة تنتج خيبة الأمل واليأس في نفس البطل الشرقي كما حدث في رواية 'عصفور من الشرق' لتوفيق الحكيم. بطل هذه الرواية محسن هو طالب مصري في فرنسا ويقع في الحب مع فتاة فرنسية، سوزن. وله صديق فرنسي - أندري - وهو يدعو محسن 'عصفورا من الشرق' عندما كان يتمتع جمال تمثال أوروبي مبلاً بالمطر دون مظلة. ويؤكد أندري بشرقية محسن عندما يأكل التمر في الباريس الوسطى. ويبين الفراغ الثقافي بينهما عندما يقول محسن لآندري أنه لم يعط لسوسن الورد والعطور رمزا لحبه معها لأنه يقيم الحب أكثر من المادة المادية والجسدية، فيجيب أندري هذه الفكرة فلسفة شرقية. ولكن صداقتهما تنسى هذه الاختلافات. ولكن عندما يقع محسن في الحب مع سوسن تنهض الاختلافات الثقافية بالبيان الأكثر. سوزن هي امرأة عملية واقعية، ولها وظيفة في وكالة السفر. أما محسن هو عاشق مع نزاع تملكي واقتناعي. عندما كسرت سوزن حبه مع محسن أعطت البغاء - التي أعطاها محسن رمزا لحبه لها - لزميلتها وتعتق وتفتر من العلاقة الحبيبة مع محسن. فإذا يدرك محسن إن الأوربا هي طفل جميل وذكي ولكنها خالية من القيم وهي أنانية ولا تنظر إلا إلى أمورها وإلى عبودية الآخرين. وتبين

الرواية أنه من الممكن أن تتقابل الثقافتين وأن تصوغ علاقة قصيرة بينهما ولكن هذه العلاقة غير دوّامة ولا منتجة من النتائج الحسنة. لأن محسن عندما يقابل مع ثقافة أخرى خلال سوزن يجترب توترا ويشعر قلقا أكثر في سوزن وفي أوربا.

أما إسماعيل بطل الرواية 'قنديل أم هاشم، ليحيى حقي، يغادر مصر ويستمرّ دراسته العليا في الطب في لندن. وهناك يقابل 'ماري' التي تخرجه من قيمه الشرقية وعدم فعاليته وكسله ويدخله إلى قيم غربية وإلى الحياة المملوءة من الفعاليّة وثقة النفس. كان إسماعيل ينظر إلى إعتقداته ودينه عمادا له لأن يميل عليه في أوقات الصراع، أما ماري كانت ترى الدين والإعتقدات حدودا لحريتها. كانت تحبّ الحرية على مستوى أكثر عندما كان إسماعيل يخاف الحرية الكاملة. تضغط ماري على إسماعيل لأن يترك مشاعره وعواطفه الشرقية المنفرة لأنها في رأيها غير واقعيّة وغير منتجة وتسأله أن يبدلها ببدل من العلم والطبيعة.

يعتبر النقاد المشهورون هذه الرواية موسم الهجرة إلى الشمال نقطة تحويّلية مهمّة في تطوّر الرواية التي تتركز على المواجهة بين الشمال والجنوب أو الشرق والغرب. يقول الكاتب السوداني أحمد عبد المعطي حجازي "تستطيع أن نعتبر موسم الهجرة إلى الشمال تجسيدا لتلك العلاقة المتوتّرة بيننا وبين الغرب. هذا التوتر الذي يمكن التغلب عليه عند بعض الروائيين من خلال الإتصال الثقافي أو بانتصار التوازن الإنسانيّة المشتركة كالحبّ مثلا، ويستحيل التغلب عليه عند بعض الآخر لأنّ الشرق شرق والغرب غرب، أو لأنّ تاريخ العلاقة بينهما هو تاريخ العنف الدموي الذي لا ينتهي إلّا بأن يقهر أحدهما الآخر، كما نرى في موسم الهجرة إلى الشمال"¹. والرواية تصوّر ألمانا كيف تواجه الشعوب الجديدة العائشة بين الحضارتين - حضارتهم الأصليّة والحضارة الدخيلة إليهم جديدا - هذا الصراع وكيف تعالجها وتتصرف فيها، ما هو الوسيلة لمعالجة هذه

⁽¹⁾ موسم الهجرة إلى الشمال، أحمد عبد المعطي حجازي، الطبيب صالح دراسات نقدية، الدكتور حسن أبشر الطبيب، ص- 201

المشكلة. هل يتركون ماضيهم كله ويستسلمون للحضارة الجديدة وتمصّها إلى داخلها وتذوب فيها وتقلدها تقليدا كاملا، أم الشعوب تترك ماضيها وترفض الحضارة الغربية وتتخذ موقفا ثالثا يختلف من الموقفين السابقين، فإذن ما هو الموقف الجديد.

مواجهة عنيفة بين الحضارتين

يقول الطيب صالح عن فكرته في هذه الرواية "عندما كنت أفكر عن كتابة هذه الرواية، كنت أفكر عن العلاقة الوهمية بين عالمنا العربي الإسلامي والثقافة الأوروبية. رأيت في قراناتي ودراساتي أنّ هذه العلاقة أسست على الأوهام من جانبنا وجانبهم. الأوهام في منظورنا التي تتعلق بهم والأوهام التي تتصل بعلاقتنا بهم والأوهام المتعلقة بنظرتهم عنا. فرضت الأوربا ثقافتهم علينا وأصبحت جزءا من تركيبنا الثقافي والنفسي إن نحبّها أو لم نحبّها". فقد تناول عدد من الأدباء هذه القضية في منتوجاتهم الأدبية، فإذن ما هو الميزة عند الطيب صالح في تناوله هذه القضية وما هو الفرق بينه وبين الأدباء الآخرين. يقول آمي إلاد بوسكيلا في هذا الصدد "في تلك الروايات كانت المواجهة رومانطيقية. أمّا الرسالة في موسم الهجرة إلى الشمال واضحة: هي ليست تحطيم الشكل الرومانسي فقط، ولكنها المواجهة القاسية والحادة المباشرة بين الثقافتين وممثليهما أيضا. وعلاوة على ذلك الجانب الآخر من هذا اللقاء بين الثقافتين هو الفشل في الوصول إلى حلّ توفيقيّ بين الحداثة (الغرب) والتقليد (الشرق) كما كان الحال بين مصطفى سعيد والفتيات الغربيّة، وكذلك الإتصال بين حسنة وودّ الرئيس الذي إنتهى في الموت"¹. هذه هي وجهة واحدة وضعها الروائي الطيب صالح في هذه الرواية في قضية المقابلة بين الحضارتين بين الجنوب والشمال. وهذا النوع من المقابلة حدثت في فترة الإستعمار الأوروبي في البلاد الشرقية والجنوبية. وهو من الجيل المغمور من تجارب مآسي الإستعمار في البلدان المختلفة. يبيّن الطيب صالح خلال مصطفى سعيد أنّ المقابلة بين الحضارتين لم

⁽¹⁾ Voices of Exiles. A Study of Al – Tayyib Salih and his work, Ami Elad Bouskila, P: 168

تجري في مجرى هادئة، ولكنّ نهايتها مأساوية كما حدثت بين مصطفى سعيد والنساء البريطانيّات، وكما حدث بين عالمين من داخله.

وقد أتى الطبيب صالح في هذه الرواية بوجهتين أو بنظرتين مختلفتين عن المواجهة بين الحضارات خلال شخصيتين؛ مصطفى سعيد والراوي. يؤكد الطبيب صالح خلال مصطفى سعيد أنّ الثقافة البريطانية غربية وأجنبية للسودان ولأهله. وهذه الثقافة غير متوافقة وهي متضاربة بخصوصيّات التاريخيّة والإجتماعيّة والدينيّة والثقافيّة السورانيّة. وفي هذا الاعتبار يأتي الطبيب صالح بهذه الرواية موسم الهجرة إلى الشمال ردّاً فعلا على تاريخ الإستعمار البريطاني المرّ وسيطرته الثقافي. وهذه الوجهة هي التي طبقها الروائيّ خلال مصطفى سعيد. مصطفى سعيد كان مثنائما عن الإستعمار الأوروبي وكان ممزقا بين الحضارتين. عندما كان في أوروبا حاول أن يفرق كله في نهر الثقافة الغربيّة. وأسّس علاقة مع الغرب في أصل العلاقة بين المستعمر والمستعمر وكانت نهاية هذه العلاقة أو المواجهة بين حضارته والحضارة الغربيّة مأساوية التي قادت طرفا وحدا إلى نهايته كما حدث في أمر قنّيات البريطانيّات.

وبعد خيبته من الأمل عاد إلى الخرطوم إلى وطنه السودان وحاول أن يعيش هناك عيشة هادئة واشتغل بالتجارة وحاول أن يتصل بالمجتمع السودانيّ وبأساليبها. ولكن عندما وجد نفسه غير مطمئنة سافر إلى قرية مغمورة على شاطئ النيل وهكذا وصل إلى قرية الراوي. إختار هذه القرية موقعا لأن يتخلص من القلق والذعر والصراع في قلبه وأراد أن يتخلّى من الحضارة الغربيّة وإغرائها. وكان يظنّ أنّ هذه القرية خالية من نفوذ الثقافات الأوروبية الحديثة ويرى هذه الرحلة محاولة للهروب أو لقهر غرابته وأجنبيّته في داخله. وعلى سطح حياته بدا مصطفى سعيد مناسبا بالحياة في القرية ودّ حامد في السودان الشماليّ وتعايشه مع أهل القرية. بنى بيتا ومزرعة في القرية وتزوّج بنتا سودانية وأنجب منها ولدين وأصبح مزارعا ماهرا وأعان أهل القرية في تقدّم القرية في

مجال الزراعة وفي تأسيس مشروع الزراعة وفي المجال الإقتصادي. أصبح مصطفى سعيد عضواً في هذا المشروع وأهداها بإشارات وتعليقاته وأعانهم على تأسيس نظاماً إقتصادياً مركزاً على الربح بدون إستغلال الناس. وهكذا عاش بين أهل القرية عيشة تليق مع عيشهم في السطح.

ولكن كان مصطفى سعيد يعيش بين أهل القرية كابحاً إنجليزيته. ولذلك بنى غرفة في بيته في القرية؛ الغرفة التي تمثل عالماً غربياً. ولم يستطع أن يفتر نفسه من الرجل 'الإنجليزي الأسود'. وكان يعيش في القرية بين الهويّتين؛ الهويّة التي سترها وراء باب هذه الغرفة السريّة في بيته، والهويّة التي عرضها أمام أهل القرية كمزارع وزوج وأب. فالهويّة الأولى كانت متناقضة تماماً بالهويّة الثانية. جمع كلّ ذكريّاته عن الغرب في هذه الغرفة السريّة في بيته في القرية الإفريقية. وأقام في هذه الغرفة مكتبة التي كانت معظم كتبها في اللغة الإنجليزيّة ولم تكن تشتمل أيّ كتاب في اللغة العربيّة. وكانت هذه الغرفة تتكلم وتبرز كلّ الظواهر في العالم الإنجليزي، حيث أنّ أرضيّة الغرفة كانت مغطاة بأبسطة فارسيّة، وكانت تشتمل "من مدفأة إنكليزيّة بكامل هيئتها وعدّتها، فوقها مظلة من النحاس وأمامها مربع مبلط بالرخام الأخضر ورفّ المدفأة من رخام أزرق وعلى جانبي المدفأة كرسيّان فيكتوريان مكسوّان بقماش من الحرير المشجر بينهما منضدة مستديرة عليها كتب ودفاتر¹. كان يعيش هناك في هذه الغرفة مع تصويّرات آن همند وإسبلا سيمور وشيلا غرينود وجين مورس. وهكذا بنى في نفسه عالماً مصغّراً من لندن واحتفظ كلّ ذكريّاته فيها. تتشابه هذه الغرفة بالغرفة التي بناها في الغرب التي بدت عالماً شرقياً مفعمة بصور شرقية في عالم غربيّ.

وما زال مصطفى سعيد مستعبداً ومستمرّاً في التشبث بسلسلته في الحياة الماضية في الغرب. يقرأ الشعر الإنكليزي باللهجة الإنجليزيّة الجميلة في

⁽¹⁾ موسم الهجرة إلى الشمال، الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 143

حالة السكر، وفي النوم ينادي إسم جين مورس حتى بدا أنه كان هاجسا بذكرى تلك الحياة في حالة لاوعيه. وأصبح مختلطا بين العالمين العربي والغربي وأصبح ممزقا بين الثقافتين. حاول أن يكبح ماضيه وأن يتركها إلى ما وراء ذكرياته، ولكنه لم يستطع أن ينجح في هذه المحاولة. وهي واضحة في الرسالة التي كتبها للراوي، تدل أقواله فيها أنه لم يمكن أن ينسى الأحداث التي حدثت في أيامه الماضية ولم يستطع أن يرتاح حياته في القرية السودانية كما أراد من قبل "لا جدوى من خداع النفس. ذلك النداء البعيد لا يزال يتردد في أذني. وقد ظننت أن حياتي وزواجي هنا سيسكتانه". وأظهر رجاءه ورغبته للراوي أن لا تكون حياة إبنه مثل حياته ورغب في نشأة إبنه "مشبعين بهواء هذا البلد وروائح وألوانه وتاريخه ووجوه أهله وذكريات فيضانه وحصاداته وزراعاته"¹. وسأله أيضا أن يجنب إبنه من السفر ومن الهجرة وأن يبعدهما من الصراع الذي أحسّ أبوهما. أحسّ مصطفى سعيد أن يهجر القرية وعائلته حيث أنه لم يستطع أن يصل إلى هدفه إذ كانت حياته في القرية أيضا مبنية على أكذوبة أخرى. وعندما أراد أن يقصّ قصته للراوي حاول أن يفكك هذه البناء من الأكاذيب التي تحيط حوله. يقول شعره الذي كتبها على رغبته في الخلاص من هذه الأكذوبات.

"عربدت في الصدر آهات الحزين

ودموع القلب فاضت من تباريح السنين

ورياح عصفت بالحب والحقد الدفين

وبقايا صلوات ضمّها الصمت العميق

هينمات ودعاء ونواح وزعيق

وغبار ودخان غم للساري الطريق

ونفوس مطمئنات وأخرى هلعة

وجباه صاغرات وأخرى..."².

⁽¹⁾ موسم الهجرة إلى الشمال، الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 76

⁽²⁾ المصدر السابق، ص - 16-161

وهكذا عندما أصبح ممزقا بين العالمين أراد أن يترك هذه الحياة المبنية من الأكاذيب والصراع. ولذلك أحس أن الانتحار هو الطريقة لأن يتخلص من هذه الأكذوبات. "الانتحار هو هرب من الأكاذيب. وهو رحلة إلى المجهول وهو رمز المنفى؛ تركة الإستعمار، المنفى التي ليس منها الرجوع"¹. كتب مصطفى سعيد في رسالته للراوي "إنني لا أدري أيّ العاملين أكثر أنانيّة، بقائي أم ذهابي"². كان يحسّ الصراع بين الأمرين؛ الأمر الذي يعرفه منطقيا أي الحياة في القرية، وبين الأمر الذي يحسّه في قلبه إجباريا أي الانتحار. واختار الأمر المجر لأن يصبح صريحا لنفسه وأن يترك خيانتها. ولذلك أجبر الراوي لأن يخبر إبنه عن أبيهما وعن حياته التي كانت مملووة بالأوهام حتى ذلك الوقت. ولكن عندما ترك حياته في القرية وعندما عرض حقيقة حياته على الراوي وعندما سمح له أن يفتح أبواب الحقيقة للعالم، فتبرأ مصطفى سعيد من الأوهام والأكذوبات التي كانت حياته في القرية مبنية عليها.

أهدى مصطفى سعيد إهداء في قصّة حياته هكذا "إلى الذين يرون بعين واحدة ويتكلمون بلسان واحد ويرون الأشياء إمّا سوداء أو بياضاء إمّا شرقية أو غربية"³. وهذه الإهداء تشير أنّ مصطفى سعيد لم يوافق على حياة الإنسان ممترجا بالحضارتين ولا يستطيع لأحد أن يعيش في تلك الحالة كما يدلّ حياته. ولم يتمكن لمصطفى سعيد أن يكمل هذه القصّة بكونه هجينا من الحضارتين ولم يتمكن أن يرى الأشياء ويكتب عنها لأنّه كان يتكلم بلسانين وكان يرى الأشياء سوداء وبياضاء في نفس الوقت.

تعايش بين الحضارتين

وهناك في هذه الرواية محاولة لإستعادة الهوية الأصلية إلى الكمال على الرغم من الإضرار التي لحقت من خلال الإتصال الاستعماري بغضّ النظر

⁽¹⁾ Tayib Salih: Ideology and craft of fiction, Wail Hasan, P: 112

⁽²⁾ موسم الهجرة إلى الشمال، الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 76

⁽³⁾ المصدر السابق، ص - 151

عن نجاح محاولة من هذا القبيل. يبين الطيب صالح هذه المحاولة خلال البطل الثاني في الرواية 'الراوي'. قضى الراوي سبع سنوات في أوربا وكان متفانًا بحياته. كان له علاقة متينة بينه وبين جدّه منذ طفولته. وكان لجدّه مكانا مرموقا عنده، وهو الذي إختار مستقبل الراوي في دراسته وفي أمر زواجه فيما بعد. ونتيجة لذلك تابع دراسته في مدرسة علمانية في السودان وبعد ذلك سافر إلى لندن وحصل على شهادة الدكتوراة في الأدب الإنجليزي من جامعة بريطانية. كان يلتصق شديدا بتقاليده في البلد الأجنبي ويرى جدّه - الذي كان رمزا لتقاليد القرية - في أحلامه حينما بعد حين.

يبيّن الطيب صالح خلال هذه الشخصية أنّ النفس المفتوحة أو الموقف المفتوح نحو الحضارات سوف تسوّي المشكلات بينها. يقول الطيب صالح "إن العلاقة بيننا وبين أوربا ليست علاقة رومانسية كما عالجها الأدب العربي من قبل، بل هي علاقة رومانسية على الصراع بين حضارتين مختلفتين، وهذا لا يعني أنه قد كتب علينا أن نظلّ نصارع أوربا إلى الأبد. فإذا بدلوا من جانبهم مجهودا وإذا نحن أيضا فهمنا من نحن، وأين مكاننا في العالم، إستطعنا الوصول إلى حلّ هذه القضية".

يحاول الراوي في الرواية أن يردم الفجوة بين ثقافته الشرقية والثقافة الغربية. وهو يشير أنّ كلتا الثقافتين لهما ميزات قويّة وعيوب واضحة. وهو يقول للذين سألوه عن أوربا وأهلها بعد عودته من أوربا "أنّ الأوروبيين إذا استثنينا فوارق ضئيلة، مثلنا تماما، يتزوجون ويربون أولادهم حسب التقاليد والأصول، ولهم أخلاق حسنة، وهم عموما قوم طيّبون... نعم بينهم مزارعون وبينهم كلّ شيء. منهم العامل والطبيب والمزارع والمعلم، مثلنا تماما. يولدون ويموتون وفي الرحلة من المهد إلى اللحد يحملون أحلاما بعضها يصدق وبعضها يخيب. يخافون من المجهول، وينشدون الحبّ ويبحثون عن الطمأنينة في الزوج والولد. فيهم أقوياء، وبينهم مستضعفون، بعضهم أعطتهم الحياة أكثر ممّا

يستحقّ، وبعضهم حرّمته الحياة. لكنّ الفروق تضيق وأغلب الضمغاء لم يعودو ضعفاء¹. وهكذا حاول الراوي أن يبني جسرا بين حضارته والحضارة الغربية.

عندما كان يعود إلى بلده كان يحسّ بعض التوتر والشكوك عن إندماجه إلى أصله وجذوره ولكنه يصل إلى حالة الإطمئنان حينما يرى جذه وعرفته التي قضى فيها ترهات طفولته وشبابه والنخل الذي يقيم في فناء داره. "نظرت خلال النافذة إلى النخلة القائمة في فناء دارنا، فعلمت أنّ الحياة لا تزال بخير أنظر إلى جذعها القويّ المعتدل وإلى عروقها الضاربة في الأرض. وإلى الجريد الأخضر المنهمل فوق قائمتها فأحسّ بالطمأنينة. أحسّ أنّي لست ريشة في مهبّ الريح. ولكنني مثل تلك النخلة مخلوق له أصل، له جذور له هدف"². وهكذا بينما كان يحاول أن يشيد الطمأنينة في نفسه قال مصطفى سعيد الذي مثله قضى فترة من حياته في لندن. وحينما سمع منه قصته في البلد الغربيّ، فرأى الراوي بعض المشابهة بينهما. ومنذ ذلك الوقت أحسّ الراوي أنّه يقلت من أصوله وجذوره في وطنه الذي حاول أن يشيدها في نفسه. وعندما سمع أيضا عن نهاية مصطفى سعيد المأساوية أصبح هاجسا وتسلّت إليه مشاعرا من الخوف والإضطراب وتبحّرت الأفكار السوداء في نفسه. أحسّ بعض الزلل في إعتقاده عن رسوخ أصوله في داخله وإستقرار حياته في بلده. لأنّه أيضا كان متأثرا بالمقابلة الحضارية بين البريطانيا والسودان ولكنه في أوّل الوقت لم يسمح نفسه أن تقرّر على هذه الحقيقة. وخلال إكتشافاته بحياة مصطفى سعيد فقط هو يدرك تماما عن طبيعة المقابلة بين الحضارتين والتوتّر بين السودان والقوّة الإستعمارية السابقة. ولكنه حاول أن يطمئنّ هويته فيه بعد أن أصبح خائفا "هل كان من المحتمل أن يحدث لي ما حدث لمصطفى سعيد؟ قال إنّهُ اكذوبة؟ فهل أنا أيضا

⁽¹⁾ موسم الهجرة إلى الشمال، الأعمال الكاملة الطبيب صالح، ص - 13

⁽²⁾ المصدر السابق، ص - 12

أكذوبة؟ إنني من هنا. أليست هذه حقيقة كافية؟ لقد عشت معهم على السطح، لا أحتهم ولا أكرههم¹.

وتأكد في نفسه متعمداً أن الاتصال بالحضارة الغربية

لا يسمّ حاضره ومستقبله أو حاضر بلده ومستقبله. واعتقد أن الإستعمار في بلده سوف يقضي في يوم ما والسودانيون سوف يبنون السودان على أيديهم، وليس هناك أي غلط في إستعمال اللغة الإنجليزية والآثار الإيجابية بدخول المستعمرين إلى بلدهم والوطن العربي كله. "وكونهم جاءوا إلى ديارنا، لا أدري لماذا، هل معنى ذلك أننا نسّم حاضرننا ومستقبلنا، أنهم سيخرجون من بلادنا إن عاجلاً أو آجلاً، كما خرج قوم كثيرون عبر التاريخ من بلاد كثيرة. سكك الحديد، والبواخر، والمستشفيات والمصانع، والمدارس، ستكون لنا، وستحدث لغتهم، دون إحساس بالذنب ولا إحساس بالجميل. سنكون كما نحن، قوم عاديون"². وهذه الأقوال تشير إلى أن الراوي ليس له أية علاقة جميلة ولا حقيقية وإنتقامية نحو البريطانيا واستعمارها.

ينظر الراوي إلى الإستعمار حادثة تاريخية عادية

تمضي كما جئت دون أن تعني توتراً وفقاً على المستوى الشخصي والإجتماعي. وهو يترك أن الإستعمار البريطاني في بلده وفي البلاد الأخرى له آثاره الإيجابية والسلبية. وأدرك جيداً إن الإستعماريين يسخرون أهله وثقافته ويكثرون مشاعر الإزدراء للإنسان السوداني عموماً والإنسان الإفريقي والعربي والشرقي على وجه الخصوص لأنهم كانوا ساداتهم لفترة من الزمن وكان أهله عباداً لهم. "الرجل الأبيض، لمجرد أنه حكمنا في حقبة من تاريخنا، سيظلّ أمداً طويلاً يحسّ نحننا بإحساس الإحتقار الذي يحسّه القويّ تجاه الضعيف"³. ولكنه كان يعتقد أنه ليس من الخير أن يلتصق على فترة الإستعمار في السودان

⁽¹⁾ المصدر السابق، ص - 58

⁽²⁾ موسم الهجرة إلى الشمال، الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 59

⁽³⁾ المصدر السابق

ولكن لا بدّ أن يركّز على مستقبل بلده وتطوّره في الأيام القادمة. لأنه كان يستمدّ التوتّر من أحداث السودان الداخلية والخارجية الحالية.

يبين الطيب صالح موقفه في مقابلة الشرق والغرب أو الشمال والجنوب خلال شخصية الراوي، وينصح لإتخاذ الخير من كلتي الثقافتين وأن يترك السيئة منهما. يعتقد الراوي أن التعليم الإنجليزي له فوائد كثيرة في شتى المجال في الحياة، ويدرك أن في الثقافة الغربية هناك بعض الفوائد والنتائج التي سوف يتخذها الثقافة الشرقية، ولكن مع شرط، وذلك أن السودان والعرب والشرق ينبغي أن يتمسّكوا على قواعدهم ولا ينحرفوا عنها، وأن يكونوا حسبما يريد الشرق ولا حسبما يريد الغرب. وهو يؤكّد أن القواعد الثقافية الشرقية والسودانية وأساليبها ستستمر ولا يستطيع الإنجليز أن يتدخّل إليها. يقول الراوي في هذا الصدد حينما يبين عن جدّه "نحن بمقاييس العالم الصناعي الأوربي، فلاحون فقراء، ولكنني حين أعانق جدّي، أحس بالغنى، كأني نعمة من دقات قلب الكون نفسه. أنه ليس شجرة سنديان شامخة وارفة الفروع في أرض مئّت عليها الطبيعة بالماء والخصب، ولكنه كشجيرات السيل في صحارى السودان، سميكة اللحي حادة الأشواك، تقهر الموت لأنها لا تسرف في الحياة"¹. وبهذا القول يتفائل الراوي عن أبناء وطنه أنهم قوم ثابتون في أحوالهم ومستقرّون ومتمسّكون بنمط حياتهم ولا يستطيع لأية قوة عكسيّة أو القوّات الإستعماريّة الأوروبيّة أن تقلعهم من جذورهم وأصلهم. وهم مثل النبات التي تنمي في المطر وفي حماة القبط بدون تعفن وذباله وجذورها راسخة تحت الأرض ولا يستطيع لأية هبة من الهواء أن تقتلعها من أصولها وجذورها.

ولكنّ تفائله هذا لم يطل لأيام حتّى سمع خبر زواج ودّ الرئيس الرجل العجوز من حسنة بنت محمود أرملة مصطفى سعيد الذي رغبت أن تستمرّ حياتها لأولاده فقط. وبالنسبة إلى هذا الخبر لم يتمكن الراوي أن يوافق على تقاليد قريته

⁽¹⁾ موسم الهجرة إلى الشمال، الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 73

وقواعدها البالية التي ترى النساء مجرد متاع لمتعة شهوات الجنسيّة للرجال في بلده. وحينما سمع عن تمرّد حسنة على هذا الزواج المجرّ قتلًا ودّ الرئيس وقتل نفسها، وحينما وجد أهل القرية يرون هذه المرأة التي تمرّدت على التقاليد القديمة مجنونة وشيطانيّة أصبح الرجل غضبانا وأحسّ فجوة عميقة بينه وبين قريته. وقد أدرك أنّ مصطفى سعيد ومقابلته معه وقصصه وتجاربه هي التي أدّت إلى هذه الحالة من التوتر والقلق. فاتّجه عنيفا إلى غرفة مصطفى سعيد السريّة وأصرّ في نفسه أن يحرق هذه الغرفة وذكريّات مصطفى سعيد كلّها.

أصبح الراوي إنسانا غير مخلصا في ثقافته وهويّته في بلده. لم يمكن أن يتساجم الطريقة القديمة بالطريقة الجديدة وهو الآن مزاج من الجنسين. فيجب عليه أن يكتشف صوته ومكانه وفخره بين الثقافتين المختلفتين. وهكذا عندما ضاع بصره كلّ في حياته وحينما لم يستطع أن يجيب إجابة لقلقه وتوتره فاتّجه إلى قوّة جارية تحوّل دائم التي يراها أمامه. تلك القوّة هي نهر النيل القويّ التي تفيض وتجري بالقوّة في حياة الناس في القرية. هنا يمثل النيل حالة السيل والتغيير والاستمرار والتجديد وكذلك هو رمز إلى الفناء والخراب كما حدث في أمر مصطفى سعيد. وأكثر من ذلك إنّ النيل تربط إفريقيا الجنوبيّة بأوروبا الشماليّة. ينفجر النيل من قلب إفريقيا لأنّ تلتحق بالبحر المتوسط الذي يقع فيها الأوربا. في هذا الحال ينزل الراوي في النهر ويقول "أنا في منتصف النهر طريق بين الشمال والجنوب. لن أستطيع المضي ولن أستطيع العودة. إنقلبت على ظهري وظللت ساكنا أحرك ذراعي وساقاي بصعوبة بالقدر الذي يبقيني على السطح"¹. "كنت أرى أمامي نصف دائرة. ثم أصبحت بين العمى والبصر. كنت أعى ولا أعى. هل أنا نائم أم يقظان؟ أنا حيّ أم ميت"². هذا صورة رمزيّة رسمها الروائي الطيب صالح في مواجهة بين حضارتي الجنوب والشمال وفي مواجهة بين الحياة والموت. يقوم الراوي بين الحياة والموت وبين الشرق والغرب وكان النهر نفسه في الحال مابين؛ النهر ليس ممثّلا بالمياه كأيام

⁽¹⁾ موسم الهجرة إلى الشمال، الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 175-176

⁽²⁾ الصدر السابق، ص - 175

الفيضان وليس قليل من المياه كأيام التحريق، فالنيل مثل الراوي الذي هو ليس غريب عن القرية ولا هو مثبت فيها. وهي صورة إنسان الذي يواجه عددا من العقود والمشكلات والأزمات المختلفة المتعارضة. الإنسان الذي يقوم بين العالمين؛ الإنسان بين لندن والسودان والإنسان الذي يعيش عيشة بين الهويتين المختلفتين. وهذه الحالة يجعل الإنسان في الأزمة وهذا الصراع بين الهويتين يصبح عميقا وضارعا ويصبح الإنسان مضطربا وضاعطا حتى يبلغ في حافة الجنون.

عندما يسبح الراوي في النهر إلى الشمال يصبح جسمه غير محرّكا ولا يستطيع أن يتقدّم إلى الأمام (إلى الشمال) أو أن يدبر إلى الوراء (إلى الجنوب). هذه هي حالة من الصراع الشديد. وعلى الراوي أن يختار بين هاتين الجهتين. "كنت أحسّ بقوة النهر الهذامة تشدني إلى أسفل وبالتّيار يدفعني إلى الشاطئ الجنوبي في زاوية منحنية. لن أستطيع أن أحفظ توازني مدّة طويلة. إن عاجلا أو آجلا ستشدني قوى النهر إلى القاعة"¹. عليه أن يختار إحدى الجهتين أو سيشده قوى النهر إلى قاعتها. "نزل الراوي رمزيّا في النهر في لحظة من التوازن على عكس مصطفى الذي دخل أثناء الفيضانات، وليس في فترة الجفاف، علاوة من ذلك نزل مصطفى سعيد إلى الماء في الليل عندما تحدث الكوارث، أمّا الراوي نزل إلى النهر عند الفجر عندما ينفجر اليوم وتطلع الشمس وتحدث الأحداث الطيبة، ليس مأساويّا مثل مصطفى سعيد، وليس كفعل من اليأس مثله سعيد ولكن كفعل من الأمل والكفاح"².

إختار الراوي الحياة بعد إدراكه أن كلّ عالمه قد هدم وهو خارج المكان فرديّا وجماعيّا. وقد كان معه تأثير الهجرة كلّ الوقت ولكنّه حاول أن يخفيها. وقد واجه كثيرا من التحدّيات لأن يجعل توازنا إنسجاميا بين الثقافتين. تقول جنة رودريغس بيتان كورت في دراستها التحليلية عن موسم الهجرة إلى الشمال "قضايا مثل تلك

(1) موسم الهجرة إلى الشمال، الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 176

(2) Voices of Exiles. A study Al- Tayyib Salih and his work, Ami Elad Bouskila, p: 108

التي تواجهها أفندي (الراوي) لابدّ من مواجهتها وحلّها. الرحلة هي بالتأكيد ليست بسيطة، وهي لا تنتهي أبداً. ولكنّ هذه القضية هي إحدى من الملتزمات التي يجب مواجهتها على الجميع الذين يعانون من الشتات. هذا أمر يدركه أفندي ومليون من المهاجرين الآخرين في جميع أنحاء العالم ويجب عليهم مواجهتها. يرتبك المهاجرون دائماً مثل الراوي بين عالمين - عالم مملوء بالإختلافات الثقافية واللغوية والدينية، والعديد من الاختلافات الأخرى المعقدة. إنها مثل حياة شخصين في جسد واحد. الناس الذين يهاجرون أو يترحلّون، يعانون تجربة مختلفة، وتجارب مماثلة، وهم مرتبطين برحلة داخلية مشتركة التي يسترجعون فيها إلى جذورهم، وشعبهم وأرضهم، وقبل كلّ شيء يجب عليهم أن ينظروا نظرة عميقة إلى داخل ذاتهم الفرديّة التي تقودها الهجرة إلى صراع ضارب بين الوعي وعدم الوعي¹. وهذا الوعي وعدم الوعي هو الذي يهدّد الراوي للغرق في الماء. عندما أحسّ في تلك الآونة أنه سيخضع إلى قوّة النهر الهدّامة، فисحب نفسه جميعاً ويعود إلى وعيه. في تلك النقطة يظهر أمامه نظرة ظاهرة، ويختار في الماء قراراً عن حياته، القرار الأوّل الذي إتخذه أوّل مرة في حياته. إتخذ القرار على أن يستمرّ حياته ولا أن يخضع للحياة أو لمكشاكل الحياة، يقول "كان ذهني قد صفى حينئذ، وتحدّدت علاقتي بالنهر، إنني طاف فوق الماء ولكنني لست جزءاً منه. فكرت إذا أنتي متّ في تلك اللحظة، فإنني أكون قد متّ كما ولدت، دون إرادتي. طول حياتي لم أختر ولم أقرّر. إنني أقرّر الآن أنني أختار الحياة. سأحيا لأنّ ثمة أناس قليلين أحبّ أن أبقى معهم أطول وقت ممكن ولأنّ عليّ واجبات يجب أن أؤديها لا يعنيني إن كان للحياة معنى أو لم يكن لها معنى. وإذا كنت لا أستطيع أن أغفر فسأحاول أن أنسى. سأحيا الحياة بالقوّة والمكر"². فلأن أصبح الراوي كأنه ولد ثانياً، والآن هو جاهز لأن يلعب دوراً فعّالاً في مجتمعه. وفتح ورقة جديدة في حياته لأن يكتب على ورقاتها البيضاء

The complexities of migration in Season of migration to the north, Jenneth Rodriguez Betancourt. P: 11

(1)

(2) موسم الهجرة إلى الشمال، الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 86-87

الصادفة سطرّات لا تكتب حتى الآن، عاد إلى الحياة لأنّ هناك ثمار يجب أن تقطف، وكتب كثيرة تقرأ، وصفحات بيضاء في سجل العمر، سيكتب فيها جملا واضحة بخط جريئ.

كان الراوي يطفو في ماء نهر النيل وكأنه يقول للقراء أنه تخلص من النهاية التي إنتهى بها مصطفى سعيد مختفيا في مياه النيل. هنا إختطّ الراوي مصيره مغائرا مصير مصطفى سعيد الذي إختفى إلى الأبد، ليخلف وراءه مصيرا غامضا لا يزال مصدر سؤال وتساؤل إلى مالا نهاية. أدرك الراوي أن أصله في السودان وفي قريته قوي ولا يستطيع لأي هواء شديد لأن يقلعه منه وعرف أن القرية وأهلها لبّ حياته ليس في الماضي فقط، ولكن في الحاضر والمستقبل. وأراد أن يربطه بالقرية حينما فهم أن القرية فيها الإثبات والأمن والهدوء والسكون.

عندما بان الثلج الذي أظلم بصر الراوي، فلم يترك ما تعلّمه وناله من الغرب. إختار الجنوب فاختار الحياة. يشير الشمال إلى حياة بلا جذور، والحياة بلا جذور تساوي الموت. وأدرك عليه أن يذهب إلى الأمام وأن يعمل وأن ينشط في الحياة في مستقبله ومستقبل أهل قريته. ولهذا العمل يجب عليه أن يكون مستعدّا لترك الطرق القديمة. وهنا جدير بالذكر أن مصطفى سعيد ربّما فهم من قبل أن الراوي يستطيع أن يتحمّل التعايش بين القديم والجديد ولذلك عيّنه وصيًا على إبنيه وزوجته. وفهم جيّدًا أنه لا يمكن أن يكون أبا جيّدًا لأبنائه بسبب أخطائه في الحياة الماضية وبكونه متشبّثًا إلى ما هو خسرت قبضته عليه.

يشير هذا الإتجاه إلى نصحة الروائي الطيب صالح لاتخاذ موقفا من التوسط حيث أن المثقفين والمتعلّمين يمكنهم إستخدام ثروة التعليم الغربي بدون ترك هويّتهم الأصليّة. ويحذر الروائي عن الوفاء أو الولاء الكامل إلى ثقافة واحدة لأنّ كليهما غير كامل. وهذا الموقف نفسه إتخذه الروائي في حياته الشخصية. وهو عاش في أوروبا وتزوّج امرأة أوروبية وأصبح موظّفا في أوروبا وزار البلاد العربية والغربيّة دائما

وسكن في البيئة الغربية حتى أواخر أيامه. ومع ذلك كان يفضل وطنه السودان وثقافته ولغته كثيرا، ولذلك اختار اللغة العربية أن يكتب فيها منتوجاته الأدبية قائما في بيئة أوروبية غريبة. كان يريد القول أنه على الرغم من الأثر السلبي عموما على الهوية الأصلية بسبب التواصل الثقافي، فمن الممكن على الإنسان إنعاش هذه الهوية أو الإستعادة إليها. وليس مجرد الاندماج إلى الجديد أو العودة إلى القديم هو العلاج يعالج به الهوية الأصلية في أعقاب إتصالها بالإستعمار، بل العلاج هو الرؤية الجديدة التي تقرّ التغيير والسعي التجاوزي لتحقيق الاندماج إلى ثقافته الأصلية.

الفصل الخامس

الثقافة مابعد الإستعمار

يكشف الطيب صالح في هذه الرواية عن آثار الإستعمار وأبعاده الإجتماعية والثقافية والفكرية والسياسية في واقع السودان الراهن. تصوّر الرواية تصويراً لواقع إجتماعي سوداني وإفريقي. تدور أحداث الرواية في الريف السوداني وتسلط الضوء على أساسيات التركيبيّة الإجتماعية العربية. يبين الروائي كيف أصبحت الأمور والأوضاع في القرية ودّ حامد نتيجة للإستعمار البريطاني وكذلك نتيجة للنظام الأبوي المحلي أو التحكم الأبوي في السودان وفي البلاد الإفريقية والعربية آنذاك. يبرز الكاتب أنّ الإرث الإستعماري لا يزال يماثل في السودان السياسي والإجتماعي والثقافي بعد إستقلالها من مخالب الإستعمار البريطاني، والإستعمار لا يزال يسيطر على عقول مثقفي السودانيّين فهو لا يزال يتحكم في مسار السودان.

كان أهل القرية يتمسكون بنماذج الحياة الماضية وقواعدها بعد إستقلالها من قبضة مخالب الإستعمار الإنجليزي. وفي هذا النظام كان الحكم والسيطرة في كلّ المجالات تحت نفوذ الرجال وكان لهم الحقّ في إتخاذ القرار والقضاء في كلّ الأمور المتعلقة بالحياة الإنسانية. وهذا النظام المسيطر من الرجال كان يعتبر النساء متاعاً يستطيع الرجل أن يحركها حسب حاجاته ورغباته. وكان هذا المجتمع الذكوري يعلي من شأن الرجل ويجعل له الحقّ في أخذ زمام الأمور والمبادرة، وما على المرأة إلّا الطاعة والتنفيد، وليس لها حقّ في إبداء الرأي أو الإعتراض حتّى ولو كان الأمر يخصّ بحياتها، وكان يسخر المرأة إلى الأعمال العنقويّة الجسدية. ولهذا الغرض أعوج الرجل الدروسات الإسلامية والآيات القرآنية وتحققوا رغباتهم وأهوائهم كما أخذ ودّ الرئيس الآيات القرآنية دليلاً في زواجه الكثير من النساء وطلاقه لهنّ حسب رغبته.

كان المجتمع السوداني يحتفلون بختان المرأة عامة كما كانوا يختنون الرجال. ويقول التاريخ كان هذا التقليد سائدا في المجتمع المصري الفرعوني. وكان المجتمع في القرية ود حامد السودانية يرون هذه التقاليد قاعدة وعلامة من الهيئة الاجتماعية الموروثة وكانوا يرون النساء غير المختونات غير مطهرات. تقول بنت مجذوب المرأة في السبعين للراوي الذي عاد من الأوربا حاليا "خفنا أن تعود إلينا بنصرانية غلفاء" أي بأوروبية غير مختونة. تقول الكاتبة إلين إسماعيل "كان أغلب الفتيات في السودان الشمالي يتم ختانهن وهن في السابع من العمر. يلعب الأقارب والأصدقاء والجيران جميعهم دورا نشيطا في هذا الإحتفال. في يوم العملية الجراحية للختان تهدي البنت بالهدايا من الثياب الجديدة، وهي ترتدي الخواتم والأساور الذهبية، وتصبح معطرة بعطر قوي ومزينة بالحناء. تدعى البنت هذا اليوم باسم 'العروسة' تلميحا لإتصالها مع الزواج ودورها المتوقع كزوجة في المستقبل"¹.

كان ودّ الرئيس يشناق إلى النساء الأجنيّات ويحبهن أكثر حيث كان يظنّ أنّ هؤلاء النساء ذات أكثر متعة وذوق في الأمور الجنسيّة. وإلى ذلك يشير قوله إلى بنت مجذوب "دعك من بنات البلد يا بنت مجذوب. النسوان البرانيات، هؤلاء هنّ النساء"². قال ودّ الرئيس هذه الأقوال لبنت مجذوب عندما قالته "حريم النصاري لا يعرفن لهذا الشيء (الجنس) كما تعرف له بنات البلد. نساء غلف، الحكاية عندهنّ كشرب الماء. بنت البلد تعمل الدلّة والدخان والريحة وتلبس الفركة والقرمصيص... عندما ترقّد، فالرجل الماعنده همة يصبح له همة"³. وبهذا القول تدعم بنت مجذوب ختان البنات في القرية وهي تقول إنّ من الحسن أن يجري الختان بين البنات لأنه يجعل البنت في الصعب في تذوّق الأعمال الجنسيّة ويجعلها من العسر أن تكون لها النشوة الجنسيّة. فلذلك تركز البنت في العمل الجنسي وفي إرضاء أزواجها. أمّا النساء الأجنيّات غير المختونات يرين الأعمال

(¹) A Look in to Sudanese culture, Ellen Ismail, P: 56

(²) موسم الهجرة إلى الشمال، الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 90

(³) المصدر السابق.

الجنسية بغير جدّ ويشعرنه سهلا مثل شرب الماء. أما ودّ الرئيس وإن كان داعما على التقاليد القروية، فهو لا يوافق على إجراء الختان للبنات. وهو يتخذ موقفا متقدما في هذا الأمر. "قال بكري: الختانة من شروط الإسلام" فقال ودّ الرئيس "أيّ إسلام هذا؟ إسلامك أنت وحاج أحمد، لأنكم لا تعرفون الذي يصلحكم من الذي يضرّكم. الفلانة والمصريون وعرب الشام أليسوا مسلمين مثلنا؟ لكنهم ناس يعرفون الأصول. يتركون نسائهم كما خلقهنّ الله. أما نحن فنجزهنّ كما نجز البهيمة"¹. ولكن أسبابه في إدّعائه على هذا الأمر أسباب أنانية. عارض ودّ الرئيس على الختان بين البنات لأنه كان يعرف أنّ النساء غير المختونات أجذب في الأطماع الجنسيّة.

كانت بنت مجذوب تؤيّد الأعمال القبيحة الفجيعة بين الرجال في المجتمع. وهي إمراة مع صفات ذكورية ويتسابق الرجال والنساء على السواء لسماع حديث هذه المرأة لمافيه من جرأة وعدم تحرّج وخجل. كانت تدخن السجاير وتشرب الخمر وتحلف بالطلاق كأنها رجل. وكانت تشتغل في أكلام الرجال عن الجنس وتبوح تجربتها وآرائها في الأمور الجنسيّة مثل الرجال. قالت لود الرئيس وهي تسخره عندما وقف زواجه من النساء لعامين "ما بالك، لك عامان وأنت مكثف بزوجة واحدة؟ هل ضعفت همتك؟"². وكان المجتمع السوداني ينظر إلى رجل الذي اكتفى بإمراة واحدة في حياته شخصا بلا مزيّات الذكورة والفحولة وكانوا يسخرونه ويمازحونه بعدمه من همّة الرجال. يقول ودّ الرئيس للبكري الرجل المزوّج من إمراة واحدة "ماذا يفهمك أنت في هذه الأمور (الأمور الجنسيّة)؟ أنت وحاج أحمد كلّ واحد منكم إكتفى بإمراة واحدة ولمّا ماتتا وتركناكما لم تجدا الجرأة على الزواج. حاج أحمد هذا طول اليوم في صلاة وتسبيح كأنّ الجنة خلقت وحده. وأنت يا بكري مشغول في جمع المال إلى أن يريحك منه الموت. الله سبحانه حلل الزواج وحلّل الطلاق. وقال ما معناه خذوهنّ بإحسان أو فارقوهنّ بإحسان. وقال في كتابه

(¹) موسم الهجرة إلى الشمال، الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 90 - 91

(²) المصدر السابق، ص - 87

العزیز: النسوان والبنون زينة الحياة الدنيا... مهما يكن، لا توجد لذة أعظم من النكاح"¹.
أنظر كيف يعوّج ودّ الرئيس الآية القرآنية تبريراً على لذته الشهوانية ويقول "النسوان والبنون زينة الحياة الدنيا" بدلاً من الآية القرآنية "الجمال والبنون زينة الحياة الدنيا". ويستمرّ ودّ الرئيس أن يسخر الراوي ويمزحه الذي عاش في لندن سبع سنوات بلا إختلاط بالمرأة "قبيلتكم هذه لا خير فيها. أنتم رجال المرأة الواحدة- ليس فيكم غير عمك عبد الكريم ذلك هو الرجل"². يراه رجلاً لأنه كان مزوجاً من نساء كثيرة ومطلقاً وزانياً أيضاً. وكان موضوع الجنس حكاية يثرثرها الرجال بعضهم ببعض وهم يبيحون تجربتهم في هذا الأمر ويتشاركون فيها. هناك جدّ الرواي وودّ الرئيس وبنت مجذوب وبكري الذين وصلوا في أرذل عمرهم يتكلمون الكلام والحكاية عن زواجهم وعلاقاتهم الجنسية بدون خجل ولا عيب. كان الرجال يتزوجون أكثر النساء حسب رغباتهم ويطلقونهنّ حسب أهوائهم ويبدلون النساء مثلما يبدلون الحمار. كان هذا هو الحال في المجتمع السوداني قبل الإستعمار الأوروبي وبعيد الإستعمار.

وفي هذا المجتمع المتقلد نهضت بنت في القرية ودّ حامد وتجرات أن تعارض على هذه التقاليد والنظم القبيحة نحو النساء، إسمها حسنة بنت محمود. تجرات حسنة على رفض التقاليد الإجتماعية وردّت أذاها بالأذى الأخرى. هذا الرد على الممارسات من المجتمع أو المجتمع الأبوي كان نتيجة للأعمال الفاحشة الفاجرة التي أمسكها المجتمع الذكوري نحو المرأة. أرادت حسنة لأن تضع حدّاً لتخلف بنات جنسها فسعت إلى تحطيم جدار التقاليد الموروثة التي تكبل تحت السودان وتغوص به في لجّات الجهل والتخلف الفكري. رفضت أن تتخذ رجلاً الذي إختاره أبوها ورجال القرية زوجاً لها. وهذا الرفض يشير إلى رفض مبدئ مقبول في المجتمع، المبدأ أن الرجال هم أولياء النساء. والأمر المهم في هذا الرفض من ناحية حسنة هو أنّ هذا الرفض يبذر بذرة لثورة إجتماعية صالحة لتغيير

¹ المصدر السابق، ص - 87-88

² موسم الهجرة إلى الشمال، الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 94

أحوال النساء في المجتمع السوداني. عندما نهضت لأن تثور على القواعد والنظم التقليدية، وعندما رفضت لإطاعة أوامر الرجال المسيطرين في المجتمع فوجدوها مجنونة ورأوها وجميع النسوان مثل أخوات الشيطان. "لعنة الله على النسوان. النسوان أخوات الشياطين"¹.

وكان ودّ الرئيس يرى في حسنة بنت محمود بعضاً من الميزات الأجنبية حيث أنها كانت متأثرة بزوجها مصطفى سعيد الذي عاش في البلد الأجنبي. أصبحت متأثرة به في فكرها ونظراتها في الأمور المختلفة. وجدها ودّ الرئيس تمثيلاً بالعناصر الأجنبية التي كان يريد أن يسيطر عليها؛ تزوّجت حسنة بنت محمود مصطفى سعيد الغريب من بينهم وكانت تتمسك ببعض المعاملات الحديثة في أمر العلاقات الجنسية. ولذلك ربّما كان ودّ الرئيس يريد أن يمتلكها من قبل. يصوّر الروائيّ هذا الظلم من قبل الرجال على النساء صورة لإستعمار آخر؛ أو الإستعمار الذكوري على الإناث. كانت حسنة لم ترد أن تستعمرها أيّ رجل بعد موت زوجها. يمثل الروائي جسمها بأرض أو بلد الذي يريد الرجال المستعمرون أن يسيطروا عليها. لأنّ ودّ الرئيس كان يرى حسنة مثل قطعة أرض يريد أن يمتلكها ثم يتركها بعد الطلاق. رفضت حسنة هذه الفكرة كما يرفض الساكن المحلي إستعمار بلده تحت الآخر. ولكنها كانت تواجه ضغطاً شديداً في نفسها في رفض هذه الفكرة الإستعماريّة. كانت تواجه الضغط من قريتها ومن أسرتها ومن ودّ الرئيس.

لم تحبّ حسنة بنت محمود أرملة مصطفى سعيد أن تتزوج رجلاً آخر بعد إخفاء زوجها من القرية، وكانت تريد أن تربّي إبنيتها في أحسن الحال وأن تخلي حياتها لهما بعد موت زوجها. ولكن الرجال المسيطرين في القرية لم يسمحوا أن تعيش على رغبتها وإرادتها وأجبروها للزواج من رجل آخر. وكان هذا الرجل هو ودّ الرئيس العجوز الذي بلغ في السبعين من عمره، وهو المزوّج من كثير من النساء، وكان يبدل النساء كما يبدل الحمار. "ودّ الرئيس كهؤلاء الناس المغرمين بإقتناء الحمير، الواحد

⁽¹⁾ موسم الهجرة إلى الشمال، ص- 131

منهم لا تعجبه الحمارة إلّا إذا رأى رجلاً آخر راكباً عليها. يراها حينئذ جميلة ويسعى جاهداً لشرائها حتّى ولو دفع فيها أكثر ممّا تستحقّ"¹. وكان يفخر بنفسه قليلاً أنّ وجهه وجه شيخ وقلبه قلب شاب. وكان يسأل كلّ الوقت أرملّة أو ثيباً يصلح له للزواج. فوافق الرجال على أهواء هذا الرجل محاربين على حقوق المرأة وحقوق الأرملّة حسب الشريعة الإسلامية. طالب الشريعة الإسلامية وتجبر الناس لطلب الإذن من البكر والأرملّة في أمر زواجها. أمّا كان فريق التحكم الذكوري في القرية يصحّح حاجة ودّ الرئيس حسب منطقهم؛ كانوا يرون أنّ ودّ الرئيس العجوز الذي بلغ في أرذل العمر لا يعيش أكثر من عام أو عامين. فإذن ستكون لحسنة سهم باهض في أرضه وزرعه الكثير. يقول محبوب عندما سأله الراوي "ماذا يحدث لها إذا تمّ موضوع الزواج المضحك الذي يريده ودّ الرئيس. فقال محبوب ببساطة "هون عليك. حتماً ودّ الرئيس سينشغل بإمرأة أخرى. وعلى أسوأ الفروض تنزوّجه. لا أظنه يعيش أكثر من عام أو عامين. ويكون لها سهم في أرضه وزرعه الكثير"². وفي هذا القول يقصر هؤلاء الرجال هدف الزواج وغايته وعصارته إلى سبيل الحصول على تسهيلات مادية بدون إعتبار بالتفاهم الحسني التوفيق بين الزوج والزوجة.

لم يرى المجتمع أقوال رجالها الكبار جنوبياً أو غربياً أو شاذاً وإن كانت أقوالهم وأفعالهم وممارساتهم جنوبية وغربية وشاذة. وما كانوا يهتمون بأقوال الجيل الجديد المتعلمين. وذلك واضح في أقوال ودّ الرئيس عندما أخبره الراوي برفض حسنة بنت محمود عن عقد زواجها معه وأوضح رغبتها أن تبقى حراً في أمورها، فقال "إنّها ستزوّجني رغم أنفك وأنفها... الكلام الفارغ التي تتعلمونه في المدارس لا يسير عندنا. هذا البلد فيه الرجال قوامون على النساء"³. ويشير زميل الراوي القريب محبوب إلى

(1) موسم الهجرة إلى الشمال، الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 109 - 110

(2) المصدر السابق، ص- 112

(3) المصدر السابق، ص - 106-107

إعتقاد القرية في أمر النساء قائلا له "أنت تعرف نظام الحياة هنا. المرأة للرجل، والرجل رجل حتى لو بلغ أرذل العمر"¹.

أما كانت حسنة بنت محمود تفضل الموت على هذا الزواج مع الشيخ وذ الرئيس، ومن الواضح أنها عزمت هذا العزم بتأثرها بحياتها مع زوجها مصطفى سعيد. وقد رأت فيه - إن كان رجلا غريبا من خارج بلدها - رجلا جديدا خلاف الرجال في بلدها وقريتها واستطاعت أن تفتح كل أبواب حياتها إلى الحرية والمساواة بين الجنس ووجدت عالما أوسع وأعمق من عالمها الضيق والضيئل من قبل. وكانت تتطلع إلى العالم الجديد وتخطو أقدامها إلى الأمام. وبنفس الأسباب رغبت الزواج مع الراوي دون وذ الرئيس. لأنها كانت يرى فيه إمثادا لزوجہ وخاصة عندما سلمه زوجها مصطفى سعيد الوصية بعد موته لرعاية أمورها وإبنها.

ولم يتمكن المجتمع السوداني أو الرجال المحافظين فيه أن يفكروا عن تقدم امرأة نفسها إلى الأمام لطلب عقد زواجها مع من يحبها. أما حسنة بنت محمود تجرأت لأن تذهب إلى جذ الراوي وأن تسأل منه لعقد زواجها من حفيده. كانت هذه التصرفات كلها من حسنة منظرًا غير مريئًا أو مسموعا في قرية وذ حامد حتى الآن. وأصبحت سلوكها سلوكا شائنا في نظر المجتمع. يقول محجوب عن قدومها إلى جذ الراوي لطلب عقد القران بينها وبين الراوي "المرأة هي التي تجرأت وقالت. عشنا وأينا النساء نخطب الرجال"².

ولكن الرجال في القرية أجبروها على الزواج مع وذ الرئيس فوعدت أنها ستقتل العجوز وستقتل نفسها إذا عقد الزواج بينهما. وأخيرا لم تستطع حسنة بنت محمود أن تردّ على أوامر أبها وإخوتها، فقررت أن تنفذ قرارها التي أخذت من

¹ المصطلح السابق، ص - 108
² موسم الهجرة إلى الشمال، الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 139

قبل. عندما حاول الشيخ ودّ الرئيس أن يغتصبها، فقتلته وقتلت نفسها. كانت هذه الحادثة حادثة مأساوية ومحيرة في القرية حيث أنها هي المرأة الأولى التي عارضت الرجال أول الوقت في ذلك المجتمع السوداني التقليدي، حتى رأوا أن الدنيا تنتهي وهم في أيام القيامة. قال جدّ الراوي "أول مرة يحصل شيء مثل ذلك في هذا البلد منذ خلقه الله، نحن آخر الزمن"¹. وكان الرجال يصبّون الغضب عليها حتى لم يروا أيّ قيمة للمرأة التي عارضتهم. يقول محبوب للراوي بعد دفنها "إنها لم تكن تساوي مليما. لولا الحياء ما كانت تستاهل الدفن. كنّا نرميها أو نترك جثتها للصقور"². حتى لم تستطع بنت مجذوب التي كانت غير خجلة في حديثها مع الرجال أن تبين للراوي الذي كان غائبا عن القرية في وقت المأساة عمّا حدث في القرية بدون شراب من الخمر وبدون مسح قطرات العروق على جبينها.

تبدي الرواية خلال هذه الأحداث بوجهي القرية السودانية في العالم مابعد الإستعمار. حينما يتغيّر العالم تغيرا تبقي مكان المرأة في نفس الحالة القديمة. وجد الرجال من المجتمع أن تحرير المرأة من قيودهم وسيطرتهم عليها غير مريحا لهم. ولذلك أرادوا أن تبقي المرأة خاضعة للتميش والقهر والسكوت الذي أوجدته الثقافة الأبوية المسيطرة على المجتمع.

ولكن كان قتل حسنة بنت محمود لهذا العجز قتلا رمزيا لكلّ معاني التخلف والرجعية والتقاليد البالية مكبلة كلّ حركة ومعوقة كلّ إنطلاق. عندما وضعت السكين على الرجل كانت مثلما وضعت السكين على عنق العادات والقواعد القديمة التي تجعل المرأة متاعا ماديا وتراها شيئا جامدا بلا حيوية وعواطف ومشاعر إنسانية. قتلت حسنة بنت محمود نظرة المجتمع الخاطئة إلى الحياة وأصبحت شهيدة في سبيل حرية المرأة والمساواة بين الجنس. أصبحت ضحية حسب الإقتضاء، وبجراتها بدأت أن تبلي

⁽¹⁾ موسم الهجرة إلى الشمال، الأمل الكاملة الطيب صالح، ص - 131

⁽²⁾ المصدر السابق، ص - 140

التقاليد القديمة وانفتحت بداية الطريق أمام أهل القرية لأن يجعل لهم فرصة لبناء مستقبل جديد غير إمتدادا للحياة الإستعمارية، أو إنحدارا من الطرق القديمة.

كان الراوي الذي عاد من لندن متحيراً في الممارسات الفاحشة التي تظهر من قبل مجتمعه في السودان. ولكنه كان غير قادرا على منع هذه الممارسات ولم يستطع أن يعارض عليها. ولكنه كان يكره التقاليد البالية في مجتمعه. وبدأ أن يتسائل نفسه لماذا تجبر حسنة أن تتزوج لرجل لا ترغبه. ولكنه لا يتدخل في هذا الموضوع علانية لأنه كان يخاف أن التدخل إلى هذه الأمور سيقفل إفريقيته وسودانيته. ولم يحاول أن يتزوج حسنة بنت محمود مع أنه كان يحبها لأنه كان يرى هذه الفكرة غير لائقة له.

ولكنه كان راغبا عن زواج ودّ الرئيس مع حسنة بنت محمود. حينما سمع هذا الخبر قفزت إلى نفسه بلا وعي صورة جين مورس "قفزت إلى ذهني صورتان فاضحتان في آن واحد. ولشدة عجبي اتحدت الصورتان في ذهني، وتخيّلت حسنة بنت محمود، أرملة مصطفى سعيد، هي المرأة نفسها في الحالتين، فخان بيضاوان مفتوحتان في لندن. وامرأة تننّ تحت ودّ الرئيس الكهل، إن كان ذلك شراً فهذا أيضا شر¹. يصرح الراوي هذه الأقوال بالغضب والرعب وهو يربط بين حسنة بنت محمود والنساء الأوروبيات اللاتي أصبحن فرائسا لمصطفى سعيد. وبهذا الربط يربط الطبيب صالح رأيه عن التحكم الأبوي في السودان وينقد الإستعمار والتحكم الأبوي معا في هذه الرواية. ويكشف هذا النظام الأبوي وقواعده ونظمه جرثوما ضاربا في السودان مثل جرثوم الإستعمار الأوربي. وهو يربط بين الإستعمار والتقاليد الإجتماعية السودانية القديمة حينما شابه بين ودّ الرئيس ومصطفى سعيد؛ ودّ الرئيس هو الذي استغلّ القواعد والتقاليد لإرضاء شهواته كما استغلّ مصطفى سعيد نظريات الكولونيالية الأوروبية لإرضاء رغباته في إنتقامه من الإستعمار.

¹ موسم الهجرة إلى الشمال، الأعمال الكاملة الطبيب صالح، ص - 93

ينقد الروائي أنّ الحكومة السودانية ما بعد الإستعمار أو

الحكومة التي تجري الأمور في السودان بعد أن حصل على إستقلاله الوطني من القوّات الإستعمارية تعيش في ظلّ الإستعمار وقد مضت عقود طويلة منذ الإستقلال ولا مجال هناك لأيّ تغيير محتمل في طبيعة الوطن. يبين الطيب صالح أنّ الحكومة الجديدة ليست جيّدة حيث أنها تجري على منوال الحكومة الإستعمارية. يتابع أهل الحكومة الجديدة المستقلة نفس الأمور التي تناوّلتها الحكومة الإستعمارية. بصوّر الكاتب هذه الآراء في صورة واضحة خلال بطله الثاني "الراوي" في هذه الرواية. تتماثل حكومة السودان المستقلّ بالحكومة الإستعمارية التي كانت بعيدة عن أمور عامة الناس ومصلحهم. وقد كان مركز الاداء في الإستعمار الحديث هو إستغلال البلد الجديد المستقلّ على أيد المواطنين المتعلمين الذين يعملون حسب الرأسمالية الغربية. وهؤلاء المتعلمون الذين تدرّبهم الغرب والذين أعطاهم الإستعمار بعض التميز والإدارة السياسية والإقتصادية نقلوا هذه التميّزات وكانوا يتابعون رغباتهم ويعملون قريبا إلى الإستراتيجية الأوروية وأخلدوا إستغلال إقتصاد وطنهم. عندما إستقلت البلاد من الإستعمار لم يحاول الحكام الجدد وبرامجهم لمحو آثار الإستعمار لأنهم ظنوا أنّ بلادهم المتحرّرة تستطيع أن تعيد صلتها بتاريخها وثقافتها كأنّ الإستعمار لم يكن. ولكنّ ظلّهم هذا كان خاليا من النتيجة والتصقت صورة الإستعمار على لبّ هذه البلدان.

يبين تيم نيلوك عن السودان مابعد الإستعمار، "كان

تاريخ السودان السياسي (1956-1969) متسلطا بميزة مركزية. كان الحكم السياسي وفوقه موضوعا على بعض الفئات الإجتماعية التي ربحت من تزويد الموارّد تحت الحكم الإستثنائي. والذين شكلوا مشروعية الحكومية لم يزرعوا لتولي إصلاحات شكل الوطن الاجتماعي والإقتصادي. وأدّاموا عدم التوازن وعدم المساواة الذي كان ظاهرا في الحكم الإستثنائي - تفرقة مناطق الوطن والفئات الإجتماعية. وقد حاول حكام السودان لتوسيع الوطن ببعض التغييرات القليلة في شكل الإجتماع والإقتصاد الذي ورثوه من فترة الحكم الإستثنائي.

عندما كان مصطفى سعيد دمية في أيد البريطانيا لأن تسهل أهدافها وأمرها في السودان والشرق الأوسط، أصبح الراوي دمية في أيد الحكومة الإستعمارية الجديدة أي الحكومة النيو كولونiale في السودان أو الحكومة ما بعد الإستعمار. كان آلة تتحرك حسب أوامر المعاهد النيو كولونiale؛ الحكومة الجديدة هي معهد إستعماري محلي في الحكم والقوة ويظهر أهل الحكم أجابا وغريبا وبعيدا عن عامة الناس. بعدما عاد الراوي من لندن بعد دراسته التي إستغرقت سبع سنوات، أصبح موظفا تحت الحكومة الجديدة في العاصمة في الخرطوم أو وقع في مهد القوة الإستعمارية المحلية. لم يعيش الراوي مع أهله في القرية ولكنه كان بعيدا عنهم. ولم يشتغل بالأمر الإصلاحية والتقدمية في قريته بكونه بعيدا عنهم. هو ومثله من الموظفين كانوا يخلدون العقائد التي تنفي التغييرات في أوضاع الوطن وتجمد نظام التعليم في السودان الحديث. وهؤلاء كانوا يخدمون نفس الوظائف التي تابعها الحكام في فترة الإستعمار. يرسم الطبيب صالح خلال الراوي صورة مقف الذي حصل على التعليم الإستعماري. ولم يستطع هؤلاء المثقون لتشكيل شخصيتهم إلى صورة ناضجة وأن يشتغلوا في أمور بلدانهم مع أنهم حصلوا على العلوم الحديثة و"نفون الجديدة. لأن هذا التعليم كان يهدف لخدمة مصالح الإدارة الإستعمارية، ولا يخدم مهام القيادة المستقبلية. وكان هؤلاء 'أفنديين' يعاملون ككاتب لإدارة البريطانية ولا حلفاء لمستقبل بلدهم. كانوا متخرجين من جامعات الأوروبية العالية أمثال كيمبرج وأكسفورد ولكنهم لم يستطع أن يربطوا أنفسهم بأي عمل يمكن على إحراز التطور في أمور بلادهم أو أن يدفعوها إلى المستقبل المضيئ. وكانوا عاجزين في قيامهم بواجب تطوير بلدانهم بعد نيل تلك البلدان للإستقلال.

عاد الراوي من لندن إلى قريته متفائلا بالرجاء والأمل في أمور تطور قريته وإصلاحها. "إني أريد أن آخذ حقي من الحياة عنوة، أريد أن أعطي بسخاء، أريد أن أفيض الحب من قلبي فينبع ويثمر. ثمة آفاق كثيرة لا بد أن تزار، ثمة ثمار يجب أن تقطف، كتب كثيرة تقرأ، وصفحات بيضاء في سجل العمر، ساكنب فيها جملا

واضحة بخط جريئ¹. وهو يزعم "سنهدم وسنبني وسنخضع الشمس ذاتها لإرادتنا وسنهزم الفقر بأي وسيلة"². ولكنه لا يستطيع أن يلعب دورا خطيرا في القرية التي يعيش فيها أو في المدينة الخرطوم التي يعمل فيها. يقرّر لصديقه محجوب عن عدم قدرته وفشله في أن يتّجه قريته وبلده إلى التطوّر والنشأة وعدم قدرته في ردّه على الأعمال الإستغلالية والفاصلة من الحكومة حيث أنه ومثله من الموظفين دماة في أيد الحكومة تتحرّك حسب إيماء الحكومة وأهلها "الموظفون أمثالي لا يستطيعون أن يغيّروا شيئا. إذا قال سادتنا إفعلوا كذا فعلنا"³. وفي المرّة الأخرى سأله محجوب عندما رأى عن عدم إنفعاليته ونشاطه في إجراء الأمور الصالحة للقرية مع أنه موظّف في الحكومة وأنت ماذا تصنع في الخرطوم؟ ما الفائدة أن يكون لنا ابن في الحكومة ولا يفعل شيئا"⁴.

يبين الروائي أنّ المثقف ليس هو الذي حصل على العلوم والفنون الجديدة ولا يفعل شيئا من هذه المعرفة. ولكنّ المثقف ينبغي عليه أن يشتغل بأمور وطنه. أمّا المثقف الإستعماري الذي تشكل في قالب الإستعمار لا يستطيع أن ينجس في نشاطات بلده. لأنّه مصوغ على أيد الإستعمار لإستخدام مهارته وعبقريته لأهدافه العالية فقط. يصوّر الروائيّ هذه الصورة خلال الراوي الذي كان واعيا عن عدم قدرته في دفع بلده إلى سبيل النشأة والتطوّر. يقول الراوي عن صديقه محجوب "كنا أحيانا نتذاكر أيام طفولتنا في القرية فيقول لي: لكن أنظر أين أنت الآن، وأين أنا، أنت صرت موظفا كبيرا في الحكومة، وأنا مزارع في هذه البلدة المقطوعة. فأقول له بإعجاب حقيقي: أنت الذي نجحت لا أنا، لأنك تأثر على الحياة الحقيقية في القطر. أمّا نحن فموظفون لا نقدم ولا نؤخر. الناس أمثالك هم الورثاء الشرعيون للسلطة. أنتم عصب الحياة. أنتم ملح الأرض"⁵. محجوب هو مزارع في القرية أوقف تعليمه في المرحلة الابتدائية. ولكنه يشتغل بكلّ النشاط في أمور

(1) موسم الهجرة إلى الشمال، الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 15

(2) المصدر السابق، ص - 121

(3) موسم الهجرة إلى الشمال، ص - 129

(4) المصدر السابق، ص - 126

(5) المصدر السابق، ص - 107-108

القرية وأمور الناس حتى في الأمور السياسية. فهو ليس مثل الراوي الذي تلقى العلوم العليا ولم يستطع أن يستخدمها. ليس هو في حالة الرقود ولكنه في حالة اليقظة. أما الراوي كان عاجزا في قيامه بواجب تطوير بلده بعد أن ينال الإستقلال من الإستعمار. كان الروائي يوضح بين هذين الشخصيتين أنّ التعليم وحده وإنجازاته المتنوعة والمتعددة لا تخلق المثقف. ولكن المثقف الحقيقي هو الذي يشغل نفسه كثيرا بواقع الإنسان ومصيره ومصير بلده وهو يلعب دورا مهما في إنعاش أوضاع الوطن وأحواله ورفع مقامه ومرتبته. هنا يؤكد الروائي أنّ المعرفة عمل، أما المعرفة بدون عمل هي العلم الذي لا ينفع أما العلم الذي ينفع فهو ذلك الذي يدفع الإنسان إلى التأمل والتفكير والتدبر والعمل.

تشير الرواية إلى القواد الجدد في الحكومة؛ وكانوا هم الذين يحصلون على الميزات الأوروبية الإمبريالية في نفق الناس العام والذين يسترون أعمالهم وراء ستار من الأقوال الفارغة عن أحوال إفريقيا الفقيرة. يقولون عرضا أنّ إفريقيا تقع في الخطر بسبب القيم الحديثة والأجنبية التي لن تليق إلى مزاجها. عندما يذكر الراوي عن المؤتمر حول التعليم الذي حضره في الخرطوم، فهو يبيّن عن طريق حياة الحكام الجدد في إفريقيا الذين يعيشون حياة مترفة أوروبية. ينقل الراوي كلاما من خطبة وزير التعليم الذي شارك في هذا المؤتمر، وهو يبيّن فيه القيم الحديثة جرثوما "يجب ألا يحدث تناقض بين ما يتعلمه التلميذ في المدرسة وبين واقع الشعب. كلّ من يتعلم اليوم يريد أن يجلس على مكتب وثير تحت مروحة ويسكن في بيت محاط بحديقة ومكيّف بالهواء يروح ويجيئ في سيارة أمريكية بعرض الشارع. إننا إذا لم نجتث هذا الداء من جذوره تكونت عندنا طبقة برجوازية لا تمت إلى واقع حياتنا بصلة، وهي أشدّ خطرا على مستقبل إفريقيا من الإستعمار نفسه"¹. ولكن الراوي يبدي الحال الحقيقي لهذا الوزير بغضب وحزن ويكون غير قادرا لظهور هذه المشاعر إلا أن ينساها ويخفيها في نفسه. يقول "أن هذا الرجل بعينه يهرب أشهر الصيف من إفريقيا إلى فيلته على بحيرة لوكارنو، وإن زوجته تشتري حاجياتها من هرودز

⁽¹⁾ موسم الهجرة إلى الشمال، الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 127

في لندن، تجيئها في طائرة خاصة وأنّ أعضاء وفده أنفسهم يجاهرون بأنّه فاسد مرتش، ضيّع الضياع وأقام تجارة وعمارة، وكون ثروة فادحة من قطرات العرق التي تنضح على جباه المستضعفين أنصاف العراة في الغابات. هؤلاء قوم لا همّ لهم إلا بطونهم وفروجهم. لا يوجد عدل في الدنيا ولا إعتدال"¹. عندما يتهم هذا الوزير المواطنين في البلاد الإفريقيّة عن رغبتهم في الوظيفة يعملون جالسين على كراسي وثيرة بدون إختلاط بالحياة الواقعة في بلادهم، فكان هذا الوزير أيضا يقود حياته في الترف والرفاهيّة والإسراف بدون توجّه نظره إلى الحياة حوله وبدون تفكر عن تغيير حالة بلاده من ترككات الإستعمار التي لا تليق إلى مزاجها وطبيعتها.

بيدي الروائي أعمال الفضائح والرشاوي وفساد الحكام خلال الرواية. يقول الراوي عن مؤتمر الذي نظّمته وزارة المعارف لمناقشة سبل توحيد أساليب التعليم في القارة الإفريقية كلها. عندما سمع محجوب عن هذا الخبر فهو ينقد هؤلاء الموظفين الحكوميين وعن عدم إشتغالهم في تطوّر التعليم في القرى وبناء المستشفيات وإتخاذ الخطوات في تنظيم التسهيلات الأساسيّة التي يحتاج الناس إليها. وهو يقول "فليبنوا المدارس أولاً ثم يناقشوا توحيد التعليم. كيف يفكر هؤلاء الناس؟ يضيعون الوقت في المؤتمرات والكلام الفارغ ونحن هنا أولادنا يسافرون كذا ميلا للمدرسة. ألسنا بشرا؟ ألسنا ندفع الضرائب؟ أليس لنا حق في هذا البلد؟ كلّ شيء في الخرطوم. ميزانيّة الدولة كلها تصرف في الخرطوم. مستشفى واحد في مروى نسافر له ثلاثة أيّام، النساء يمتن أثناء الوضع. لا توجد داية واحدة متعلمة في هذا البلد"². يصبّ الروائي كلّ غضبه وغيخته على لسان محجوب نحو الحكام الجدد في السودان الذين لا يلفتون نظرهم إلى أحوج الناس في القرية وإلى تطوّرهم. ينقد الطبيب صالح نقدا لاذعا عن الحكام الجدد في السودان وفي البلاد الإفريقيّة الأخرى وعدم فعّاليتهم في نشأة الناس والبلد. "إن سادة إفريقيا الجدد، ملّس الوجوه،

⁽¹⁾ موسم الهجرة إلى الشمال، الأعمال الكاملة الطبيب صالح ، ص - 127 - 128

⁽²⁾ المصدر السابق ، ص - 125 - 126

أفواههم كأفواه الذئاب، تلمع في أيديهم ختم من الحجارة الثمينة، وتفوح نواصيتهم برائحة العطر، في أزياء بيضاء وزرقاء وسوداء وخراء من الموهير الفاخر والحرير الغالي تنزلق على أكتافهم كجلود القطط السامية، والأحذية تعكس أضواء الشمعدانات تصرّ صريرا على الرخام"¹.

وهو ينقد نقدا على لسان الراوي عن نفقات الحكومة في الأمور غير الضرورية مع أنهم يرون تخلف الناس في الإقتصاد وحالتهم السيئة في الحياة. يقول الراوي "أنهم تدارسوا تسعة أيام في مصير التعليم في إفريقيا في قاعة الإستقلال التي بنيت لهذا الغرض، وكلفت أكثر من مليون جنيه، صرح من الحجر والإسمنت والرخام والزجاج، مستديرة كاملة الإستدارة، وضع تصميمها في لندن، ردهاتها من رخام أبيض جلب من إيطاليا، وزجاج النوافذ ملوّن، قطع صغيرة مصفوفة بسجاجيد عجمية فاخرة، والسقف على شكل قبة مطلية بماء الذهب، تتدلى من جوانبها شمعدانات كل واحد منها بحجم الجمل العظيم. المنصة حيث تعاقب وزراء التعليم في إفريقيا طوال تسعة أيام من رخام أحمر كالذي في قبر نابليون في الأنافيلد، وسطحها أملس لمّاع من خشب الأبنوس. على الحيطان لوحات زيتية، وقبالة المدخل خريطة واسعة لإفريقيا من المرمر الملوّن، كلّ قطر بلون"².

يعتقد محبوب وعمّ الراوي عبد المنان أنّ السودان لن يرق إلى دولة متقدّمة لأنّ حكامهم الجدد ينغمسون في الفساد والرشاوي، وهما يقرّران أنّ إنتخابات الحكومة الجديدة مفسدة. يشير عبد المنان إلى مبنى المستشفى غير الكاملة في قريتهم ودّ حامد دليلية على عدم قدرة الحكام الجدد. قال للراوي عندما مرّ ببناء من الطوب الأحمر الذي يقوم في منتصف تمامه على ضفة النيل، فسأله عن هذا البناء فقال "شفخانة. لهم حول لا يستطيعون بناءها. حكومة كلام فارغ"³. كان يقول أنّ هؤلاء الحكام الجدد

(1) المصدر السابق، ص - 126 - 127

(2) موسم الهجرة إلى الشمال، الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 126-127.

(3) المصدر السابق، ص - 74

بعيدون عن الناس ولا يشتغلون بأمورهم الإصلاحية والبنائية وقيمون وعدهم للناس عن الأعمال الإصلاحية في أكلهم الفارغة من المسؤولية ويحفظون أكلهم في الورقات فقط. كل ما يفعلون للناس يجيئون مرة إلى الناس في وقت الانتخابات. "كل الذي يفعلون فيه يجيئون إلينا مرة كل عامين أو ثلاثة بجماهيرهم ولواريهم ولافتاتهم... يعيش فلان ويسقط علان. كنا مرتاحين أيام الإنكليز من هذه الدوشة. وبالفعل يمر بنا جمع من الناس في لوري قديم وهم يهتفون: عاش الحزب الوطني الديموقراطي الاشتراكي"¹.

هنا يبين الطيب صالح فترة من الإضطراب والفوضى السياسية وجدت نتيجة من المشروعات الخاطئة وغير العادلة من قبل الحكومات السودانية بعيد الإستعمار البريطاني. أدت هذه النظم البلد إلى أحوال إجتماعية وسياسية واقتصادية مخيفة. وقد أحسّ الأغلب من الناس أنهم أصبحوا مخدوعين بالأعمال من نخبهم السياسي وصفوة من الناس السياسيين الذين إختاروهم لقيادة وطنهم. وجدوا أنّ الأحوال الجديدة في السودان ليست مختلفة من الأحوال في فترة الإستعمار. فقد تغيّر الحكام ولم تتغيّر مؤسسات الحكومة الكولونيالية ولم تتغيّر الإتجاه والخطط من الحكم الإستعماري. مشى الحكام الجدد وفق خطة مستعمرهم السابقين ولم يفلحوا أن تفكوا أنفسهم من أسر ذلك التخطيط الإستعماري ومرماه.

كان الطيب صالح خارجا من السودان حينما يكتب هذه الرواية المشهورة، ولكنه كان ينهض ويصغي إلى الإضطرابات السياسية والإجتماعية والتغيرات في وطنه وكان مهتماً بنهضة بلده ورفعته في جميع مجاله الإجتماعي والسياسي والإقتصادي. ولهذا الغرض نقد نقدا لاذعا عن الحكم الجاري آنذاك في السودان وأظهر كل ما في نفسه من المشاعر والأفكار في هذه الرواية. وكان يدرك تماما عن الأحوال السياسية السائدة في السودان آنذاك وفهم أنّ كل الصراع والأزمات في بلده وفي البلاد العربية

⁽¹⁾ موسم الهجرة إلى الشمال، ص - 74.

والإفريقية المختلفة هي تركات الإستعمار الأوروبي التي تركها المستعمرون ورائهم لأن يخلد سياسة إستعمارهم في شكل غير مباشر في مستعمراتهم. وجدير بالذكر هنا عن نظرة الأوروبيين إلى إستعمارهم وماذا كان تبريرهم في تدخلهم إلى مختلف أنحاء البلاد. وهم لا يعتبرون أنفسهم مستعمرين ولكنهم يرون دخولهم إلى البلاد المختلفة كأنه من حاجتها اللازمة في توجيهها إلى سبيل النشأة والإرتقاء والنهضة في كلّ المجال. رأوا أنفسهم مساعدين في نجاة الإفريقيين والعرب من بربريتهم ووحشيتهم وسذاجتهم وعدم إنفعالياتهم. يبين الطبيب صالح هذه النظرة على لسان رتشارد، الشاب الإنجليزي والموظف في الوزارة المالية. وهو لا يعتقد في تطوّر السودان الذي يمسك على الخرافات. وارتأى أنّ من حسن حظ السودان والبلاد الإفريقية الأخرى أن تصبح مستعمرات البريطانية لسنوات لأنها أخرجت أهل هذه البلاد من وحشيتهم وحماقتهم وعدم إنفعالياتهم خلال نشاطاتها الإصلاحية الثقافية التي أجرتها في هذه البلاد. وتؤكد بأنّ أحلام السودان والبلاد الإفريقية الأخرى عن إتحادها وإتحاد البلاد العربية غير مشرة لأنّ هذه الأحلام كلها خرافات. "ها أنتم هؤلاء تؤمنون بخرافات من نوع جيد، خرافة التصنيع، خرافة التأميم، الوحدة العربية، خرافة الوحدة الإفريقية. إنكم كالأطفال تؤمنون إنّ في جوف الأرض كنزاً ستحصلون عليه المعجزة، وستحلون جميع مشاكلكم وستقيمون فرودسا. أوهاهم. أحلام يقظة عن طريق الحقائق والأرقام الإحصائيات، يمكن أن تقتلوا واقعكم وتعيشوا معه وتحاولوا التغيير في حدود طاقاتكم"¹. وكان متأكدا في أن يصرّح هذه الآراء عن عدم قوّة البلاد الإفريقية والعربية في إنشاء الإتحاد بينها لأنه كان يعرف تماما أنّ الإستعمار الأوروبي قد نجح تماما في محاولته أن يخلد عواطف العنف والعداوة بين البلاد العربية والإفريقية.

واستمرّ رتشارد أنه لا يمكن للبلاد التي كانت

مستعمرات تحت البلاد الأوربية أن تحيي نفسها بعد أن نالت إستقلالها من ساداتها. كان يشير أن السادات الجدد في هذه البلاد يتبعون نفس الطرق التي أجزاها القوّات الإستعمارية، أي

⁽¹⁾ موسم الهجرة إلى الشمال، الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 69

وإن تخلّت هذه البلاد من نفوذ الإستعمار الأوربي فهي تواصل أسلوب الإستعمار وإستراتيجيته. "أنكم لا تستطيعون الحياة بدوننا. كنتم تشكون من الإستعمار المستتر. يبدوا أن وجودنا بشكل واضح أو مستتر، ضروريّ لكم كالماء والهواء"¹. خلال هذه الأقوال يبيّن الطيب صالح أنّ مظاهر الإستعمار بيّنة في الأعمال الجارية في بلده السودان التي تشغل في الأزمان السياسيّة والإقتصاديّة. طبعا وقد تجلّت الإستعمار بشكل واضح في إرث السودان السياسي وأوضح ظواهره في الصراع العنيف والعقيم بين الصفوات السودانيّة وفي فشلهم في تحقيق تسوية الوطنيّة. وقد نجح الإستعمار في إفشائ ثقافة الإنتقام والثأر في الممارسات السياسيّة السودانيّة. ورأى الروائيّ هذه الأمور كلها لا تزال تجري واقعة في مجال السياسي في السودان المستقلّة.

وقد حثّت القوّات الإستعماريّة على التنافس البغيض بين الطوائف المختلفة في السودان. تفكر كلّ طائفة تفكيراً لائقاً لها وتضلل الناس وتستغلهم وتهمل مصالحهم. وتنافست بعضهم على البعض في الأمور الوطنيّة وهكذا قطعت بذرة التطور في البلد من جذورها نفسها. وجدت النظريّات والمدارس السياسيّة المختلفة وأخذ الصراع بين أهل كلّ النظريّة والمدرسة في صورة تخرب نشأة الوطن وتفني نهضتها. ثمّ اتجه تابعوا هذه النظريّات المختلفة إلى دعم دعواهم بمساعدة القوّات المسلّحة وانقلاباتها التي حصدت أعداداً من البشر. وهكذا أصبحت السودان ساحة التنافس بين المواطنين وأبناء الوطن وتنتشر عدوى هذه المنافسة الشديدة في كلّ يوم. وكانت خسائر السودان من هذا الصراع في صورة هائلة ولا يزال السودان يعاني من نتائج وآثار ذلك الصراع. وهذا الصراع الذي غرسه الإدارة الإستعماريّة أصبح سمة الممارسة السياسيّة السودانيّة. ولا مفرّ للسودان والبلاد المختلفة التي تعاني من هذا العبئ الثقيل المجرح إلّا بتواضع أهل الأحزاب المختلفة ويعلنون عن عزمهم وثباتهم في طريق تحقيق مصالحه الوطنيّة على أساس المساواة والعدالة والحرية.

⁽¹⁾ المصدر السابق، ص - 70

الطيب صالح و"موسم الهجرة إلى الشمال"

مشاعر العرب ضد الإستعمار كما تظهر فيها

دراسة نقدية

أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها

قدّمتها

حسينة. ب

تحت إشراف

بروفسور الدكتور أحمد إبراهيم رحمة الله

الرئيس السابق (المتقاعد)

قسم اللغة العربية بجامعة كاليكوت



قسم اللغة العربية

جامعة كاليكوت

كيرلا ، الهند

2012م

الباب الرابع

أعمال الطيب صالح الأدبية الأخرى

الفصل الأول

عرس الزين

الفصل الثاني

ضو البيت – بندر شاه

الفصل الثالث

مريود – بندر شاه

الفصل الرابع

دومة ود حامد وسبع قصص

الفصل الخامس

الرجل القبرصي

الفصل السادس

يوم مبارك على شاطئ أم باب

الفصل الأول

عرس الزين

كتب الطيب صالح هذه الرواية بين فترة 1960-1963

ونشرت أولاً عام 1966م. هذه الرواية هي أول نصّ طويل كتبه الطيب صالح في حياته. احتلت الرواية عرس الزين مكانة مؤثرة لدى القراء وأثرت العديد من الفنانين مثل المخرج السينمائي الكويتي خالد صديقي الذي تحوّل هذه الرواية إلى فيلم سينمائيّ وانتقل إلى السودان لتصوير وقائعها هناك في بيئة سودانية ونقذ فيلماً ذا مستوى فنيّ راق في أواخر السبعينات، وحصل الفيلم على جائزة في مهرجان السينمائي 'كان' آنذاك في عام 1977م وحول لاحقاً إلى مسلسل دراميّ في ليبيا ولبنان.

ترجمت هذه الرواية إلى اللغات العالمية المختلفة.

ترجمها دينيس جونسون ديفس إلى اللغة الإنجليزية في عام 1969م في إسم 'Wedding of Zein' وترجمت إلى اللغة الإفرنجية في إسم 'Les Noces de Zeyn et autres recites' من قبل أني وادي مينووسكي فس عام 1996م وترجمها ستيفن ريتش موث إلى اللغة الألمانية في عام 1983م تحت عنوان 'Die Hochzeit des Zain'. وكذلك ترجمت هذه الرواية إلى اللغة الهولندية في إسم 'De roep Van de Niji' على أيد رتشارد وان ليوين في عام 1987م وترجمها ميلاغروس نعيم إلى اللغة الإسبانية عام 1987م تحت عنوان 'La Boda de Zayn' وترجمها جولانتا كوسيوسكا إلى اللغة البولندية ولكنها لم تنشر في صورة كتاب حتى الآن وترجمها إي. شيكوا إلى الروسية عام 1982 وترجمت إلى اللغة اليابانية في إسم 'Zeen no kekkon' من أيد سيجي تاكائي عام 1978 وأخيراً ترجمت إلى اللغة العبرية تحت عنوان 'Zein Mithaten' من قبل راحيل حلب في سنة 2001م.

سمّى الروائي الطيب صالح هذه الرواية بإسم قصير وواضح إذ أنّ هذه الرواية تتناول بأمور قوم بسطاء من القرية السودانية ويهتمّ إهتماماً بالأحداث الصغيرة والظواهر البسيطة والشخصيات العادية ومع ذلك تعالج بعض الأمور المعقدة. تدور هذه الرواية كلها حول عرس الزين، وعرسه هو الذروة الأعلى في هذه الرواية. فمِنذ السطر الأول من الرواية يكسب خبر العرس أهميّة دراماتيكيّة ويثير ردود فعل متباينة ومتعارضة. ينتشر الخبر مع شروق الشمس، ولما إنتصف النهار كان الخبر على فم كلّ واحد، يتداول الناس خبر العرس ويقدمون ردّات فعل وتفسيرات مختلفة. تفتح هذه الرواية بإخبار هذا العرس وتتعبّ القرية كلها عندما تسمع هذا الخبر، والقراء لا يفهمون لماذا تتعبّ هذه القرية كلها بخبر هذا العرس، لأنّ العرس واقع عاديّ في حياة الإنسان. وهنا يتجلّى إبداع الطيب صالح في هذه الرواية، يتناول فيها حدثاً عادياً وبسيطاً الذي يتكرّر يومياً في حياة الإنسان ولكنه جعل هذا الأمر أمراً عجباً يتناوله شخصيّاته في الرواية ويجعل قرائه في مشاعر حبّ الإستطلاع. وقد ملأ الطيب صالح جوّ هذه الرواية بالخيال الممتع وصور من خلال هذا الحدث البسيط واقع تلك القرية الصغيرة الذي أهمل ناسها كبيرهم وصغيرهم أعمالهم ومصالحهم ولم يعد يشغلهم إلّا عرس الزين. ولكن عندما يتقدّم تقدّماً في قرائتهم فيفهمون مغز هذه العجبة.

‘الزين’ هو بطل الرواية وحوله تدور كلّ هذه الرواية. كان الزين نكتة أضحكة القرية ومزاحتها ومع ذلك كانت حياته سلسلة من العجائب والأحداث الخارقة التي تربطه بشخصيّة الحنين، الرجل الصالح وصاحب الكرامات. وتجري خطبة الزين من نعمة التي كانت وضع إعجاب الفتيان في القرية وابنة أحد رجال القرية البارزين من ذوي النفوذ. ينتشر خبر عرس الزين من حليلة بائعة الحليب، ولما إنتصف الوقت إلى الظهر شاعت هذا الخبر وأصبح موضوعاً في أفواه كلّ الناس في القرية من الولد الصغير إلى ناظر المدرسة. وكلّهم يتناول هذا الخبر بدهشة ويردّدون تفسيرات مختلفة له. وتعكس هذه التفاسير والتفاصيل حياة الزين الملئى بالحياة والحبّ. يقول بلندر الحيدري

"الرواية عرس الزين هي مملوثة بمشاعر الإحتفاء ببلده (الطيب صالح) الذي أحبه من صميم قلبه، فعاد إليه بذكرياته عنه، وأعاد إليه من خياله ما يضيف على شخصياته كل ما يؤكد فرادتها وخصوصيتها، ومحور القرية كلها الزين رجل بسيط وطيب وأن يكون لهذا الرجل الطيب البسيط عرس كبقية الناس ليس بالأمر الغريب. إنما الغريب هو قدرة الكاتب الكبير على منح هذا الرجل نبضا خاصا به وتأثر من تشابك الأحداث مع تحركاته اليومية التي تثير الآخرين وتلفت النظر إليه. فالبنت التي يأتي على ذكر اسمها كعروس له يفتح لها الباب لتكون لغيره. ولن يخلو ذهنه دوما من فتات يعد نفسه لها وتعدّ نفسها لآخر¹.

تدور حياة الزين حول الحب. ومن مزيتة أنه يحب كل الفتيات الجميلات في البلد واحدا تلو واحد. فالزین لا يحب إلا أروع فتيات البلد جمالا ولا أطيبهن أدبا ولا أحلاهن كلاما. كان حبه الأول مع عزة ابنة العمدة في البلد. أعلن الزين عن حبه هذا بين العمال الذين كانوا يعملون في حقول العمدة، "عوك يا أهل الحلة، يا ناس البلد، عزة بنت العمدة كأتلها كتيل. الزين مكتول في حوش العمدة". هكذا كان إعلان الزين عن حبه الأول. ولما سمع العمدة هذا الخبر أصبح غضبانا. ولكنه وجد هذه الفرصة لأن يستغل الزين ويستخدمه في أعماله الزراعية والبيئية. فكلّف العمدة الزين بالأعمال الشاقة يعجز عنها الجن. وقد أغراه قائلا أنه يزوّج له ابنته عزة إذا اشتغل في الأعمال في حقله. هكذا بدأ الزين أن يشتغل في الأعمال الشاقة في حقول العمدة وليس له حديث إلا عن حبه مع عزة وعن وعد أبيها زواجه منها. هكذا مضى شهر وشاع الخبر في البلد أن هذه الفتاة خطبت لابن خالها. ولكن الزين لم يثر لهذا الحدث ولم يقل شيئا. ولكنه بدأ قصة ثانية مع فتاة أخرى.

هذه المرة كان حبه مع شابة بدوية اسمها حليلة. كانت من فريق القوز الذين يقيمون على أطراف النيل في شمال السودان. فتن الزين بجمال الفتاة.

⁽¹⁾ الطيب صالح في غربته وإبداعاته، بلندر الحيدري، الطيب صالح دراسات نقدية، دا حسن أبشر الطيب، ص - 61

ولكن عندما تصابيح عن خبر هذا الحب قفزت عليه أم حليمة وإخوتها. وآخر الأمر تزوجت حليمة من ابن القاضي في البلد.

كان زواج بنت العمدة وزواج حليمة فقطة تحول في حياة الزين. لاحظت أمهات البنات أمرا عجيبا بين الزين والبنات اللاتي يجتبن. أدركت الأمهات أن البنات اللاتي يقع الزين في الحب معهن في يتزوجن فجأة من فتيان نبلاء في البلد. فأصبحت أمهات البنات يخطبن وذ الزين ويستدرجنه إلى البيوت ويقدمن له الطعام. وحثت الأمهات بناتهن أن تجبي إلى الزين وأن تسلم عليه. وتمنت كل البنات أن تجد موقعا في قلب الزين. فالفتاة التي يخرج اسمها على لسان الزين تضمن عريسا خلال شهر أو شهرين. وعندما يقام عرس الفتاة يكون الزين في حفلة العرس يسعى ويعمل في المطبخ ويزود الطعام والوليمة. هكذا أصبح الزين رسول الحب في البلد ينقل عطره من مكان إلى مكان. هكذا يتكرر الزين بين فترة وأخرى على فتاة من أهل البلد لتجد تلك الفتاة طريقها إلى الزواج بسرعة من شخص يناسبها.

هكذا كان الزين مصدر ضحك وسذاجة وطرفة في القرية حتى كان بعض أهل القرية يرونه أبلها وضعيفا. ولكن أم الزين كانت تدعي أن ابنها الزين ولي من أولياء الله. وكانت عندها بعض الدلائل التي تشير إلى حقيقة إدعائها. ومن بينها صداقة الزين مع الحنين، الرجل الصالح المنقطع للعبادة وصاحب الكرامات. فالحنين كان لا يصاحب مع أي رجل في البلد ولا يأس إليهم، أما في أمر الزين كان عكسا لذلك. كانت هناك علاقة ودية بين الزين والحنين حتى كان يأس إليه ويتحدث معه. والزين الضحوك الدائم في القرية عندما يقابل الحنين كان يترك كل عبثه ومزاحه وكانت بينهما علاقة مثل العلاقة بين الشيخ والمريد.

وكان للزين صداقات عديدة مع أشخاص آخرين الذين يعتبرهم أهل القرية من المنبوذين ومن الشواذ. ومن بين هؤلاء عشمانه الطرشاء وموسى

الأعرج وبخيت المشوّه. وكان الزين يحنو على هؤلاء ويساعدهم في كلّ أمورهم. عندما يرى أهل البلد هذه التصرفات من الزين فكانوا يظنون لعله نبي الله الخضر أو لعله ملك أنزله الله في صورة الإنسان. ولكن بعد قليل من الوقت كانوا يرون الزين مع النساء يغازل معهنّ ويعبث بهنّ. كان الزين يتعامل مع كلّ هؤلاء الفتيات الحسناء في البلد بالعبث والمغازلة. ولكنه لن يقل شيئا قط عن بنت واحدة في البلد، وكان يترك كلّ عبثه ومزاحه وضحكه حينما يرى هذه البنت الجميلة. هذه هي نعمة بنت حاج إبراهيم. كانت أجمل بنت في البلد وكانت مختلفة من البنات الأخرى منذ صغرها. أرغمت أباهَا أن يدخلها إلى الكتاب لتعلم القرآن في الحين كان الأولاد فقط يذهبون إلى الكتاب. تعلمت القراءة والكتابة وتوقّفت على الأولاد في الحظ وتلاوة القرآن. هكذا نشأت نعمة وقورة وواعية عن مسؤولياتها في الحياة حيث كانت تحلم أن تكون زوجة طيّبة. حينما بلغت في السادسة عشر من عمرها بدأت أمّها أن تخطب لها الزواج من الفتيان المتعلمين ولكنها رفضت كلّ هذه الخطبة لأنّ نفسها كانت تميل إلى الزين اليتيم ابن عمّها.

وبينما كان ذلك، ذات يوم لم يعد الزين إلى بيته في الليل. وفي الصباح رآته أمّه راقدا عند باب الحوش جريحا على رأسه وصدره وثوبه ملطخ بالدم. فأخذه أهله إلى المستشفى وظلّ هناك أسبوعين. ولمّا عاد الزين من المستشفى كان رجلا غيره، ليس كما كان من قبل. كان في فمه أسنان في موضع الأسنان التي كانت ضاعت حينما أصابه الحمّى في طفولته، فالآن بدت على وجهه بعض الوسامة. ذات يوم بعد عودته من المستشفى كان الزين وزملاءه محبوب وعبد الحفيظ وودّ الرواسي وأحمد إسماعيل وسعيد التاجر يتحادثون بعض الأمر ويبحثون عن مزاحات الزين مع الممرّضات في المستشفى، وفجأة قفز الزين من مكانه وجرى وراء رجل - سيف الدين - وأمسك به في الهواء ثمّ رماه في الأرض وقبض على رقبة بالشدة. لم يفهم للزملاء ماذا أصاب بالزین وما هو السبب وراء هذه المهاجمة. حاولوا أن يتمسكوا الزين وأن ينجوا سيف الدين من قبضته ولكنّ لم يفلحوا في محاولتهم حيث تدفقت في جسم الزين النحيل قوّة مريعة جبارة لا طاقة

لأحد بها. كان أهل البلد يعرفون من قبل عن قوة الزين هذه حتى كانوا يذكرون أن الزين مرة أمسك بقرني ثور جامح إستفزّه في الحقل ورفعته عن الأرض وألقاه في الأرض. فقد أعيا كلّ من هؤلاء أن يمسك بالزين وأن يبعد سيف الدين من قبضته. والزين شدّ قبضته على عنق سيف الدين حتى سمع الناس شخيرا يصدر من حلقه.

فجأة، لم يعرف أحد من هؤلاء من أين ظهر الحنين في ذلك الوقت. إرتفع صوته فوق الضجة "الزين. المبروك. الله يرضى عليك". حينما سمع الزين صوته الوقور إنفكت قبضته من عنق سيف الدين ودهش كلهم عندما رأوا سكوت الزين المفاجئ. وهذا الصوت من الحنين الذي جاء فجأة هو وحده أنقذ سيف الدين من بين يدي الزين. بحث الحنين عن سبب مشاجرة الزين مع سيف الدين، فأخبر أن سيف الدين ضربه على رأسه في وقت عرس أخته التي كانت يحبّها الزين. فأهدأ الحنين غضب الزين وقال له أنه سيتزوج أجمل بنت في البلد. ثم أصلح الصلح بينه وبين سيف الدين واختفى الحنين فجأة.

عرف هذ العام الذي حدث فيها هذه الحادثة بين الزين وسيف الدين والحنين فيما بعد بإسم 'عام الحنين'. وحدثت في هذا العام كثيرا من الأمور العجيبة في القرية. تغيّر سيف الدين الذي كان ضائعا وفاسدا من قبل وأصبح رجلا صالحا كأنه ولد من جديد. ربط علاقته مع أمّه وأخواته وأهله وردّ كلّ أموال أبيه التي نهبها من أهله بعد موت أبيه. بدأ أن يذهب إلى المسجد وأن يؤمّ بالصلاة حتى أراد لأداء الحج. إعتقد الناس كلهم أن هذ التغيرات كلها حدثت نتيجة لمعجزة الحنين. وكذلك تواردت هناك أشياء غريبة في البلد في ذلك العام. إرتفعت أسعار القطن والتمر. وبنت الحكومة مستشفى كبيرة ومدرسة ثانوية ومدرسة للزراعة. وعادت الفائدة على البلد. فوق كلّ هذه الأحداث العجيبة قد تحققت قول الحنين أن الزين - الرجل النحيل الشين القبيح - سيتزوّج أجمل بنت في البلد.

قرّرت نعمة أن تزوّج الزين. ولكن والداها وإخوتها رفضوا إرادتها وقرارها. ولكنها أصرت على عزمها فوافقوا عليها. أعلن حاج إبراهيم، أبو نعمة الخبر عن عرس بنته نعمة مع الزين حتى أفشى هذا الخبر عرض البلد في كلّ الجهة وظهرت كثيرة من التفاسير عن هذا الزواج وأصبح هذا الخبر موضوع الكلام في أفواه كلّ الناس من الصغار إلى الكبار. أخيرا قد وصلت يوم حفلة العرس. أجرى الإمام مراسيم الزواج في المسجد. وقد إشتراك البلد كلها في هذا الزواج وزغرد كلهم وفرح كلهم. كان هناك الرقص والغناء والطعام، واشتركت القرية في هذا الزفاف وجعل الناس هذا العرس أجمل حفلة في البلدة.

حينما كان الناس يشتغلون في هذه الأمور، في الغناء والرقص والطعام، فجأة تنبّه محجوب أن الزين قد إختفى من الناس. بحثوه في كلّ الأماكن حتى أصابهم الذعر وظنوا أنّ الزين قد رأى هذا العرس أيضا عبثا كما حدث في حبه من قبل. ولكن فجأة ذكر محجوب أنّ الزين سوف يكون في المقبرة. وكلهم هربوا إلى هناك وراء محجوب فرأوا الزين جاثما عند قبر الحنين نحيبا وقال " أبونا الحنين إن كان ما مات كان حضر العرس". فذكره محجوب أن هذه الليلة ليلة عرسه والرجل لا يبكي ليلة عرسه. فقام الزين وسار معهم إلى البيت ووقف وسطهم عروسا وسيما.

تخلق هذه الرواية بأجواء ومشاهد أسطورية تطغي عليها النزعة الصوفية بتجسيده أنماط مختلفة من البشر. بطل الرواية الزين وإن كان قبيحا وهيئته شائنة، فإنه في داخله يحمل معاني كبيرة للجمال والنقاء. وهذه الرواية صورة من القرية السودانية التي يعيش فيها الإنسان الساذج في فطرته الكبيعة من الحبّ والحسد والقلق.

الزين

الزين هو الشخصية الرئيسية وهو المحور في هذه الرواية. تدور كل أحداث الرواية ووظائف الشخصيات الأخرى في فلك هذه الشخصية. الزين شخصية بسيطة من بلدة بسيطة في السودان. كلمة الزين معناها الجمال والطيب. ولكن صاحب هذا الاسم في الرواية ليس بوسيم ولا جميل المنظر. إنّ شخصية الزين قبيحة الشكل والهيئة، فشكله أكثر غرابة وبعدا عن أشكال الرجال من قومه. "كان وجه الزين مستطيلا، ناتئ عظام الوجنتين والفكين وتحت العينين. جبهته بارزة مستديرة، عيناه صغيرتان محمرتان دائما، محجراهما غائران مثل كهفين في وجهه. ولم يكن على وجهه شعرا إطلاقا. لم تكن له حواجب ولا أجفان، وقد بلغ مبلغ الرجال وليست له لحية أو شارب. تحت هذا الوجه رقبة طويلة (من بين الألقاب التي أطلقها الصبيان على الزين الزرافة) والرقبة تقف على كتفين قويتين تنهدلان على بقية الجسم في شكل مثلث. الذراعان طويلتان كذراعي القرد. اليدان غليظتان عليهما أصابع مسحوبة تنتهي بأظافر مستطيلة حادة (فالزين لا يقلم أظافره أبدا) الصدر مجوف، والظهر محدودب قليلا، والساقان رقيقتان طويلتان كساقَي الكركي أما القدمان فقد كانتا مفرطتين عليهما آثار ندوب قديمة"¹. هذا هو مظهر الظاهر في شخصية الزين. ولكن باطنه كان نقيضا لشخصيته الظاهرة ولذلك كان يعدّ من الدراويش أو كان من يطلق عليهم لفظ المبروكين.

وإن كان الزين قبيحا في الخارج فكان في داخله جميلا وكانت نفسه تبدو بالجمال. كان حسن القلب وطيب الأخلاق. يقول الطيب صالح مثنيا ميزات شخصية الزين "زين شخصية ملأ قلبه بالحب. يعطيه لكل بدون ضيق. هو جواد. وتدور القرية كلها حوله. هو ملآن من الحب الذي ينقلبها القرية كلها". كان الزين يعتبر رسول الحب والرحمة ولم تكن ذا خطورة على الفتيات اللاتي يعلن في الملء حبه لهن لأن نفسه ما كانت تميل إلى الشر والفساد. كانت للزين ثلاث علاقة حبية مع فتيات القرية التي أيقظت إنتباه أهل القرية إليها أمثال حبه مع عزة بنت عمدة وحليمة بنت البادية وعلوية أخت

¹ عرس الزين، الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص 188

محبوب. ولكن هذا الحب كله من ناحية الزين فقط. كان والدوا هذه البنات يستغلون هذه الفرصة من الزين ويسألونه لأن يخدم لهم في الأعمال في الحقول واعددين له أنهم يزوجونه من بناتهم. ولكنهم كانوا يزوجون بناتهم إلى رجال آخرين. أما أمهات البنات لاحظن أن الزين يعطي الحياة السعيدة والنعمة وحسن الحظ إلى بناتهن. وكذلك فهمن أن البنات اللاتي وقع الزين في حبّ معهنّ سوف يلاحقن زوجا من أعوان رجال البلد. "وفدت على الزين سونات خصب مفعمة بالحب. فقد أصبحت أمهات البنات يخطبن ودّه ويستدرجنه إلى البيوت فيقدّمن له الطعام، ويسقينه الشاي والقهوة. يدخل الزين الدار من تلك الدور، فيفرش له السرير، ويقدم له الفطور أو الغذاء صينية وأوان، ويؤتى بعد ذلك بالشاي السادة بالنعناع إذا كان الوقت ضحى، والشاي الثقيل باللبن إذا كان الوقت عصرا. وبعد الشاي يؤتى بالقهوة بالقرفة والجنزبيل، سواء كان الوقت ضحى أو عصرا. وما يسمع النساء أن الزين في دار قريبة حتى يتقاطرن عليه. فهن يستلطن عبثه. وتحت الأمهات بناتهن أن يجئن ويسلمن عليه. والسعيدة منهن من تقع في قلبه موقعا، والتي يخرج إسمها على فمه. تلك الفتاة تضمّن زوجا في خلال شهر أو شهرين"¹.

كان الزين طيب القلب وكانت له صداقات عديدة مع أشخاص تعدّهم القرية من الشواذ والعجزة مثل عثمانة الطرشاء وموسى الأعرج وبخيت الذي ولد مشوها ليست له شفة وجنبه الأيسر مشلول. كان الزين يعطف على هؤلاء الناس. كان الزين يساعد عثمانة الطرشاء إذا رآها قادمة من الحقل وعلى رأسها حمل ثقيل من الحطب. كان يحمله عنها ويلعبها ويداعبها. كانت هذه الفتاة تخاف من كلّ أحد في القرية، إذا تصادف امرأة أو رجلا في طريقها كانت ترتعب وتفرّج كأنهم وحوش مفترسة. ولكنها كانت تأنس وتصحب مع الزين وتضحك له "ضحكتها البكماء المحزنة التي تشبه صياح الدجاج". أمّا موسى هو رجل لا يذكر الناس إسمه ولكنهم كانوا يسمونه الأعرج، كان رجلا طاعنا في السن وكان يعاني كثيرا في مشيته. كانت حياته متعبا شاقا. كان عبدا رقيقا لرجل غني في

⁽¹⁾ عرس الزين، الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 200

القرية. ولما منحت الحكومة حرية الرقيق فضل موسى أن يبقى مع سيده. كان سيده شغوفاً به يحبه ويبره ويعامله معاملة الإبن. ولما توفي سيده آلت ثرواته كلها إلى ابنه السفيفه فبدد كل المال وطرده موسى. والآن أصبح موسى عجوزاً وليس له أهل ولا أحد لأن يعني على أمره. "فعاش على حافة الحياة في البلد كما تعيش بعض الكلاب العجوزة الضالة التي تأوى إلى خرابات الليل وتبحث عن القوت نهاراً في فجوات الحي يتحرش بها الصبيان". عطف الزين على هذا الرجل وبنى له بيتاً من جريد النخل. كان يأتي إليه في الصباح فيسأله كيف بات ليله ويأتيه بعد غروب الشمس وكانت جيوبه مملوئة بالتمر وأوقية شاي أو رطل سكر أو شيء من البن. عندما يسأل موسى الأعرج عن الصداقة التي بينه وبين الزين فيقول وفي عينيه غشاوة من الدمع: الزين حبابه عشرة، الزين ود حلال".

فمن الواضح أن شخصية الزين يجري فيها مزاجان متناقضان؛ ومن جهة أولى هو صاحب شخصية ناقصة تائه العقل، يصبح خاضعاً للسخرية من العالم المحيط به. ويبدو أنه ليس صاحب أي موقع في المجتمع. كان الناس يعتبره غير جدياً وساذجاً وطفلاً وكانوا يقبلون منه التصرفات التي لا يسمحون لأحد غيره بفعلها، كان يخالط مع نساء القرية عند البئر وسط البلد، ويملك أوعيتهن ويمارحن ويضاحكن ويتمادى في مشاكستهن. "وكان الزين على البئر وسط البلد يملأ أوعية النساء بالماء ويضاحكن كعادته فتجمهر حوله الأطفال. فكان يرميهم بالحجارة ويجر ثوب فتاة مرة، ومرة يهزم امرأة في وسطها، ومرة يقرس أخرى في فخذها والأطفال يضحكون والنساء يتصارخن ويضحكن وتعلو فوق ضحكهم جميعاً الضحكة التي أصبحت جزءاً من البلد منذ أن ولد الزين"¹. وبهذه السذاجة والطفولية كان الزين يلذ لذة الحرية لأن يتجول في كل دائرة الرجال والنساء والقوم والقبائل المختلفة. "حين يقام العرس، تفتش عن الزين، فتجده إما مسخراً يملأ القلل والأزيار بالماء أو واقفاً في منتصف الساحة عاري الصدر، في يده فأس يكسر به الحطب أو بين النساء في المطبخ يعابثن، ويعطينه من آن لآخر قطعاً من الطعام يملأ بها فمه، وما يفتأ

⁽¹⁾ عرس الزين، الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 185

يضحك ضحكته التي تشبه نهيق الحمار"¹. استطاع الزين أن يّحد القبائل المختلفة كما حدث في أمر قبيلة قوز. أحبّ الزين فتاتا من قبيلة قوز الذين كانوا يقيمون على أطراف النيل في شمال السودان، كانوا من أرض الكبابيش في كردفان يقدمون إلى شاطئ النيل في بعض المواسم طلبا للري. وأحيانا تلم بهم سنوات قحط حين تضمن السماء بالمطر، فيتساقطون على المناهل في ديار الشايقية والبديرية المقيمين على النيل. بعض من هذه القبائل كانوا يبقون على شاطئ النيل عندما تستهويم الحياة فيها. ومن هؤلاء عرب القوز. كانوا يشتغلون في الزراعة ويبيعون اللبن ويرعون الغنم، ويحلبون حطب الوقود، وفي موسم حصاد التمر يجمعونه لأصحابه مقابل أجر قليل. ولكنهم كانوا يختلطون بالسكان الأصليين. لا يتزاوجون مع السكان الأصليين، فهم يعتبرون أنفسهم عربا خلصا وأهل البلد يعتبرونهم بدوا أجلافا. وكانت هناك بعض الحدود والفوارق بين هذه القبيلة والقبائل الأخرى. كان بعض من هذه القبائل يخالطون بالقبائل الأخرى ولكنهم لا يشتغلون بالعلاقات الزوجية بينهم والأخرى. ولكن الزين كسر هذه الحدود ودخل إلى دائرة حياتهم. حتى أحب بنتا - حليلة - من هذه القبيلة وأعلن عن هذا الحب. "ولكن الزين كسر هذا الحاجز. كان لا يستقرّ في مكان، ما يزال سحابة نهاره صائحا في البلد من أقصاها إلى أقصاها. وحملته قدماء يوما إلى فريق القوز لغير سبب. فحام حول البيوت كأنه يبحث عن شيء ضاع منه. وخرجت فتاة راع الزين جمالها فتستمر في مكانه. وكانت الفتاة قد سمعت به، فإن شهرته وصلت حتى عرب القوز. فضحكت له وقالت تعبت به: الزين بتعرسني؟ وتبكم برهة، فقد فتنه جمال الفتاة وأخذته حلاوة حديثها، لكنه ما لبث أن صاح بأعلى صوته: واكتلتي ياناس"².

وإن كان الزين قبيحا وشينا في ظاهره الجسدي كان هاديا ومشرفا في إكتشاف الجمال في القرية. كان يكتشف أجمل بنات في البلدة، ويقع في الحبّ معها ويعلن عن عاطفته الحبية معها. وكان الناس يؤمنون أن الزين إذا نشر نور الحبّ

(¹) المصدر السابق، ص - 199

(²) عرس الزين، الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 197

على أحد من الفتاة ولا شك سوف تنال زوجا من أعيان البلد. وهنا أيضا حدثت هذه العجيبة. فقد تسامع الناس عن هذه الفتاة وجاء كثير من أغنياء البلد وشبانها المرموقين ووجهائها يخطبون من أبي هذه الفتاة. وتزوجها آخر الأمر ابن القاضي في البلدة من القبيلة الأخرى. هكذا أصبح الزين سببا لوجود الإتحاد بين القبائل المختلفة في البلدة.

وعلاوة على ذلك، الزين هو صاحب مزاجين متناقضتين في الناحية الأخرى. كان الزين صاحب جسم نحيل يبدو للرأي ضعيفا. أما الأمر العجيب هو أن هذا الجسم النحيل يحمل قوة وحشية يخافها الناس كلهم في القرية. "تدفقت في جسم الزين النحيل قوة مريعة جبارة لا طاقة لأحد بها. أهل البلدة جميعا يعرفون هذه القوة الرهيبة ويهابونها وأهل الزين يبذلون جهدهم حتى لا يستعملها الزين ضد أحد. إنهم يرتعدون روعا كلما ذكروا أن الزين أمسك مرة بقرني ثور جامح إستقرّه في الحقل، أمسك به قرنيه ورفعاه عن الأرض كأن حزمة قش وطرح به ثم ألقاه أرضا مهشم العظام، ومرة في فورة من فورات حماسه قلع شجرة سنط من جذورها وكأنها عود ذرة. كلهم يعلم أن في هذا الجسم قوة خارقة ليست في مقدور بشر"¹. وبنفس هذه القوة الخارقة قبض الزين على سيف الدين حينما وقع بينهما المشاجرة. صار سيف الدين فريسة سهلة صاها الزين. وكاد يهلك لولا أن الحنين ظهر في تلك اللحظة. حينما قبض الزين على حلقه، أحس سيف الدين أنه غاب عن الدنيا البتة، ورأى تمساحا ضخما في حجم الثور الكبير فاتحا فمه. وانطبق فكا التمساح عليه، وجاءت موجة كبيرة كأنها الجبل. فحطمت التمساح في هوة سحيقة ليس لها قرار. في هذا الوقت أنه رأى الموت وجهها لوجه"².

أما في ناحية أخرى كان الزين مالك قلب حنون واسع يكسر كل الحواجز والحدود والسدود في طريق الحب والرحمة. ولكنه مثل كل إنسان عليه أن يواجه الشر الذي يقابله. فلهذه المواجهة منحت قوة خارقة في جسمه الذي يهابه كل الناس

⁽¹⁾ عرس الزين، الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 222

⁽²⁾ المصدر السابق

في القرية. فإذن كان قلب الزين تملأ بقوة الحب وجسمه يمثلء بقوة الموت. ولكن الحب هو القوة الغالبة على الزين. يثبت الطبيب صالح خلال هذه الشخصية حقّ المسكين والفقير في السعادة والتوفيق في الدنيا ليس في الآخرة فقط. وهو يبيّن أنّ من يفكر ويعمل للآخرين ويبذل جهده وحياته في خدمة أهل بلده يستحقّ أن يتمتع بحب وتقدير من حوله وإن كان ناقصا من الجمال والوسامة والمال.

كانت قرية الزين منقسمة إلى فرق متعارضة وكانت عالما مليئا بالتفاوت والمعارضات. هناك فريق الإمام، فريق محبوب، فريق الرجال الكبار العقلاء، فريق الشباب، فريق المتغامرين وفريق المتردّين. أمّا "كان الزين فريقا قائما بذاته". لأنه كان مشغولا بنفسه في الأمور بين النساء وبين الشواذ وفي حفلة العرس والرقص. ولكنه كان يقضي معظم أوقاته مع فرقة محبوب. حتى كان الرجال في فرقة محبوب يرونه في الواقع إحدى المسؤوليات الكبيرة الملقاة على عاتقهم. فلذلك كانوا يحرصون أن يبعدوا الزين عن المشاكل. وإذا وقع الزين في ورطة أخرجه منها. وكان هؤلاء الرجال يعلمون عنه أكثر ممّا تعلمه أمه وكانوا يشملونه بعنايتهم وترعاه ورعايتهم وكانوا يحبّونهم ويحبّهم.

الزين هو شخصية مترجّة بالظواهر العادية من الإنسان والنواحي الأسطورية. ولذلك يصوّر الروائيّ الزين الطفل مختلفا من الأطفال الآخرين في وقت مولوده. يصفه الرواي هكذا "يولد الأطفال فيستقبلون الحياة بالصرخ، هذا هو الأمر المعروف، ولكن يروي أنّ الزين والعهدة على أمه والنساء اللاتي حضرن ولادتها، أوّل ما سنّ الأرض، انفجر ضاحكا، وظلّ هكذا طول حياته". ثم يبيّن الروائي عن أسفانه. عندما كبر الزين كان له سنّ واحد فقط في فكه الأعلى وسنّ واحد في فكه السفلى. وفي هذه الأوصاف يأتي المؤلف بهذه الشخصية إلى عالم أسطوري. فهو يبيّن ماذا حدث لأسنان الزين على لسان أمه. تقول "إنّ فمه كان مليئا بأسنان بيضاء كاللؤلؤ. ولما كان في السادسة ذهبت به يوما لزيارة قريبات لها. فمرّا عند مغيب الشمس على خرابة يشاع أنها مسكونة،

وفجأة تسمر الزين مكانه وأخذ يرتجف كمن به حمى، ثم صرخ. وبعدها لزم الفراش أيّاماً. ولمّا قام من مرضه كانت أسنانه جميعاً قد سقطت، إلا واحدة في فكه الأعلى وأخرى في فكه الأسفل"¹.

والشئ الآخر الذي يشير به الرواي إلى أسطورية الزين هو صداقة الزين مع الحنين الرجل الصالح المنقطع للعبادة. "روجت أمّ الزين أن ابنها الزين ولي من أولياء الله وقوي هذا الإعتقاد صداقة الزين مع الحنين"². وكان الحنين لم يتعلّق ولم يتحدث بأيّ إنسان في البلد إلا بالزين. إذا قابل الزين في الطريق عانقه وقبّله على رأسه، وكان يناديه المبروك. وكان الزين أيضاً يحترم الحنين. كان يترك عبثه ولهوه ويسرع إليه ويعانقه. ولم يكن الحنين يأكل طعاماً في بيت أحد إلا بيت الزين. كان يأخذه إلى بيته ويأمر أمّه أن تصنع الغداء أو الشاي أو القهوة. ويشغل الزين والحنين ساعات في ضحك وكلام. وكان أهل البلد يتعجبون بهذه الصداقة والعلاقة الودية بينهما وكانوا يحاولون أن يعرفوا من الزين سرّها فلا يزيد الزين على قوله: "الحنين راجل مبروك"³. وبهذا الإعتقاد عن الزين لم يعتبره بعض الناس في القرية رجلاً صالحاً لأن يتزوج بنتاً من القرية لأنهم كانوا يرونه رجلاً درويشاً. ولذلك حينما عرفت أمّ حلّيمة عن حبّ الزين مع بنتها صاحبت لها "حلّيمة الموفقك شنو مع الدرويش دا؟"⁴. وناظر المدرسة أيضاً لم يعتبر الزين رجلاً صالحاً للزواج وهو الذي قال عنه "الزين رجل درويش ماله وما للزواج"⁵.

نعمة بنت حاج إبراهيم

نعمة بنت حاج إبراهيم هي بطلة هذه الرواية. أبوها حاج إبراهيم وأمّها سعدية، وهي أخت لثلاثة إخوة. هي فتاة جميلة جذابة. يرسمها الروائي

(1) عرس الزين، الأعمال الكاملة الطبيب صالح، ص - 178

(2) المصدر السابق، ص - 201

(3) المصدر السابق ص - 202

(4) المصدر السابق، ص - 198

(5) المصدر السابق، ص - 244

مختلفة من البنات الأخرى في البلد. كانت جريئة منذ طفولتها. حينما كانت طفلة كانت النساء في القرية جنن لزيارة أمها وكانت هؤلاء يلاعبن هذه الطفلة. ولكنها كانت تمقت الجلوس على حجورهن، ومسحهنّ وقبلتهنّ على خدّها وضمّهنّ على صدورهنّ. كانت تتلوّى في أذرعهنّ. ومرة لم تحمل بعث امرأة بدينة بها، وشعرت بذراعي المرأة الغليظتين تنطبقان عليها، "كأنها حيوان مفترس" أحست أن عطرها تخنقها. تمللت نعمة وحاولت أن تتخلص من قبضة المرأة. ولكنّ المرأة ضمّتها إلى صدرها بقوة وانقضت على وجهها بشفتيها المكتنزتين تقبلها على رقبتها وعلى خدّها، وتشمها. فصغتها نعمة على وجهها صفعة قاسية. هكذا كانت جريئة منذ طفولتها. ولكن عندما كبرت لم تعد طفلة، أصبحت شابة جميلة جذابة "أصبحت رؤوس النساء والرجال على السواء تلتفت إليها حين تمرّ بهم في الطريق". لكنها لم تهتم بجمالها ولم تأبه له. وليست نعمة مثل البنات الأخرى في البلد. كان الزين تغازل وتعبث كلّ البنات في القرية إلا مع نعمة ابنة عمها. "كل هذا وفي الحي فتاة واحدة لا يتحدّث الزين عنها، ولا يعبت معها. فتاة تراقبه من بعد بعيون حلوة غاضبة، كلما رآها مقبلة يصمت ويترك عبثه ومزاحه، وإذا رآها من بعد فر من بين يديها وترك لها الطريق"¹. كانت نعمة تمنع الزين من المغازلة مع النساء ويسبّه على هذا الأمر "كل هذا وفي الحي صبية حلوة وفورة المحيا، غاضبة العينين، تراقب الزين في عبثه ومزاحه وهزاره. وجدته يوما في مجموعة من النساء يضاحكهنّ كعادته، فانتهرته قائلة: ما تخلي الطرشرة والكلام الفارغ تمشي تشوف أشغالك. وحدجت النساء بعينيها الجميلتين. سكت الزين عن الضحك وطأطأ رأسه حياء ثم إنسلّ بين النساء ومضى في سبيله"².

أجبرت نعمة أباهما لإلحاقها في الكتاب لتعلم القرآن. وكانت هي البنت الوحيدة بين الأولاد في الوقت الذي فيه البنات لم يذهبن إلى المدرسة. تعلمت القراءة والكتابة في شهر واحد وحفظت بعضا من القرآن الكريم. ولكنها لم تفضّل

⁽¹⁾ عرس الزين، الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 200

⁽²⁾ المصدر السابق، ص - 204

بالتعليم الحديث. عندما شجعها أخوها لأن تستمر دراستها وأن تكون طبيبة قالت له وفي وجهها ذلك القناع الكثيف من الوقار "التعليم في المدارس كله طرطشة. كفاية القراءة والكتابة ومعرفة القرآن وفرايض الصلاة"¹. هكذا نشأت وأصبحت بنتا وقورة وكانت شخصيتها واعية تماما لمسؤولياتها. كانت تساعد أمها في أعباء البيت وتناقشها في كل شيء، وتتحدث إلى أبيها حديثا ناضجا جريئا يذهله في بعض الأحيان.

كانت نعمة صاحبة قدرة لإتخاذ قرارا حاسما وثابتا في أمور حياتها خاصة في أمر زواجها. أثبتت في قرارها وفي ميولها في كل الأمور المتعلقة بنفسها وبحياتها ولم تمل إلى أي أحد ولا إلى ميولهم. عندما بلغت في عامها من السادسة عشرة، فقدم كثير من الرجال طالبين يديها للزواج ولكنها رفضت كلهم وأكدت حبها نحو الزين ابن عمها.

كانت نعمة مدفوعة بايعاز داخلي إلى الإقدام على أمر لا يستطيع لأحد أن يردّها عنه. كانت نعمة شديد الواعية عن الحياة الزوجية ومسؤولياتها فيها. وكانت يفكر فيهما دائما وتؤمن زواجها يحدث على قضاء الله. ولكن لم تكن عندها أية صورة أو خطط مقدّمة عن زوجها القادم إلى حياتها كما تخطط الفتيات الأخرى عن زوجهنّ وحياتهنّ المستقبل. يقول الروائي "كانت نعمة حين تفرغ إلى نفسها وأفكارها، وتخطر إلى ذهنها خواطر الزواج، تحسّ أن زوجها سيحببها من حيث لا تحتسب. كما يقع قضاء الله على عباده، مثل كما يولد الناس ويموتون ويمرضون، مثل ما يفيض النيل وتهب العاصفة ويثمر النخل كلّ عام، كما ينبت القمح ويهطل المطر وتتبدّل الفصول كذلك سيكون زواجها. قسمة قسمها الله لها في لوح محفوظ قبل أن تولد، وقبل أن يجري النيل، وقبل أن يخلق الله الأرض زمانا عليها. لم تكن تحسّ بفرح أو بخوف أو أسى حين تفكر في هذا ولكنها كانت تشعر

⁽¹⁾ عرس الزين، الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 213

بمسؤولية كبيرة ستوضع على كتفها في وقت ما، قد يكون قريباً وقد يكون بعيداً¹. كانت تفكر عن زوجها القادم إما يكون متزوجاً له أبناء، أو رجل غير متزوج من قبل، أو يكون شاب وسيم متعلم، أو مزارع من عامة أهل البلد "مشفق الكفين والرجلين، من كثرة ما خاض الوحل وضرب بالمعول"، وقد يكون الزين. وحين يخطر الزين على بالها كانت تحسّ إحساساً دافئاً في قلبها، مثل المشاعر التي تحسّها الأم نحو أبنائها، من الحنان والشفقة. لأنها كات تعلم أن الزين هو طفل يتيم وهو ابن عمّه.

كانت طبيعة نعمة عنيدة وكانت تشوق إلى الحرية في الرأي. وقد أصرت على قرارها لزوجها مع الزين مع أنّ والديها وإخوتها رفضوا هذا الأمر. هذا الأمر أمر عجيب في مجتمع سودانيّ يمتلئ من القواعد والنظم والتقاليد وخاصة أنّ هذا المجتمع كان في سيطرة الرجال. وفي مثل هذه الحالة أصرت نعمة أن تتزوج الزين وشاعت في هذا الأمر كثير من التفاصيل في البلد. ولكن الراوي يبين الحقيقة هكذا "إلا أن المرجح أن الذي حدث غير هذا، وإنّ نعمة، بما فيها من عناد وإستقلال في الرأي، وربما بوارع الشفقة على الزين أو تحت تأثير القيام بتضحية، وهو أمر منسجم مع طبيعتها، قرّرت أن تتزوج الزين. ويرجح أن معركة عنيفة دارت في بيت حاج إبراهيم بين الأب والأم في طرف والبنات في الطرف الآخر. كان إخوتها غائبين فكتبوا لهم. ويقال أن الأخوين الكبيرين رفضا البتة وأن الأخ الأصغر قبل وقال في جوابه لأبيه: إنّ نعمة كانت دائمة عنيدة في رأيها. والآن وقد إختارت زوجها بنفسها فدعوها وشأنها. خلاصة القول أن حاج إبراهيم أعلن النبا فجأة"².

هكذا ترفض نعمة سيطرة الرجال حينما ترفض أن تخضع إلى إرادة أبيها وإخوتها في أمر زواجها. عندما رفضت خطبتها من رجل من أعيان الرجال "إحتد حاج إبراهيم في كلامه معها وهمّ بصفعها. ولكنه توقف فجأة. شيء ما في تلك

⁽¹⁾ المصدر السابق، ص - 214

⁽²⁾ عرس الزين، الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 268 - 269

الفتاة العنيدة قتل الغضب في صدره. لعله تعبير عنيها، لعله التصميم الرزين على وجهها. وكأنما أحس الرجل بأن هذه الفتاة ليست عاقلة ولا متمردة. ولكنها مدفوعة بإيعاز داخلي إلى الإقدام على أمر لا يستطيع أحد ردها عنه. ومن يومها لم يكلمها أحد في أمر الزواج¹. هكذا إختارت نعمة الرزين زواجا لها. وكان الناس يتعجب عندما سموا بهذا الخير أن نعمة أجمل بنت في البلد تتزوج الرزين القبيح. وأمنو أن هذه الحادثة حدثت نتيجة لتبني الحنين الرجل الصالح عن الرزين "باكر تعرس أحسن بت في البلد دي". وعندما عرضت جبتها نحو الرزين هي نفسها ذهبت إلى أم الرزين لعقد قرانها به.

يُصوّر الطيب صالح نعمة امرأة جديرة بالتقدير

والإعتبار. وهي نموذج الأنثى الجميلة الإفريقية والسودانية الواعية الحازمة. ترفض سيطرة الرجال في المجتمع السوداني مع أنها لم تحصل على التعليم الحديث أو أنها فعلت هكذا بدون أي تأثير من الآخر كما حدث في أمر حسنة بنت محمود في رواية "موسم الهجرة إلى الشمال". هي امرأة تليق إلى صورة امرأة التي تقوم في خيال الروائي؛ المرأة التي ترفض سيطرة الرجال في المجتمع، وهي المرأة التي تعاند على التقاليد والقواعد والنظم التي تقوم سداً أمام تطورها وتقدمها.

الحنين

والشخصية الأخرى المهمة في هذه الرواية هو الحنين.

وهذه الشخصية تميل ميلا إلى النزعة الصوفية. يعدّ الحنين من الفريق الشواذة في هذه القرية وهو الأهم منهم. الحنين هو رجل مبروك منقطع للعبادة حيث يقضي شطرا طويلا من حياته ضاربا في الصحراء. ويعتقد الناس أنه يظهر في مكانين معا في وقت واحد؛ المعجزة التي آتت إعتقاد أهل القرية في كراماته. وينتقل الناس قصصا غريبة عنه. هو رجل صالح يملك كل مقومات شخصية للوالي الصالح. هو رجل نبيل يحيط به الغموض كما يصفه أهل

¹ عرس الرزين، 268 - 269

القرية، "كان رجلا صالحا منقطعا للعبادة. يقيم في البلد ستة أشهر في صلاة وصوم، ثم يحمل إبريقه ومصلاته ويضرب مصعدا في الصحراء، ويغيب ستة أشهر، ثم يعود، ولا يدري أحد أين يذهب. ولكن الناس يتناقلون قصصا غريبة عنه. يحلف أحدهم أنه رآه في مروي في وقت معين، بينما يقسم آخر أنه شاهده في كرمه في ذلك الوقت نفسه - وبين البلدين مسيرة ستة أيام. ويزعم أناس أن الحنين يجتمع برفقة من الأولياء السائحين الذين يضربون في الأرض يتعبّدون. والحنين قلما يتحدّث مع أحد من أهل البلد، وإن سئل أين يذهب ستة أشهر كلّ عام لا يجيب. ولا يدري أحد ماذا يأكل وماذا يشرب، فهو لا يحمل زادا في أسفاره الطويلة"¹.

كانت بينه وبين الزين علاقة متبادلة، فالزين هو الوحيد الذي يأنس إليه الحنين في البلدة، وكان إذا قابله في الطريق ناداه بالمبروك. وهذه العلاقة بين الزين والحنين علاقة فذة. كان يربطهما ربط الحبّ والحنان وكانا يناديان بعضهما ببعض 'بالمبروك'. عندا يظهر الحنين فجأة من حيث لا يعلم أحد فيسيطر سيطرة روحية كاملة على أحداث الرواية في لحظة حرجة وخطيرة كاد فيها الزين الإنسان البسيط أن يزهرق روح سيف الدين. فاستطاع الحنين أن يحمي الزين من ارتكاب جريمة من القتل وأن ينقذ سيف الدين من موته بكلمة هادئة واحدة. والحنين هو الذي تنبأ أن الزين الأبله الساذج سيتزوّج أجمل بنت في البلد، وأصبح هذا التنبأ حقيقة. ويؤمن أهل القرية أن سيف الدين الرجل الفاسد والضائع والضال تسلم سبيل الخير في حياته بسبب كرامة الحنين بعد الحادثة؛ بعد المشاجرة بين الزين وسيف الدين. سمى الناس هذا العام 'بعام الحني' وكانوا يذكرون الأحداث التي حدثت في هذا العام حتى بعد السنين. يذكر الناس أن قريتهم تعرضت لكثير من التغيير الإيجابي في العام الحنين، تعرضت القرية إلى ازدهار المادي والروحي. ويؤمنون أن كلّ هذه التغيرات حدثت بكرامته. يقول الروائي عن هذه الأعجوبة هكذا "بعد ذلك توالى الخوارق معجزة تلو معجزة، بشكل يأخذ باللب. لم ترى البلد في حياتها عاما رخيا مباركا مثل عام الحنين كما

⁽¹⁾ عرس الزين، الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 201

أخذوا يسمّونه"¹. إرتفعت أسعار القطن إرتفاعا منقطع النظير في ذلك العام، وربحوا أرباحا هائلة في بيع القطن. محجوب وحده وباعتراف منه ربح أكثر من ألف جنيه من قطنه. وبنت الحكومة معسكرا كبيرا للجيش في الصحراء على بعد ميلين من بلدهم. فاحتاجت القرية إلى المواد الأكلية والشربية لهذا الجنود. فازدهرت البلدة في أمر الخضراوات واللحوم والفواكه واللبن حتى إرتفعت أسعار التمر إرتفاعا ليس له نظير في ذلك العام. وبنت الحكومة، التي يشبهونها في نوادرهم بالحمار الحرون، مستشفى كبيرا يتسع لخمس مائة مريض، ومدرسة ثانوية، ومدرسة للزراعة. ومرة أخرى عادت الفائدة على البلد، في الأيد العاملة، ومواد البناء وتوريد الغذاء. وظهرت الفرصة لتعلم أبنائهم ونيل حقهم من التعليم. وبعد شهرين من وفات الحنين نظمت الحكومة أراضي أهل الناس كلها في مشروع زراعيّ ومكنة الماء. وكانت هذا المشروع الزراعي ومكنة الماء من التغيّرات التي عارضها أهل القرية في قصة 'دومة ودّ حامد.

إعتقد كلّ من المحجوب وفريقه أنّ هذا كله حدث حقيقة لتنبؤ الحنين عن بلده. كانت معجزة سيف الدين بداية لأشياء غريبة تتابعت في القرية في ذلك العام. ولم يشك في أحد في هذا الأمر حتى محجوب الذي يميل قليلا إلى الإشتراكية حيث أنه والآخرين يرون المعجزة تلو المعجزة. وآمنوا أنّ مردّ ذلك كله إلى الحنين لأنه قال لأولئك الرجال الثمانية أو لقرقة محجوب أمام متجر سعيد ذات ليلة "ربّنا يبارك فيكم ربّنا يجعل البركة فيكم".

سيف الدين

سيف الدين رجل ممثّل للخبث والشر. وهو البطل المعادي في الرواية وهو نقيض لشخصية الزين. هو رجل فاسد تاه في الطريق المعوج في حياته ولكنه عاد إلى سبيل الخير بعد ذلك. يعتقد أهل البلد أنّ عودته إلى سبيل الخير حدثت

⁽¹⁾ المصدر السابق، ص - 237

نتيجة لكرامة الحنين. يقول روجر ألن "إذا قلنا إنّ الزين في المدينة هو مدير التقالب وصانع الأضاحيك وهو ميسّر الزيجات وراعي المساكين وإذا كان الزين كل هذا فسيف الدين على النقيض منه تماما. إنه الولد الفاسد لأب ثريّ بدّد ثروة الأب في اللهوة والخلاعة. فكان لزاما أن يتواجه الرجلان - الزين وسيف الدين - وأن يتصدى كل للآخر بما كان لهما من خلفية وقيم مختلفة تمام الاختلاف"¹. كان سيف الدين الإبن الوحيد لأب الذي كان صائغا في حياته. كان رجلا غنيا في البلد جمع كثيرا من الثروة بعرق جبينه. نشأ سيف الدين ولدا واحدا بين خمس بنات. كان إبنًا متدلا لأمه وأخواته الخمس. ونشأ بين أهل البيت والقرية كما يقول أهل البلد "كان لا بد أن ينشأ هشا رخوا، كالشجيرة التي تنمو في ظل شجرة أكبر منها، لا تتعرض للريح ولا ترى ضوء الشمس"². حاول أبوه لأن يربّي ابنه الوحيد تربية حسنة وأنفق عليه مالا كثيرا لتعليمه، ولكنه لم يفلح في محاولته. أنشأ له متجرًا في البلد ولكن سيف الدين أفلس هذه المتجرة في شهر. وبعد ذلك ألحقه أبوه بورشة كي يتعلم الصناعة ولكنه لم يكن معدًا لها. وفي الأخيرة ألحقه أبوه في وظيفة بعد الوساطة والشفاعة من كثير من الرجال وتعيّن لابنه وظيفة صغيرة في الحكومة لأن يتعلم ابنه كيف يعتمد على نفسه. ولكن الخبر وصل إلى الأب أنّ ابنه يبيت لياليه كله في خمارة ولا يجيئ إلى المكتب إلا مرة أو مرتين في الأسبوع. ولما قدم إلى بيته سجن ابنه في حقله.

وقضى عامه في الحقل وتربية ورعاية الماشية. ولكنه ما زال يشغل بالألعاب والتسلية بالليل في أماكن صنع الخمر والجواري. كانت هؤلاء الجواري رقيقا من قبل ولكن أعتقن من الرقة، فهاجرت بعضهنّ من البلد، وتزوجن بعيدا عن موطن رقهن وبعضهنّ تزوجن الرقيق المعتقدن في البلد وعشن حياة كريمة، وكانت بينهنّ وبين سادتهنّ السابقين ودّ وتواصل. أمّا بعضهنّ لم تستهوهنّ حياة الإستقرار، فبقين على حافة الحياة في البلد يطلبن فيها المعاش والرزق خلال طريق الهوى واللذة. "والحق أن

⁽¹⁾ عرس الزين، للطبيب صالح، التراث والتغيير، روجن ألن، الطبيب صالح دراسات نقدية، د| حسن أبشر الطبيب.

⁽²⁾ عرس الزين، الأعمال الكاملة الطبيب صالح، ص - 229

مجتمع الجواري هذا كان شيئا غريبا، فيه روح المغامرة والتمرد والخروج على المألوف. هنالك في طرف الصحراء بعيدا عن الحيّ، تقبع بيوتهنّ المصنوعة من القش. بالليل، حين ينام الناس ترتعش من فرجاتها أضواء المصابيح وتسمع منها ضحكات مخمورة نشوى. ضاق بها أهل البلد فأحرقوها، لكنها عادت إلى الحياة مثل نبات الحلفاء، لا يموت. وطرّدوا سكانها وعذبوهم بشتّى السبل، لكنهم لم يلبثوا أن تجمعوا من جديد، كالذباب الذي يحطّ على بقرة ميتة. وكم من شاب مراهق، خفق قلبه في جنح الظلام حين حمل إليه الليل ضحكات الجواري وصياح المخمورين. في تلك الواحة على حافة الصحراء، شيء مخيف، لذيذ رهيب، يغري بالإستكشاف"⁽¹⁾. خلال هذه الفقرة يبيّن الطبيب صالح عن ظهور نوازع الفاحشة وإنتشارها في المجتمع وهو يتهم تهمة على إدارة الحكم في السودان التي اعتقت الرقيق من رقهم ولكن فشلت في تكوّن السبيل لرعاية هؤلاء الرقاق الذين لم يجدوا فرصة أو طريقا لإقامة حياتهم وتجربتها في السبيل المستقيم، فإذن إختاروا حياتهم في الطريق المعوج. هذا أمر واقعيّ ليس في المجتمع السوداني فقط، بل في المجتمع العالم كله. فلقد هناك كثير من الناس في المجتمع المختلفة الذين يجبرون لأن يقودوا حياتهم في الظلمات مع أنهم كانوا يفضلون الحياة في الضوء والنور.

صبر أبو سيف الدين تصرفات ابنه الفاحشة كلها ولكنه لم يستطع أن يقف مع غربة ابنه في زواجه مع جارية من هذه الجواري الفاحشة. ضرب ابنه وطرّده من البيت وعدّه من الموتى. تاه سيف الدين في الأعمال الفاحشة في السرقة وفي القتل وعاش مع العاهرات، فحرمه الأب من الميراث ومات الأب بالغصّة المريرة على ابنه. وبعد الأيام عاد سيف الدين إلى البيت وادّعى على الوراثة من أبيه الذي لم يجعل ابنه وارثا على ثرواته. فسلب كلّ أمواله إلا نصيب الأم والأخوات وصرف كلّها في الفاحشات وصحب مع المومسات والفاستدين من الرجال. و"كان نوعا من الناس لم يعرفه أهل البلد في حياتهم. يجافونه كما يجافى المريض بالجذام". وفي حفلة زفاف أخته حاول أن يفسد هذه الحفلة. دعى

⁽¹⁾ عرس الزين، الأعمال الكاملة الطبيب صالح، ص - 230

كلًا من أصدقاءه من النساء الماجنات والسفهاء والصعاليك. ولكن أهل البلد ضربوهم وسردوهم من الموقع. هكذا أصبح سيف الدين بلاءا وشرًا على البلد. وبينما البلد تضج بأسرها من هذا البلاء حدث حادث الحنين وتغيّر سيف الدين على توهّ تغييرا عجيبا في خلقه وشخصيته وأصبح كأنه خلق من جديد. عاد إلى أمّه واستغفر الله لما فعله من الأفعال وأعاد كلّ أموال أبيه من ذمّته. وأخيرا أصبح مؤدنا في المسجد ثمّ إماما لصلاة الجمعة حتّى عزم على تأدية الحجّ. هكذا تغيّر سيف الدين من أعماله الفاحشة العنيدة وتحول من سبيل الشيطان إلى سبيل الخير والهدى. أصبح أخيرا نصيحا للدين ومشاركًا في الحياة الإجتماعية في نواحيها الدينية والشخصية والإقتصادية والسياسية حتّى عندما يصل القراء إلى الرواية بنذر شاه يجده منتخبا في البرلمان.

الإمام

أمّا شخصية الإمام هو الشخص الوحيد الذي يغضب الزين في القرية. ولم يستفز الزين من إنسان مثلما يستفز من إمام المسجد الذي لا يعمل شيئا إلّا تذكير الناس بالموت والآخرة. وهو رجل يمثل الإسلام الرسمي وهو الذي يعقد العقد بين المتزوجين في حفلة الزواج في القرية. رآه الناس في القرية رجلا منعزلا عنهم لأنّه غير مهتمّ إلا بالأمور التي تخصّ بأحكام الدين وأوامره ونواهيه، ويعيش في البرج العاجي، ولا يبدي الإمام إلّا أقلّ إهتمام بحياة الناس اليومية. وهذا العدم من إهتمامه بأمور الناس العام وعدم وعيه عن مسؤوليّاته يخلق مشاعر الحقد والرفض في قلوب الناس نحو الإمام. "كان رجلا ملحا متزمتا كثير الكلام، في رأي أهل البلد. كانوا في دخيلتهم يحتقرونه، لأنّه كان الوحيد بينهم الذي لا يعمل عملا واضحا - في زعمهم. لم يكن له حقل يزرعه ولا تجارة يهتمّ بها، ولكنه كان يعيش من تعليم الصبيان، له في كلّ بيت ضريبة مفروضة، يدفعها الناس عن غير طيب خاطر. وكان يرتبط في أذهانهم بأمور يحلو لهم أحيانا أن ينسوها: الموت، الآخرة، والصلاة. فعلق على شخصه في أذهانهم شيء قديم كئيب مثل نسيج العنكبوت. إذا

ذكر اسمه خطر على بالهم تلقائياً موت عزيز لديهم، أو تذكروا صلاة الفجر في عزّ الشتاء وما يرتبط بذلك من وضوء بالماء البارد وخروج من الفراش الدقيئ إلى لفح الصقيع، وسير في غيش الفجر إلى المسجد¹. هكذا كان الرأي عن الإمام لأهل القرية الذين يذهبون للصلاة. أما النوع الآخر من البلد الذين لا يذهبون إلى المسجد للصلاة أمثال محبوب وعبد الحفيظ وأحمد إسماعيل والطاهر الرواسي وحمد ود الرئيس من النفر "العصاة" كانوا يحسون عندما يتذكرون الإمام بإحساس غامض يثير القلق. مثلما يقول محبوب إذا سأله أحد عن الإمام أنه "راجل صعب. لا يأخذ ولا يدي". معنى ذلك أنه لم يكن يسايرهم أو يخوض معهم في أحاديثهم. لم يكن يهمه هل موسم الذرة في حقل عبد الحفيظ نجح أم فسد، وهل البطيخ في حقل ود الرئيس كبير أم صغير؟ كم سعر إردب الفول في السوق؟ هل هبط سعر البصل؟ لماذا تأخر لقاح النخل؟ كانت تلك أمور يفر منها بطبعه ويحقرها بسبب جهله بها. ومن ناحية أخرى كان هو يهتمّ بأمور لا يبايه إلا القليلون في البلد. كان يتتبع الأخبار من الإذاعة والنصحف ويحبّ أن يناقش هل ستقوم الحرب أم لا؟ هل الروس أقوى أم الأمريكان؟ ماذا قال نهرو وماذا قال تيتو؟⁽²⁾. ولكن أهل البلد الساذج البسيط كانوا لا يبالغون بهذه الأمور الدولية والسياسية، ولذلك وقد وجد نوع من السתר والقناع بينهم وبين الإمام.

ولكن الناس كانوا يعترفون بمنصب الإمام التعليمي

حيث أنه كان متخرجاً في الأزهر. وكانو يعترفون عن لسانه الفصيح الذي يلهبهم به في خطبه كأنه ينتقم لنفسه منهم. كان يذكرهم عن الحساب والعقاب والجنة والنار ومعصية الله والتوبة إليه "كلام ينزل في حقوقهم كالسم. يخرج الرجل من المسجد بعد صلاة الجمعة زائغ العينين ويحس وهلة كأن سير الحياة قد توقف. ينظر إلى حقله بما فيه من نخل وزرع وشجر، فلا يحسّ بأيّ غبطة في نفسه. يحسّ أنها جميعاً عرض زائل، وأن الحياة التي يحياها بما فيها من فرح وحزن ما هي إلا جسر إلى عالم آخر. ويقف برهة يسأل نفسه ماذا

⁽¹⁾ عرس الزين، الأعمال الكاملة الطبيب صالح، ص - 249
⁽²⁾ عرس الزين، الأعمال الكاملة الطبيب صالح، ص - 249

أعدّ لذلك العالم الآخر"⁽¹⁾. هكذا كان وقع كلام الإمام في نفوس الناس. أمّا في أمر الزين كان الإمام هو الشخص الوحيد الذي يكره الزين في البلد. كان الإمام لا يقرّر عن أعجوبة الزين وصديقه الحنين. كان يقول أحيانا أنّ الناس أفسدوا الزين بمعاملتهم له كأثمة شخص شاذ، والقول أنّ الزين ولي الله قول خرافي، والزين لنشأ عاديا إذا ربى تربية حسنة. وقال أيضا عن تحوّل سيف الدين من السبيل السيئ إلى السبيل الخير إذ أنه كان لا يؤمن عن القوة الخريفة للحنين فقال "أصبح سيف الدين المثل الذي يضربه كلّ مرّة على أنّ الخير ينتصر في النهاية. لم يحفل الإمام بأنّ الحنين، وهو يمثل الجانب الخفيّ في عالم الروحانيّات، وهو جانب لا يعترف به الإمام كان هو السبب المباشر في توبة سيف الدين"⁽²⁾.

فريق محبوب

والشخصيّات المهمّة في هذه الرواية هم مجموع من الناس الذي يعرف بفريق محبوب. ومن الواضح في الرواية أنّ مختلف الهيئات تحكم أمور البلدة. هناك الإمام والحنين للأمور الدينية وهناك الحكومة التي يشبّها الناس بالحمار الحرون، والعمدة لمعالجة الأمور المتعلقة بالدخل والضرائب.

ولكنّ الأمور في القرية كانت متناولة في أيّد الهيئة الأخرى. وهذه الهيئة هي فريق محبوب؛ نفس المحبوب الذي يلعب دورا مهمّا في الأعمال الأدبية الأخرى للطبيب صالح. يشتمل هذا الفريق من الرجال أمثال محبوب وعبد الحفيظ والطاهر الرواسي وعبد الصمد وحمد ود الرئيس وأحمد إسماعيل وسعيد. وهم عماد القرية يتناولون الأمور المتعلقة بالناس في الفرح والمرح والحزن والألم. "كانوا الرجال اللذين تلقاهم في كلّ أمر جليل يحلّ بالبلد. كلّ عرس هم القائمون عليه، كلّ مأتم هم الذين يرتّبونه وينظّمونه. يغسلون الميت فيما بينهم، ويتناوبون حمله إلى المقبرة. هم الذين يحفرون التربة

⁽¹⁾ المصدر السابق

⁽²⁾ عرس الزين، الأعمال الكاملة للطبيب صالح، ص - 252

ويجلبون الماء، وينزلون الميت في قبره، ويهيلون عليه التراب، ثم تجدهم بعد ذلك يستقبلون المعزين، ويديرون عليهم فناجين القهوة المرة. إذا فاض النيل أو إنهمر سيل، فهم الذين يحفرون المجاري ويقيمون التروس ويطوفون على الحيّ ليلاً في أيديهم المصابيح، يتفقدون أحوال الناس، ويحصرّون التلف الذي أحدثه الفيضان أو السيل. إذا قيل إن امرأة أو بنتا نظرت نظرة فاجرة إلى أحد، فهم اللذين يكلمونها وأحياناً يضربونها. لا يعينهم بنت من تكون. إذا علموا أن غريباً حام حول الحيّ حول المغيب فهم الذين يوقفونه عند حدّه. إذا جاء العمدة لجمع العوائد فهم الذين يتصدّون له، ويقولون هذا كثير على فلان، وهذا معقول وهذا غير معقول. إذا ألم بالبلد أحد رسل الحكومة فهم الذين يستقبلونه ويضيفونه، ويذبحون له الشاة أو الخروف، وفي الصباح يناقشونه الحساب قبل أن يقابل أحداً من أهل البلد. والآن وقد قامت في البلد مدارس، ومستشفى، ومشروع زراعي، فهم المتعهدون، وهم المشرفون، وهم اللجنة المسؤولة عن كل شيء. كان الإمام لا يحبهم، ولكنه كان يعلم أنه سجين في قبضتهم، إذ أنهم هم الذين كانوا يدفعون له مرتبه آخر كل شهر، يجمعونه من أهل الحيّ. كلّ موظف حكومة يحلّ بالبلد، وكلّ من له حاجة يريد أن يقضيها، سرعان ما يكتشف هذا الفريق، فلا تتجح له مهمّة أو يتمّ له عمل إلّا إذا تفاهم معهم. لكنهم كانوا كلّ صاحب سلطان ونفوذ لا يظهرون نزعاتهم الشخصية. لم يكونوا يصلّون، ولكن واحداً منهم على الأقلّ كان يحضر الصلاة مرّة في الشهر، ويكون غرض الزيارة في الواقع شيئاً غير الإستماع لعظة الإمام حينئذ يعطون الإمام مرتبة، ويتفقدون بناء المسجد إذا كان يحتاج إلى إصلاح"¹.

هكذا كان هؤلاء الناس هم أصحاب النفوذ في القرية

وهم كانوا من جيل المنتصف في القرية بين الخامسة والثلاثين والخامسة والأربعين من العمر إلّا أحمد إسماعيل فقد كان في العشرين لكنّه بحكم مسؤوليته وطريقة تفكيره كان واحداً منهم. يشتغلون في كلّ الأمور المهمّة في الحياة العادية في كلّ نواحيها، ويديرونها بالإهتمام والتقدير. ولذلك يتفوّقون على ضعف الحكومة الوطنية. هناك الإمام في القرية الذي يجري

⁽¹⁾ عرس الزين الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 252 - 254

المراسيم الشرعية للأحداث؛ هو يعقد مراسيم الزواج وصلاة الجنازة. ولكن فريق محبوب كانوا هم الحكام العلماني الديموقراطي الحقيقي في القرية حيث أنهم هم اللذين يعالجون الناحية التطبيقية لوعود الكاذبة من قبل الحكومة التي لا تهتم بأمور الناس وأحداثهم. وأهل الحكومة لا ينظرون إلى أمور الناس العامة الساذجة؛ إلى لمن هذا الزواج ولمن هذه الجنازة. أمّا هؤلاء الناس هم الذين يحتمون القرية من الكوارث الطبيعية والإنسانية - الفيضانات، والغرباء، والأعمال الفاجرة - الأمور التي تكون في مسؤولية الحكومة والبوليس والوالدين. وفي الحقيقة هؤلاء الرجال هم وزارة الأمور الداخلية والأعمال العامة والزراعية والأجنبية في المجتمع.

يقول الروائي أنّ هؤلاء الرجال كانوا يتحدثون بعض الأمور التي لم يستطع للآخرين أن يفهمها. هكذا كان حديثهم يجري في طريقة فذة. "حديث منقطع تتخلله فترات صمت. لم يكن صمتهم ثغرات في الحديث، بقدر ما كان إمتدادا له. يقول أحدهم جملة مبتورة... ما عنده فهم. ويقول الآخر: القاضي يعمل قاضي، ويضيف الآخر: ...زمان قلنا لكم طلعه من اللجنة قتلوا لا، ويقول الآخر: ...بإذن الله دي آخر سنة ليه. ولا يدري الغريب عنهم عن يتكلمون"¹. ولكن هكذا كان شأنهم، في حديثهم كأنهم يفكرون جهارا، وكأن عقول كلهم تتحرك في تناسق وفي ترتيب واحد. فيمضي حديثهم رتبيا مثل هذا. وعندما يذكر أحدهم جملة أو حادثة فتثير خيالهم جميعا في وقت واحد. "وفجأة تسري فيهم الحياة فكأنهم كومة قش اشتعلت فيها النار. يستوي جالسا بعيدا. ويخرج سعيد من مكانه. يقتربون بعضهم من بعض، حينئذ كأنهم يتحركون نحو تلك النقطة، ذلك الشيء في الوسط الذي يسعون إليه جميعا. يميل محبوب إلى الأمام، وتنغرس يدا أحمد إسماعيل في الرمل، ويضغط ود الرئيس بيديه على رقبتة. هذه هي اللحظة التي تلمحهم فيها بين النور والظلام وكأنهم غرقى في بحر. وأحيانا يحتدون في كلامهم، يتشاجرون، تخرج الكلمات من أفواههم كأنها قطع من الصخر، تتقاطع جملهم، يتحدثون في آن واحد، ترفع أصواتهم. في

(1) عرس الزين الأعمال الكاملة الطبيب صالح، ص -259

مثل هذه الحالات يظنّ الغريب عنهم إنهم غلاظ الطبع. لهذا تختلف الآراء فيهم، حسب اللحظات التي يراهم فيها الناس. بعض أهل البلد يعتبرونهم صامتين قليلي الكلام، لأنهم يصادفونهم في إحدى تلك الحالات، حين يقف حديثهم عند "آ" و"أو" و"لا" و"نعم". وبعض الناس يقولون عنهم أنهم ضحاكون كالأطفال، لأنهم صادف أن وجودهم في إحدى حالات غرقهم¹. هذه الأقوال يدلّ إلى قدرة الروائي الطيب صالح في فهمه وإدراكه ورسمه الأمور الدقيقة لشخصياته وهو يبيّن عن أحوال هؤلاء الناس في اجتماعهم في كلامهم وفي مظاهرهم خلال لغة جسمهم.

وإن كان هذا الفريق من الناس أي فريق محجوب قادرين على تناول الأمور التي ترتبط بالقرية لم يكن لديهم أية قدرة أو حول أمام رجل واحد؛ الحنين. وإن كان محجوب لم يصلّ في المسجد ولا يؤمن بقدرة الحنين الخريفة كان يقرّر بها ويتعجب بها. يقول الروائي عن هذه الحقيقة "أحسّ محجوب بخفقة خفية في قلبه. كان فيه رهبة دفيئة من أهل الدين، خاصة النساك منهم أمثال الحنين. كان يهابهم وبيتعد عن طريقهم ولا يتعامل معهم. وكان يحاذر نبوءاتهم ويحس بالرغم من عدم إهتمامه الظاهري، بأنّ لها أثرا غامضا"². هكذا مثل محجوب كان كلّ واحد من هذا الفريق يتعجّب بقدرة الحنين. تعجّبوا بمنظر الصلح والتسامح بين الزين وسيف الدين بعد ظهور الحنين. "وجاء الرجال كنهم، محجوب، وعبد الحفيظ، وحمد ود الرئيس، والطاهر الرواسي، وأحمد إسماعيل، وسعيد التاجر، كلّ واحد منهم أمسك بيد الحنين في صمت وقبلها"³. وأقرّوا بقدرة الحنين وحكمه على الأمور ما وراء حدود الوقت والزمن. "وغابا معا (الزين والحنين) في الظلام. رفّ على رأسيهما برهة قبسا من ضوء المصباح المعلق في دكان سعيد، ثم انزلق

(1) المصدر السابق، ص - 260

(2) عرس الزين، ص - 225

(3) المصدر السابق، ص - 226

الضوء عنها كما ينزلق الرداء الحريري الأبيض من منكب الرجل. ونظر محبوب إلى عبد الحفيظ ونظر سعيد إلى سيف الدين، ونظروا كلهم بعضهم إلى بعض وهزوا رؤوسهم¹.

يقول الروائي عن هذا الفريق بالفكاهة أنهم كانوا يجلسون

في الليل أمام دكان سعيد الناجر ولما ينتهي الأذان ويسمعا صوت الإمام في المسجد الصلاة الصلاة فيقيم كل واحد منهم ويذهبون إلى بيتهم ليحضروا عشاءهم. عندما كان الناس يصلون جماعة في المسجد، كانوا يتعشّون مجتمعين، جالسين في دائرة حول صحن الطعام تحت ضوء المصباح المعلق في متجر سعيد. يأكلون الدجاج المحمر، والملوخية بالمرق، والبابية المصنوعة في الطاحن. في كل ليلة يذبح أحدهم إمّا شاة صغيرة، وإمّا حملا. ويغذو عليهم أطفالهم بيزيد من الأكل، ينزل الصحن مليئا وما يلبث أن يرتد فارغا. هذا الوقت من الليل هو قمة يومهم. يأكلون أرزا وخزا سميكاً من القمح، وفتائر رقيقة تصنع على صاحنات ملساء من الحديد. يأكلون السمك واللحم والخضار والبصل والفحل، لا يبالون ماذا يأكلون. وحينما يفرغ الناس من صلاة العشاء ويتحدثون في هدوء وقناعة، وهؤلاء الناس حينئذ يشعرون ذلك الشعور الدافئ المطمئن، الذي يحسه المصلون واقفين صفا خلف الإمام، كقفا بكف، "وهم ينظرون إلى نقطة بعيدة غامضة تلتقي عندها صلواتهم. في هذه الفقرة يصوّر الروائي هذا المجموع من الناس منشطين في الأعمال الدنيوية مثل الناس الذين يذهبون إلى المسجد للصلاة.

ومن مزيّات هذا الفريق من الرجال كانوا هم الذين

يعلمون الزين ويدريونه مختلف طبقات الحياة لأن يدخله إلى الحياة الاجتماعية. كان الزين يقضي أعظم أوقائه مع فرقة محبوب. وكان هؤلاء ينظرون إلى الزين من إحدى المسؤوليات الكبيرة الملقاة على عاتقهم. كانوا يحبونه ويحرصون أن يبعده من المشاكل والمصاعب، فإذا وقع في ورطة أو مشكلة أخرجوه منها. كانوا يعلمون عن الزين أكثر مما

(1) المصدر السابق.

تعلمه أمه، يهتمون بعنايته وترعاه في كلّ عيونهم. وكانوا يحبونهم ويحبهم. وفي يوم الزواج كان محبوب هو الذي ناب عن أبي الزين في تمّ العقد في مراسيم الزواج. وكان هؤلاء الرجال الستة يعلمون الزين السلوك الحسنة مع الآخرين. هذا واضح في مناسبة عرس الزين حينما بارك الإمام الزين قائلا "مبروك. ربنا يجعل بيت مال وعيال" فتلفت الزين حوله ببلاهة، ولكن أحمد إسماعيل نظر إليه نظرة صارمة فطأطأ برأسه¹. وكذلك أهدأ محبوب الزين حينما رآه باكيا على قبر الحنين، يذكره أنّ الرجل لا يبكي في ليلة عرسه. "الله يرحمه. كان راجل مبروك.. لكن الليلة ليلة عرسك. الراجل ما يبكي ليلة عرسه. يا الله أرح"².

الزفاف

تدور هذه الرواية "عرس الزين" من أولها إلى آخرها حول حادثة واحدة هي زفاف الزين. وحفلة الزفاف هي فرصة السرور والفرح والمرح كما هي الحال في كلّ المجتمع وفي كلّ البلد في كلّ زمن. والحفلة مثل الزواج هي فرصة التآلف بين قلوب الناس وترك البغض والكره من قلوبهم وظهور التسامح والحبّ بين الفرق المتفرقة. " تدعو الرواية إلى المحبة والتسامح والتعاطف بين أولئك الذين كانوا في خلاف مع بعضهم ببعض، وبين الذين يعيشون في نفس القرية ولكنهم منقسمين في ظروف المعيشة المختلفة، وفي حالة الأمزجة والطباع المختلفة. بل الرواية هي أيضا دعوة إلى تسامح الأفكار المختلفة، والمعتقدات، وأنماط الحياة بدون تعصّب بغض"³. أنشأ عرس الزين فرصة لإجتماع الفرق المتفرقة في المجتمع حيث يتلاشى فيه الصراع والفرق مؤقتا، وتتحد الفرق المتفرقة بين الناس في القرية. ولم يكن هذه الزفاف سببا للإجتماع بين الزين ونعمة

⁽¹⁾ عرس الزين الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 271

⁽²⁾ عرس الزين الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 279

⁽³⁾ Tayeb Salih ideology and craft of fiction, Wail Hasan, p: 56

فقط ولكنه كان فرصة لتجمعات سعيدة من الفرق المختلفة غير المندمجين بعضهم ببعض لأسباب قبلية وخرقية وخرنية.

كان خبر عرس الزين خبر الدهشة في القرية ويستغل البعض من القرية هذا الخبر لأن يخون الآخرين يجعلهم مدهشين. خانت حليلة بائعة اللبن آمنة زبينتها وهي تطيل لها لبنا بقرش وقالت 'سمعت الخبر؟ الزين مو داير يعرس'. وحينما سمعت آمنة هذا الخبر كاد الوعاء يسقط من يديها وتستغل حليلة هذه الفرصة حينما إنشغلت بهذا النبأ وتغشها في الكيل. والطريفي الولد الصغير يتخلص من غضب ناظر المدرسة حينما تأخر في الحضور إلى فصله، وهو يدهش الناظر بخبر عرس الزين. "يا ولد يا حمار. ايه أخرك؟ ولمح المكر في عيني الطريفي : يا فندي سمعت الخبر؟ 'خبر بتاع ايه يا ولد يا بهيم؟ ولم يزعزع غضب الناظر من رباطة جأش الصبي، فقال وهو يكتم ضحكته: الزين ماش يعقدوا له بعد باكر" وسقط حنك الناظر من الدهشة وبخا الطريفي¹. وكذلك يتخلص الشيخ علي من دينه الذي أطاله على عبد الصمد شهرا كاملا فهو يستعمل خبر عرس الزين لأن يدهش عبد الصمد وأن ينجو من قضاء الدين ذلك اليوم. قال لعبد الصمد "كدي اقعد اتحدثك بالخبر دا' 'يا زول أنا مو فاضي لك ولا فاضي لي خيراتك. باقي أنا عارفك مستهبل داير تطربش علي قروشي' 'يمين قروشك حاضرات. كدي اقعد انحكك حكاية عرس الزين' قلت عرس منو؟' 'عرس الزين' وجلس عبد الصمد ووضع يديه على رأسه وظل صامتا برهة، والشيخ علي ينظر إليه مغتبطا بالأثر الذي أحدثه. وأخيرا وجد عبد الصمد يقول : أي لا إله إلا الله محمدا رسول الله. عليك الرسول علي دار حديث شنو دا؟ ولم يخلص عبد الصمد دينه في ذلك اليوم"². هكذا كان تأثير عرس الزين بين القرويين إذ أنهم كانوا يعتبرون الزين رجل الأضحوة والمزاح وليس رجل الجد لأن يتزوج امرأة. وعلى ذلك عندما سمعوا أن الزين،

⁽¹⁾ عرس الزين الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 181 - 182

⁽²⁾ المصدر السابق، ص - 182 - 183

الرجل القبيح والنحيل في البلد يتزوج أجمل بنت وأحسنها في البلد نعمة بنت حاج إبراهيم فأصبحوا مدهشين أكثر.

وصف الطيب صالح هذه الحفلة وصفا في صورة جذابة يحسّ بها القارئ كأنه يشارك في هذه الحفلة وسرورها. وخاصة هذ العرس عرس الزين الشخص المحبوب للقرية كلها، والزين كان مدعوا في كلّ حفلة الزفاف في البلد بغير دعوة. إحتفلت القرية كلها بهذا الإحتفال وشاركت فيه. إحتفلت القرية عرس الزين بالغناء والرقص واصبح هذا العرس مناسبة لكلّ واحد من القرية لنسي متاعب حياته اليومية. كان عرسا لم تر القرية مثله من قبل، مئات الزغاريد كانت تنتق مرة واحدة، قال الشيخ علي 'عرس الزين دا الله خلقني ما شفت زيه' وقال الحاج عبد الصمد 'علي بالطلاق الزين عرس، عرس صح، مو كذب'.

وقد إجتمعت وشاركت كلّ المغنيات في البلد في هذه الحفلة. أولا بدأت أمّ الزين نفسها أن تغني وهي كانت أكثر مسرورة بهذا الزفاف لأنّ ابنها الزين لا يتزوج امرأة عادية في القرية، ولكنه يتزوج نعمة بنت الحاج إبراهيم الذي يدلّ على كرم الأصل والفضل والجاه والحسب. زغردت أمّ الزين "ايوي ايوي ايوي ايوي" وزغردت معها جيرانها وأحبّائها وأهلها وعشيرتها وكلّ من يتمنى لها الخير. إشتراك في الغناء بنت عبد الله صاحبة لصوت عذب وكانت كثيرا ما تزغرد في أعراس الآخرين. وهناك سلامة المغنية الجميلة التي تنطق الياء جيما وغنت "اجوج اجوج اجوجا" وزغردت آمنة "ايوي ايوي ايوي" وهذه عثمানে الطرشاء تغني "اوو... اوو... اوو". وقد شاركت في الزفاف أحسن المغنيات وأحسن الراقصات وضاربات الدف وعازفي الطنابير. غنت فطومة أشهر مغنية في غرب النيل بصوتها المثير:

انطق يا لسان جيب المديح اقداح الزين الظريف خلا البلد أفراح .

لم تبق امرأة في عرس الزين إلا أن تزغرد. إمتلأت القرية كلها بالوافدين والقادمين للزفاف. حفلت كل الديار في البلدة من المشتركين في العرس. أجرى الإمام مراسيم الزواج في المسجد. ناب حاج إبراهيم عن إبنته وناب محجوب عن الزين. ولما تم العقد قام محجوب ووضع المهر من مائة جنيه ذهب على الصحن. دمدم طبل النحاس الكبير وهدر. وهكذا غرق الزفاف في الغناء والرقص ودمدم الطبول.

جاء كثير من الناس من مختلف القبائل في البلدة، من مختلف الأماكن والأركان إلى حفلة الزفاف. "تقاطر على الحفل عرب القوز يتسابقون على جمالهم فاستقبلهم الطاهر الرواسي، وأنزلهم في إحدى الدور، وأمر لهم بالطعام والشراب. وجاء فريق الطلحة عن بكرة أبيه فتصدى لهم أحمد إسماعيل وأنزلهم، ربط دوابهم وجاء لها بالعلف، ثم أمر لهم بالطعام فطعموا وشربوا. وجاء الناس من بحري وجاء الناس من قبلي. جاؤوا عبر النيل بالمراكب، وجاؤوا من أطراف البلد بالخيول والحمير والسيارات، فأنزلوا زمرا زمرا، في كل بيت طائفة، يقوم على خدمتهم أفراد العصابة، فهذا يومهم، يعدون لكل شيء عدته لا تفوتهم صغيرة ولا كبيرة. لن يمسوا طعاما ولن يذوقوا شرابا حتى يأكل ويشرب الناس. زغرودة منفردة ثم مجموعة زغاريد، ثم طبل وحيد يهيمهم، ثم طبول كثيرة لأصواتها أصداء. ولوح الرجال بأيديهم وهزوا بالعصى والسيوف، وأطلق العمدة من بندقيته خمس طلقات. نحرت الإبل، وذبحت الثيران، ووكتت قطعان من الضأن على جنوبها. كل أحد جاء أكل حتى شبع وشرب حتى ارتوى"¹.

يبين الروائي خلال هذه الفقرات عن جمال العريس السوداني في حفلة الزفاف هكذا "وكان الزين يبدو مثل الديك، لا بل أجمل مثل الطاؤوس. ألبسوه قفطانا من الحرير الأبيض، وبخزام أخضر، وعلى ذلك كله عباءة من المخمل الأزرق فضفاضة يملأها الهواء فكأنها شراع، وعلى رأسه عمامة كبيرة تميل قليلا إلى

⁽¹⁾ عرس الزين الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 272

الأمام، وفي يده سوط طويل من جلد التمساح، وفي إصبعه خاتم من الذهب، له فصّ من الياقوت في هيئة رأس الثعبان"¹.

كان الزين موضوع الضحك والمزاح لأهل القرية حتى موعد زواجه، أمّا الزواج يحوّل الزين إلى رجل بالغ اجتماعي. وإلى هذه الحقيقة يشير أحمد شمس الدين الحجاجي "إنّ الثياب الذي ألبسها أهل القرية على الزين في وقت الزفاف - قفطان من الحرير الأبيض - يعرض وعيهم عن الأحوال الكاملة. يقف الزين بينهم ممسكا سوطا من جلد التمساح. والتمساح رمز إلى الخصب كما يعتقدونها الناس في وادي النيل. وكذلك هو منبع الجود والفضل. والتمساح واحد من آلهة مصر القديمة التي تشير إلى نهر النيل"². وكان الزين يعتبر موضوع المزاح أو رجلا غير جدّيا ولكنه عندما يدخل إلى الحياة الزوجية يصبح رجلا بالغا وجادًا في الحياة. وإلى هذا يشير قول أحمد حرب "إنّ صورة حلق الرقص وصورة الزين كالتاؤوس في وسط هذا الحلق يشير إلى كمالته. ترمز الدائرة إلى الكمالية والزين هو في وسط هذه الكلية. يصبح الزين رجلا جديدا عندما يتزوج امرأة. فمقارنته بالتاؤوس تشير إلى مولوده الثاني لأن التاؤوس شعار للتحويل. يعتبر التاؤوس في علم الأيكونات (التمثيل) الإسلامي شعارا إلى كون. فإذن هناك دائرتان تطابق بعضهما على البعض. الدائرة الصغيرة يقوم فيها الزين تشير إلى كليته الشخصية والدائرة الكبرى من الرقص تشير إلى الكلية الاجتماعية"³.

يصوّر الطيب صالح بيت العرس مكانا يجتمع فيه الأمور المتناقضة. يجتمع فيه تلاوة القرآن والذكر والغناء والرقص معا. "جواني الواحة غنين ورقصن تحت سمع الإمام وبصره. كان المشايخ يرتلون القرآن في بيت، والجواني يرقصن ويغنين في بيت، المذاحون يقرعون الطار في بيت، والشبان يسكرون في بيت. كان

(1) المصدر السابق، ص - 272 - 273

(2) The myth maker: Tayeb Saih, Ahmad Shamsuddin al Hajjaji, p: 129.

(3) Half way between north and south: An archetypal analysis of the fiction of Tayeb Salih, Ahmad Moosa Harb.

فرحا كأنه مجموعة أفراح. وكانت أمّ الزين ترقص مع الراقصين، وتنشد مع المنشدين. تقف هنيئة تستمع للقرآن، ثم تهوّل خارجة إلى حيث يطهى الطعام، تحث النساء على العمل. وتجري من مكان إلى مكان وهي تنادي: إيشروا بالخير. إيشروا بالخير"¹. يرسم الروائي هذا العرس رمز الاندماج الإجتماعي. هو حفلة تشتمل كلّ البيت في كلّ أركان القرية ونواحيها. إجتمعت فيها الأمور المتناقضة جنباً على جنب. إجتمع الإمام والعاهرات، إجتمع ترتيل القرآن والرقص، إجتمع المتقون من الناس والشاربون. وفي نهاية العرس إتحد الزين والإمام ووقفوا معا في العرس. كان الزين والإمام يعدّان بعضهما ببعض موضوع الغضب والكره من قبل، أمّا الآن فقد أدّى مراسيم زواج الزين، لأنّه إعتقد أخيراً أنّه من قضاء الله أن يتزوج الزين من نعمة. دهش الناس عندما رأوا الإمام يهتئ الزين في زواجه ويشترك في حفلة العرس يقرأ القرآن. هذه صورة مجتمع يبيّن فيها الروائي أنّ الأناس يمكن لهم أن يسوّوا نزاعاتهم الداخلية وأن يثبتوا توازنهم في الأمن والإنسجام.

رقصت الفتيات وصقّ الرجال وضربوا أرجلهم على الأرض وحملوا بحلوقهم. "تتماوج الزغاريد ويشتدّ التصفيق ويقوّي وقع الأرجل على الأرض ويخرج الغناء سلساً ملحناً من حلق فطومة:

التمر البيرق بدري سارق نومي شاغل فكري
الزول السكونة قشابي طول الليل عليه بشابي.

رقصت عثمانة الطرشاء وصقّ موسى الأعرج. ولم تلبث دقات الدلايك أن أبطأت وأصبح لها أزيز مكتوم. هذه نقرات الجابودي. وقويت حممة الرجال في حلوقهم. ودخلت سلامة حلبة الرقص. صالت وجالت وهي تزهو وتختال مثل

⁽¹⁾ عرس الزين الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 273 - 274

المهرة. كانت خير بنت ترقص الجابودي، وكان لها معجبون كثيرون، ترقبها عيونهم فتنتقلت منها كالسمكة في الماء. كثفت حلقة الرقص، واشتد التصفيق، وهدرت أصوات الرجال"¹.

"وتحوّلت دقات الدلائيك إلى العرضة. دقتان سريعتان

وأخرى منفردة. وأخذ الرجال يرمحون بأقدامهم كما تخبّ الخيل. وتقاطر عرب القوز على حلبة الرقص، فتواثبوا وتصايحوا بأصواتهم. رجال قصار القامات مشدود العضلات، أجسامهم ريانة ندية في مثل لون الأرض لأنهم يعيشون على لبن الإبل ولحم الغزلان، يلبس الواحد منهم ثوبا يربطه في وسطه ويلقي طرفيه على كتفيه. إذا قفز في الهواء لمع جسمه في ضوء الشمس، يلبسون في أرجلهم اخفاقا وفي ذراع كلّ منهم سكين في غمده. وتختلط أصوات الراقصين وضربات الدلائيك بدقات الطار ونشيد المداحين في البيت المجاور. هناك اجتمع حشد آخر في شكل دائرة أيضا ويدور فيها رجلان كلّ منهما ممسك بالطار أحدهما الكورتاوي وعميد المداحين. كان يقول:

نعم العبا والروح بي سبل القرش شاف
العلم لوّح زار جد الحسين.

وتختلط زغاريد النساء في حلقة المديح بزغاريد النساء في حلقة الرقص. وأحيانا يهاجر فريق من حلقة الرقص إلى حلقة المديح. هناك تتحرك أرجلهم ويثور حماسهم. كذلك يتحول فريق من حلقة المديح إلى حلبة الرقص، يهاجرون من الشوق إلى الصخب"².

هذه صورة جميلة واضحة لحفلة العرس السوداني

رسمها الروائي الطيب صالح بكلّ ألوان الزفاف من الرقص والغناء وضربة الدف والطبل وكلّ من التقاليد والقواعد والنظم السائدة في السودان. حينما يرسم الروائي هذه الصورة

(1) عرس الزين الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 274 - 275

(2) عرس الزين الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 276 - 277

الواضحة أمام القراء فهم يشعرون أنفسهم يرقصون ويغنون في هذه الحفلة. فمن القول أن الطبيب صالح نجح نجاحا بارزا في محاولته لأن يأتي بعالمه السوداني، حينما احتل هذا العالم الصغير في نفوس القراء من كل البلاد السوداني وغير البلاد العربية وغير العربية. يقول الطبيب صالح عن روايته عرس الزين "من حسن الحظ في هذه الرواية بالذات وهي رواية أحبها وأستطيع شخصيا قرائتها أحيانا دون الحساس بالخلل، ذلك الإحساس الذي يحسه الكاتب تجاه عمله. إن مادة الرواية وشخصياتها ساعدتني على إيجاد هذا الإحفاء مجتمع أعرفه وعشت فيه، والشخصيات فيه هي أهلي كما عرفتهم إلى حد كبير بيد أن في العمل طبعا عنصر الفن المتعمد، أي الدفع بالشخصية إلى أقصى مدى ممكن، أقصى حدود تحملها¹.

أما اللغة في هذه الرواية هي العنصر المهم الذي يجمع

هذه الرواية. هي اللغة العربية بعطرها السوداني أو اللهجة السودانية التي تنطق العربية نطقا خاصا. الحوارات في عرس الزين كلها في لغة محلية سودانية. ومن الواضح أن كل الأحداث في الرواية تحدث في قرية معينة في السودان والشخصيات كلها تنتمي إلى هذه القرية. فطبعا إختار الطبيب صالح اللغة المحلية في الحوار ومنح تقديمها مخلصا وصادقا للمتحدثين ولكلماتهم. فهو رسام بارع توزع الألوان بمهارة ويجري الخطوط حيث تتناسب الجمل مع طبيعة تلك الأحداث. لغته تتميز برهافتها وبساطتها، فليس فيها حشو ولا تعقيد ولا مبالغة. يستخدم اللغة التي يفكر بها ويتكلم بها مع اللغة الفصحى السوداني الأصل. يستخدم في هذه الرواية الإستعارات التي تتبع من خصوصية أرض السودان كقوله "ينتفخ صدر النيل كما يمتلئ صدر الرجل بالغيث" "كالذباب الذي يحل على بقرة مينة" "ولكنها عادت إلى الحياة مثل نبات الحفاء لا يموت". وفي موضع آخر يقول واصفا سيف الدين الذي لا هم له لأنه "لا بد أن ينشأ هشا رخوا كشجيرة التي تنمو في ظل شجرة أكبر منها لا تتعرض للريح ولا ترى الشمس".

¹ الصديق الكاتب، تبع الصفاء والمودة والحكمة، إبراهيم الصلحي، الطبيب صلح دراسات فنية، دأ حسن أبشر الطبيب، ص - 28

ولغته في وصف القرية تعكس حياة الزين البسيطة

والبلدة الملاى بالحياة والحب وتعكس قوة هذه الحياة البسيطة التي يعيشها أهل السودان في القرية. "تتابع الأعرام، علما يتلو علما، ينتفخ صدر النيل، كما يمتلئ صدر الرجل بالغضب. ويسيل الماء على الضفتين، فيغطي الأرض المزروعة حتى يصل إلى حافة الصحراء عند أسفل البيوت تنق الضفادع بالليل، وتهب من الشمال ريح رطبة مغمسة بالندى تحمل رائحة هي مزيج من أريج زهر الطلح ورائحة الأرض الخصبة الظمأى حين ترتوي بالماء ورائحة الأسماك الميتة التي يلقها الموج على الرمل. وفي الليالي المقمرة حين يستدير وجه القمر، يتحول الماء إلى مرآة ضخمة مضيئة تتحرك فوق صفحاتها ظلال النخل وأغصان الشجر. والماء يحمل الأصوات إلى أبعاد كبيرة، فإذا أقيم حفل عرس على بعد ميلين تسمع زغاريد ودق طبوله وعزف طنايبه ومزاميره كأنه إلى يمين دارك. ويتنفس النيل الصعداء، وتستيقظ ذات يوم فإذا صدر النيل قد هبط وإذا الماء قد انحسر عن الجانبين، يستقر في مجرى واحد كبير يمتد شرقا وغربا، تطلع منه الشمس في الصباح وتغسل فيه عند المغيب. وتنتظر فإذا أرض ممتدة ريانة ملساء ترك عليها الماء دروبا رشيقة مصقولة في هروبه إلى مجراه الطبيعي. رائحة الأرض الآن تملأ أنفك، فتذكرك برائحة النخل حين يتهاى للقاح. الأرض ساكنة مبتلة، ولكنك تحس أن بطنها ينطوي على سر عظيم. كأنها امرأة عارمة الشهوة تستعد لملاقاة بطلها. الأرض ساكنة ولكن أحشاءها تضج بماء دافق، هو ماء الحياة والخصب. الأرض مبتلة متوثبة، تنهيا للعطاء. ويطعن شيء حاد أحشاء الأرض. لحظة نشوة وألم وعطاء. وفي المكان الذي طعن في أحشاء الأرض، تتدفق البذور. وكما يضمّ رحم الأنثى الجنين في حنان ودفيء وحب، كذلك ينطوي باطن الأرض على حب القمح والذرة واللوبياء. وتتشقق الأرض عن نبات وثمر"¹. ما أجمل هذه اللغة الفياضة من قلم الروائي العبري العربي السوداني الطبيب صالح، وهي تفيض مجتمعة من كلّ جمال البيئة السودانية من نهر النيل وشجر الدوم والنخل والطلح واللقاح والبذور والرياح والندى والسماك والموج

¹ عرس الزين، الأعمال الكاملة الطبيب صالح، ص - 209 - 210

والرمل. والموسيقى من الطبول والطنابير والمزامير. إهتمّ فيها الروائيّ عودته إلى حضارته مع الإهتمام بالأسرار والسحر والفكاهة والأحزان وبيئة الريفية والدينية في السودان.

الطيب صالح و"موسم الهجرة إلى الشمال"

مشاعر العرب ضد الإستعمار كما تظهر فيها

دراسة نقدية

أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها

قدّمتها

حسينة. ب

تحت إشراف

بروفسور الدكتور أحمد إبراهيم رحمة الله

الرئيس السابق (المتقاعد)

قسم اللغة العربية بجامعة كاليكوت



قسم اللغة العربية

جامعة كاليكوت

كيرلا ، الهند

2012م

الفصل الثاني

بندر شاه - ضو البيت

يقول الطيب صالح عن روايته بندر شاه "هذا هو أهمّ كتاب عندي مع أنّ الحقيقة أنّها لم تتمّ لأني نشرت جزئين من هذه الرواية 'ضو البيت' و'مريود' وأرجو أن أكملها¹. ويقول وائل حسن أن الرواية 'بندر شاه' هي من إحدى التجارب المهمة في الأدب العربي من فترة الرواية الثلاثية لنجيب محفوظ. وكان الطيب صالح يتمنى أن يخرج هذه الرواية في خمسة أجزاء. ولكنه لم يستطع أن يكتب منها إلا جزئين - ضو البيت ومريود². تشتمل هذه الرواية في جزئها مجموعاً من الحوار والأحلام والرؤيا والنظرات الصوفية والقصص الصغرى والتفاصيل التاريخية. تخرج الرواية في كثير من المواضع من حدود الزمان والمكان وتتداخل في الأحداث في القرون الماضية والحاضرة.

كتب الطيب صالح الرواية بندر شاه في جزئها - ضو البيت، ومريود - بعدما كتب رواياته وقصصه الأخرى. ومن ميزات الطيب صالح الأدبية أنّ مؤلفاته الأدبية تبدو سلسلة من الكتب التي تصوّر الأحداث والتحوّلات التي وقعت في مجتمعه في بلده السودان. وعالج في كلّ كتبه بالتغيّرات والتحوّلات التي وقعت في هذا المجتمع حسب تاريخ إنتاج هذه الكتب. والرواية بندر شاه كتبها الطيب صالح بعد رواياته الأخرى ولكن الطيب صالح يعالج فيها ببعض الأحداث والوقائع التي وقعت في مجتمعه قبل كلّ الأحداث والوقائع المتناولة في أعماله الأخرى السابقة. لأنه يعالج في هذه الرواية بذكرياته عن بعض الأحداث التي تشير إلى تاريخ مجتمعه، ومع ذلك يبيّن فيها الروائي أحدث الوقائع والتغيّرات التي وقعت في المجتمع حالياً.

(1) الطيب صالح ملامح من سيرة ذاتية، طلحة جبريل، ص - 6

(2) Tayeb Salih ideology and craft of fiction, wail Hasan, p: 129

يناقش الطبيب صالح في هاتين الروايتين عن مشكلة السلطة. يقول في هذا الصدد "إخترت الاسم بندر شاه لأنّ موضوعنا هنا هو بحث عن المدينة (البندر) والبحث عن الحكومة التي تليق إلينا. تستكشف هذه الرواية عن هذين الأمرين. يناقش فيه عن السلطة في قرية ود حامد في شمال السودان. يصوّر فيه المصادمة أو الصراع في أمر السلطة بين الجيل القديم والجيل الجديد. والآن في القرية "هناك موقفان الذان يمثلان تفكيرين في القرية، أحدهما جيل عمر طويلا، والآخر جيل جديد، لا يريد أن يستمر على التقاليد الموروثة، ولكنه يحكم العلم ويسعى للتغيير من أجل حياة يراها من وجهة نظره أفضل"⁽¹⁾. أنتجت المدارس الجديدة المأسسة في السودان جيلا جديدا مزودا بالعلم الحديث؛ الجيل الذي يفكر في أسلوب مختلف من أسلوب القدماء. يشير أقوال سعيد القانوني أحد أشخاص الرواية إلى هذه الحقيقة "حكاية غريبة حصلت ما عرفنا أولها من آخرها. أولادنا أصبحوا ضدنا. المدارس فتحناها بالعرق والتعب والجري هنا وهنا، طلعت أولاد بقوا يتفاحصوا علينا. البلد أثارها اتلخبطت تحت رجلينا ونحن نايمين نوم العوافي"⁽²⁾. وقد تمّ هناك في القرية الصراع والنزاع حول السلطة أو القيادة في قرية ود حامد وانتزع القيادة - قيادة محبوب وفرقه - من مجلس القيادة والسلطة. وكانت هذه القيادة تقود القرية وتتناول أمورها لعشرين سنوات. ولكن الآن يعتبر الجيل الجديد هذه القيادة أو السلطة أو الحكومة القديم التي تقودها الأعضاء الكبراء في القرية حكما أو قيادة مستبدّة جبارة. يتمثل أولاد بكري هذا الجيل الجديد من القرية ويتزعم طريفي ولد بكري هذا الجيل الجديد. والأمر الملحوظ هنا أنّ أولاد بكري هم أولاد مريم، أخت محبوب قائد الفريق القديم الذي كان يتناول أمور القرية في الأيام الماضية. هذا الانقلاب والإضطراب في مجال الحكم والسياسة تشير إلى نهاية الحكم الأبوي وبداية الحكم الديمقراطي في السودان.

⁽¹⁾ قضايا في الأدب والنقد، ماهر حسن فهمي، ص - 324

⁽²⁾ ضو البيت - بندر شاه، الطبيب صالح الأعمال الكاملة، ص - 323

طرد الحكم الدكتاتوري من القرية نتيجة لمحاولات

شديدة التي أتت من قبل القوة الأخرى. كانت القوة الجديدة تتهم الحكم القديم بالفساد والنهب والإستغلال والسرقة ووعدت للناس بحكم خالص الذي يعتمد على الأعمال التطورية في المجتمع ومنحت للناس أحلاما جديدة عن المجتمع الخالص من الظلام والمجتمع المشرق بالضياء.

يجيئ الروائي في هذه الرواية في جزئها بذلك الحيز

الكبير في العلاقة بين الماضي والمستقبل وعلاقة الحاضر بينهما. يشير الطيب صالح في هذه الرواية إلى تقليد الوقت المستقبل عن الوقت الماضي في الأمور. تصوّر الرواية هذا الأمر خلال علاقة وطيدة خاصة بين الأجداد والأحفاد. فإذن تبدي الرواية صورة الحفيد في صورة طابقة بالجد. يتعلم الأحفاد ويأخذون بأسباب حضارة عصره ومنظوماتها السياسية والاجتماعية. وعند أول منعطف في حياتهم يتساقط كلّ ما اكتسبوا فيصبح حاضره بين الماضي والمستقبل أو بين ليلة وضحاها، ثم يعودون إلى السيرة الأولى ويدخلون في جلود الأجداد. ويذبح الحاضر قربانا للصلح بين الماضي والمستقبل وتتساقط القشور المكتسبة من حضارة العصر عند أول هبة ريح كأن الحاضر أو الحفيد يلبس ثوبا مستعارا أضطرّ لخلعه. يقول الطيب صالح "الفكرة في بندر شاه هي أنّ الماضي والمستقبل تشتغلان في المآمرة المستمرة ضدّ الحاضر أو أنّ الجد والحفيد هما في مآمرة ضد الأب في كل الوقت"¹.

يشير الروائي إلى هذه الفكرة خلال العلاقة المحبة بين

بندر شاه وحفيده مريود والجدّ حاج أحمد وحفيده محميد (الراوي). ينعكس الحفيد جدّه مثل صورة في المرأة كما تقول الرواية "وحيث تقف بينهما (بين بندر شاه ومريود) تحسّ كأنك تقف بين مرأتين وضعت إحداها قبالة الأخرى، كلّ واحدة منهما تعكس الصورة نفسها في إمتداد لا نهائي"⁽²⁾. يمثل الروائي عن هذه المآمرة بين الماضي والمستقبل ضدّ الحاضر

⁽¹⁾ TayebSalih ideology and craft of fiction, WailHhasan, p: 136

⁽²⁾ ضو البيت - بندر شاه، الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 299

خلال صورة بندر شاه وحفيده مريود. يجلس بندر شاه مفاخرا على العرش ومريود يضرب بالسياط على ظهر أحد عشر ابنا (أبناء بندر شاه وأعمام مريود) وهم مقيدون بالسلايل ويرتاح بندر شاه يرتاح من هذا المنظر.

وهكذا كانت هناك علاقة متينة بين الجدّ والحفيد الآخر في الرواية؛ هما حاج أحمد ومحميد. تتضح هذه العلاقة المتينة بينهما في مؤلفات الطيب صالح أمثال القصة 'حفنة تمر' والرواية 'موسم الهجرة إلى الشمال'. ولم يشر الراوي في أيّ موقع عن العلاقة بينه وبين أبيه. كان الراوي الطفل في حفنة تمر يرى جدّه أسوة لأن يتبعه في كلّ الأمور ولم يقل شيئا عن أبيه. "العجيب أنني لم أكن أخرج أبدا مع أبي، ولكن جدّي كان يأخذني معه حيثما ذهب"¹. وهكذا تبدو هذه العلاقة في صورة أوضح في رواية 'موسم الهجرة إلى الشمال'. "كنت أحبّ جدّي، ويبدو أنّه كان يؤثّرني... ولمّا سافرت خفت أن يموت في غيبتي... وكنت حين يلمّ بي الحنين إلى أهلي، أراه في منامي"².

ولكن هناك إختلاف بين هذين الحفيدين؛ مريود ومحميد. مريود يطيع جدّه بندر شاه في كلّ الأمور وينقذ له كلّ أموره، أمّا محميد وإن كان يحبّ جدّه حبّا عميقا، في بعض الأحيان فكان يطيع جدّه بنفر وغضب مثلما أطاع جدّه في ترك حبّه مع مريم وترك رغبته أن يكون مزارعا في قريته وفي سفره إلى الأوربا وكونه موظفا في العاصمة. حدثت كلّ هذه الأحداث في حياة الراوي حسب أوامر جدّه ورغبته.

⁽¹⁾ حفنة تمر، الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 479

⁽²⁾ موسم الهجرة إلى الشمال، الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 15 - 16

ضوء البيت

نشر الطيب صالح هذه الرواية عام 1971م. ترجمت هذه

الرواية إلى اللغة الإنجليزية من قبل دنيس جونسون ديفس تحت عنوان 'Dau Al – Beit in Bandarshah' في سنة 1996 وترجمت إلى اللغة الإفرنجية على أيدي وادي مينووسكي تحت عنوان 'Daw el – Beyt in Bandarchah' في عام 1985 وترجمها ميلاغروس نعيم إلى اللغة الإسبانية في اسم 'Bandarshah in La Boda de zeyn' عام 1987. وكذلك ترجمت هذه الرواية إلى اللغة الروسية والهولندية واللغة اليوغوسلافية.

أهدى الروائي الطيب صالح روايته هذه "ضوء البيت"

إلى والديه محمد وعائشة وأخيه بشير وأخته علوية الذين كانوا على قيد الحياة حينما كان يكتب هذه الرواية.

"إلى أبوي،

محمد وعائشة.

وإلى أخوي،

علوية وبشير.

ومهد الروائي بتمهيد من بعض الأبيات لثلاثة شعراء،

وهم شاعر سوداني مجهول وأبو نواس والفيطوري. أبو نواس شاعر عربي كلاسيكي والفيطوري شاعر سوداني في العصر حديث. وقد إختار الطيب صالح أبيات الشاعر السوداني المجهول تمهيدا لهذه الرواية لأنها تشتمل من كلمة 'بندر' وهذه الرواية هي الجزء الأول لروايته الثنائية "بندر شاه".

"الدرب أنشط، واللوس جباله أتناطن"

والبندر فوانيسه البيوقدن، مائن،

بنوت هضاليم الخلا البنجاظن،

أسرع، قودع، امسيت، والمواعيد فائن"

وأبو نواس هو شاعر مشهور في العصر العباسي

ولأبياته المذكورة هنا بعض العلاقة بمضمون هذه الرواية، لأنها تتعلق بالخيال والحقيقة والعلم والجهالة وحدودها.

"ألا، لا أرى مثلي أمتري اليوم في رسم،

تفص به عيني وينكره وهمي،

أنت صور الأشياء بيني وبينه،

فجهلي كلا جهل، وعلمي كلا علم"

والشاعر الثالث محمد مفتاح الفيتوري هو شاعر

سوداني مشهور. كتب كثيرا عن إفريقيا في أشعاره وسميت بعض دواوينه يضيف إليها اسم

إفريقيا مثل "عاشق من إفريقيا" و"أغاني إفريقيا" إلخ...

عبثت بي الأشواق

في حضرة من أهوى

ورقصت بلا ساق

حدقت بلا وجه

وطبولي الآفاق

وزحمت براياتي

وفنائني استغراق

عشقي يفني عشقي

سلطان العشاق"

مملوكك لكني

هذه الأبيات للشعراء الثلاثة تتناول موضوعات الحب

والخسارة والعبودية والحكم، الموضوعات التي تظهر في هذه الرواية. ويقول الكاتب وائل

حسن أن الروائي الطيب صالح اعتمد على أبيات أبي نواس في مقدمة الرواية ضو البيت

لأنه كان يريد أن يعود إلى طريق أو أسلوب آخر في كتابته الرواية أو القصة وأن يخرج من طريق القدماء في الكتابة. لأنّ هذه الأبيات لأبي نواس تشير إلى فكرة الشاعر في عدم تقليده عن أسلوب الشعراء العربي القديم، أو فكرته لأن لا يبدأ أشعاره بالوقوف على الأطلال وذكرىات المحبوب. يقول الشاعر في هذه الأبيات أنه لا يمكنه أن يرى المعاني من الأطلال والذكرىات ولا يتأثر بأي أثر في خياله وعواطفه من هذه الذكرىات كما كانت لها أثر عند الشعراء القدماء. وكان الشاعر أبو نواس يرفض أن يتبع أو أن يقلد الشعراء القدماء ولكنه كان يحلل هذه الآثار بمعاني جديدة.

تبدأ هذه الرواية مع جملة طويلة تبين أحوال محجوب الذي أصبح عجوزا وحاملا العلة في جسده. ومن المفهوم عندما أصبح محجوب عجوزا، فطبعا أصدقائه وفريق من الرجال الذي أشير في 'عرس الزين' والراوي أيضا وصلوا في نفس العمر لأنّ محجوب والراوي كانا زميلين منذ الطفولة وتعلما في نفس الفصل كما أشير الرواية 'موسم الهجرة إلى الشمال'. عندما يشرح الروائي عن محجوب فيشرح عن التغيرات التي وقعت لمحجوب خلال تلك الفترة. ومن الملحوظ هنا أنّ شخصية محجوب شخصية متكررة في أكثر من مؤلفات الطيب صالح. هو مزارع شاب في 'نخلة على الجدول' وهو رجل قائد في 'عرس الزين' و'موسم الهجرة إلى الشمال'. كان الراوي في الرواية يهدف إلى أن يبين للقراء عن التغيرات التي حدثت في قرية ود حامد على أيدي الزعيم محجوب ورفقائه. يستخدم الراوي لغة دارجة سودانية طوال هذه الرواية ولكنه أتى ببيانه وتعليقاته في اللغة العربية الفصحى.

تبدأ الرواية برجوع الراوي (محميد) إلى قريته (واد حامد) في السودان بعد تقاعده من الوظيفة الحكومية في الخرطوم، عاصمة السودان. عاد إلى قريته هادفا إلى أن يستقر حياته الباقية وأن يموت ويقبر هناك. وبعد عودته يعدّ لأن يجمع ذكرىاته وذكرى أهل القرية عن تاريخ قريتهم. وكان يريد أن يكتب وأن يبحث عن

تاريخ قريته خلال هذه الذكريات. يفتح أبواب تاريخ قريته خلال روايات الشخصيات المختلفة أمثال المؤرخ المشهور في القرية إبراهيم ود طه، ومختار حسب الرسول، مختار واد حليلة، سعيد القانوني، وسعيد عشا البايتات. وكانت قصصهم مملوئة بالصور الأسطورية، ويضيف الراوي إليها ذكرياته وتجاربه وأحلامه. وحينما يقولون عن تاريخ قريتهم، فيذكر كلهم عن ملك الذي حكم قريتهم في الزمن القديم إسمه بندر شاه وذكروا عن مؤسس هذه العائلة ضوء البيت أبا بندر شاه وظهوره إلى قريتهم وذكروا عن مريود، حفيد بندر شاه وذكروا عن العلاقة الوثيقة التي كانت بين بندر شاه وحفيده مريود.

وكذلك تتناول الرواية بالموضوعات والقضايا المعاصرة

في السودان خاصة التغيرات في المجال الاجتماعي والسياسي. عندما عاد الراوي إلى قريته ود حامد استطاع أن يرى عالما جديدا، تغير أهل القرية وتغير نظمها. أصبح محجوب الذي كان نمرا في شبابه هرما، ضاع منه الحكم في المشروع الزراعي و'عبد الكريم ود أحمد' الذي ذكر في 'موسم الهجرة إلى الشمال' كمزواج كثيرة من النساء أصبح الآن متصوفا و'الزين' أصبح من العيان في البلد و'سيف الدين' أصبح الآن نائبا في البرلمان و'سعيد' الذي كان يعرف في الأيام الماضية باسم 'البوم' أصبح من أغنياء البلد ومؤدنا في المسجد. قال سعيد الذي كان يعرف باسم القانوني للراوي الذي عاد إلى القرية بعد تقاعده من الوظيفة أن قريتهم واد حامد ليست مثلما يراها الراوي من قبل "يا زول. أنت عاوز حصه طويلة على شان نفهمك النظام الجديد في البلد. أنت فاكرواد حامد هي ود حامد ال أنت عاريفها؟"¹. كان فريق محجوب الصفوة الحاكمة في القرية، وكانت هذه الفرقة من الحكام يحكمون القرية بدون إحساس بالتهديد وكل شيء في البلاد كانت طوع بنائها. ثم ينمو وعي الناس على مرّ الزمان ويبدوون أن يتسائلوا في أمر هذا الحكم. فتقاوم هذه الصفوة من الحكم هذا الوعي المتنامي وأخيرا تهزم وتستسلم أمام الصفوة الجديدة. هكذا سقط محجوب وفريقه من حكم المشروع الزراعي في القرية بانقلاب الجيل الجديد يقودهم طريفي ولد بكريي ابن مريم أخت

⁽¹⁾ ضوء البيت، الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 279

محجوب. وهذا الفريق الجديد (فريق طريفي) الحكام الجديد في واد حامد وعد للناس في القرية عن كثير من التغيرات الإيجابية والأعمال الإصلاحية لحياتهم السهلة ورسموا أمامهم المساوات بين الجنس؛ بين الذكر والأنثى وكانت ثورتهم تساندها الفئات المتعلّقات من الجيل الجديد في القرية. يقول ود الرواسي "هل تصدق يا محميد أنّ أولاد محجوب صوتوا ضده (محجوب)؟" وأن البنات عملن مظاهرات في واد حامد وهتفن بسقوط محجوب وشلة الحرامية؟"¹. وحينما يذكر الراوي عن طريفي يعود إلى ذكريات أمه مريم وإلى العلاقة الحبية بينه وبينها وعن رفض جدّه عن هذه العلاقة وسفره إلى العاصمة لأن يلتحق بالوظيفة هناك حسب إرادة جدّه.

الراوي

أصبح الراوي في هذه الرواية في الخمسين أو ستين من عمره، عاد إلى قريته بعد غيبة طويلة بعد تقاعده من العمل الحكومي في عاصمة السودان الخرطوم. وبعد عودته يحاول أن يجدّد إعترافه وصدافته بأهل القرية وأصدقائه. عاد إلى قريته مع قرار لأن لا يرجع إلى المدينة الخرطوم حيث كان يعمل هناك. فلم يعد إلى قريته إلّا أن يبني له حياة بسيطة وأن يقبر هناك بعد موته. "أنا أحاول عبثاً أن أعيد الزمن إلى سابق عهده"². وربّما كان الروائي الذي كان يعيش في لندن يظهر خلال هذه الشخصية عن شوقه إلى عودته إلى قريته وإلى بلده السودان لأن يعيش هناك حتّى أواخر أيامه. أمّا صديق الراوي طاهر الرواسي يسخره في قراره لأن يقضي حياته الباقية في القرية الفقيرة ويقول لأصدقائه عن الراوي أنّ الأخير عليه أن يعيش بقية عيشته في الخرطوم بدلا من هذه القرية الفقيرة "شن يسوّي في البلد الفقر دي. أخير له هناك في محله"³. ولكن عبد الحفيظ يرفض هذه الفكرة ويوافق على قرار الراوي "محله وين؟ محله هنا. إن طال وإن قصر يا هو دا

(1) ضو البيت، الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 323

(2) المصدر السابق، ص - 277

(3) المصدر السابق ص - 288

محلّه¹. هنا يعبر الطبيب صالح عن علاقة الإنسان ببيئته التي نشأ وترعرع فيها وهو ابن تلك البيئة وإن طالما غاب منها وبعد عنها. هذه الكلمة على لسان عبد الحفيظ هو "تعبير ابن القرية، المزارع الذي يرى الإنسان ابن البيئة التي زرع فيها، مهما امتد فجوره عميقة، إن إنخلع من التربة مات"⁽²⁾. وعندما نقرأ الرواية يمكننا أن نفهم أن الراوي هو متعلم تعليما أكاديميا وأصبح موظفا رسميا مع أنه كان يريد ويجب أن يشتغل في مجال الزراعة. وقد عاد إلى قريته بعد تقاعده من الوظيفة الحكومية لأن يبحث عن تاريخ قريته وبدأ أن يبحث عنها خلال الشخصيات المختلفة.

ضوء البيت

ضوء البيت هو مؤسس سلسلة أسرة - ضوء البيت - بندر

شاه - مريد - وهو منبع كل الأساطير التي ترتبط بهذه الشخصيات كلها. قصته تبدأ قصة خلفية في هذه الرواية. قدم ضوء البيت إلى قرية ود حامد من الماء وكذلك إختفى في الماء. جلبه موج النهر إلى قرية ود حامد. ولا يمكن لأهل القرية عن ماضيه قبل قدومه من الماء. عندما ظهر من الماء بدأت الأساطير والغموضات حوله. كانت هيئته مختلفة عن هيئة أهل القرية. كان وجهه مثل الصخر وكان أنفه مثل الصقر والأسنان مثل أسنان الحصان والعيون خضر تلمع مثل الفيروز. ولذلك كان أهل القرية يشكون أول الأمر هل هذا الخلق من الجن أو من الملاك أو من الإنسان. كان تعبنا وجوعانا عندما ظهر من الماء وكان في حالة ضاع ذكرياته عن أحواله الماضية. كان لا يعرف اسمه، أهله، دينه وبلده. لم يستطع له أن يجيب لأسئلة أهل القرية. تكلم للناس في لسان غريب مملوء بالكلمات المقطوعة وأجاب لهم الإجابات لأسئلتهم كأنما نسي ماضيه. يقول حسب الرسول الذي وجد ضوء البيت من النهر "عمي محمود بدأه (ضوء البيت) بالسؤال قال له: ما اسمك؟ أطرق الرجل الغريب مدة طويلة يفكر. فنظرنا بعضنا إلى بعض حيث أن السؤال لا يحتاج إلى تفكير. بعد زمن قال: لا أعلم.

(1) المصدر السابق

(2) قضايا في الأدب والفن، ماهر حسن فهد، ص - 325

سأله عمي محمود بدهشة عظيمة، وكنا كنا في دهشة: هل يوجد إنسان ما عنده إسم؟ قال الرجل: لا بدّ عندي إسم. بهلول، بهدور، شاه، خان، ميراز، ميرهان. لا أعلم. سألته، هل أنت مسلم أو نصراني أو يهودي؟ أطرق مفكرا كالأول، وبعد مدة قال: كان عندي دين، لا بدّ. لا أعلم. سأله عبد الخالق ود حمد بزعل وكان دائما أسرعنا إلى الغضب: يا بني آدم. هل في إنسان ما عنده دين؟ جازي تكون عابد نار أو عابد بقر أو عابد رماد؟ فهمنا. أنا ضحكت وقلت لهم: وهل نحن أثبتنا أنه ابن آدم، مش جازي يكون شيطان؟ رحمة الله ود الكاشف أيضا ضحك وقال: كلّ شيء جازي في مثل هادي الأيام. تبادلنا النظرات، وأنا أشعر أنني شخصيا مسؤول عن وجوده. كان الرجل صامتا لا يحير جواب. سألته: هل تذكر جيت من وين؟ أجاب على الفور: قوقاز، أهواز، خراسان، أذربيجان، سمرقند، طشقند. لا أدري. من كان بعيد بعيد... كنت تعبان وجوعان وعيان¹. كان لا يعرف عن بلده وإسمه ودينه ولكن الناس فهموا أنه ليس من دينهم أو من الإسلام إذ أنه كان رجلا غير مختونا. ولكنهم ضموا هذا الرجل الغريب إليهم في القرية. وقد عرضوا عليه دين الإسلام وتمّ أهل القرية ختانه ومنحوه هوية جديدة وسمّوه بإسم جديد 'ضو البيت' يعني ضوء البيت، وأعطوه قطعة من الأرض. فعاش في القرية مزارعا كأهل القرية وزرع فيها وعمل دون تعب وازدهرت زرعته. عندما طلع من النيل كان قد أحضر معه بذرة التبّاك - الإكسير في لغة أهل القرية - في علبه. اشتغل الرجل في مزرعه كأنه شيطان من نسل إبليس، لا يفتر ولا يكلّ طول الليل والنهار بدون قعود ولا رقود. كان دائما يقف على طوله أو ينحني فوق المعول والطورية كأنّ في أيده قوة سحرية. زرع الطماطم والبصل والبامية والقمح والشعير واللوبياء، وكلّ الخضراوات وحصد القمح بعد ثلاثة شهور مثل أهل القرية مع أنهم كانوا سبقوا في الزراعة بمقدار شهر. وكان مشغلا في عز النهار حينما كان الناس مرتاحين وقت القيلولة أو بالليل ونظر أهل القرية إليه بتعجب وراوه إنسانا في صورة شيطان أو شيطانا على هيئة إنسان.

⁽¹⁾ ضو البيت، الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 375 - 376

هكذا إختلط ضوء البيت بأهل القرية ونظمها. أخيرا

عرض ضوء البيت على أهل القرية رغبته في الزواج. ولكنهم كانوا في الشك والقلق في هذا الموضوع. لأنّ ضوء البيت رجل غريب جاء من بلد غريب وليس عندهم أية معرفة عن ماضيه. وفي الحقيقة كانوا يعتبرونه غريبا عنهم. ولم يوافقوا في تزويج بناتهم من رجل غريب. يقول حسب الرسول "سكتنا كأنّ على رؤوسنا الطير، وكان كل واحد فينا يفكر ذات الأفكار. أخونا في الإسلام ويحضر معنا الصلوات الخمس، أي نعم. وهو يعمل عمل جيش من البشر، أي نعم. وهو في إقامته القصيرة عندنا، كسب مودّتنا كأنّه موجود معنا من قديم، أي نعم. أمّا أن نزوّجه ابنتنا ونحن لا نعلم عنه لا قليلا ولا كثيرا، وهو عيونه خضر ونحن عيوننا سود، وهو وجهه أبيض مثل القطن ونحن وجوهنا مثل الجلود المدبوغة، وهو خرج من الماء ونحن خرجنا من الطين، وهو مسلم منذ ستة أشهر ونحن مسلمون منذ الأزل، ونحن حياتنا تبدأ وتنتهي بين النيل تحت، والصحراء فوق، وهو حياته ما ندري كيف بدأت وكيف تنتهي، وهو اسمه ظهر مع ظهوره، ونحن أسمائنا سلسلة أبا عن جدّ مثل البنيان المرصوص اسم فوق اسم إلى آدم. لا حول ولا قوة إلا بالله"¹.

هكذا فكروا عن ضوء البيت واختلافه منهم ولكنهم مع

ذلك وافقوا أخيرا أن يزوّجوا فاطمة بنت جبر الدار من ضوء البيت. وأصبح ضوء البيت غنياً وناجحا في الحياة. وهكذا إستمرت حياته هناك في القرية لخمس سنوات. ولكن فجأة في يوم من الأيام بعد خمس سنوات إختفى ضوء البيت من القرية كما ظهر في القرية فجأة. وكان ذلك الحدث في موسم فيضان النهر. كان جد الراوي وحسب الرسول ينشأن دولاب الماء ولما نزل في الماء غرقوا فيه. وفي ذلك الوقت أنجى ضوء البيت حسب الرسول من الغرق، هو الذي وجد ضوء البيت من الماء. بحث أهل القرية عنه كثيرا ولكنهم لم ينجحوا للعثور عليه.

⁽¹⁾ ضوء البيت، الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 387

"إنتظرنا يوما بعد يوم، بين اليأس والرجاء، نقول لعلّ وعسى ولكن ضوء البيت إختفى، لا خبر ولا أثر، ذهب من حيث أتى، من الماء إلى الماء، ومن الظلام إلى الظلام"¹.

إستطاع ضوء البيت لأن يتعمّق إلى نظام القرية وأن ينضمّ إليهم بالسرعة وأفاد القرية ماديا وروحيا. جعل أهل القرية عارفين بأمور جديدة التي لم يكن يعلمون بها من قبل؛ الأمور الجديدة في مجال الزراعة وبناء البيوت. يقول حسب الرسول في هذا الصدد حينما غاب ضوء البيت من قريتهم "حزنّا عليه كأننا فقدنا نعمة السمع والبصر لأنه عاش بيننا مثل الطيف ومضى مثل الحلم، عشرة مواسم لاغير، خمسة أعوام بحساب السنين، عمل فيها ما لا يعلمه الناس في العمر كله. خير الدنيا انهمر عليه كأنه يقول للشئى كن فيكون. كان يزرع محاصيل الشتاء في الصيف والشتاء، يعمل على مدار العام لا يكلّ ولا يفتر. جلب شتل النخل أشكال وألوان... وعلم الأرض تنبت التتباك، وعلمنا زراعة البرتقال والموز. نحن بين الموسم والموسم نرتاح، وهو يسافر مع قوافل الجمال... ويرجع محمل بالثياب والعطور وألوان من الأواني والمأكّل والمشارب ما عرفناها في ود حامد من قبل. هو يكبر ونحن معاه نكبر، كأن المولى جلّ وعلا أرسله إلينا ليحرّك حياتنا ويمضي في حال سبيله. بنينا بيوت الجالوص بدل القش، كان عنده غرفه عمل ثلاثة، وما عنده حوش عمل حوش. الجامع بنيناه من جديد ووسعناه وفرشناه بالسجاد والبساط هدية من ضوء البيت. وهو بنى فوق القلعة بيت داخل بيت وديوان ورا ديوان، وحوش في بطن حوش، تراها من بعيد كأنها مدينة بحالها، بعدما كانت الأرض خراب مهجور طرف البلد"². وهكذا كان أثر ضوء البيت على أهل قرية واد حامد في الزراعة وبناء البيوت والمساجد. ولكنه إختفى من القرية بعد أن علم الناس كثيرا من الأمور من الزراعة والتجارة والصناعة. ترك ضوء البيت وراءه أرملته فاطمة جبر الدار التي ولدت ابنه بعد ثلاثة شهور لغيابه. وسمّواه بإسم موسى وأصبح معروفا بإسم بندر شاه.

(1) المصدر السابق، ص - 399

(2) ضوء البيت، الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 400

بندر شاه هو شخصية رئيسية في هذه الرواية وتنتمي
إسم هذه الرواية إلى هذه الشخصية. والأسطورة عن بندر شاه وحفيده مريود منشورة هنا
وهناك في هذه الرواية. تدور الرواية تدور حول ماضي بندر شاه وعلاقته الوطيدة مع حفيده
مريود وموتهما. ولكن الروائي لم يفصل كثيرا عن هذه الشخصية في هذه الرواية إلا في
جزئها الثاني مريود. إسمه في الحقيقة عيسى كما ذكر من قبل والناس سمّوه بإسم "بندر
شاه". يروي حمد ود حلّمة عن سبب تسمية عيسى بإسم بندر شاه "أنّ عيسى ود ضو البيت
خرج عليهم ذات يوم - وكانوا صبية صغارا - في لباس كأنه لباس العيد ولم يكن الوقت
عيدا. كان يلبس جلابية جديدة من الحرير وعلى رأسه طاقيّة حمراء جديدة مشغولة وعمّة
ناصعة البياض وفي رجليه حذاء أحمر يلمع. ويقول حمد أن هيئة عيسى كانت شاذة حقيقة
وسط صبية بينهم العاري والذي لا يلبس غير خرقة حول وسطه، والمقطع الثياب والمتسخ
الثياب، ظهر لنا غريبا ومضحكا. أوّل ما رأيته صرخت بندر شاه وأخذنا جميعا نردد بندر
شاه بندر شاه. وطاردناه حتى أدخلناه داره، ومن يومها ولا أحد يناديه بغير بندر شاه"¹.

ولكن طفولة بندر شاه غير مذكورة في الرواية. يبين
الراوي رواية مختلفة عنه. يقول أنّ بندر شاه كان ملكا مسيحيا في نوبيا، شمال واد حامد،
وكان ملكا من الجنوب، وكان ملكا حبشيا من الشرق، وكان تاجر الرقيق من الغرب. هذه
البيانات المختلفة تشير إلى عدم الأصولية لهذه الأساطير كما يشاهد هذا العدم من الأصولية
في كلّ القصص الأسطورية. ولكن يبدو بندر شاه في كلّ هذه البيانات المختلفة عموما رجلا
غنيّا قاسيا وجبارا مبتذرا الذي قدم إلى ود حامد وبني قصرا شاهقا على الجبل وحكم على
أبنائه أو على عباده حكما متسلطا. تشير الرواية إلى هذا الأمر في المواضع المختلفة؛ يجلس
بندر شاه على العرش في قاعة كبيرة وحفيده مريود يجلس جنبا منه وترقص الجارية العارية

⁽¹⁾ ضو البيت، الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 400

أمامهما ويأمر بندر شاه لحفيده لأن يضرب على ظهور أبنائه أو عباده بالسياط ويفرح بندر شاه بهذا المنظر. تبدأ قصته كآته أبا لأحد عشر إبنًا وجدًا لحفيده مريود. كان ثريًا وغنيا يعيش في قصر شاهق وكان يعامل مع أبنائه بشدة وقساوة. ولكنه كان يحب حفيده مريود على أبنائه. ومن الواضح أن هذه الظاهرة أي أن هذه العلاقة الوطيدة بين الجد والحفيد - وليس هناك أي دور بين الأب والإبن في كثير من المؤلفات للطبيب صالح - أمثال 'موسم الهجرة إلى الشمال' و'حفنة تمر'. يقول الطبيب صالح في هذا الصدد : يتأمر الماضي والمستقبل ضد الحاضر أو يتأمر الجد والإبن ضد الأب".

عين الجد بندر شاه حفيده مريود لأن يدبر كل الأمور وينفذها له وكان الحفيد يتابع جدّه في كل الأمور ويطيع كل أوامر جدّه. جعله جدّه وارثا على كل أملاكه وحاكما على أبنائه. وهناك روايات مختلفة عن العلاقة بين بندر شاه ومريود بين أهل البلد. قال مختار ود حسب الرسول "كان (بندر شاه) عملاقا دائما. كان من طينة أخرى. نعم كان نسيج وحده دون شك، وقد صاغ حفيده على صورته ليكون إمتدادا له، وخوله مطلق السلطان على أبنائه الأحد عشر، فحكماهم بالقوة والمكر دون حب. كل ذلك إتضح فيما بعد. كانت لهما طاقة فوق طاقة البشر"¹. وقال الراوي "يقال أن مريود كان يحدّد لكلّ منهم عمله، ويحدّد له جزائه، لا تفوته صغيرة ولا كبيرة. كل ليلة تتعقد محكمة في ديوانه الكبير. يجلس بندر شاه وإلى يمينه مريود على كرسيين عاليين على منصة في صدر الديوان. يصدران الحكم معاً، ويكون العقاب بالسياط، يفعل ذلك مريود، وبندر شاه متربع على كرسيه يسمع ويرى" واستطرد الراوي "يقال أن الجد والحفيد كانا يشربان الخمر معاً، وكانت تغني لهما الجوارى ويرقصن عاريات بالليل في الديوان الكبير أو وسط البيوت" "ويقال أن مريود كان يتدخل في أخصّ أخصائهم (أبناء بندر شاه) بتفويض من بندر شاه. لم يكونوا أحراراً حتى في تزوّج بناتهم" "ويقال أن مريود كان يوقظهم مع الفجر ويغلق باب الحوش عليهم عند غروب

⁽¹⁾ ضوء البيت، الأعمال الكاملة للطبيب صالح، ص - 350

الشمس، يسوقهم كالغنم للأفراح والأتراح، و"يقال أن بند شاه حرّم أولاده جميعا من الإرث وسجّل كل أملاكه بإسم مريود وقال أنهم جميعا لا يساؤون قلامة ظفر مريود"¹.

ولكن ذات يوم نهض هؤلاء الأبناء وانقلبوا على الأب والحفيد أي على بندر شاه ومريود وقتلوهما أخيرا. ولم يبيّن الراوي مباشرة عن قتلتهما، ولكن الرواية تخبر عن بعض الإشاعات والأساطير حول موتتهما ولا يقول الراوي كيف قتل بندر شاه ومريود بالضبط. وتقول الإشاعات بين الناس في القرية أنهما قاوما مقاومة خارقة في قتال الأبناء، ويقال أنهم ربطوهما بالحبال، كلّ منهما على كرسيّ في صدر الديوان، ويقال أنهم ضربوهما بسيّاط من عروق السنط، ويقال أنه (بندر شاه) قاوم كالأسد وكاد يغلب أولاد الأحد عشر. هكذا كثرت الأقاويل والإشاعات عن قتل مريود وبندر شاه.

يشير هذا النضال والقتل في هذه الرواية إلى ثورة وانقلاب من عامة الناس على الظلم والتسلط وحكم الرجال والشيوخ في المجتمع السوداني كما تشير قتل حسنة بنت محمود لود الرئيس العجوز في الرواية موسم الهجرة إلى الشمال إلى رفضها وثورتها على قوّة الرجولية والأبويّة والظلم والتسلط من قبل الرجال نحو النساء في البلد.

ولكن عامة الناس الذين كانوا لا يعرفون عن الأحداث التي كانت تقع داخل قصر بندر شاه ومريود كانوا يرونهما بعيون العظمة والإحترام. قالوا أنّ بندر شاه وأولاده أحسن منهم وكانوا زينة الرجال "كان بندر شاه حين يحضر إلى عرس أو إلى مأتم يحيط به أبنائه الأحد عشر وحفيده مريود، ترقى إليهم الأبصار وتهفو لهم الخواطر لأنهم كانوا ملئ السمع والبصر، زينة الرجال في البلد"².

⁽¹⁾ المصدر السابق، ص - 350 - 351
⁽²⁾ ضو البيت، الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 298

دهش أهل القرية بهذا القتل واعتبروا هذه الحادثة لعنا وشؤما على قريتهم. مات كثيرون من جيل جدّ الراوي زأصدقائه فجأة. وحدثت بالفعل أمور عجيبة بعد ذلك الحادث. قرّر الكاشف ود رحمة الله رغم تقدمه في السن أن يهجر البلد ورفض الإمام أن يأمّ للصلاة مع الناس وقال أنهم جميعا ملعنون لا تنفع فيهم صلاة ولا وعظ وسافر إلى مكة ليموت فيها. خرجت زوجة بكري بعد خمسين عاما من الستر من دار زوجها حاسرة الرأس وأقسمت ألا تعود واشتغل الناس في الثورة والمشاجرة وقال الناس "أن الشياطين أخذت تمشي في الساحات والشوارع عيانا وبيانا في وضح النهار". هكذا إعتقد الناس أن كلّ هذه الأحداث حدثت شؤما لقتل بندر شاه ومريود.

مريود

مريود كما يشير إسمه معناه المحبوب. كان محبوبا لدى جدّه بندر شاه وأهل القرية. مريود هو حفيد بندر شاه وضو البيت. تدور حوله البيئة الأسطورية كما تدور حول جدّه بندر شاه وجدّه الأكبر وضو البيت. كان الراوي يثر مريود كثيرا وروى حادثة مريود مع جدّه. وهو يقول هكذا "كان مريود هو وكيل جدّه ونائبه وقائم مقامه. أذكر أنني دهشت عظيمة أوّل مرّة رأيت ذلك. كان مريود يكبرني بعام أو نحو عام، ولم يكن سنّه يزيد عن الخامسة عشرة حينئذ. جاء إلى جدي وقت الضحى وعند جدي مختار ود حسب الرسول، وحمد ود حليلة، وأنا... دخل مريود وسلّم عليهم ينادي كلّا منهم بإسمه المجرد، لا عمّي فلان أو جدّي فلان. ثم جلس دون أن يؤذن له بالجلوس قبالة جدّي. لم يكن وقحا..لا.. ولكنه كان واثقا من نفسه ثقة تقرب من الوقاحة.. لم يضع أيّ وقت في المجاملات، ودخل في موضوعه مباشرة متجاهلا الرجلين الآخرين: "بندر شاه يقول إشتري العجل منك" فقال جدّي: "بندر شاه يشتري ولا ما يشتري هو حرّ. لكن أنا ما بعت" فقال مريود ضاحكا: "إذا كان بندر شاه إشتري منك لا بدّ أنك بعت" فقال جدّي: "جّدك عرض اتناشر وأنا طالب سبعتاشر" لم يقل مريود شيئا ولكنه أخرج من جيبه رزمة جنيهاات مدها

لجدّي، فأخذها هذا دون أن يعدّها ولكنه أبقاها برهة في راحة يده كأنها يزنّها ثم قال: العجل مربوط في المراح، امش خذه" فقال مريود ضاحكا وهو يتأهب للخروج: "العجل أنا سقته مع شروق الشمس. لحمه دلوقت فوق النار ويمكن يكونوا أكلوه كمان"¹. هكذا كان مريود شديدا في معاملاته مثل جدّه بندر شاه وكان يطيع كلّ الإطاعة لأوامره بدون نظر إلى الآخرين وإحساسهم.

كان مريود وجدّه بندر شاه في شكل واحد في ظهورهما وشيهما وجلوسهما ما عدا الخلاف في عمرهما فقط. يقول الراوي في هذا الصدد "ولم يكن عجبنا ينتهي من التشابه الغريب بين بندر شاه وحفيده مريود، فقد كان الحفيد في هيأته وسلوكه مطابقا تماما لجدّه، كأنما الصانع العظيم صنعهما في وقت واحد من طينة واحدة وقدم لأهل البلد بندر شاه، ثم بعد خمسين أو ستين عاما قدّم لهم بندر شاه مرّة أخرى على هيئة مريود. تخيل توأمين تأخّر وصول أحدهما عن الآخر خمسين أو ستين عاما. القامة والوجه والصوت، والضحكة، العينين، نصوع الأسنان، نتوء الذقن، القومة والقعدة وطريقة المشي. وحين يصافحانك ينصبّان على يدك بالجسم كله، وينظران إليك، لا كما ينظر بقيّة الناس وجها قبالة وجهه، بل من جانب الوجه نظرة ودودة ولكنها متمعنة متفحّصة. وحيث تقف بينهما تحسّ كأنك تقف بين مرأتين وضعت إحداهما قبالة الأخرى، كلّ واحدة منهما تعكس الصورة نفسها في إمتداد لا نهائي"².

أتى الطيب صالح بهاتين الشخصيتين في شكل واحد وصاغهما في خلق واحد ومظهر واحد لأن يلقي الضوء إلى الحقيقة عن الصراع بين الماضي والحاضر والمآمرة بين الماضي والمستقبل ضدّ الحاضر. وهذا الصراع بين الماضي والحاضر مبين في الصراع بين الأب والأبناء أي في الصراع بين بندر شاه

⁽¹⁾ ضو البيت، الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 300

⁽²⁾ ضو البيت، الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 299

وأبنائه، وكذلك المأمرة بين الماضي والمستقبل ضدّ الحاضر مبين في الأعمال القاسية من أيدي بندر شاه وحفيده مريد نحو أبائه.

وهذا الأمر واضح أيضا بين محميد (الراوي) وجده.

كان الطبيب صالح يقول أنّ الأجداد يريدون أن يعلّوا رغباتهم ومشيتهم ويصرّون باستمرار أمنيّاتهم بعد أيامهم في المجالات التي كانوا يسلطون فيها في أيامهم، ولهذا الأجل يحاولون أن يطبقوا كلّ أمورهم على أحفادهم ما عدا أبنائهم ويختارون هؤلاء الأحفاد لإطالة فضولاتهم. يقول الراوي "كان (بندر شاه) نسيج وحده دون شكّ، وقد صاغ حفيده على صورته ليكون إمتدادا له، وخوله مطلق السلطان على أبنائه الأحد عشر، فحكمهم (أبنائه) بالقوة والمكر دون حبّ. كانت لهما طاقة فوق طاقة البشر"¹. وكان مريد يتدخل في أخصّ أمور أبائه حسب أمر جده بندر شاه حتى لم يكن الآباء أحرارا في ترويج بناتهم. ويقال أنه كان يوقظهم في الفجر ويعيدهم إلى بيوتهم قبل غروب الشمس كما يسوقهم كالغنم. حرّم بندر شاه أبنائه جميعا من الإرث وسجّل كلّ أملاكه باسم حفيده مريد إذ كان يرى فيه الموهب لتحقيق إطالة نفوذه في كلّ المجال. وقال أنّ أبنائه جميعا "لا يساوونه قلامة ظفر مريد". وهكذا كان الأمر بين محميد وجده حاج أحمد حينما أجبر الجدّ الراوي لإختيار مستقبله مطيعا على رجاء جده ومشيتّه.

محبوب

ظهرت هذه الشخصية في المؤلّفات الماضية للطبيب صالح. رسم الروائيّ هذه الشخصية في مختلف أطوار حياته خلال هذه الأعمال الأدبيّة. وفي مرّ الزمان عندما وصل محبوب إلى هذه الرواية أصبح عجوزا ودخل إلى الطور الآخر في حياته، وهو الآن في السبعين من عمره. يصفه الراوي هكذا "كان محبوب مثل نمر جالسا جلسته القديمة رغم السنين والعلة، أبدا كأنه يتحقّق للثوب، معتمدا بيديه على عصاه، وذقنه

⁽¹⁾ صو البيت لأعمال الكاملة الطبيب صالح، ص - 350

على يديه، منلقعا ثوبه على رأسه فوق العمامة. عمقت الأخاديد التي على خديه عند الفم، والتجاعيد على الجبهة، وفي العينين إلا الغضب"¹.

كان محبوب زعيما في القرية وقائدا فيها كما صوّره

الروائي في روايته السابقتين 'عرس الزين' و 'موسم الهجرة إلى الشمال'. والآن أصبح هرما وهو مطروح من قيادته وزعامته على أيدي الشبان من الجيل الجديد وكان على طرف هذا الجيل ابن أختها طريفي ابن بكري الذي يظهر ولدا صغيرا شاطرا في المدرسة في رواية 'عرس الزين'. وهذا الأمر تشير إلى تغيير النظام الاجتماعي والسياسي في السودان. يبين الطبيب صالح عن هذا التغيير في نظام حكم المجتمع على لسان ود الرواسي عندما كان يبين للراوي الذي كان غائبا من القرية لطول الوقت عن هذا التغيير. وقد بدأ هذا التغيير - حسب قوله - "بظهور نزاع في الأرض بين الجيلين. كان محبوب يظن أن الأرض أرضه، ولكن أولاد بكري تصدّوا له فجأة، وكان شيخ قد طعن في السن، وهم شباب في أوج شبابهم. ظلوا يبنّون عونه سنة كاملة وحو لا بأكمله وهم يدخلون ويخرجون في المحكمة، وفي الأخيرة خسر الأبناء الأرض ولكنهم حاولوا لأن ينزل محبوب من تاج سلطانه. أشاعوا كثيرا من الأقوال القبيحة عن محبوب وارفع اللغط في المجتمع. وكان الطريفي ولد بكري يتصدى لمحبوب في المجالس ويقول على مسمع منه "هذه العصابة، محبوب وجماعته، متى يتخلون عن زمام الأمور في ود حامد؟ هؤلاء جماعة انتهوا. كفاية أكلوا البلد أكثر من ثلاثين سنة"².

يشير الروائي خلال هذا الحادث عن التغيرات التي

حدثت في المجتمع السوداني المتمسك بالنظم والتقاليد. عارض الجيل الجديد على هذه النظم والقواعد وتظاهروا ضدها ونجحوا في محاولتهم حتى انتهى الأمر بإلغاء الجمعية برئاسة مفتش التعاون الذي جاء خصيصا من مروي لذلك اليوم المشهود. وفي الجمعية قرأ طريفي عريضة طويلة ضمّنها كل ما يمكن أن يخطر على البال من التهم. إتهم طريفي محبوب

⁽¹⁾ المصدر السابق، ص - 287

⁽²⁾ صو البيت، الأعمال الكاملة الطبيب صالح، ص - 323

بالفساد والرشوة والسرقة والمحسوبية وعدم الكفاءة والإهمال. وقد بدأت البنات أن تسافر في الشوارع علانية للإشتراك في الهتاف والمعارضة ضدّ حكم محكوب وفريقه. "هل تصدق يا محميد أنّ أولاد ممحجوب صوتوا ضده؟ وأنّ البنات عملن مظاهرة في ود حامد وهتفن بسقوط محجوب وشلة الحرامية"¹. وقال سعيد للراوي عن أيام محجوب التي كان هو الوحيد الصاحي فيها وبقية الناس همل. لكنّ الأمر انتهى، صوتوا برفع اليد. الأغلبية طلعت ضدنا. تحت السيالة الكبيرة، وسط البلد، نص النهار، محجوب إنهزم. محجوب النمر هزمته الضباع. أطفال وصعاليك وبنات فارغات وحوش"². وعلى هذا الحال أنتخب الطريفي رئيس الجمعية، وحسن ولد بكري نائب رئيس، وحمزة ولد بكري سكرتير، وسعيد عشا البايتات أمين صندوق، وسيف الدين مراقب أعمال. وعد هذا الفريق للناس عن وظيفة جديدة لتحسين العمل في المشروع. وهكذا سقط الجيل القديم من الحكم والسلطان الذي تسلطوا عليه في أعوام طويلة وطلع الجيل الجديد في تاج السلطان والقوة.

فاطمة بنت جبر الدار

فاطمة بنت جبر الدار هي من أقوى شخصيات المرأة التي أبدعها الروائي الطيب صالح. هي من شخصيات ثانوية في هذه الرواية. كانت جريئة وحاسمة منذ طفولتها. كانت زوجة ضو البيت وأمّ بندر شاه. هي التي كانت كانت ترعى ضو البيت وتفحصه حينما كان في حال من الغيبوبة لشهر واحد بعد ظهوره من النيل. وعندما أفاق الرجل من حالة غيبوبته علّمتها فاطمة القرآن واللغة العربية.

كانت صغيرة أخواتها وأقلّ الجمال منهنّ، هي نحيفة ولكن باطنها كان بالعكس قويّة. كانت صاحبة عقل قاطع وقلب مثل الحجر. كانت البنت الوحيدة التي حفظت القرآن من القرية في تلك الأيام. قرأت مع الأولاد في خلوة حاج سعد.

⁽¹⁾ المصدر السابق، ص - 323

⁽²⁾ ضو البيت، الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 323

وكانت تقرأ القرآن بصوت مثل هديل القمري. كانت في طفولتها تغلب على الأولاد في الجري وفي العوم وطلوع التمر، ولكن أبوها كان يمنعها من هذه الأفعال بكونها بنت. لم تعش حياتها مثل حياة النسوان الأخرى في القرية، كان الأولاد والرجال يغضون أبصارهم بالخوف عندما تنتظر وتردّهم بحدّ طرف نظرتها. كانت تركب وتزرع وتحث في المزارع والحقول مثل الرجل. وبسبب سلوكها وتصرفاتها هذه كان أبوها يقول دائما "الله سبحانه وتعالى أعطاني أربعة بنات، حليلة ومريم وميمونة والله لنا - الله لنا هو ولده رجب سار عليه لقب الله لنا بسبب خوفه - وأنعم عليّ بولد واحد هو فاطمة"¹.

كانت فاطمة ترعى ضو البيت وتعبت غاية التعب في علاج ذلك الرجل الغريب حتى أفاق من غيبوبته. وعندما رأى الناس رعايتها وملاحظتها نحو ضو البيت كانوا يقولونها فكاهيا "الراجل دا يمكن عفريت ما هو بني آدم. إذا خطفك أو خسف ببك الأرض أو عمل لك مصيبة" فكانت تقولهم "إذا كان هو الشيطان فأنا إبليس ذاته كبير الشياطين"². ولكن عندما فرغت من علاجها ورعايتها لضو البيت أدركت أنها تحبه حباً عميقاً وعندما سألتها أبوها عن رأيها في تزوّجها من ضو البيت وافقت عليه بقلب حاسم واضح. هكذا صور الطيب صالح فاطمة بنت جبر الدار امرأة جريئة تساوي مع الرجل في كلّ الأمور في المجتمع السوداني المقيد بالنظم والقواعد.

وكذلك يمكن لنا أن نرى في هذه الرواية صوراً لبعض الأحلام التي يرواها بعض الشخصيات من هذه الرواية. وهذه الأحلام كلها تتعلق ببندر شاه ومريود وكلهم يرون هذه الأحلام في ليلة واحدة، الليلة التي ماتت فيها مريم أخت محبوب القائد القديم وأم الطريفي القائد الجديد. تمثل هذه الأحلام الرجاء والقلق والخيالات الشخصية التي تشعرها هذه الشخصيات في الرواية.

⁽¹⁾ ضو البيت، الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 380

⁽²⁾ المصدر السابق

الطيب صالح و"موسم الهجرة إلى الشمال"

مشاعر العرب ضد الإستعمار كما تظهر فيها

دراسة نقدية

أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها

قدّمتها

حسينة. ب

تحت إشراف

بروفسور الدكتور أحمد إبراهيم رحمة الله

الرئيس السابق (المتقاعد)

قسم اللغة العربية بجامعة كاليكوت



قسم اللغة العربية

جامعة كاليكوت

كيرلا ، الهند

2012م

الفصل الثالث

مريود - بندر شاه

هذه الرواية 'مريود' هي الجزء الثاني لرواية بندر شاه للروائي السوداني الطيب صالح. والجزئين من هذه الرواية - 'ضو البيت' و'مريود' - يرتبطان ببعضهما البعض في معناهما وحبكتهما ولكنهما مستقلتان إستقلالاً كاملاً في وجوديتهما. "والجزء الثاني يرتبط بالجزء الأول بالإرتباط ذاته التي تكون بين الإبن والأم، فهما متصلان منفصلان... متصلان عن طريق الدم المشترك الذي يجري في العروق ولكنها بعد ميلاد الإبن ينفصلان ويستقلان إستقلال الكائن الحي عن غيره من الكائنات"¹.

نشر الطيب صالح هذه الرواية عام 1976م. ترجمها دنيس جونسون ديفس إلى اللغة الإنجليزية في إسم 'Meryoud in Bandarshah' عام 1996 وترجمت إلى اللغة الفرنسية عام 1985 على أيد أني وادي مينووسكي ونشرها في إسم 'Maryoud in Bandarchah'.

أتى الروائي بهذه الرواية أيضاً مع بعض التمهيدات مثلما فعل في جزءها الأول 'ضو البيت'. أهدى هذه الرواية إلى أبيه ومهدّها هكذا:-

"إلى روح أبي،

محمّد صالح

كان في فقره غنى، وفي ضعفه قوة

عاش محباً ومحبوباً، ومات راضياً مرضياً".

¹ مريود قصيدة في العشق والمحبة، رجاء النقاش، الطيب صالح دراسات نقدية، د\ حسن أبشر الطيب، ص - 211

يبدو هذا التمهيد مثل أبيات شعر جميل، إذ ترافقها بعض الكلمات المضادة أمثال فقر وغنى، ضعف وقوة، محبا محبوبا، راضيا ومرضيا. وكذلك مهّد الطيب صالح هذه الرواية ببعض أبيات أبي نواس أيضا.

"غير أني قائل ما أتاني
من ظنوني مكذب للعيان
أخذ نفسي بتأليف شيء
واحد في اللفظ شتى المعاني
قائم في الفهم حتى إذا ما
رمت رمته معى المكان"

وهذه الأبيات لها علاقة مباشرة بهذه الرواية. تتناول هذه الأبيات عن رؤية الأشياء خلال الوهم والخيال من رؤية الأشياء خلال العيون. وتبرز هذه الأبيات بلمساتها الفلسفية مثلما تخصّ هذه الرواية بهذه المزية. هذه الرواية مملوئة بالأحلام والأساطير والقصص التي تحمل بعض المنطق ورائها. ولكنّ قراءة هذه الرواية بعيون الظاهرة لا تبدي هذا الجانب المنطقي في الرواية، ولذلك ينبغي على القراء النظر إليها بعيونهم الداخلية أو بحاستهم السادسة. تشير هذه الأبيات لأبي نواس إلى هذه الحقيقة. يشرح الناقد المصري رجاء النقاش هكذا "فهذه الأبيات النواسية تمثل طريقة في رؤية الحياة والنظر إلى الواقع الإنساني، هذه الطريقة هي الرؤية بعين الوهم أو الخيال، وهي رؤية ما لا يرى بالعين المجردة، وهي إعتبار الأشياء التي يراها الإنسان بخياله حقيقة كالحقيقة نفسها، فليس صحيحا أبدا أن الواقع المادي الظاهر هو كلّ العالم الإنساني، فالعالم الإنساني أشمل من ذلك وأعمق وأكثر إتساعا ورحابة وعالم الباطن فيه مهمّ كعالم المرئيات الظاهرة عند بعض أصحاب الروحي، مثل الطيب صالح وأبي نواس في أبياته السابقة"¹.

⁽¹⁾ مريدود قصيدة في العشق والمحبة، رجاء النقاش، الطيب صالح دراسات نقدية، د\ حسن أبشر الطيب، ص - 212

وكذلك مهّد الطيب صالح هذه الرواية بفقرة واحدة من باب برزويه المتطبّب من كتاب كليلة ودمنة. "فالتمست للإنسان مثلاً، فإذا مثله مثل رجل نجا من خوف فيل هائج إلى بئر. فتدلى فيها، وتعلّق بغصنين كانا على سمائها، فوقعت رجلاه على شيء في طيّ البئر، فإذا حيّات أربع قد أخرجن رؤوسهنّ من أحجارهنّ. ثم نظر فإذا في قعر البئر تتين فاتح فاه منتظر له ليقع فيأخذه. فرفع بصره إلى الغصنين، فإذا في أصلهما جردان: أسود وأبيض، وهما يقرضان الغصنين دائبين لا يفتران. فبينما هو في النظر لأمره والاهتمام لنفسه، إذ أبصر قريباً منه كواراة فيها عسل نحل، فذاق العسل، فشغلته حلاوته وألهته لذّته عن الفكرة في شيء من أمره، وأن يلتمس الخلاص لنفسه، ولم يذكر أن رجله على حيّات أربع لا يجري متى يقع عليهن. ولم يذكر أن الجردين دائبان في قطع الغصنين، ومتى انقطعا وقع على التتين. فلم يزل لاهياً غافلاً مشغولاً بتلك الحلاوة حتى سقط في فم التتين فهلك".

هذه الفقرة التي جعلها الطيب صالح مقدماً لهذه الرواية تبين عن حالة الإنسان الذي يغرق في التمتع والترف والمرح في الحياة الدنيا، ويقضي الإنسان حياته مترفاً وينسى عن الموت والحياة في الآخرة. كتب ابن مقفع هذه الفقرة في كتابه كليلة ودمنة يهدف بها إلى منح بعض الإرشادات والنصائح الأخلاقية للفرد وللحاكم والملك.

هذه الرواية هي الجزء الثاني للرواية بندر شاه- ضو البيت. وطبعاً هي مملوئة بالشخصيات التي كانت في رواية 'ضو البيت' أمثال الراوي وبندر شاه ومريود وهناك شخصيات جديدة أمثال مريم وبلال والآخرين.

ييدي لنا الروائي في هذه الرواية حياة الراوي الماضية

والحاضرة. يذكر أيامه في الطفولة الماضية ويرجوها أن تعود إليه ثانياً مع أنه يعلم أن تلك الأيام لن تعد إليه مرة ثانية أبداً. "ملاً صدره بالهواء وترك وجهه يغتسل بنسيم الفجر لكن روحه لم تنتعش. تريت قبل أن ينحدر في الأرض المسوّاة الممتدة، وراءها غابات النخل، ووراء ذلك النهر، بلّوح هنا وهنا بين فرجات الشجر. المنظر، كان محميد آخر مرة. وجهه متوتر كأنه يقاوم رغبة جارفة للبكاء. أنظر يمينا. هناك. أين غابة الطلح الكثّة التي كانوا يلعبون فيها أيام الطفولة؟ رائحة البرم، زهر الطلح، خصوصا أيام الفيضان. وهناك عند منعطف الدرب حذاء الجلول الكبير كانت تشمخ شجرة حراز ضخمة معرشة، تلمع ثمارها الصفراء كأنها حلقان الذهب. ذلك الماء كان له طعم آخر. بلا غطاء، ذلك السيل، عليه فرعة تتأرجح فوق الماء، تضرب فم الزبر يسرة وبيئة، يشرب منه الغادي والرائح. من أقامه؟ لا أحد يذكر. ولكنه لم يعدم أحدا يملؤه صباح مساء. طعم الجلد المدبوغ، طعم الماء في القرية المدلاة من الشعب في سقيفة جدّه. وطعم ماء النيل أيام الفيضان، طعم الأخشاب المبتلة، وأوراق الشجر، والطين. طعم الموت. صافي في أماكن الرمل، عكر في محلات الطين.

عصارة الحياة كلها في ود حامد. مشد قبضته على

المقبض العاجي، مقبض عصا الأبنوس، ومضى بعزم يضعف ويقوّي. غريبة تلك العصا، الآن، كأنها امرأة عارية وسط رجال. يحسّ ملمسها ويتذكر مريم. ذلك الصوت. ذلك الشباب. ذلك الحلم. يخرج من داره كلّ يوم عند الفجر، ويمشي هذا المشوار حتى النهر. يسبح ويعود مع الشروق. يحاول أن يوقظ الأشباح النائمة في روحه. أحيانا الحظ يؤاينيه، فيسمع ويرى. الرؤى والأصوات كأنها تنبع من تحت قدميه ومع خبط عصاه على الدرب.

هنا كان مكان النورج أيام الحصاد. رائحة التبن. رائحة القمح. رائحة روث البقر. رائحة اللبن أول ما يلح. رائحة النعناع. رائحة الليمون"¹.

هذه الفقرة تشير إلى رغبة الراوي الجارف أن يقضي

حياته الباقية في قريته ود حامد بعيدا من حياته في المدينة الخرطوم وتشير إلى رغبته في التطلع إلى ذكرياته الماضية في طفولته وشبابه. وجدير بنا الذكر أن الروائي الطيب صالح كان يتجول البلاد الأوربية والبلاد العربية في مهام وظيفته حينما كان يكتب هذه الرواية. والراوي في هذه الرواية عزم أن يثبت في قريته. فمن القول أن الروائي يظهر خلال هذه الفقرة عن رجائه وفضوله في قضاء حياته في قريته وفي مسقط رأسه في أواخر أيامه. كان الروائي في هذه الرواية واعيا عن أن غيابته الطويلة من القرية قد أبعدته كثيرا من أصدقائه وزملائه الذين كانوا معه منذ طفولته. يصدق هذه الحقيقة عندما يقول له ود الرواسي "أنت كنت بعيدا... تغيب حول وتجي تقعد معانا شهرا أو شهرين. من يدري، من أيام المدرسة وبعدين شغل الحكومة. الزول المعاك ما هو مثل الزول البعيد منك، مهما كان"²

والميزة الثانية التي نراها عند الراوي في هذه الرواية

هي أن يظهر شعوره وعواطفه نحو جدّه مختلفا تماما من عواطفه التي أظهرها نحو جده في المؤلفات السابقة للطيب صالح. نراه في القصة 'حفنة تمر' وفي الرواية 'موسم الهجرة إلى الشمال' وهو يظهر عن شغفه إلى جدّه باحترام كامل وعن علاقة حبّية وطيدة بينهما. أمّا في هذه الرواية يظهر الراوي بعضا من عواطفه الغريبة من الحقد والغضب نحو جدّه لبعض الأسباب. "يتذكره الآن بخليط من الحزن والحقد. لقد إختاره دون سائر أبنائه ليكون ظلّا له على الأرض. وخلف له الدار وفروة الصلاة وإبريق النحاس والمسبحة من خشب الصندل وهذه العصا"³. لم يأذن له جده أن يتعلم ما رجاء من المادّة في مجال التعليم وكذلك لم يسمح

(1) مريود، الأعمال الكاملة للطيب صالح، ص - 411

(2) مريود، الأعمال الكاملة للطيب صالح، ص - 433

(3) المصدر السابق، ص - 413

له أن يتزوَّج مريم أخت محبوب التي كان يحبّها منذ طفولته. فلأن يدرك الراوي ويندم عن إطاعته لأوامر جدّه رافضا رغباته ومشيتته. "وبدأ أن يتراجع عن الدور الذي كان جدّه يهيّئه له، وكان عليه أن يحارب بسلاحه هو، فحارب بسلاح جدّه، وانهزم، وذهب ولم يعد إلا بعد أن إنتهى كل شيء". وأظهر ندامته هكذا "الإنسان لازم أن يقول 'لا' من أوّل مرّة. كنت فرحان في ود حامد. أزرع بالنهار وأعني للبنات بالليل. أشرك للطير وألبط في النيل. القلب فاضي وراضي. بقيت أفندي لأنّ جدي أراد. ووقتني بقيت أفندي كنت عازو أ بقي حكيم بقيت معلم. وفي التعليم قلت لهم أشتغل في مروى قالوا تشتغل في الخرطوم. وفي الخرطوم قلت لهم أدرّس الأولاد قالوا تدرّس البنات. وفي مدرسة البنات قلت لهم أدرّس تاريخ قالوا تدرّس جغرافيا. وفي الخرافيا قلت لهم أدرّس إفريقيا قالوا تدرّس أوربا. وهلمّ جرا"¹

وكذلك أوضح الراوي في هذه الرواية عن حبه مع مريم بتفصيل طويل. وفي نهاية الرواية يذكر عن خسارته في الحياة حينما خضع لإرادة جدّه وعن فشله في تحقيق أحلامه. رأى محيميد - الراوي - مريم في حلمه وكانت تنقده نقدا لاذعا في فشله في إختيار حياته حسب رغبته ورجائه، وعن عدم علاقته الوطيدة مع أبيه. قالت له في الحلم "يا مريود. أنت لا شيء. أنت لا أحد يا مريود. أنك اخترت جدّك وجدّك اختارك لأنكما أرجح في موازين أهل الدنيا. وأبوك أرجح منك ومن جدّك في ميزان العدل. لقد أحبّ بلا ملل، وأعطى بلا أمل، وحسا كما يحسو الطائر، أقام على سفر، وفارق على عجل. حلم أحلام الضعفاء، وتزوّد من زاد الفقراء وراودته نفسه على المجد فزجرها"².

مريم

تبرز شخصية مريم في هذه الرواية خلال ذكريات الراوي عنها. يبيّن الراوي عنها قليلا في 'ضو البيت' ويقول عنها كثيرا في 'مريود'. مريم،

(1) ضو البيت، الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 357

(2) مريود، الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 473

هي أخت محبوب صديق الراوي محييد وهي أم الطريفي. يصرّوها الروائي رمزا لشابة سودانية تفكر عن تطوّر الدولة السودانية تطوّرا واسعا الذي يبدأ من الأصلال التقدمية والإصلاحية من القرية حتى تتسع نطاقها إلى كلّ مناطق البلد. تتضح خلال هذه الشخصية أحلام الروائي وأفكاره عن الشابة وعن المرأة السودانية. وهو الذي كان يفكر عن المرأة أن تقدم إلى الأمام مع الرجال في كلّ الأمور وأن لا تخضع للقواعد الإجتماعية الصالحة لتقدّم الرجال فقط. وكان يريد منها أن تثور على سيطرة الرجال وقوانينهم. ومن الواضح أن معظم شخصيات النسوية للطبيب صالح تتمسك بهذه الخصائص المهمة.

كانت مريم تحبّ أخاها محبوب حبّا شديداً، وكانت تفخر به فخرًا عظيما. وعندما ثار ابنها طريفي على محبوب لم تقف مع ابنه ولكنها كانت تقف مع أخيها محبوب. وأيدت أخاها ضدّ ابنه (طريفي) وتركت الدار وأقامت عند محبوب.

مريم هي فتاة ترجو إلى تنمية القرى السودانية ونشأتها. وهي شخصية ذات إرادة قويّة وترغب في حدوث التغيرات في المجتمع السوداني المقيد بالتقاليد والعرف. وهي ليست بنتا مثل البنات الأخرى في القرية السودانية والمجتمع السوداني. أدركت منذ طفولتها عن عدم المساواة بين الجنس - بين الولد والبنات - في المجتمع السوداني واستوعبت واعية أنّ هذا الظلم الذي يطبقها الرجال على النساء سيؤدّي الطريق أمامها في تحقيق رجاءها وأملها وإرتقاء شخصيتها. فرفضت مريم البنات الصغيرة أن تطيع بأوامر النظام الأبوي التقليدي الذي كان يكبح المرأة وبسطهاها. تعلمت في المدرسة مع الأولاد وكانت تدّعي عن عدم الفرق بين الأولاد والبنات في الحصول على العلم والتفوق فيه وكانت تأكد بحق المرأة في رفع مستواها ومكانتها في المجتمع. يذكر الراوي في هذا الصدد "أنا أرى مريم طفلة دون الرابعة، قرأ معنا القرآن في خلوة حاج سعد، فعلت ذلك قدرة وإقتداراً، لا رادّ لرغبتها العارمة في فكّ طلاسم الحروف. تجبّئ فطردها فلا تنطرد،

فاضطررنا أنا ومحجوب أن نعلمها، فكأننا أطلقنا جنا من قمقم. أخذت تقرأ وتحفظ وتفهم، حتى لحقت بنا وكادت تفوقنا. وصارت تقارنا الآية بالآية والسورة بالسورة، حتى ضقنا بها ذرعا. ولمّا دخلنا المدرسة سعدنا أننا نتعلم أشياء لا تفهمها، ونرجع ونقرأ لها التاريخ والجغرافيا والحساب، نغيظها بذلك. فأخذت تمالئنا وتستعطفنا لأخذها معنا¹. هكذا تعلمت العلوم المختلفة بشدة شغفها ورغبتها وأرادت أن تلتحق بالمدرسة. ولكن المدارس آنذاك كانت تعلم الأولاد فقط "المدرسة للأولاد. ما في بنات في المدرسة". وعندما فهمت عن هذا التعصب بين الجنس قالت بجرأة وعزيمة "أيه الفرق بين الولد والبنات؟... خلاص ما دامت الحكومة لا تقبل غير الأولاد أصير ولد... ما دامت الحكومة ما تقبل إلا الأولاد ألبس جلابية وعمّة وأمشي معاكم، متلي متلكم. مافي أي إنسان يعرف أي حاجة. أي الفرق بين الولد والبنات؟"². وافق أخوه محجوب والراوي على رأيها وإرادتها ووجهة نظرها عن حياة المرأة. "لم تكن خجلة. واجهتنا بغتة، فرأينا أضواء ذلك الأفق البعيد، تتوهج على جبهتها وحول عينيها. نظرنا بعضنا إلى بعض كالمسحورين. وقلنا أنا ومحجوب بصوت واحد، وقد بدأ ذلك الأفق البعيد يترأى لنا نحن أيضا: صحيح. ليش لا"³. وهكذا إلتحقت بالمدرسة وتعلمت مع الأولاد ونجحت في إرادتها القويّة وعزمها الفريدة.

رأت مريم المدينة مكانا لانقا لأن تحقق أحلامها عن التعليم والفرصة المتساوية بين الجنس - بين الذكر والأنثى - في أمر التعليم. يقول وائل حسن "إنّ عصيان مريم وتمردّها ضدّ النظام الأبوي يتحدّث عن رفضها القرية ورغبتها وشوقها في المدينة. ولا تجسد هذه الرغبة في تمّنيها للحصول على الأمور الحديثة فقط بل الفكّ من القيود التي يجبرها عليها المجتمع السوداني التقليدي عندما تنمو إلى امرأة كاملة. لأنّ مريم الطفلة ترى القرية ود حامد مترادفة للتقاليد القديمة حينما تنظر إلى المدينة تمثيلا

(1) مريود، الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 461

(2) مريود، الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 462 - 463

(3) الصدر السابق، ص - 464 - 465

للحادثة"¹. وكانت ترجو إلى حدوث التغيرات في قريتها ورغبت أن تكون القرية متقدّمة ومتجدّدة في كلّ مجال حياة الإنسان مثل المدن. تمتّ أن تجد مدوسة جديدة في قريتها. فقليل لها "مثل مدرسة ود حامد؟" فقالت في ثورة "ود حامد تغطس في الأرض. مدرسة كبيرة من الحجر والطوب الأحمر وسط الجنّين". وكانت تنظر إلى المدينة مكانا صالحا لتطوّر الحياة وستقبلها الحسن حيث رأت في المدينة المدارس التي تدرّس الذكر والأنثى معا، ووجدت هناك المستشفيات والكهربائية والأمور التي تليق بحدّثة المجتمع وتقدّمه. قالت لمحييمد الذي كانت يحبّه "نسكن البندر. المويه بالأنابيب والنور بالكهرباء والسفر سكة حديد فاهم؟ أتمبيلات وتطورات. أسبتياليات ومدارس وحاجات وحاجات. البندر فاهم، الله يلعن ود حامد. بحم ورماد. فيها المرض والموت ووجع الرأس. أولادنا كلهم يطلعوا أفندية. فاهم؟ زراعة أبدا. وحياة محجوب اخوي زراعة ما نزرعها أبدا"².

أما مريم كانت تهتم بالتعليم إهتماما كبيرا من هذه الأمور الحديثة. لأنها رأت المدارس أبوابا إلى نجاح الحياة. كانت ترجو أن تكون لها عشرة أولاد وأن تجعلهم موظفين الذين يتناولون المناصب العالية في المجتمع. كانت تحلم من أبنائها أن يكونوا مديرين ومحامين ومهندسين وناظرين ومعلمين وحكّماء. ولكنها لم تفلح في رغبتها لأن تتزوّج من الراوي وأن تذهب إلى المدينة حيث أنها تزوّجت بكري تاركة حبّها في العيش مع الراوي. يشير هذا الأمر إلى غلبة الرجال على النساء اللاتي يحاولن للتخلص من قيود المجتمع، وهو أيضا يشير إلى غلبة إرادة النظام الأبوي على الشباب كما حدث في أمر الراوي حينما خضع إلى إرادة جدّه في تعيين مستقبله.

تزوّج بكري مريم وولدت أبناءه، وماتت في الخمسين من عمرها. كانت موتها حادثة التي تركت حزنا عميقا في قلب الراوي وأهل القرية. عندما تموت مريم وتقبّر تحت الأرض فتموت معها أحلامها عن المستقبل المشرق، والراوي أيضا

⁽¹⁾ Tayeb Salih ideology and craft of fiction, Wail Hasan, p: 167

⁽²⁾ مريود، الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 457

يقبر أحلامه عن مريم تحت الأرض حينما يضع جثة مريم على التراب. استطاعت مريم أن تحلم عن التغيرات في المجتمع السوداني المتمسك بالقوانين والنظم، ولكنها لم تستطع أن تحقق بآمالها وأحلامها وعجزت في تجسيدها وأنقض الموت على آمانيها. فإذن عندما دفنت في التراب بعد موتها دفنت أحلامها معا تحت تراب الأرض. ولعلّ هذا المصير يكشف لنا عن إحساس الطبيب صالح في أعماقه أن أحلام مريم لم تتحقق حتى الآن، وعادت مريم بموتها إلى باطن الأرض، وعندما تمّ دفنها فقد تمّ دفن أحلامها، فالآن هذه الأحلام موجودة في باطن الأرض، فلا بدّ للأرض أن تعيد وتلد مريم من جديد وتحقق الأحلام المدفونة.

تصوّر الرواية موت مريم فرصة الإتحاد الروحي

والعاطفي بين الناس. إشتكت القرية كلها في المسجد أن تصلي على جنازتها وأن يدعو لها. إجتمع كلّ إنسان القرية في المسجد حتى الفريق من الرجال اللذين لم يدخلوا مرّة في المسجد في حياتهم حتى الآن. يقول عشا البيايات عن هذه الليلة "نزلت وجدت الوليد، ود حسب الرسول وود بكري وود رحمة الله وود مفتاح الخزنة ناس ما دخلوا الجامع من قبل. زي كان البلد كلها اجتمعت في المسجد عند الفجر".¹ رسم الطبيب صالح مشهد موت مريم في صورة أروع، ليس كصورة الموت من الحزن والكآبة ولكنها كصورة مشهد العرس من البهجة والرونق. يقول الراوي "لم تكن بها علة ولم تلزم فراشها غير يوم واحد، كأنها قرّرت أن ترحل فجأة. كانّ كل الذي حدث لم يحدث. هو (محبوب) على بينها وأنا على يسارها، وحدنا معها، كما أرادت. كانت خضلة مثل عروس، ليس بها شيء، سوى بعض جّبات العرق على جبهتها. كان وجهها منألقا وعيناها تتلامعان مثل البروق".² "دفاها عند المغيب كأننا نغرس نخلة، أو نستودع باطن الأرض سرا عزيزا سوف تنمخض عنه في المستقبل بشكل من الأشكال".³ "كانت مثل طائر، رفعها محجوب من نعلها فشقق ضوء المصاييح على حافة القبر، وسمعت هبوب أمشير تناديني بلسان مريم. كنت خفيفة مثل فرخ طائر وأنا أسير

¹ مريد قصيدة في العشق والمحبة، رجاء النقاش، الطبيب صالح دراسات نقدية، دا حسن أبشر الطبيب، ص - 274

² مريد الأعمال الكاملة الطبيب صالح، ص - 466

³ المصدر السابق، ص - 456

بها في طريق طويل يمتدّ من بلد إلى بلد ومن سهل إلى جبل. لم يكن حلما. أبدا. كانت مريم نائمة على كتفي"¹. من القول أنّ مريم هي رمز الحياة المليئة بالأحلام التي تكسر الحدود والقيود التي تقوم مثل السدود أمام التجديد والتحديث ، وهي التي كانت تريد أن تزيل وأن تميط الأذى من الطريق لتحقيق الأمور الجديدة في حياة الإنسان ولطلوع عالم جديد متغيّر أمام الإنسان.

بندر شاه

تفتح لنا هذه الرواية أبوابا واسعة لزيادة المعرفة عن بندرشاه المذكور في الرواية السابقة 'ضو البيت'. وهنا تتضح صورة بندر شاه في آراء مختلفة وأقاويل متضاربة. "يزعم بعض رواة الأخبار في ود حامد أنه كان ملكا نصرانيا من ملوك النوبة، بسط سلطانه في البرّ والبحر وكانت عاصمة ملكه في مكان قرية ود حامد اليوم. أقام الملك القلاع والحصون، وعمر الكنائس وفرض الضرائب على القوافل. وعندما دخلت جيوش العرب حاول بندرشاه لأن يعترض سبيلهم "ولكنهم هزموه شرّ هزيمة ومزّقوا شمله شرّ ممزّق. ويقال أنّ بعض رقيق بندر شاه اعتنقوا الإسلام، وبعضهم تفرقوا في البرّ والبحر. أما في رواية ثانية يقال أنه كان ملكا وثنيّا قدم من أعالي النيل وغزا ذلك الإقليم بجيش عظيم من الجنود. أقاموا في نواحي ود حامد وما جاورها مملكة سوداء قويّة وكانت في الحكم والأمر حتى حطمها عبد الله جماع إبان صعود نجم مملكة سنّار. وقالوا أنّ إسمه لم يكن بندر شاه بل بانقي أو جانقي.

ويرجح بعض المؤرّخين إنّ بندر شاه كان أميرا حبشيا يدعى مندرس، هرب مع نسائه وعياله وبعض من جنوده وعبيده بسبب صراعات على الملك أيام الملك راس تغري الأكبر. عبروا النيل ووصلوا إلى منعطف النهر حيث تقوم ود حامد الآن، وأقاموا هناك وبنوا بلدا أسموها (دبوراس) أي الربوة بلغتهم، حسبما تروى

⁽¹⁾ المصدر السابق، ص - 469

الأساطير. وقيل أنّ هذا الأمير مندرس وجد معابدا حجرية من عصور غابرة، فكسرها وبنى من حجارتها قصرا شامخا على قمة الربوة في غاية الجمال والمعمار وبنى حصنا يقاوم البلى والنشر من الآخرين لوقت من الزمن. وذكروا أنّ هذا الأمير بلغ من سطوته وغزا الشمال والجنوب في عهود المسيحية المتأخرة وفرض الجزية على أمراء الممالك المجاورة. ثمّ أنه لما بلغ أشده وعظم شأنه، جمع جيشا كبيرا وعبر به صحراء بيوضة في حظّ مستقيم من الغرب إلى الشرق، وعدى النيل عند بربر، ثمّ سار بجيشه محاذيا نهر "الأتبراوي" وظل يواصل السير نحو أرض الحبشة وكان ينوي أن ينزع الملك من النجاشي الحاكم. واشتغل جنوده وجنود نجاشي بالحرب أيّاما. ثمّ أجرى جنود النجاشي عليه حملة كبيرة فقتلوه فمزّقوا جيشه. ويقال أنّ من بقاياهم قبيلة صغيرة في ود حامد يقال لهم 'أولاد ود الحبشي' وكانوا مشهورين بوسامة رجالهم وجمال نسائهم. وفي رواية أخرى يقال أنّ بندر شاه قضى زمنا على هذه الضقة. وكان حاكما وسيّدا يعاقب عبيده بغير جنان منهم ولكنه كان يلذّ بعقابتهم وبألمهم. حتى كان ذات ليلة، ثار عليه هؤلاء العبيد ونقضوا عليه فقتلوه، ثمّ قطعوه قطعا ورموا لحمه في بئر القصر، وأحرقوا القصر بما فيه، وفرّوا كلهم. ويذكر أنّ هذا القصر بقي حتى بعد أن حرقوه لزمّن طويل وكان على هيئته. وفي أيام المهديّة رآها الأمير المهدي يوسف ود الحكيم الذي حكم ذلك الإقليم في ذلك الزمان. ولما رآه وقف عنده وتعجّب لمنظره وسأل أهل البلد عمّن بناه فذكروا له روايات متضاربة. وظلّ يحدّق في البناء الشامخ فهو يردّد "الله قادر.. الله قادر" ثمّ قال، البناء دا ما بناه ابن آدم. دا عمل شياطين. ثمّ أمر جنوده لأن يهدموا ما بقي منه. وهكذا تضاربت الآراء والأقوال عن بندر شاه وأساطيره.

بلال

والشخصية الأخرى في هذه الرواية هو بلال، أبو الطاهر ود الرواسي، واحد من أصدقاء الراوي. بلال، كان اسمه الحقيقي 'حسن'. كان مؤدنا في المسجد. وسمّاه الناس بإسم بلال بحسن صوته. كان صوته في الأذان جميلا وفيه لكنة،

ينادي الأذان كما يقول الراوي "أشهد ألا إله إلا الله، أشهد أن مهديا رسول الله. هي إلى السلاة، هي إلى الفلاة"¹. وفي الرواية الأخرى يقول عن تسميته ببلال هكذا "قالوا أن الشيخ نصر الله ود حبيب هو الذي منحه هذا الاسم لما سمع من صوته، وعلمه الأذان وجعله مؤذنا، وكان يقول له طوبى لمن شهد صلاة الفجر في المسجد على صوتك يا بلال، فوالله إن صوتك ليس من هذه الدنيا ولكنه نزل من السماء"². وأيضا يروي عن حسن صوته الرجال الذين حضروا زمانه أنه كان حين يأذن لصلاة الفجر، تحس أن الصوت لا يصل إليك من مؤذنة الجامع، ولكنه ينبع من قلبك. كان أمرا عجيبا، فيما حدثوا، أن يأذن بلال ها الله ها الله".

ينبّه إسم بلال عن بلال (ر) الذي كان عبدا من الحبش وزميل النبي محمد (ص) وأول مؤذن الإسلام. والبلال هنا أيضا كان مؤذنا في مسجد القرية ود حامد وسمي بهذا الاسم بحلاوة صوته ولحنه في الأذان. تقاعد بلال (ر) من منصب مؤذن الإسلام بعد وفاة النبي (ص) والبلال هنا أيضا تقاعد من هذا المنصب بعد وفاة شيخه نصر الله ود حبيب الذي عيّنه مؤذنا في القرية. كان حسن جميل الوجه حسن الصورة، متناسق الأعضاء وليس بطويل ولا بقصير، كان لونه كالمسك، وكان سكينا ووقورا نبيل الملامح والحركة. وكان لسانه يرفج بذكر الله والصلاة على نبيه في كل الأوقات.

تصوّر الرواية هذه الشخصية ببعض من الملامح

الغامضة. لم ينشأ البلال مع أهل القرية، ومن العجب أنهم لا يذكرون عن طفولته ولكنهم يذكرونه منذ شبابه شابا يافعا فوق الخامسة عشرة ودون العشرين. "وكان هو في خاصّة نفسه، إنسانا عجيبا، جميل الهيئة، جميل الطباع، متعففا ورعا، أخلاقه أخلاق سادة أمجد. ومن عجب أنه شبّ كأنه نزل فجأة من السماء، أو انشقت عنه الأرض، أو أنه طلع من النيل،

⁽¹⁾ مريود، الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 437

⁽²⁾ مريود، الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 437.

شخصاً كامل الهيئة والتكوين، فلا إنسان من أهل البلد يذكره طفلاً ولا أحد يعلم من ربّاه، ولا أحد يقول لك رأيت بلالاً أو سمعت بلالاً إلى أن ظهر فجأة وهو فتى يافع"¹.

وهناك أقاويل مختلفة عن أصل بلال مثل الأقاويل المختلفة حول بندر شاه. يروي الطاهر ود الرواسي ابن بلال، أنّ أباه نشأ عبداً هملاً بلا سيد. وأنه ربّما يكون من ذرية رقيق لملك حكم ذلك الإقليم في الزمن القديم يدعى بندر شاه. أمّا حسب رواية إبراهيم ود طه، الراوي الوثائق في تاريخ قرية ود حامد، أنّ بلال ليس من عبيد ملك. وهو يؤكد أنّ بلال هو الابن الثاني عشر لعيسى ود ضو البيت. وكانت أمّه جارية سوداء جميلة ذكّية التي كان أبوه ضو البيت يحبّها ويؤثّر لها. ولكنّه لم يلحق ابنه بنسبه. ولمّا مات أبوه خجل إخوته أن يسترقوه، ولكنهم استكبروا أن يتصرّفوا معه مثل الرجل الحر ويشركوه في ميراث أبيه.

والأمر الآخر يقال عن بلال هو عن العلاقة الحارة الراسخة بين بلال والشيخ نصر الله ود حبيب، الرجل الصالح الذي عيّن حسن مؤدنا في المسجد وسمّاه بإسم بلال. وهو الذي سأله أن يتزوَّج البنت حواء بنت العربي وإن كان راغباً عن الأمور الدنيا. ولكنّه أطاع طلب شيخه وتزوَّج البنت واجتمع بها ليلة واحدة. حبلت حواء منه في تلك الليلة بابنه الذي سمّي الطاهر. ومات بلال بعد سنة واحدة بعد وفاة الشيخ نصر الله ود حبيب.

يرسم الروائي شخصية البلال خالياً من الرغبات المادية. يتسلل شخصيته إلى نفوس القراء فترتاح نفوس القراء وقلوبهم كما قال رجاء النقاش عن هذه الشخصية "فإننا نشعر أنّ بلال هذا قد تسلل إلى نفوسنا وجرى في دماننا، وأصبح معزوفة جميلة، تعزف في قلوبنا ألحانا عن العشق والرضا والوصول والوجد والسر العذب

⁽¹⁾ المصدر السابق، ص - 447

في هذا الوجود"¹. مثلاً نسمع إلى كلمات الشيخ نصر الله ود حبيب إلى البلال "يا بلال. أنت عبد الله كما أنا عبد الله، نحن إخوة في شأن الله. أنا وأنت من ذرات الغبار في ملكوت الله عز وجل. ويوم لا يجزي والد عن ولده يمكن كفتك ترجح كفتي في ميزان الحق جلّ جلاله، كفتي أنا أرجح من كفتك في موازين أهل الدنيا، ولكن كفتك يا بلال سوف ترجح كفتي في ميزان العدل، أنا أجري جري الإبل العطاش يا بلال لكي أحظي بقطرة من كأس الحضرة، وأنت شربت إلى ان ارتويت يا بلال. أنت سمعت ورأيت، أنت عبرت وعديت، ولمّا ناداك الصوت قلت نعم قلت نعم، قلت نعم"². هذه الأقوال عن بلال تنشر وتسري في النفوس وتملأ بالراحة والإطمئنان.

رسم الطيب صالح بريشه الخيالي الملون صورة بديعة

لموت بلال كما فعل في مشهد موت مريم. رسم الموت حادثة متوقعة تحدث بوحي الإنسان بها. بلال هو رجل صالح تقي، وربما يبين الطيب صالح أنّ الإنسان الطيب سوف يخبره ربّه عن أوان موته، فيستطيع أن يعدّ نفسه لإقبال موته كما حدث في أمر بلال. مشهد الموت ومشاهدة الميت فرصة تثير في قلوب الناس مشاعراً من الخوف والرعب إمّا بخوفه من عقابة الله تعالى في الآخرة وإمّا بخشية مواجهة الله تعالى بأيدٍ خالية من الإحسان والأمور المعروفة. على كلّ حال إنّ الموت في غالب الأحيان أمر غير مستحبّ في قلوب الناس. ولكنّ الطيب صالح يصوّر مشهد موت بلال مشهداً الذي يدبّ إلى داخل الناس وينشر فيه العواطف المملوّة بحلوة الموت. حتّى يقال عندما رأى أهل القرية موت بلال فكلّهم إشتاقوا لأن يموتوا في تلك الآونة. "ذات فجر إستيقظ الناس على صوته (صوت بلال) ينادي من على منذنة الجامع، صوتاً وصفه الذين سمعوه بأنّه كان مجموعة أصوات، يأتي من أماكن شتّى ومن عصور غابرة. وأنّ ود حامد إرتعشت لرجابة الصوت، وأخذت تكبر وتكثر وتعلو وتتسع، فكأنّها مدينة أخرى في زمان آخر. قام كلّ واحد منهم من فراشه

(1) مريد قسيبة في العشق والمحبة، رجاء النقاش، الطيب صالح دراسات نقدية، دا حسن أبشر الطيب، ص - 217

(2) مريد، الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 438

وتوضاً وسعى إلى منبع الصوت، كأنّ النداء عناء وحده في ذلك الفجر. ولمّا وقفوا للصلاة رأوا بلال يلبس كفناً، وكان الجامع غاصّاً بخلق كثير، من أهل البلد ومن غير أهل البلد. كان أمراً عجيباً. كبر للصلاة كما كان يفعل أيام ود حبيب، ثم وقف ليصلي بهم، فلم يقف أمامهم حيث كان يقف الشيخ، بل وقف معهم في وسط الصف الأول، وهو على تلك الهيئة. قرأ صورة الضحى بصوت فرح فاذا بالآيات نضرة كأنها عناقيد كرم. وبعد الصلاة التفت إليهم بوجه متوهج سعيد وحيّاهم مودّعاً وطلب منهم ألا يحملوه على نعل بل على أكتافهم، وأن يدفنوه بجوار شيخ نصر الله ود حبيب، وعلى أن يتركوا بينه وبين الشيخ مسافة تقبض عليها أصول الإحترام والتبجيل. وبعد ذلك تمدد على الأرض عند المحراب وتشهد واستغفر، والناس ينظرون في رهبة ودهشة، ثم رفع يده كأنه يصافح أحداً وأسلم روحه إلى بارئها. وحملوه من موضع ذاك من الجامع إلى المقبرة، وقالوا أنه مشى في جنازته خلق كأنّ الأرض انشقت عنهم. ودفنوه عند الشروق فيما رواء، وأمّ بهم الصلاة رجل مهيب لم ير وجهه أحد ولكن أكثرهم قالوا أنه كان كأنه الشيخ نصر الله ود حبيب. وحدثوا أنه ما من رجل شهد وفاة بلال إلا وقد انتهى أن تقبض روحه في تلك الساعة، فقد جعل مذاق الموت في أفواههم كمذاق العسل¹.

طاهر الرواسي

أتى الطيب صالح بشخصية طاهر الرواسي في روايته 'عرس الزين' و'بندر شاه' وقصته 'الرجل القبرصي'. هو صديق الرواي منذ طفولته وعضو قوي في فريق محبوب. وهو غير راغب في أمور الدنيا وغير جادّ فيها حيث كان يؤمن أن الأمور في العالم يحدث حسب دورها وكان يقول كل الوقت "روح يا زمان، وتعال يا زمان". كان له نظراً عميقاً في أمور الدين ومع ذلك كان واعياً عن نفاق أولياء أمور الدين. وإن كان طاهر الرواسي مولعاً بعواطف دينية، لم يذهب إلى المسجد أبداً ولم يصل مرة في

⁽¹⁾ مريود، الأعمال الكالة الطيب صالح، ص - 440 - 441

حياته، ولكنه كان مجتهدا كثيرا في بناء المسجد وإقامته. كان راضيا بدعاء زوجته لله تعالى وصلاتها له وكان يعتقد أن المناسك الدينية التي تؤدّيها زوجته تكفي لنجاحه وهي تشملها في دعائها وصلاتها. وحتى تلك الغاية كان مؤمنا ومتأكدا في حب زوجته فاطمة بنت جبر الدار معه وفي حبه معها "فاطمة بنت جبر الدار طول حياتها تصلي. صلاتها تكفينا نحن الإثنين"¹.

وكان الطاهر الرواسي رجلا مميّزا وكان يجد الإطمئنان

في الحب والمحبة والعشق بين الإنسان والإنسان والطبيعة. هو الذي قال للراوي "الإنسان يا محميم... الحياة يا محميم ما فيها غير حاجتين اثنتين... الصداقة والمحبة. ما تقول لي لا حسب ولا نسب، لا جاه ولا مال... ابن آدم إذا كان ترك الدنيا وعنده ثقة إنسان واحد، يكون كسبانا. وأنا، المولى عز وجل أكرمني بالحيل. أنعم عليّ بدل النعمة نعمتين.... اداني صداقة محبوب وفاطمة بت جبر الدار"². وهناك أقوال أخرى قالها الطاهر عن نفسه وعن أمّه؛ الأقوال التي تفيض بالعشق والمحبة. "ما رأيت حبّ مثل حبّ تلك الأمّ، وما شفت حنان مثل حنان تلك الأمّ. ملّت قلبي بالمحبة حتى صرت مثل نبع لا ينضب. ويوم الحساب، يوم يقف الخلق بين يدي ذي العزة والجلال، شالين صلاتهم وزكاتهم وحجّهم وصيامهم، وجهودهم وسجودهم، سوف أقول: يا صاحب الجلال والجبروت، عبدك المسكين الطاهر ود بلال، ولد حواء بنت العربي، يقف بين يديك خالي الجراب، مقطّع الأسباب، ماعنده شيء يضعه في ميزان عدلك سوى المحبة"³. وفي هذه الأقوال يبدو موقف الروائي الطيب صالح عن القيم في حياة الإنسان في العالم وعن القيم التي لا تزال تبقى إلى الأبد معه. ليست هذه القيمة المال والجاه والزينة التي يستكبر الإنسان ويتفاخر بها أمام الآخرين. ولكنّ هذه القيمة هي الحب والصداقة بين إنسان وآخر من حوله من الإنسان والحيوان والبيئة والطبيعة. هذه هي الخزانة النفيسة التي لا تقصر قيمتها في أية أحوال وأوقات.

(1) المصدر السابق، ص - 429

(2) مريود، الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 432.

(3) المصدر السابق، ص - 455.

تصوّر الرواية علاقة الطاهر ود الرواسي العميقة بينه والبيئة خلال تكلمه عم سمكة التي وجدها من النيل. تصوّر الروائي هذا المنظر في عبارة جميلة. يقول محييمد "مال الطاهر ود الرواسي نحوي دون أن يحوّل وجهه عن النهر. فجأة صرخ 'بنت الكلب، الليلة وقع معاي' قلت له: 'كيف عرفت أنها أنثى؟' قال: 'حتى في الحوت، المره مره، والراجل راجل' وقال: 'أصلها عندها تار معاي. قبل خمسين سنة واحدة من حبوباتها قلبت بي المركب. وقت وقعت في المويه بقت تجرّني من سروالي لي تحت' 'وأنت شن سويت؟' 'خليت لها السروال ومركت من المويه عريان جل. صوته في تلك الدجنة مفعم بالحياة والمرح كأن السمكة في الماء تتحدث إليه بلغة يفهمها: - 'أكثر من ثلاثة شهور وأنا وراها. مرة تقطع الخيط ومرة تأكل الطعم وتشرّد. بنت الحرام تقول جنية من جنس العفاريث'"¹.

⁽¹⁾ مريود، الأعمال الكاملة الطيب صالح ، ص - 467 - 468

الطيب صالح و"موسم الهجرة إلى الشمال"

مشاعر العرب ضد الإستعمار كما تظهر فيها

دراسة نقدية

أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها

قدّمتها

حسينة. ب

تحت إشراف

بروفسور الدكتور أحمد إبراهيم رحمة الله

الرئيس السابق (المتقاعد)

قسم اللغة العربية بجامعة كاليكوت



قسم اللغة العربية

جامعة كاليكوت

كيرلا ، الهند

2012م

الفصل الرابع

دومة ود حامد وسبع قصص

نخلة على الجدول

بدأ الطبيب صالح كتابة القصة القصيرة عام 1953، ولكنه لم ينشر منها إلا عددا قليلا. لفتت إليه الأنظار بتميز لغتها الشعرية وعمق البصيرة الفنية وإحكام البنية السردية. فصصه متميزة بروح التصوف المستمدة من ثقافته الخاصة وإمتصاص لثقافة القرية في شمال السودان. وتحلى عالم الطبيب صالح القصصي بروح المكان والناس والإلتواء والطبيعة والنيل الذي كان يلزمه منذ صغره.

بدأ الطبيب صالح الكتابة القصصية حينما كان بلندن.

يقول الطبيب صالح بعد إنتقاله إلى لندن وهو بداية إنفجار مواهب الإبداع لديه "كانت بدايتي قاسية جدا في لندن لأنني تركت الأهل والأحباب والدور الفسحة والتواصل الإجتماعي، لأجد نفسي داخل غرفة صغيرة برودتها لا نطاق في بلد غريب و بين قوم غرباء". لكن مع هذه المشاعر القاسية إستطاع الطبيب صالح أن يتأقلم مع هذه الحياة الجديدة في مدينة لندن، وتكيف سريعا مع بيئتها الخاصة وطقسها البارد وحياتها الثقافية المعروفة. ومن الواضح أن أحوال لندن الغريبة قد أظهرت الكامن الإبداعى النائمة في داخل الطبيب صالح وبدأ كتابته الأدبية في لندن. وهو يقول عن هذه الفترة "في تلك الفترة وتحت وطأة الحنين إلى أهلي وبلدي وعشيرتي كتبت قصة قصيرة أسميتها "نخلة على الجدول". كانت القصة تعبيراً عن حنينه إلى بلده ومحاولته لإستحضار بيئة قريته التي تقع على شاطئ النيل والقرية التي ترعرع ونشأ فيها.

تم نشر القصة 'نخلة على الجدول' لأول مرة في جريدة الأحد البيروتية في نفس العام التي كتبت فيه، كما نشرت بعد ذلك بمجلة 'القصة' السودانية التي كان يرأسها عثمان علي نور في عددها العاشر الصادر في أكتوبر 1960. كانت هذه المجلة السودانية تحتفي بأدب القصص السودانية. ثم ترجمت هذه القصة إلى اللغة الإنجليزية على أيد ديفس جونسون ديفس في اسم 'A Date Palm by the stream' في سنة 1981م.

كما تشير عنوان القصة 'نخلة على الجدول' تدور هذه القصة حول نخلة وجدول. النخلة والجدول عنصران أساسيان في الحياة السودانية الريفية وهما منبع الحياة السودانية. ألف الطبيب صالح هذه القصة حينما كان مغتربا في إنجلترا وحينما كان يشناق إلى بلده وقرينه ومزيانه. فكتب هذه القصة التي بين فيها عن قرينه ونخلها وجداولها، وهكذا استطاع الكاتب العودة إلى قرية المحبوبة في السودان خلال رحلاته الخيالية. أشار الكاتب 'طلحة جبريل' الذي رآه الطبيب صالح كإبنة أن هذه القصة جسر بين الطبيب صالح وبين وطنه السودان.

يبدأ الطبيب صالح هذه القصة بعبارة "يفتح الله"، وهذه العبارة تصبح مثابة بجملة المفتاحية في النص. تدور هذه القصة حول نخلة وصاحبها 'محبوب'. كان الشيخ محبوب في فترة شبابه يعمل في ساقية أبيه، وما كان عنده مالا لأن يقضي حاجاته، كان منبوزا ومحتقرا من أهله وكان يهتمه كل واحد بالغباء والخيبة. وقضى حياته أعزبا إذ لم يجد له وسيلة من المال لأن يقضي حياة زوجية. ذات صباح عندما كان يهشي في حقل ابن عمه إسماعيل الذي كان مشغولا بقلع شتلة النخلة ليغرسها في أماكن أخرى من أرض الساقية، فوجد شتلة نخلة صغيرة التي رماها إسماعيل لأنها كانت خالية من الجذور. إنقطها محبوب ونفض عنها التراب وغرسها على حافة الجدول. ولكن بعدما غرس هذه الشتلة فحدث كثيرا من التغيرات في أحوال حياته. تزوج محبوب إبنة عمه، وأصبح غنيا، وفي العام التالي ولدت زوجته بنتا وسماها أمنة. إعتقد محبوب أن كل هذه

التحوّلات في حياته قد حدثت ببركة هذه النخلة التي غرسها بتيمن وتبرّك. "سارت الحياة رغدا كأنما إستجاب الله دعاءه يوم شقّ في الأرض على حافة الجدول وغرس النخلة. لقد إستغنى عن أبيه وبنى لنفسه بيتا يؤويّة مع عائلته وصار ثريّا يعدّ المال مثل أيّ تاجر... وصار يلبس النظيف ويأكل الطيب وينام على الفراش اللين... وحينما كان الناس يتبرّعون في الأعراس بخمسة قروش كان يتبرّع هو بعشرة، وبزجاجة مليئة من سمن الضأن النقي، وكيلة من أجود أنواع التمر 'القنديل' حتى لقب بالظريف بعد أن كان يلقب بالغبي"¹.

أما الآن، لقد أصبح محجوب شيخا فقيرا، مات زرعه ويبس ضرعه وعمّ القحط وغاب الرخاء. وكان يعتقد أنّ هذه الحالة قد وصلت إليه وإلى قريته تحقيقا لنبوءة الشيخ الصالح ود دوليب. "لقد أُنذر الناس من قبل أنه "في يوم من الأيام سيأتي عليهم يوم يصير فيه اللبن كثيرا تافها مثل الماء، وتصير كيلة الذرة بقرشين، ويصبح ثمن النعجة ريالين"². وعلى تلك الحالة الفقيرة يحمل الشيخ محجوب الآن حزنا مريرا في ذكرى عن ابنه الوحيد حسن الذي تركه وأهله في القرية وغادر إلى مصر. ومن وقت مغادرته لم يرسل ابنه إلى أهله حتى رسالة واحدة يطمئنهم فيها عن صحّته. ولمحجوب بنت حنونة إسمها أمنة التي زوجها لابن أخته الذي أخذها إلى أقاصي الصعيد في الجزيرة. وهكذا ظلّ محجوب في حالة اليأس والفقر ووقعت عليه حالة أن يستدين ويرهن وأن يبيع كلّ ما لديه من النعجة والبقر لأن ينال عيشته وأهله. والآن ليس عنده من مال الدنيا إلّا بقرة واحدة وعزتان وهذه النخلة التي ظلّ يجهد ويحاول إستبقائها تحت ملكته.

ولكنه الآن أصبح أحوجا إلى المال حيث وصل شهر رمضان وعليه أن يحلّ دينه ويشتري ضحيّة العيد والملابس الجديدة له ولأهله. فأراد أن يبيع هذه النخلة المحبوبة له للتاجر حسين. وقال التاجر لمحجوب أنه يمنح له عشرين جنيها لهذه النخلة، وهذا المبلغ من المال ثمن معقول، خاصّة وهو أحوج ما يكون إلى المال. ولكن

⁽¹⁾ نخلة على الجدول، الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 485

⁽²⁾ المصدر السابق

محجوب تفكر برهة مترددا بين الرفض والقبول وأدرك أنه يمكنه أن يتناول كل حاجاته بهذا الثمن. ولكن نفسه لم غير راغبة في بيع هذه النخلة حتى مالت أن تفكر عن ابنه في مصر. ترى هل يحنّ لنداء الرحم؟ هل تؤثر في قلبه الدعوات التي أرسلها محجوب في هدأة الليلة؟ وفي هذا الحين أحسّ في نفسه بفيضان من الأمل وترقرق في عينيه دمع حبسه وتمتم أنه لا يريد أن يبيع النخلة. فانطلق التاجر غضبانا. وحينما كان محجوب جالسا على هذا الحال رأى ابنته الصغيرة تهول نحوه مضطربة فرحة وحاولت الصبية أن تخبره بالخبر بصوت متكسر عن شاب الذي قدم من مصر مع خبر أخيها حسن وطرده الذي أرسله معه إلى أهله. ثم قدم إليه شاب الذي جاء من مصر و قال له : حسن مبسوط، قال لك تعفي عنه. أرسل لك ثلاثين جنيه وطرده ملابس.

وفي الطريق إلى بيته "تحسّ محجوب رزمة المال التي صرّها جيدا في طرف ثوبه، ثم غرس أصابعه في الطرد السمين تحت إبطه، وانحدر طرفه من عل إلى غابة النخل الكثيفة الممتدة عند أسفل البيوت، وتميّز في وسطها نخلته، ممشوقة متغطرة جميلة تتلاعب بجريدها نسيمات الشمال. وخيل إليه أن سعف النخلة يرتجف مسبحا: يفتح الله يفتح الله¹.

يبدأ الطبيب صالح هذه القصة بعبارة "يفتح الله " التي تشير إلى مفتاح تفتح نصّ هذه القصة وتشير أيضا إلى حالة المساومة بين التاجر الحسين والشيخ محجوب. هذه العبارة "يفتح الله" أيضا تعني إلى المعنى "الله يفتح طريقا إلى النجاح" لأنّ هذه القصة تدور حول رجل بسيط الذي يتمسك على إيمانه بالله في حالته المأساوية ويواجه قضاياه بهذا الإيمان ويغلب على صعوباته. "ترسم القصة صورة رجل بسيط ومتواضع الذي صمد أمام المحن الشديدة، مسلحا بالشجاعة والإيمان والكرامة - صفات

⁽¹⁾ نخلة على الجدول، الأعمال الكاملة الطبيب صالح، ص - 488

تخفي من العالم السريع التي أحسها الطبيب صالح في الوقت عندما غادر السودان¹. أراد محبوب الذي أصبح فقيرا أن يبيع نخلته بغير إقتناع من نفسه فتوكل على الله تعالى لأن يفتح أمامه سبيلا لقضاء مشاكله وصعوباته، وأخيرا إلتقى بنجاح من الله تعالى. "رَدَدَ الرجل في نفسه: يفتح الله، وقاده ذلك إلى التفكير في سورة الفتح من القرآن الكريم - إنا فتحنا لك فتحا مبينا- الفاتحة- الفرج. وأحس لأول مرة بأن في عبارة يفتح الله معنى أكثر من كلمة يستخدمها في إنتهاء المبيعة وتقل الباب في وجه من يريد الشراء. إنها مفتاح لمن أعسره الضيق وأمضه البرؤس وأثقلت كاهله أعباء الحياة"².

عرض التاجر حسين عشرين جنيها فقط مقابل شراء النخلة الوحيدة التي يملكها محبوب، الشخصية المركزية في القصة والتي حوله وحول نخلته تنور القصة. وهو رجل في الخمسين من عمره الذي كان غنيا وثرىا في أيامه الماضية ولكنه الآن في فقر وأزمة مالية إذ أصابت القرية بالقطع. وليس أمامه حل لأن يتخلص من هذه الأزمة وأن يقضي ديونه ويؤدي حاجاته إلا أن يبيع نخلته الوحيدة التي يراها منبعها لفخره وسروره في الأيام الماضية. تمثل هذه النخلة روح مالكه وعليه أن يبيع روحه إلى التاجر حسين عندما يبيع هذه النخلة. ولكنه أخيرا أراد أن يبيعها له وتوكل على الله تعالى كل أمورهِ وأخيرا أصبح ناجحا في بلائه بصبره وتوكله في شكل صرة من المال وطرد من الملابس التي أرسلها إليه ابنه من مصر.

يُصوّر الطبيب صالح شخصية محبوب في صورة إيجابية عندما يصوّر شخصية التاجر حسين في شكل سلبي. "الطبيب في أدبه موقف ثابت إزاء الضعيف المغلوب على أمره. تأمله في قصة 'نخلة على الجدول' وما جرى لشيخ محبوب، الفقير صاحب النخلة التي زرعها حتى أثرت، وجاءه التاجر حسين يراوده على شرائها منه حين علم بحاجته الماسة إلى ما يكسو به عياله، وحق الخروف وعيد الأضي

¹ Tayeb Salih ideology and craft of fiction, Wail Hasan, p: 33

² نخلة على الجدول، الأعمال الكاملة للطبيب صالح، ص - 487

على الأبواب، ووقف الطبيب إلى جانب الفقير المعدم المؤمن بقضاء الله وقدره، وأن الخالق رازق، ومن ثم صموده في وجه إغراء الحاجة، والحاجة رق، فسدّ بعزميته وتوكله بقوله للتاجر "يفتح الله" وعندها جاء الفرج¹.

حسين تاجر غنيّ الذي ينتهز الفرصة في أحوال محبوب الإقتصادية الفقيرة ويجبره إليه نخلته مقابلاً لعشرين جنيه. يبين الكاتب خلال هذه الشخصية عن فساد الإقتصادية المستغلة في السودان. ومن الواضح أن الطبيب صالح لم ينقد التاجر بنقد مباشر ولكنه يسخره وينقده بأسلوب غير مباشر. مثلاً يبين الطبيب صالح حالة حسين عندما قدم إلى محبوب لأن يطلب منه بيع نخله "تملح حمار حسين التاجر في وقفته. ولم يكن صاحبه قد ترجل عنه فإنه لم يرد أن يظهر لشيخ محبوب تلهفه على شراء النخلة ذات البنات الخمس"². وفي موضع آخر يسخره الكاتب هكذا "والحق أن حسين التاجر، بشيابه البياض الفضفاضة وعباهته السوداء التي إشتراه في زيارة له للخرطوم، وعصامته من 'الرب' نمرة واحد، وحذائه الأحمر الذي لم تخرج أيدي صناع 'المراكيب' في الفاشر أجود منه، وحماره الأبيض البدين اللامع، والسرّج الأحمر المدهن، والفروّة البنية التي تكدت وكادت تمسّ الأرض، كان صورة مجسّمة للكبرياء والغطرسة"³.

هكذا عرض الطبيب صالح خلال هاتين الشخصيتين نزاعاً بين الوجهتين المختلفتين؛ نظرة دينية وروحية في ناحية يمثلها الشيخ محبوب، وفي الناحية الأخرى تقوم النزعة المادية المستغلة يمثلها التاجر حسين. يرمز محبوب إلى المزارع السوداني الذي حرم من منزلته المالية الغنية بسبب تخلفه وتدهوره الذي يحدث مع جريان الأيام، وكذلك هو يرمز إلى من الذي يخضع للإستغلال الإجتماعي والسياسي والإقتصادي الجاري في المجتمع. أما حسين، التاجر الغني ينتهز هذه الفرصة الفقيرة

¹ الصديق الكاتب نبع الصفاء والمودة والحكمة، إبراهيم الصلحي، الطبيب صالح دراسات نقدية، دا حسن أبشر الطبيب، ص - 23

² نخلة على الجورل، الأعمال الكاملة الطبيب صالح، ص - 479

³ المصير السابق، ص - 480

لمحجوب لأن يستغله خلال إشتراؤه منه النخلة، المنبع الوحيد لمعيشته. فالتاجر حسين هو المحور الذي ينسج حوله المؤلف أحداث الخراب آنذاك والفساد الإجتماعي والسياسي والإقتصادي في السودان.

يستخدم الطيب صالح في هذه القصة تقنية الإسترجاع إلى الذكريات الماضية. يستعيد الشيخ محجوب إلى ماضيه لأن يقارن بين ذلك الماضي البهيج وهذا الحاضر المتوتر "وتتم الشيخ محجوب في صوت لا يكاد يسمع، شئ يشبه التوصل والإبتهاال، وزمّ شفّتيه في عصبية، وعاد بعقله خمسة وعشرين عاما إلى الوراء"¹. يعيد الكاتب شخصيّة محجوب إلى ذكريّاته الماضية. الحدث المركزي في هذه القصّة هو بيع النخلة، وهذا الحدث يستعيد الحوادث الأخرى التي ترتبط بماضي محجوب وعلاقته بهذه النخلة، لأنّ هذه النخلة تربطه بذكريات سعيدة. وهي التي أصبحت منبع نبض السرور والفرح في مسار حياته.

يرسم الكاتب خلال هذه القصة مظاهر الحياة الريفية الخالصة في القرى السودانية. تتميّز القصّة بصور من خلجات المزارع النفسيّة الذي يحبّ على مزرعته من الشجرات والحيوانات. تبدو هذه المظاهر خلال مشاعر محجوب نحو بقره وعنزّه. بيّن الكاتب هذه المشاعر بأسلوب جذاب يجذب نفوس القراء المحبّين من بالطبيعة وزرعها. "وغابت المرارة التي أحدثتها ذكر حسن عندما تذكر الرجل قطيع الضأن الذي رباه في ذات العام الذي شهد مولد أمنة. قطيع كامل من نعجة واحدة، إشتراها بما تجمع عنده من ثمن حيضان البصل. كان يعاملها كما يعامل أبناءه، يحلب لبنها بنفسه ويكوم القشّ في مراحها ويفكّ لها صغارها ويلبث الساعة والساعتين يداعبها وينظف وبرها وتغمره السعادة وهو يشاهدها تناغي صغرها وتشرب الماء المخلوط بالدريش وتتناطح فيما بينها. كان يطلق عليها الأسماء كما يسمّي الناس أطفالهم يعرف كلّ واحدة منها بسميهاها. ذات الذيل الأبيض،

¹ نخلة عللى الجدول، الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 481

وذاآء البقعة السوداء على أَمّ الظهر كسرج الدابة، والخروف ذو القرن المكسور، والخروف
ذو القرون المتلوية. وبعد عامين من زواجه إشتري عجلة صغيرة عفاء حتى استوت بقرة
جميلة كحيلة العينين لها غرة في جبينها تجرّ الساقية وتدرّ اللبن"¹. هذه الكلمات الجميلة تثير
في القلوب ذكريات عن أيام الحياة الماضية المركزة على الزرع وتربية الماشية في البيوت
والديار. كانت حياة أجدادنا نابضة ومتدفقة من السرور والبهج من هذه الزروع والمواشي
التي كانت يربونها في بيوتهم مع أبنائهم وهم يدلّونها ويداعبونها ويسمونها بالأسماء كما
يسمّون أبنائهم. فمن القول أنّ هذه القصة صورة حياة ريفية جميلة تشتهي إليها القلوب.

¹ المصدر السابق، ص - 484

الطيب صالح و"موسم الهجرة إلى الشمال"

مشاعر العرب ضد الإستعمار كما تظهر فيها

دراسة نقدية

أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها

قدّمتها

حسينة. ب

تحت إشراف

بروفسور الدكتور أحمد إبراهيم رحمة الله

الرئيس السابق (المتقاعد)

قسم اللغة العربية بجامعة كاليكوت



قسم اللغة العربية

جامعة كاليكوت

كيرلا ، الهند

2012م

حفنة تمر

كتب الطيب صالح هذه القصة عام 1957، ونشرت أولاً في كتاب "عرس الزين رواية وسبع قصص". ثم تم نشرها في مجلة الأسبوعية السودانية 'الرأي الأم' عام 1968 وظهرت في دورية المصرية 'الهلال' عام 1969 ثم نشرت في مجموعة الطيب صالح القصصية "دومة ود حامد وسبع قصص" عام 1997م.

ترجم دنيس جونسون ديفس هذه القصة إلى اللغة الإنجليزية في إسم 'A Handful of Dates' عام 1966م، وترجمت إلى اللغة الفرنسية من قبل أني وادي منكوسكي في سنة 1966 تحت عنوان 'Une Poignée de dates' وإلى اللغة البولندية في إسم 'Garsc Daktyli' على يد جولانتا جاسينسكا عام 1970م وترجمها ديفد ساغيو إلى اللغة العبرية سنة 1986 في إسم 'Hofen shel Tmarim' وكذلك ترجمت هذه القصة إلى اللغات الهولندية والإيطالية أيضاً.

يذكر الراوي في هذه القصة عن حادثة التي حدثت في أيام طفوته. كان الطفل محبوباً إلى جده وقريباً إليه من أبيه. وكان الجد يؤثره دون بقية أحفاده لأن أولاد أعمامه كانوا أغبياء وكان هو ذكياً بينهم. وكان للطفل رجلاً جاراً يسمى مسعود. ذات يوم سأل الطفل لجدّه عن هذا الجار لأن الطفل قد أدرك في نفسه من قبل أن جدّه لا يحبّ مسعود "أظنك لا تحبّ مسعود؟" فأخبره الجدّ أن مسعود رجل خامل وهو لا يحبّ الرجل الخامل. فسأل الطفل أيضاً عما يعنيه بالرجل الخامل. فأخبره جدّه عما حدث بينه وبين مسعود. قبل أربعين عاماً كان مسعود رجلاً غنياً الذي يملك مائة فدان من الأرض ونخيل كثيرة وكلها ورثها عن أبيه ولكن الآن صارت ثلثاً من هذه الأملاك إلى إهلاك الجدّ.

لأنّ مسعود كان مكثّر الزواج. عندما كان يتزوَّج كلّ مرة إمرة باع فدنا أو فدائين من أرضه إلى جدّ الطفل. وكان الجدّ يريد أن يشتري الثلث الباقي من أراضي مسعود قبل أن يتوفاه الله.

عندما سمع الطفل هذا الأمر من جدّه فأحس بمشاعر من

الخوف والكره نحو جدّه، وأحسّ بمشاعر لطيفة شفوفة على جاره مسعود. وحينما كان يفكر هكذا، فجاء مسعود إلى جدّه وأخبره أنّه يريد أن يحصد التمر اليوم وسأله لحضوره إلى الحقل. وكان هناك في مكان حصاد التمر حسين التاجر وموسى صاحب الحقل المجاور لحقل جدّه ورجلين غريبين لم يرهما الطفل من قبل. راقب الطفل جاره مسعود. فرآه واقفا بعيدا عن ذلك الحشد كأنّ الأمر لا يعنيه، مع أنّ شجرات النخل التي تحصد كانت تحت إملاكه. رآه الطفل أحيانا يلتظظه صوت بسيطة ضخمة من التمر وهي تهوي من عل. فأحسّ الطفل بحياء في داخله بدون سبب. رأى في الساحة الممتدة أمامه رفاقه الأطفال يمشون كالنمل تحت جذوع النخل وهم يجمعون التمر ويأكلون أكثره. اجتمع التمر أكواما عالية. وبدأ كلهم اجتماعا في الساقية أن يكلوا التمر بمكايل ويصّبونه في أكياس. ومشوا نحو أكياس التمر وأخذوا يفحصونه وبعضهم أخذ منه حبة أو حبتين وأكلوها. وأعطى الجدّ للطفل قبضة من التمر فأكله. رأى الولد مسعود يملأ راحته من التمر ويشمه طويلا ثمّ يعيده إلى مكانه بدون أكل واحد منه. بدأ الرجال المجتمعون أن يتقاسموا الثمرة وأخذوا كلهم قسمهم. أخذ حسين التاجر عشرة أكياس وأخذ موسى خمسة أكياس وجدّه أيضا أخذ خمسة أكياس. ولم يستطع الطفل أن يفهم عمّا يحدث هناك. وفي ذلك الحين قال جدّه لمسعود، أنّه ما زال مدينا له بخمسين جنيها يتحدثان عنها فيما بعد. وضع كلهم أكياس التمر على حمارهم وجمالهم. فحينئذ نظر الطفل إلى مسعود فشعر بنفسه تقترب من مسعود وأحسّ بالأمّ حادّة في صدره ونهض في قلبه إحساس الكره نحو جدّه في تلك اللحظة. ثمّ ذهب إلى حافة النهر وأدخل إصبعه في حلقه وقيأ التمر الذي أكل. هذا هو تصميم هذه القصة.

تتميز هذه القصة بلغتها فيها شفاقة العربية وروقتها. والقصة تتناول واقعة في قرية في السودان الشمالي وهي تعرض على الجانب الإنساني والاجتماعي والاقتصادي لإنسان السوداني الذي يعتبر النخلة والأرض حياته كلها. ترتكز شخصية الراوي في القصة وهو يروي القصة. يذكر عن حادثة التي حدثت في أيام طفولته. تبدأ القصة بكلمات "لا بد أنني كنت صغيراً جداً حينذاك. لست أذكر كم كان عمري تماماً وبفيوض هذه البداية أن الراوي يريد أن يقول شيئاً من تجربته أو من الأحداث التي حدثت في الأيام الماضية. كان ولداً صغيراً ملازماً بجده ولمفتون به. "أذكر أن الناس حين كانوا يرونني مع جدي كانوا يربتون على رأسي، ويقرصونني في خدي، ولم يكونوا يفعل ذلك مع جدي، والعجيب أنني لم أكن أخرج أبداً مع أبي، ولكن جدي كان يأخذني معه حيثما ذهب".¹ وكان الراوي في طفولته يحب أن يذهب إلى المسجد. وهو يقول "لا بد أن السبب أنني كنت سريع الحفظ، وكان الشيخ يطلب مني دائماً أن أقف وأقرأ سورة الرحمن، كلما جئنا زائر وكان الزوار يربتون على رأسي"².

كان الطفل يحب النهر الذي يراه واحداً من ثلاثة معالم حياته في القرية؛ المسجد والحقل والنهر. كان الحقل مسرح أعلامه ومرتع ساعات فراغه. وكان أيضاً يحب النهر. "حالما نفرغ من قرائتنا وقت الضحى، كنت أرمي لحي الخشبي، وأجري كالجن إلى أمي وألتهم إفطاري بسرعة شديدة وأجري إلى النهر وأغس نفسي فيه. وحين أكل من السباحة كنت أجلس على الحافة وأأمل الشاطئ الذي ينحني في الشرق ويختبئ وراء غابة كثيفة من شجر الطلح. كنت أحب ذلك"³. كان معجباً بجده، ومحباً له ويتمنى أن يكون مثله عندما يصبح رجلاً. كان أقرب الأحفاد إلى جده بذكائه وتقديره الدائم لفروض الطاعة المطلقة، "أظن جدي كان يثبني دون بقية أحفاده. ولست ألومه، فأولاد أعمامي كانوا أغبياء وكنت أنا طفلاً ذكياً. هكذا قالوا لي، كنت أعرف متى يرينني جدي أن

⁽¹⁾ حقة تمر، الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 489

⁽²⁾ المصدر السابق.

⁽³⁾ المصدر السابق، ص - 489 - 490

أضحك ومتى يريدني أن أسكت، وكنت أذكر مواعيد صلاته، فأحضر له المصلاة، وأملاً له الإبريق قبل أن يطلب ذلك متي. وكان يلذ له في ساعات راحته أن يستمع إليّ أقرأ له من القرآن بصوت منغم، وكنت أعرف منه وجه جدّي أنه أيضاً كان يطرب له¹.

هكذا كانت طفولة الراوي مملوءة من الألعاب

والأضحاك والسرور ولكن الولد الصغير كان يتحلى بوجدان حساسيّ نحو الظلم الاجتماعي والإقتصادي والأعمال غير العادلة. عندما وجد الراوي الصغير في جدّه المحبوب صورة إنسان مستغلّ ورجل جشع قاس لا يعرف الرحمة، وعندما تبين له أنّ جدّه قد أمّلك أراضي جاره مسعود خلال السنوات، فأحسّ في قلبه مشاعراً من النفور والمقت نحو جدّه. وعندما سمع جدّه يتفاخر بأنه اشترى ثلثي من أراضي جاره مسعود وهو يتوقع أن يبيع له مسعود الثلث الباقي من أرضه، فيشعر الطفل بأن مثله الأعلى عن جدّه - الذي كان يريد أن يتبعه في حياته - في نفسه سقط وتكسر وأدرك أنّ ممارسات جدّه معارضة لما تعلم في المدرسة، فأحسّ الولد الصغير خوفاً نحو جدّه ونمّي ألاً يتصرّف جدّه تصرفات قاسية نحو جاره الفقير. "لست أدري لماذا أحسست بخوف من كلمات جدّي، وشعرت بالعطف على جارنا مسعود. ليبت جدّي لا يفعل". يشعر الصبّي بمشاعر ان متنازعان في نفسه؛ عندما أدرك أنّ جدّه قد أوجع جاره مسعود بحيل جبّه نحو جدّه إلى الكراهية ويشعر العطف والحنان نحو جاره المظلوم مسعود. "ونظرت إلى مسعود فرأيت زائغ العينين تجري عيناه شمالاً ويمينا كأنهما فأران صغيران تاهما عن حجرهما. وشعرت بنفسيّ أقرب من مسعود. وشعرت بيدي تمتد إليه كأنّي أردت أن ألمس طرف ثوبه. وسمعته يحدث صوتاً في حلقه مثل شخير الحمل حين يذبح"². وفي هذا الحين خيل إلى الطفل أنّ جدّه والتجار الآخرون كأنهم جزّارين يذبحون جاره البسيط، مسعود. وخيل إليه أنه أيضاً قد شارك في هذا الذبح عندما أكل حفته من تمر التي منحها له جدّه من قبل. عندما أدرك عن إشتراكه في هذه القسوة وعندما ثارت

¹ حفة تمر، الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 490

² المصدر السابق، ص - 494

الكرامية نحو جدّه، وعندما أن باتر علم أنّ مسعود صاحب النخل لم يأخذ شيئاً من تمره، فأدخل الولد إصبعه إلى داخل حلقه وتقيّاً للتمر التي أكلها من قبل. "ولكي أحسست بالّمْ حادّ في صدري. وعدوت مبتعداً. وشعرت أنّي أكره جدّي في تلك اللحظة. وأسرت العدو كأني أحمل في داخل صدري سراّ أودّ أن أتخلص منه. ووصلت إلى حافة النهر قريباً من منحاه وراء غابة الطلح. ولست أعرف السبب، ولكنني أدخلت إصبعي في حلقي وتقيّات التمر الذي أكلت¹".

يصرّ الطبيب صالح الراوي الصغير شخصية يسعي

إلى إدراك حقائق الأمور وهو صاحب واسع الخيال وكثير التأمل. يدرك إستغلال الأغنياء وملوكي الأراضي نحو الرجال الفقراء والبسطاء الذين أصبحوا مدّين لهم. وكان الطفل صاحب ضمير يقظان يتعاطف مع مسعود وأمّثاله من الفقراء وكان يكره الظلم وإستغلال حاجة الفلاحين البسطاء. يتحرّك الراوي ضدّ هذه الأعمال غير العادلة في المجتمع ويظهر كرهه وعنفه نحو هذا الظلم القاسي خلال مشاعره وسلوكه التي يمكنه ظهورها.

أمّا جدّ الطفل لا ينتمي إلى أصل القرية، ولكنه قدم

هناك قبل أربعين سنة "نعم يا بنيّ كانت كلّها قبل أربعين عاماً ملكاً لمسعود. ولم أكن أملك فدانا واحداً حين وطلت قدماي هذا البلد"². والطفل كان يجب جدّه من أبيه "العجيب أنّي لم أكن أخرج أبداً مع أبي. ولكن جدّي كان يأخذني معه حيثما ذهب"³. كان الراوي يرى جدّه نموذجاً وقوة. يصف الراوي عن جدّه "أنف جدّي كان كبيراً حاداً. قبل أن يجيب جدّي على أسألتي الكثيرة، كان دائماً يحكّ طرف أنفه بسيّاته. ولحية جدّي كانت غزيرة ناعمة بيضاء كالقطن. لم أر في حياتي بياضاً أنصع ولا أجمل من بياض لحية جدّي. ولا بدّ أنّ جدّي كان فارح الطول، إذ أنّي لم أر أحداً في سائر البلد يكلم جدّي إلّا وهو يتطلع إليه من أسفل، ولم

¹ حقة تمر، الأعمال الكاملة للطبيب صالح، ص - 494

² المصدر السابق، ص - 491

³ المصدر السابق، ص - 489

أر جدي يدخل بيتا إيا وكان ينحني إنحناءة كبيرة تذكرني بإنحناء النهر وراء غابة الطلح. كان جدي طويلا ونحيلا وكنت أحبه وأتخيل نفسي، حين أستوي رجلا أذرع الأرض مثله في خطوات واسعة¹. ولكنّ الطفل يدرك فيما بعد أنّ جدّه رجل أنانيّ وعنيف الذي لا يرحم لجاره مسعود الفقير، وهو إنسان جشع مستغلّ لحاجة الآخرين، وهو طماع يسعى لأن يملك على أراضى الآخرين بلا شفقة ورحمة. أملاك ثلثي أراضى مسعود ويريد أن يملك باقي أراضيه. يمثل الجد بملوك الأراضى الواسعة الذين يترصدون لشراء الأراضى لثمن زهيد مستغلّين حاجة المزارعين. أخذ الجد بتمر مسعود إستيفائا لديونه على مسعود. شخصيّته تمثّل بالطبقة المستغلة التي تستغلّ الناس في سوء حالتهم الإقتصادية. ويعرض خلال هذه الشخصيّة جانبا قبيحا وكريها من المجتمع السوداني.

أمّا المسعود كان جار الجد وحفيده. يمثل مسعود

بالمزارعين الذين وقعوا في أزمة إقتصادية نتيجة لعدم العدالة الإقتصادية في مجتمع يحكم فيها الأغنياء وملاك الأرض. كان رجلا يملك أفدنة من الأراضى التي ورثها من أبيه ولكنّ الآن ضاعت أراضيه لكثرة زواجه. يذكر الراوي أنّ مسعود في أيامه الماضية كان يعني الغناء بصوته الجميل وضحكته القويّة التي تشبه بصوت الماء المدلوق. ضاع مسعود كلّ هذه الأراضى إستيفاءا لديونه التي إستدانها من جدّ الراوي. تروّج مسعود من تسعين امرأة حسب قول الراوي، وله الآن ثلاث زوجات وهو فقير في حال مبهذل، معه حمارته العرجاء وسرجه المكسور وجلبابه الممزق الأيدي، وهو رجل فقير ليس له أيّ بهاء وزهاء وطاقة أمام هؤلاء الأغنياء الذين استدانوا منهم، وليس له أيّ قول وحول أمام هؤلاء المستغلّين. يصوّر الكاتب هذه الحالة العاجزة لمسعود حينما كانوا يحصدون التمر من نخله. "كان مسعود واقفا بعيدا عن ذلك الحشد كأن الأمر لا يعنيه مع أنّ النخل الذي يحصد كان نخله هو، وأحيانا تلفت نظره صوت سبيطة ضخمة من التمر وهو تهوي من عل²". ونظرت إلى

⁽¹⁾ حقنة تمر، الأعمال الكاملة للطبيب صالح، ص - 490
⁽²⁾ حقنة تمر، الأعمال الكاملة للطبيب صالح، ص - 494

مسعود فرأيتُه زائغ العينين تجري عيناه شمالا ويمينا كأنهما فأران صغيران تاها عن حجرهما¹.

كان مسعود صاحب قلب مملوء من الرحمة والحنان،

يحبّ الشجرات والحيوانات الأخرى حباً عميقاً وكان يعتبرها أمثال كائنات حيّة التي تشعر وتألم مثل الإنسان. يقول الراوي "صاح (مسعود) بالصبي الذي إستوى فوق قمة النخلة، وأخذ يقطع السبيط بمنجله الطويل الحاد، 'حاذرا لا تقطع قلب النخلة' ولم ينتبه أحد لما قال... وتذكرت قول مسعود لي مرّة حين رأيّ أعيث بجريد نخلة صغيرة 'النخل يا بني كالآدميين، وفرح ويتألم'². هذه العبارة صورة جميلة لرجل مزارع يحبّ الأرض والوحل والزرع والطبيعة وكأنثاتها والذي يعالج معها قريبا منها حتى يستطيع أن يعرف مشاعرها وعواطفها. هذه قيم روحية يمتلكها مسعود وهي تعارض بتصرفات التجار الوحشية الذين يسكنون بقيم المادية الغنية في حياتهم. أنى الطبيب صالح بشخصيّة مسعود ممثلا لطبقة من المجتمع التي تتعرض للممارسات الظالمة من قبل ملاكي الأرض والأغنياء، وهذه الطبقة تقوم أمام هؤلاء الطبقة من الأغنياء منجنية رؤوسهم بدون أي ردود معارضة ومقاومة ضدّ ممارساتهم العنيفة، وهم يتعرضون لأعمال المجتمع المستبدة والمضطهدة.

⁽¹⁾ المصدر السابق، ص - 495
⁽²⁾ المصدر السابق، ص - 492-493

الطيب صالح و"موسم الهجرة إلى الشمال"

مشاعر العرب ضد الإستعمار كما تظهر فيها

دراسة نقدية

أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها

قدّمتها

حسينة. ب

تحت إشراف

بروفسور الدكتور أحمد إبراهيم رحمة الله

الرئيس السابق (المتقاعد)

قسم اللغة العربية بجامعة كاليكوت



قسم اللغة العربية

جامعة كاليكوت

كيرلا ، الهند

2012م

رسالة إلى إيلين

كتب الطيب صالح هذه القصة القصيرة عام 1960. وتم نشرها أولاً في كتاب "عرس الزين - رواية وسبع قصص". ترجم أن . أس . دونياتش هذه القصة إلى اللغة الإنجليزية في إسم 'A Letter to Aylin' عام 1980م وترجمت إلى اللغة العبرية على أيد موشي حكم في سنة 1995م تحت عنوان 'Yaqirati Aylin'.

يتناول الطيب صالح في هذه القصة القصيرة بحبكة مختلفة من حبك قصصه السابقة التي تناولت القرية في السودان وبيئتها وطبيعتها وأهلها. حول الكاتب حيز هذه القصة إلى المقابلة بين العالم الشرقي والعالم الغربي. عنوان هذه القصة يشير إلى بداية علاقة الكاتب مع العالم الغربي، وبهذه القصة تبدأ علاقة الشخصيات الشرقية بالشخصيات الغربية.

كتب الطيب صالح هذه القصة في صورة رسالة يرسلها زوج إلى زوجته التي تركها في بيته في الغرب بينما كان يزور أهله في بلده. الزوج هو رجل شرقي إفريقي سوداني من الخرطوم، والزوجة هي غربية من أبردين في إسكتلندا. وكان بينهما حب وود عميق. عندما فضّ الرجل حقيقته بعد وصوله إلى بلده فوجد فيها أنّ زوجته وضعت فيها كلّ شيء التي يحتاج إليها إبان إقامته في بلده.

عاد الرجل إلى بلده لزيارة أهله الذي يعيش في القرية وأن يقيم معهم شهراً واحداً. تزوّج هذا الرجل السوداني المرأة الإسكتلندية قبل عام واحد وهذا هو اليوم الأوّل الذي يقضيه بدون زوجته بعد زواجهما. دخل الرجل والمرأة إلى الحياة

الزوجيّة بعد ما عرفا بعضا ببعض لثمانية أشهر. وتزوّجا مع إعتراف بالفرق بينهما في اللون والدين والذوق والمظاهر.

ولكن عندما وصل الرجل إلى بلده فأدرك أنه أصبح غريبا من بلده وأهله وأحسّ بين أهله وأقاربائه وأهل قريته ببعض مشاعر الغربة والغربة. أدرك تماما أنّ الزيارة هذه المرّة ليست كالزيارات الماضية من قبل. وجد أباه وأمه يرحّبانه ويذرعان الدموع بالمبالغة. فأحسّ الرجل أنّ إحساس والديه الطبيعي قد فتر من نفسها وحلّ محله إحساسا مبالغا ويظهرانه نحوه كأنه أصبح فردا آخر منهم. وعندما رأى هذه المبالغة فأصبح منزعا وقلقا في داخله.

أتى الطبيب صالح بهذه القصّة في أسلوب كتابة الرسائل والخطابات. "عزيزتي إيلين، الآن إنتهيت من فضّ حقائبي..."¹. وهكذا تبدأ القصّة وتجري في صورة رساليّة. يستخدم المؤلف هذه الرسالة هيكلا لهذه القصّة. تبدي الرسالة عن العلاقة المحبّة العميقة البالغة بين الرجل وزوجته إيلين. "أنت عظيمة ولست أدري ماذا أفعل بدونك. كلّ شيء يلزمني وضعته في الحقائب. تسعة قمصان، ثلاثة منها لا تحتاج إلى الكيّ أغسلها ونشفها وألبسها. وأنت تعلمين أنّي لن أفعل شيئا من هذا القبيل. ربطة العنق التي إشتريتها لي في العام الماضي، وجدتها مع خمس كرافات أخرى. كم أحببتك لأنك لم تنس لأن تضعني في حقائبي هذه الربطة"².

البطل في هذه القصّة هو رجل شرقيّ من الخرطوم في السودان. تركها وسافر إلى الغرب. وهو رمز إلى الجيل المتعلم السوداني الذين غادروا وطنهم إلى البلاد الغربية وهم يشعرون حالة الإغتراب فيها. ولذلك يقول البطل إلى زوجته

(1) رسالة إلى إيلين، الأعمال الكاملة الطبيب صالح، ص - 495

(2) المصدر السابق.

إيلين "أيّ شيء حبّيك في؟ أنا الضائع الغريب, أحمل في قلبي هموم جيل بأسره"¹. هموم هذا الجيل هي مشاعرهم من الإغتراب والوحدة والعزلة التي يحسونها في البلد الأجنبي وفي وطنهم. يحسّون أنهم أصبحوا ممزّقين بين هذين العالمين وليس لهم مفرّ ومقرّ وإطمئنان هنا وهناك.

يظهر الكاتب في هذه القصة المقابلة بين العالمين؛ الشرق والغرب. أمّا البطل والبطلة إيلين في القصة يتزوجان مع إدراكهم عن الفرق والاختلافات بينهما. "ثمانية أشهر وأنا أتهرب وأحاور وأحاضر. أحاضر في الفوارق التي تفرقنا. الدين والبلد والجنس. أنت من أبردين في إسكتلندا وأنا من الخرطوم. أنت مسيحية وأنا مسلم. أنت صغيرة مرحة متفائلة, وأنا قلبي فيه جروح بعد لم تندمل. أيّ شيء حبّيني فيك؟ أنت شقراء زرقاء العينين ممثلة الجسم تحبّين السباحة ولعب التنيس, وأنا طول عمري أحنّ إلى فتاة سمراء, واسعة العيون, سوداء الشعر, شرقية السمات, هادئة الحركة. أيّ شيء حبّيك في؟ أنا الضائع الغريب, أحمل في قلبي هموم جيل بأسره؟ أنا المغرور القلق المتقلب المزاج؟"². يقول الكاتب في موضع آخر أكثر دلالة عن هذه الفوارق على لسان بطله مخاطبا إيلين, "تزوجتني, تزوجت شرقا مضطربا على مفترق الطرق, تزوجت شمسا قاسية الشعاء, تزوجت فكرا فوضوي, وآمالا ظمأى كصحارى قومي"³.

يستشعر البطل حينما وصل إلى بلده بالتمزق وبالإحساس العارم بفقدان أصله بعد إبتعاده عن موطنه الأصلي. ومع ذلك أنه يدرك, ليس هو وحده تغير ولكن أهله وأسرته وأقربائه وجيرانه كلهم تغيروا نحوه في غيابه. يستشعر أنّ علاقته مع أهله في هذه المرّة ليست مثل علاقة التي كانت بينهم من قبل. يحسّ بالإغتراب عنهم وهو غريب عن قبيلته وهم غرباء عنه بمبالغتهم في الإحتفاء به. وقد تعمّق

⁽¹⁾ رسالة إلى إيلين، الأعمال الكاملة الطبيب صالح، ص - 496

⁽²⁾ المصدر السابق، ص - 492

⁽³⁾ المصدر السابق، ص - 495

فيه هذه الإحساسات عندما قدم أقربائه وقربياته "سلموا عليه وجلسوا... سألوه أسئلة ردّ عايتها، ثم بدأوا في حديثهم الذي ظلوا يتحدثونه طول حياتهم. وشعر في قلبه بالإمتنان لهم أنهم تركوه وشأنه. وفجأة تضخمت في ذهنه فكرة إرتاع لها. هؤلاء القوم قومه. قبيلة ضخمة هو فرد منها. ومع ذلك فهم غرباء عنه. هو غريب بينهم. قبل أعوام كان خلية حيّة في جسم القبيلة المترابط. كان يغيب فيخلف فراغا لا يمتلئ حتى يعود. وحين يعود يصفحه أبوه ببساطة وتضحك أمّه كعادتها ويعامله بقيّة أهله بلا كلفة طوال الأيام التي غابها. أمّا الآن.. أبوه إحتضنه بقوة وأمّه ذرفت الدموع وبقيّة أهله بالغوا في الترحيب به، هذه المبالغة هي التي أزعجته. كان إحساسهم الطبيعي قد فتر فدعموه بالمبالغة"¹. وجد أنّ الفتيات في بلده لم يلاحظن إليه ولم يعتبرنه كأحد من بلدهنّ ولكن يرينه مثل الشجرة التي أقتلعت منهنّ بشدة الريح. "أنا في حسابهنّ كنخلة على الشاطئ إقتلعتها التيار وجرفها بعيدا عن منبتها. أنا في حسابهنّ تجارة كسدت"².

وبهذه المشاعر من الإغتراب والوحدة يحسّ الراوي بأن

عودته إلى بلده تعذيب إلى نفسه. ولذلك خاطب في رسالته إلى زوجته إيلين "الليلة الأولى بدونك. وبعدها ليل ثلاثون كمفازة ليس لها آخر. سأجلس على صخرة قبالة دارنا وأتحدّث إليك. أنا واثق أنّك تسمعينني. أنا واثق أنّ الرياح والكهرباء التي في الأثير والهواجس التي تهجس في الكون، سترهف أذانها، وستحمل حديثي إليك. موجات هوج من قلبي، تستقبلها محطة في قلبك. حين تنامي مدي ذراعك حيث أضع رأسي على الوسادة. فإنني هناك معك. حين تستيقظين قولي صباح الخير فإنني سأسمع وأرد. أجل سأسمع. أنا الآن أسمع صوتك العذب الواضح"³.

(1) رسالة إلى إيلين، الأعمال الكاملة الطبيب صالح، ص - 499

(2) المصدر السابق، ص - 497

(3) المصدر السابق، ص - 498

هذه القصة القصيرة هي نصّ الطبيب صالح الأول الذي

تظهر فيه شخصية غريبة. فإذن بطله هذه القصة إيلين هي الشخصية الغربية الأولى التي تظهر في عالم الطبيب صالح الأدبية. هي شابة من أبردين في إسكتلندا التي تزوّج الرجل الإفريقي بكلّ وعيها عن الاختلافات بينها وبين زوجها الشرقي. ومن الواضح أنّ إيلين شخصية غريبة مع ملامح إيجابية مثل مسز روبنسن الأوربية في رواية 'موسم الهجرة إلى الشمال'. كانت إيلين زوجة محبوبة لزوجها، وكانت تترك تماما أنّ البعد في المكان بين الناس سيخلق إحساسا من الغربة والإغتراب في قلوبهم. ولذلك قالت لزوجها حينما توّده إلى أهله وإلى بلده "أرجو من كلّ قلبي أن تجد أهلك كما تركتهم، لم يتغيروا. أهمّ من ذلك من أن تكون أنت لم تتغير نحوهم"¹².

وربما كانت هذه القصة تعتبر عن واقعية الحياة في البيئة

الإنجليزية التي أصبح تأثيرها كبيرا على الكاتب من خلال الغربة ومعايشته لهذه المنفى الاختياري بكلّ ثقله الحسي والمعنوي. ومن الواضح أيضا أنّ هذه القصة تتميز بلامح من سيرته حيث أنه رجل سودانيّ تزوّج امرأة إسكتلندية 'جوليا' وشدا علاقة زوجية محبة بينهما مع ثلاث بنات كما صوّر في هذه القصة عن العلاقة الودودة بين الرجل السوداني وزوجته إيلين من إسكتلندا. وهذه القصة تعتبر بذرة التي تفرّجت منها الشجرة الكبيرة رواية الطبيب صالح المشهورة 'موسم الهجرة إلى الشمال' التي تعالج نفس الموضوع، المواجهة بين الشرق والغرب في نطاق عميق.

¹² رسالة إلى إيلين، الأعمال الكاملة الطبيب صالح، ص - 500

دومة ود حامد

كتب الطيب صالح هذه القصة في قريته الدبة في السودان عام 1960 ونشرت أولاً في العدد الثالث من مجلة لندنية "أصوات" عام 1961 ثم ظهرت في مجلة الهلال المصرية عام 1969. يقول أحمد إبراهيم أبو شبك في مقالته 'الأديب الألمعي الطيب صالح': يروي لنا الأستاذ علي أبو عاقلة أبوسن عن دومة ود حامد قائلاً، إن الطيب صالح قال له ذات مرة أنه كتب قصة قصيرة ويريد رأيه فيها. كان ذلك عام 1961 فأعجبته القصة، وطلب من الطيب صالح نشرها. لكنه رفض فكر النشر وحاول نزع المزودة من يده، ولكن أبو سن رفض إعادة القصة إليه إلا إذا وافق على نشرها. وبعد ثلاثة أيام جاءه الطيب صالح ضاحكاً وقال: يا سيدي خلاص أنا وافقت، لكن منو البيي شرها لينا؟ وفي العام نفسه نشرت مجلة 'أصوات' اللندنية قصة 'دومة ود حامد'. تمثل هذه القصة النص المركزي بداخل مجموع القصصية للطيب صالح. ولذا سمى الكاتب مجموعته القصصية القصيرة بعنوان هذه القصة. هذه القصة هي أشهر قصة قصيرة وأنجحها وأكثر المترجمة من القصص الطيب صالح القصيرة. يقول الطيب صالح عن قصته هذه "هي أحد عمود من أعمالي الأدبية. كانت أول قصة التي لقيت النجاح وجعلتني أحس أنني يمكن أن أكون كاتباً"¹.

ترجمت هذه القصة إلى اللغة الإنجليزية على يد دنيس جونسون ديفس عام 1962 في عنوان 'The Doum tree of Wad Hamid'، وترجمت من الإنجليزية إلى اللغة الألمانية في نفس السنة في اسم 'Die Palm von Wadd Hamid'، ثم ترجمت من اللغة الإنجليزية إلى اللغة الإيطالية سنة 1964 تحت اسم 'Le Piu Belle Novelle di Tutti I Paesi' وفي مرجع آخر يقال أن هذه القصة ترجمت إلى الإيطالية في عنوان 'Il Dum di Wad Hamid' في سنة 1990م. ترجم أني وادي منكووسكي هذه القصة

⁽¹⁾ Tayeb Salih ideology and craft of fiction, Wail Hasan

إلى اللغة الفرنسية في إسم 'Le Doum Di Wad Hamid' وترجمت أيضا إلى نفس اللغة على أيد محمد سعد الدين اليميني تحت عنوان 'Le Palmier de Oud Hamid' سنة 1995م، ثم ترجمت إلى اللغة البولندية سنة 1983م في إسم 'W ten sam Sposob Panowie' وإلى اللغة اليابانية من قبل نوبويوكي نوتاها را تحت عنوان 'Wado Haamido no douma no ki' سنة 1978م وإلى اللغة العبرية على أيد أمي إلعاد بوسقيلا في إسم 'Etz HaDom shel Wad Hamid'.

الدوم هو نوع من النخل التي توجد في السودان الشمالي وترمز هذه الشجرة إلى الاستقرار والإثبات. هناك راويان في هذه القصة؛ شيخ كبير وشاب. ينتمي الشيخ إلى قرية سودانية ود حامد والشاب هو من مدينة قدم إلى قرية الشيخ ود حامد لزيارتها ليوم واحد. يقصّ الشيخ قصة قرينه ومزايها للشاب الزائر من المدينة. ود حامد هي قرية في السودان يؤمن أهلها بأولياء الله الصالحين ويعتقدون في شيوخ الصوفية وكراماتهم وأضرحتهم. ومن إحدى مزية هذه القرية، أنها محمية وموصونة من قديم الأ جانب والغرباء. إذا جاء أحد إلى القرية للسياحة في فصل الشتاء يهاجمه أسراب من الحشرات تدعى 'المنمة'. وإذا جاء أحد في فصل الصيف فيهاجمه حملان ضخمة من الحشرات الأخرى تدعى 'ذباب البقر'. وإذا جاء أحد في فصل بين هذين لا يجد شيئا. وهذا هو الفصل الصيف الذي زار فيه الشاب القرية فأعطاه الشيخ شبكة من 'الثل' لأن يضعها على رأسه، فهذه الشبكة تقويه على إحتمال أسراب ذباب البقر.

يروى الشيخ للشاب عن حادثة التي حدثت في القرية حول حملة ذباب البقر. وقال له مرة جاء إلى القرية واعط الذي أرسلته الحكومة لأن يعط أهل القرية وأراد أن يقيم فيها شهرا. ولكن عندما وصل إلى القرية تورّم وجهه في اليوم الأول وأصابته حمى الملاريا والاستيريا وفي اليوم الثالث أصبح طريح الفراش. ثم شكى للحكومة عن حاله ورحل. وبعد ذلك لم ترسل الحكومة أي واعط بعده.

والميزة الثانية التي يرويها الشيخ للشباب عن القرية هي عن شجرة الدوم وضريح ود حامد، الرجل الذي كان من أولياء الله الصالحين وضريحه يقع تحت هذه الشجرة. قال الشيخ للزائر أنّ هذه الشجرة نمت على ذاتها في أرض حجرية مسطحة ولم يزرعها أحد في القرية. ولا أحد يذكر عن بداية هذه الشجرة ولكنها تسير على نفس حالها في كلّ طور نشوء أبناء القرية. وكلّ الناس في القرية ينامون في الليل ويرون في المنام حلما إلّا يظهر فيه دومة ود حامد. وهم لا يذهبون إلى الطبيب والمستشفيات طالبن شفاؤهم من المرض، ولكنهم يدعون لود حامد وينالون الشفاء. يعارض أهل القرية كلّ التسهيلات والتطورات التي تخلق العقبات أمام دومة ود حامد.

قرّرت الحكومة الأجنبية أي الإنجليزية في السودان مرّة لقطع الدومة لإقامة مكيّة الماء في موضعها. وعندما سمع الناس هذا الخبر سدّوا سبيل مفتش المركز الذي جاء إلى القرية لهذه الحاجة وهاجمه ذباب البقرة. وكذلك جاء موظف حكوميّ بعد إستقلال السودان لأن يبني محطة الباخرة عند الدومة. وأخبر أنّ الباخرة ستمرّ عندهم في يوم الأربعاء في الوقت الرابعة بعد الظهر. ولكنّ أهل القرية ثاروا على هذا الأمر، لأنّ وقت العصر في يوم الأربعاء هو الوقت الذي يزورون فيه ضريحة ود حامد عند الدومة. فسألهم الموظف أن يغيروا وقت الزيارة، عندما سمعوا منه هذا الأمر هاج عليه الناس وعصفوا عليه وكادوا يفتكون به. وبعدها جاءت حكومة جديدة وأجبرت أن تأسس محطة بقوتها وحولها. وعندما جاء الموظفون، أخذ الناس نواصيتهم وألقوهم في الماء. وبعد أسبوع أرسلت الحكومة رجال الجند وحبسوا بعضا من الرجال ومن بينهم هذا الشيخ في السجن. ثمّ قدم بعض من الرجال من الحزب المعارضة على الحكومة وأنجّوهم من السجن. وأصبحت دومة ود حامد موضوعا يتناولها الحزب السياسي لأن يعارض على الحكومة الحالية. ولم تستطع لأية حكومة لأن تزيل الدومة من مكانها وبقيت الدومة للناس أبدا. ولما فرغ الشيخ من كلامه للشباب عن قريته، سأله الشاب متى يقيم أهل القرية طلّمة الماء والمشروع الزراعي والمحطة في القرية ومتى تقطع الدومة؟ فقال له أنّ كلّها تحدث حينما

ينشأ في قريتهم جيل جديد مع روح غريبة التي تعارض تقاليدهم ونظمهم في أمر الدومة وود حامد، وأخبره أيضا أنه ليس هناك حاجة إلى قطع الدومة لأن المكان يتسع لكل الأشياء من الدومة والضريح ومكنة الماء ومحطة الباخرة.

يتناول الروائي هذه القصة في أسلوب حوارٍ مع شاب الذي يهيأ لمغادرة القرية، لأنه لم يستطع أن يتواصل مع هذه القرية. فنقل له شيخ كبير في القرية تفاصيل هذه القرية وتفاصيل الناس والأحداث في هذا المكان. ومن بينها حكى له عن أهم خصيص هذه القرية، عن دومة ود حامد. يقول الشيخ للشاب "سترحل في غد يا بني- إني أعلم ذلك، لكن قبل أن ترحل دعني أريك شيئا واحدا- قل إننا نعتزّ به. عندكم في المدن المتاحف - أماكن تحفظ تاريخ الفكر والأمجاد السالفة. هذا الشيء الذي أحبّ أن أريكه، قل أنه متحف. شيء واحد نصر أن يراه زوّارنا... سترحل عن بلدنا غدا، ما في ذلك شك، هذي آثار الجولة الصغيرة التي قمنا بها بادية على وجهك ورقبتك ويديك أيضا. لكن قبل أن تذهب سأتمّ لك قصة الدومة، دومة ود حامد"¹.

يقول الشيخ أن القوم في هذه القرية قوم ساذجون وهو مختلفون من الذين يسكنون في البندر أو في المدينة ويبين الشيخ للشاب عن الفوارق الواضحة بينهم وبين أهل المدن. القرية مع نهريها وذباب البقر والحمار مختلفة تماما من المدينة مع مستشفياتها، والكهرباء، والراديو، والسينما، والجرائد، والمدارس ووسائل التنقل الحديثة. "أنت ولا شك يا بني تقرأ الجرائد كلّ يوم، وتسمع الإذاعات وتزور السينما مرّة أو مرتين في الأسبوع، إذا مرضت فمن حقك أن تعالج في المستشفى، وإذا كان لك ابن، فمن حقه أن يتعلم في المدرسة. أنا أعرف يا بني أنك تكره الطرقات المظلمة، وتحبّ أن ترى ضوء الكهرباء يتوهج ليلا. وأنت لست شغوبا في المشي، وركوب الحمير يحدث ندوبا في

⁽¹⁾ دومة ود حامد، الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 504 - 505

مفعدك. يا ليت يا بني يا ليت... الطرقات المرسوفة في المدن. المواصلات الحديثة.. العربات الجميلة المريحة. ليس عندنا من كل هذا شيء... نحن قوم نعيش على الستر¹.

ويصور الطبيب صالح أهل القرية ملتصقين ومختلطين

بالقرية ومزاجها، يعرض الطبيب صالح هذه الصورة على لسان الراوي العجوز هكذا "أهل البندر لا ينامون إلا في أخريات الليل - ذلك ما أعلمه عنهم. أما نحن فننام حين يسكن الطير، ويمتنع الذباب عن مشاكسة البقر، وتستقر أوراق الشجر على حال واحد، وتضم الدجاج أجنتها على صغارها، وترقد الماعز على جنوبها تجتر ما جمعه في يومها من علف. نحن وحيواننا سواء بسواء نصحو حين تصحو وننام حين تنام، وأنفاسنا جميعا تتصاعد بتدبير واحد"². ويوضح عن هذه الفكرة في أكثر وضوح بقوله، "أنتم في البنادر تسارعون إلى المستشفيات لأدنى سبب. إذا جرح إصبع الواحد ملكم هرع به إلى الحكيم وعلقه عصابة على رقبته أياما، وهو مع هذا لا يطيب... نحن قوم لا نعرف دروب المستشفيات. في الأمور الصغيرة، كدغات العقارب والحصى والفك والكسر، نلزم الأسرة حتى نشفي. وفي المعضلات نذهب إلى الدومة"³.

كان أهل القرية مكتفين بعوالمهم الخاصة وهم قانعين

بأحوال مكانهم ويؤمنون بأولياء الله ويعتقدون في شيوخ الصوفية وكراماتهم وأضرحتهم ومتمسكين بمثلهم الأعلى، ود حامد. يعيشون في قرية التي ليس فيها أي تقدم وتجدد حتى في وسائل المواصلات وليس لهم مركب إلا الحمير. ومع ذلك أنهم غير مستعدين لجعل الحادثة والتطور في القرية بمحق معتقداتهم وتقاليدهم الوارثة. ولا يبذلون سعيا في معرفة الضجة التي ثارت في العاصمة حينما طرد الإستعمار، لأنهم قوم يعيشون على الحافة.

¹ نومة ود حامد، الأعمال الكاملة الطبيب صالح، ص - 502

² المصدر السابق، ص - 512

³ المصدر السابق، ص - 511

هذه القصة تدور حول الصراع بين الحكومة وأهل

القرية 'ود حامد' التي تقع على الضفة الشرقية من النيل. هذا صراع ضدّ الخلع التاريخي والثقافي، يجريه قوم يريدون أن يثبتوا أصالة قريتهم مع فيضان الدهر. تصوّر القصة نظرة جيل من القرية في فترة الإستعمار وما بعد الإستعمار. يناضلون ضدّ محاولات الحكومة البريطانية لتمدّن القرية، وهم يكافحون ضدّ سعي الحكومات ما بعد الإستعمار في محاولاتها لأن تأتي بالتقدّم والتّرقّي. فالحكومة تريد تحديث القرية وتجديدها وتطويرها. وتحاول لهذا الأمر بإقتلاع معتقدات الناس وتقاليدهم. تريد أن تقتلع شجرة الدوم التي هي رمز القرية وهي جزء غير منفصلة من حياة أهل القرية، وتحت هذه الشجرة هناك ضريحة ود حامد؛ ولي من أولياء الله الصالحين، وينتسب إلى إسمه إسم هذه القرية. وهذه الشجرة هي مزيّة من مزايا هذه القرية. "هاهي ذي... دومة ود حامد. أنظر إليها شامخة برأسها إلى السماء. أنظر إليها ضاربة بعروقها في الأرض. أنظر إلى جذعها المكتنز الممتلئ كقامة المرأة البدينة، وإلى الجريد في أعلاها كأنه عرف المهر الجامحة. حين تميل الشمس وقت العصر، ترسل الدومة ظلّها من هذه الربوة العالية عبر النهر، فيستظل به الجالس على الضفة الأخرى. وحين تصعد الشمس وقت الضحى، يمتدّ ظل الدومة فوق الأرض المزروعة والبيوت حتى يصل إلى المقبرة. أتراها عقابا خرافيا باسطا جناحيه على البلد بكل ما فيها؟.... أنظر إليها يابني - إلى الدومة شامخة أنفة متكبرة، كأنها... كأنها صنم قديم. أينما كنت في هذه البلدة تراها... بل إنك لتراها وأنت في رابع بلدة من هنا"¹. ويروي الشيخ أن هذه الدومة لم ينبت لها أحد، إنها نبتت وكبرت على ذاتها. ولا أحد في القرية يعرف تاريخها ويراهها على نفس الحال كلّ من الأبناء من الجيل القديم والجديد منذ مولودهم حتى موتهم. يقول الراوي العجوز إلى الشاب "ما من أحد زرعها يابني. وهل الأرض التي نبتت فيها أرض زراعية؟ ألم تر أنها حجرية مسطحة مرتفعة إرتفاعا بينا عن ضفة النهر كأنها قاعدة تمثال... أغلب الظنّ أنها نمت وحدها، ولكن ما من أحد يذكر أنه رآها على غير حالتها التي رأيتها عليها الآن. أبناؤنا

⁽¹⁾ دومة ود حامد، الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 515

ففتحوا أعينهم فوجدوها تشرف على البلد. ونحن حين ترتد بنا ذكريات الطفولة إلى الورا، إلى ذلك الحد الفاصل الذي لا تذكر بعده شيئاً، نجد دومة عملاقة تقف على شطر في عقولنا، كل ما بعده طلاس فكأنها الحد بين الليل والنهار. كأنها ذك الضوء الباهت الذي ليس بالفجر ولكنه يسبق طلوع الفجر... جبل يجيء يجد الدومة كأنما ولدت مع مولده ونمت معه¹. وهو يستمر قائلاً من مزنة شجرة الدوم "كأنما هذه البلدة بأهلها وسوقها وعمارها قد إنشقت عنها الأرض. كذاب من يقول لك أنه يعرف تاريخ نشأتها. البلاد الأخرى تبدأ صغيرة ثم تكبر. ولكن بلدنا هذا قام دفعة واحدة. أهله لا يزيد عددهم ولا ينقص، وهيئته لا تتغير. ومنذ كانت بلدتنا، كانت دومة ود حامد. يحكي أن أحدا لا يذكر كيف قامت ونمت، كذلك لا يذكر أحد كيف نمت الدومة في أرض حجرية ترتفع على الشاطئ، وتقوم كالديبان"².

وهكذا أصبحت دومة ود حامد جزء في حياة أهل القرية

ليلاً ونهاراً. وهم قوم تعمقت إعتاداتهم الدينية في وعيهم ويطلبون المأوى والحماية من الأمراض والمشاكل العالمية الأخرى تحت هذه الشجرة. وحينما يتوثلون في مشكلة فيحلون ود حامد الذي يقرهم من هذه المشاكل. يظهر ود حامد في منام الناس ويفصح لهم الحلول لصعوباتهم. "هكذا يا بني، ما من رجل أو امرأة، طفل أو شيخ، يحلم في ليلة إلا ويرى دومة ود حامد في موضع ما من حلمه"³. وحكي الشيخ له حلماً الذي رأيته امرأة في منامها "تسمع المرأة منهن تحكي لصاحباتها: كنت في مركب سائر في مضيق في البحر، فإذا مددت يدي مسست الشاطئ من كلا الجانبين. وكنت أرى نفسي على قمة موجة هوجاء تحملني حتى أكاد أمس السحاب، ثم تهوي بي في قاع سحق مظلم. فحفت وأخذت أصرخ وكان صوتي قد إنجس في حلق. وفجأة وجدت مجرى الماء يتسع قليلاً. ونظرت فإذا على الشاطئ شجر أسود خال من الورق له شوك ذو رؤوس كأنها رؤوس الصقور. ورأيت الشاطئ ينسدان عليّ وهذا الشجر كأنه يمشي نحوي، فتملكني الذعر وصحت بأعلى صوتي: يا ود حامد،

¹ دومة ود حامد، الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 512

² المصدر السابق، ص - 507

³ المصدر السابق.

ونظرت فإذا رجل صبح الوجه له لحية بيضاء غزيرة قد غطت صدره، ردائه أبيض ناصع، وفي يده سبحة من الكهرمان. فوضع يده على جبهتي وقال: لا تخافي. فهذا روعي. ونظرت فإذا الشاطئ يتسع والماء يسيل هادئا. ونظرت إلى يميني فإذا حقول قمح ناضجة، وسواق دائرة، وبقر يرعى. ورأيت على الشاطئ دومة ود حامد. ووقف القارب تحت الدومة، وخرج منه الرجل قبلي، فربط القارب ومد لي يده فأخرجني. ثم ضربني برفق بسبحته على كتفي، والتقط من الأرض دومة وضع في يدي. والتفت فلم أجده. وتقول لها صاحبتها: هذا ود حامد.. تمرضين مرضا تشرفين عنه على الموت. لكنك تشفين منه. تلزمك الكرامة لود حامد تحت الدومة"¹.

هكذا كان إعتقاد الناس وإيمانهم بالرجال الصالحين وبكراماتهم راسخة في قلوبهم. كانوا يعتبرون ود حامد من أولياء الله الصالحين ويؤمنون به ويزورون ضريحته ويذبحون له نذورهم. كان ود حامد مملوكا لرجل فاسق في الزمن الماضي، وكان من أولياء الله الصالحين، وكان يكتم إيمانه ويصلي الصلاة مخفيا. ولما ضاق به حياته مع مالكة الفاسق، فدعا الله أن ينقذه منه. "فهتف به هاتف أن أفرش مصلاتك على الماء، فإذا وقفت بك على الشاطئ فانزل. وقفت به الصلاة عند موضع الدومة الآن، وكان مكانا خرابا. فأقام الرجل وحده يصلي نهاره، فإذا جاء الليل أتاه امرؤ ما بصحاف الطعام، فيأكل ويواصل العبادة حتى يطلع عليه الفجر"².

فإذن شجرة الدوم وضريحة ود حامد التي تقع تحت هذه الشجرة كانتا علامتان البارزتان والمزيتان الواضحتان يتمسك بهما أهل القرية عبر القرون والأجيال. يثبت الناس أمامهما ويحاربون على أية معضلة وصعوبة تقع أمامها. يمسون هذه الأساطير والتقاليد التي أصبحت مقدسة في نفوسهم وأصبحت محورا تدور حولها حياتهم. يعيشون في القرية التي ليس فيها أية تسهيلات حديثة في المواصلات والسفر وهم يسافرون

(1) دومة ود حامد، الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 512

(2) المصدر السابق، ص - 504 - 505

على الحمار ويربّونه لهذا الأجل. وإن كانت قريتهم تمشي على طريقة قديمة كان القوم لا يضيّقون بعدم التسهيلات في القرية وهم كانوا غير معدّين لإستقبال التسهيلات الحديثة محققا تقاليدهم الموروثة عبر القرون والأجيال. لأنهم يعتبرون إزالة هذه التقاليد سواء لإزالة حياة قريتهم وروح حياتهم. وفي هذه الناحية يحدث الصراع بين أهل القرية والحكومات المختلفة التي تحاول لتجديد القرية وتنويعها وتطويرها. تقدّمت الحكومة في فترة الحكم الأجنبي في السودان وهي تحاول لتكوين التغييرات في المجال الزراعية قطعاً لشجرة الدوم. "قرّرت الحكومة مرّة قطعها (الدومة) عندما أرادوا أن ينظّموا مشروعاً زراعياً، وقالوا أن موضع الدومة هذا هو خير موضع لإقامة مكنة الماء. أهل بلدنا كما تراهم منصرفون كلّ إلى همّ يومه، ولا أذكر أنهم ثاروا على شيء قط. ولكنهم لما سمعوا بأمر قطع الدومة، هبّوا عن آخرهم هبة رجل واحد، وسدّوا على مفتش المركز السبل. كان ذلك في عهد الحكم الأجنبي. وأعانهم الذباب أيضاً، ذباب البقر. وعلا اللغظ من حول الرجل يقولون له إذا قطعتم الدومة فإننا سأحارب الحكومة حتى نموت عن آخرنا. وفعل الذباب فعله في وجه الرجل. فشنت أوراقه في الماء وسمعناه يصيح : خلاص.. في دومة.. ما فيش مشروع. ولم تأت مكنة ماء ولم يأت مشروع... ولكن بقيت لنا دومتنا"¹.

وفي المرة التالية جرت محاولة من قبل أوّل حكومة بعد إستقلال السودان لأن تأسّس محطة الباخرة عند الدومة. وفي هذه المرّة أيضاً ثار الناس على الحكومة "في أوّل العهد الوطني جئنا موظف في الحكومة، وقال لنا أن الحكومة تنوي أن تنشئ لنا محطة تقف عندها الباخرة. وقال لنا أن الحكومة الوطنية تحبّ أن تساعدنا وتطورنا، وكان متحمّساً يتحدّث ووجهه متهلّل. ونظر فإذا الوجوه التي حوله لا تستجيب لشيء ممّا يقول... فلا غرو أن الموظف لم ير على وجوه القوم ما يدلّ على أنهم سعدوا للنّباء. وفتر حماس الموظف وأسقط في يديه وتلعثم في كلامه. وبعد فترة من الصمت سأله أحدهم: أين تكون المحطة؟ فقال الموظف أنه لا يوجد غير مكان واحد يصلح محطة عند الدومة. ولو

⁽¹⁾ دومة ود حامد، الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 508 - 509

أنتك في تلك اللحظة جئت بامرأة وأوقفتها عارية كما ولدتها أمها وسط أولئك الرجال، لما أثرت دهشتهم أكثر ممّا فعلت تلك الجملة. وسارع أحدهم وقال للموظف: والباخرة تمرّ عادة هنا يوم الأربعاء فإذا عملتم محطة هنا فإنها ستقف عندنا عصر الأربعاء. فقال الموظف أنّ الموعد الذي سيحدّد لوقوف الباخرة في محطتكم سيكون في الرابعة بعد الظهر من يوم الأربعاء. فردّ عليه الرجل: لكن هذا هو الوقت الذي نزور فيه ضريح ود حامد عند الدومة... نفعل ذلك كلّ أسبوع. فردّ الموظف ضاحكا: إذا غيروا يوم الزيارة. ولوأنّ ذلك الموظف قال لأولئك الرجال في تلك اللحظة أنّ كلا منهم حرام، لما أغضبهم كما أغضبهم عبارته تلك. فهبّوا لتوهم هبة رجل واحد وعصفوا بالرجل وكادوا يفتكون به، لولا أنّي تدخلت فأنترعته من برائتهم، وأركبته حمارا وقلت له إنج نفسك. وهكذا ظلت الباخرة لا تقف عندنا. وما نزال إذا حزّ بنا الأمر وأردنا السفر، نركب حميرنا ضحى كاملا ونأخذ الباخرة من البلد المجاورة، لكن حسبنا أننا نزور ضريح ود حامد ومعنا نساننا وأطفالنا، نذبح نذورنا كلّ يوم أربعاء، كما فعل آبائنا وآباء آبائنا من قبلنا.¹

وبعد السنوات أرادت الحكومة أن تحارب على الناس تستخدم حكمها وقوتها وحاولت أن تأسس محطة الباخرة في موضع الدومة إجباريا. ولكن الناس قال للموظفين: ولكننا رددنا عليكم ذلك من قبل، فلماذا تظنون أننا سنقبله اليوم؟ وقالوا: الحكومة التي سكنت عنكم كانت حكومة ضعيفة، ولكنّ الحال قد تغيّر الآن. فلما سمع الناس هذا أخذوا نواصيهم وألقوهم إلى الماء. هكذا نجح الناس في نضالهم ضدّ الحكومات وسحاولتهم لتجديد القرية وتطويرها مع إزالة تقاليدهم ومعالم حياتهم، ونجحت القرية في الصراعة بينها وبين مشروعات الحكومة المختلفة. "الدومة هنا رمز للعقائد التي يتمسك بها أهل القرية في إصرار برغم تخلفها، بل هم يحاربون التطور ويسدّون السبيل أمامه من أجل مجموعة أساطير قدّسوها وأحالوها محور حياتهم وفكرهم، وعاشوا حياة بدائية لا صحف ولا سينما ولا مستشفى ولا مدرسة ولا كهرباء ولا وسائل مواصلات سوى الحمير، ولكنهم

⁽¹⁾ دومة ود حامد، الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 513

يتركون بالدومة ويقدمون القرابين لود حامد تحت الدومة التي تشغل يومهم وتملئ حتى أحلامهم في صحتهم ومريضهم وأفراحهم ومأسيتهم. وربما كان قطع الدومة أشبه بمحق لمقدساتهم، ولكن القرية لم تكن على إستعداد لإقامة محطة الباخرة وتغنيهم عن عناء السفر على الدواب لمجرد أن الباخرة سوف تقف عند القرية عصر يوم الأربعاء وهو الوقت المحدد في القرية لزيارة ضريح ود حامد عند الدومة يأخذون نسائهم وأطفالهم ويذبحون نذورهم وأهل القرية يروون قصتها أبا عن جد وتفضل الأساطير بألبابهم الأفاعيل¹.

ومن الواضح أن الشيخ راوي القصة لم يشاهد أي فرق بين سلوك الحكومات الإستعمارية والحكومات الوطنية بعدها. وكلها أظهرت موقفا إستعماريًا في محاولاتهم المختلفة لأن تقهر أهل القرية وأن تبعدهم من عالمهم الروحية وأن تزيل منهم أسلوب حياتهم العادية. ولذا قال الشيخ للشباب المدني "أنت تذكر أنه كان لنا قبل أعوام نواب وأحزاب وضوضاء كبيرة، ما كنا نعرف أولها من آخرها. ونحن منذ أبنينا أن تقوم المحطة عند الدومة، لم يعد يعكر علينا صفونا أحد. وانقضى عامان ونحن لا نعرف شكل الحكومة، سوداء هي ببيضاء"⁽²⁾.

وعندما نجح محاولة القوم في إبقاء معالم حياتهم فحاول الساسة لأن يستغل سداجة هؤلاء الناس في القرية ويستعملها طريقا لمكرهم السياسي. فعندما تسقط وزارة وعندما تقوم وزارة فاتهموا بعضهم ببعض أنهم مسوا على معتقدات الناس وجرحوا جرحا مؤلما في عواطف الناس ومشاعرهم الروحية. روى الراوي عن إتهام حزب سياسي على حكومته المعارضة "لم يكن الناس راضين عن تلك الحكومة منذ أن جائت، وهم يعلمون أنها لم تأت إلا بشراء عدد من النواب. وظلوا يترصدون لها الفرص. كانت المعارضة تبحث عن شرارة توقد بها النار. فلما حدث حادث الدومة معكم وأخذوكم فآلقوا بكم في السجن، نشرت الصحف النبأ، وخطب رئيس الحكومة المقالة في البرلمان خطبة

(1) قضايا في الأدب والنقد، ماهر حسن فهمي، ص - 313

(2) دومة ود حامد، الأعمال الكاملة الطبيب صالح، ص - 517

نارية قال فيها 'لقد بلغ من طغيان هذه الحكومة أنها أصبحت تتدخل في معتقدات الناس، في أقدم الأشياء المقدسة عندهم. ووقف الخطيب وقفة ذات أثر، ثم قال وصوته يتهدج بالعاطفة "إسألوا رئيس وزراءنا الموقر عن دومة ود حامد. إسألوه كيف أباح لنفسه أن يرسل جنده وأعوانه فيدنسوا ذلك المكان الطاهر المقدس' فحمل الناس الصيحة. واستجابت أفئدة الناس في سائر القطر لحادث الدومة كما لم تستجب لحادثة من قبل"¹.

وهكذا سقطت الحكومة، وهكذا نجح الراوي العجوز وأقرانه في نضالهم ضد تدخل التجديد والتحديث والتقدم إلى طريقة معيشتهم، ومع ذلك كانوا يعرفون أن طلوع أبناءهم وأبناء أبناءهم من الجيل الجديد والذين يتلقون التعليم الغربي الجديد، سيحول مجرى الحياة في قريتهم. وكان من المؤكد لهم، أن هذا الجيل الجديد الذي يحمل الثقافة الغربية في داخلهم، سوف يكون وكيلا قويا للتحويلات والتغيرات. ظهر الراوي هذا المشاعر خلال أقواله للشباب عندما سأله عن وقت إقامة طلمبة الماء والمشروع الزراعي ومحطة الباخرة في القرية. فأطرق الشيخ برهة ثم أجاب؛ حين ينام الناس فلا يرون الدومة في أحلامهم. فقال الشاب، متى يكون هذا؟ فقال "إبني في البندر يدرس في مدرسة. إنني لم ألحقه بها. ولكنه هرب يسعى إليها بنفسه. إنني أدعو أن يبقى حيث هو فلا يعود. حين يتخرج ابن إبني من المدرسة ويكثر بيننا الفتيان غرباء الروح، فلعلنا حينئذ نقيم مكنة الماء والمشروع الزراعي، ولعل الباخرة تقف عندنا تحت دومة ود حامد"². يقول ماهر حسن فهمي "إن دومة ود حامد مليئة بالحياة الصاخبة ولكن ابن القرية الذي شرب من الكأس حتى النخاع وعاش حياته لا يرى إلا بصورها ولا يتحرك إلا في إطارها، يصدر الطيب صالح في هذه القصة عن هذه المشاعر التي إحتزنها طويلا"³.

⁽¹⁾ دومة ود حامد، الأعمال الكاملة الطيب صالح ، ص - 511-512

⁽²⁾ المصدر السابق ، ص - 517

⁽³⁾ قضايا في الأدب والنقد، ماهر حن فهمي، ص - 314

يختتم الطيب صالح هذه القصّة بإشارة بديعة إلى إمكانية

التعايش بين ذلك الإرث الماضي بمعتقداته الدينية والشعبية وشيوع أنماط من التحديث. وإلى هذه الحقيقة يشير قول الشيخ إلى الشاب عندما سأله "وهل تظنّ أنّ الدومة ستقطع يوماً؟ فقال له الشيخ "لن تكون ثمّة ضرورة لقطع الدومة. ليس ثمّة داع لإزالة الضريح. الأمر الذي فات على هؤلاء الناس جميعاً، أنّ المكان يتّسع لكلّ هذه الأشياء، يتّسع للدومة والضريح ومكنة الماء ومحطة البخرة"¹. خلال هذه الأقوال يتّضح لنا أنّ الراوي العجوز يوافق على تجديد القرية وتحديثها مع تسوية بين الحداثة والمعتقدات التقليدية في القرية. وربما هي رسالة أراد الطيب صالح أن يرسلها إلى العام. واختار الكاتب شخصيّة العجوز لأن يبلغ هذه الرسالة وأن يؤكد للقراء أن هذا الأمر وحدوثه أمر مؤكد لا محالة فيه. ومن الشائع بين الناس أن الجيل القديم هم الذين يعرضون معارضتهم نحو التجديد والتحديث. أمّا هنا إختار الطيب صالح هذه الشخصية؛ الرجل العجوز الذكي صاحب لتجارب كثيرة في الحياة لأن يدلّ على الأمر أنّ إستقبال التجديد والتحديث مع الإهتمام ببراعة التسوية بين القديم والجديد أمر غير ظالمة.

⁽¹⁾ دومة ود حامد، الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 517

الطيب صالح و"موسم الهجرة إلى الشمال"

مشاعر العرب ضد الإستعمار كما تظهر فيها

دراسة نقدية

أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها

قدّمتها

حسينة. ب

تحت إشراف

بروفسور الدكتور أحمد إبراهيم رحمة الله

الرئيس السابق (المتقاعد)

قسم اللغة العربية بجامعة كاليكوت



قسم اللغة العربية

جامعة كاليكوت

كيرلا ، الهند

2012م

إذا جاءت

كتب الطيب صالح هذه القصة القصيرة عام 1961 وتم نشرها عام 1971. ترجمت هذه القصة إلى اللغة الإنجليزية على أيد شاكر مصطفى في سنة 2005م. وليس هناك أية علاقة لموضوع هذه القصة وشخصياتها بالحياة الريفية السودانية. تدور هذه القصة حول موضوع السياحة؛ موضوع من الحياة الحديثة العصرية.

تبدأ هذه القصة بعبارة 'المكتب العالمي لفنون السياحة'. ومن هذه العبارة نفسها يتضح الأمر أن هذا المكتب هو الذي يتبرأ إطار هذه القصة، والقصة كلها تحدث في هذا المكتب. يعالج المؤلف في هذه القصة موضوعا يهجو عن فترة جيل الجديد بالعالم الغربي ويسخر فيها أو هام الشباب المتعلقة بأسلوب حياة الأوربا وتختيلاتهم المبالغه حول الغرب. تدور القصة حول ثلاث شخصيات؛ بهاء، سناء، أمين. يحاول هؤلاء الشبان الثلاثة المدنيون لتحقيق أوهامهم عن العالم الغربي خلال تأسيس مكتب السياحة. ويحمل هذا المكتب إسمًا سخريًا 'المكتب العالمي لفنون السياحة'. يشير عنوان هذه القصة إلى رجاء 'بهاء' الذي يتوقع عن مجيء فتاة سويدية التي ينتظرها بعد إغلاق مكتب السياحة الذي يعمل فيه، وكان كل همّه وأمله حول مقابلة هذه البنت. وكذلك يشير هذا العنوان إلى أمل أمين وسناء الدان يتوقعان بنجاح مكتبهم السياسي في تحقيق هدفهما إلى وصولهما إلى عالم الغرب وتعلقهما به. ولكنهم غير قادرين أن يحققوا أحلامهم المستحيلة. لأن هذه الأحوال كلها أكاذيب من أنفسهم ومخيلة زائفة من العصرية والحداثة.

يسخر الكاتب خلال القصة الجيل الشباب الذين يريدون كسب المال ب في طريق سريع. يجري سناء وبهاء وأمين هذا المكتب العالمي لفنون السياحة، غير أن هذا المكتب لم يجد قبولاً في ظل واقع اجتماعي ضاغط ولم تلائم عرضاتهم الحديثة بالواقع الاجتماعي الفعلي واحتياجاته الحقيقية.

يستخدم الطبيب صالح شخصية الراوي غير المباشر لأن يروي أحداث هذه القصة وخلال هذه الشخصية يهزأ الكاتب غرور الشخصيات في القصة. يشير الراوي إلى نقطة حول التناقض بين أحلام الشخصيات وبين أحوالهم الاجتماعية والإقتصادية القاسية. يشير الراوي إلى هذه الإشارات خلال مونولوج في القصة. يحلل أحداث القصة خلال وصفه المبالغة عن التناقضات. يسخر الراوي مظاهر هؤلاء الشبان التي تفتقر إلى المعاني والتنسيق وهو يستخدم بعض المثل لأن يجعل سخريته حادة. مثلا يصف الراوي رفّ الكتب في المكتب السياحي "رفّ لامع أبوابه من الزجاج، مملوء بكتب كأنها لقطاء اجتمعوا في ملجأ أيتام. مثلا: 'الجزء السابع من دائرة المعارف البريطانية'. 'المستطرف من كل فنّ مستظرف'. كتاب عن 'القانون الدولي' لمؤلف إسمه ليلينثال. 'كيف تتعلم الإسبانية في سبعة أيام دون معلم'. 'رحلات ابن بطوطة'. 'لو كريشيا بورجيا'. ثمّ الجزء الأول من دليل التلفون، الأسماء بين ألف وجيم. وفي ركن مهجور إحتلت 'إمرأة من روما' لمصطفى صادق الرافعي. وأعجب من ذلك أن 'رندلي' سعيد عقل و'مسز ورن' صاحبة برنادشو لم يجد إثما في أن يناما جنبا إلى جنب. (ما أضيع الأيتام على موارد اللنام)¹. يشير الكاتب في هذه الفقرة إلى مظهر الرفّ اللامع وداخله الخالي وغير المرتب. وهذا الرف رمز إلى مظاهر أحلام هؤلاء الشبان بدون معنى وعدم ترتيبها وتنظيمها وبيّن فيها الكاتب أنّ هؤلاء الشبان ليس لهم هدف مرتب مناسب في حياتهم.

كانت هناك لوحة متظاهرة ومتفاخرة التي كتبت عليها إسم المكتب السياحي. ترمز هذه اللوحة إلى أوهام هذه الشخصيات وآمالهم ورغباتهم الخاوية عن الغرب. وتتدلى هذه اللوحة من أعلى بناية قديمة. "هكذا بكلّ بساطة قرّرت لافتة طولها ثلاثة أمتار، وعرضها متران، في إطار أصغر، لوحتها من خشب البلوط مدهون بطلاء أزرق، حروف ضخمة بالثلث، مذهّبة، معلقة على مبنى عتيق، في الدور الثالث في عمارة

(1) إذا جائت الأعمال الكاملة الطبيب صالح - ص - 522

متناعية¹. ولا تنتهي السخرية عن هذا المكتب السياحي في لوحها المتفاخر ولكن سخرية الراوي تطول إلى تفصيل داخلها. هو يقول أن داخل المكتب منهمك كما في خارجها. طلاء البناية قديمة، تدب الحشرات على جدرانها، وحمامتها غير جيدة، ومع تلك الأحوال المتفعنة ينفقون كل ميزانية هذا المكتب على تأثيثها بمكتبة الهواء والهاتف ورف الكتب. "أمثلات الغرفة الصغيرة الرثة بأريز مكتوم، آلة تكيف الهواء، وتلفون جديد أخضر، ورف لامع أبو به من الزجاج، مملوء بكتب كأنها لقطاء اجتمعوا في ملجأ أيتام²."

أمين وبهاء هما متخرجان حاليا من الجامعة، ولكن ليس لهما أية خطة واضحة عن مستقبلهما وعن الفرص لأن تحصل على وظيفة في حياتهما الرسمية. إحد هدفهما في فكرة إجراء مكتب السياحة ووجدا هذا المكتب وسيلة للحصول على الأرباح الهائلة فجأة وأن يربطانها بالعالم الخارجي خاصة بالعالم الغربي.

عندما أوجدت الفكرة لفتح مكتب السياحة كان بهاء يحلم عن نساء هذا المكتب واستخدم مخيلة المستشرقين وصور الإفريقيين لأن يحقق خياله السخيف في جذب الغربيين وخاصة النساء إلى هذا المكتب. واختلط في خياله مناظر جميلة التي تثير شهوات جنسية. "استقبل بهاء الفكرة دون حماس. ولكن قليلا قليلا، أخذت معالمها تتضح في ذهنه، أخذت جزئياتها تتفاعل وتتداخل وتفترق وتجتمع، فإذا ثمة أفواج زمر كأنها الحبيح من أطراف الأرض، وإذا لهجات ولغات وأزياء، قبعات وطرايش وبنادق، ووحوش مكشورة أنيابها في أدغال وأحراش، أموال عمالات، أشكال ألوانا، دولارات وسترليني وفرنكات وماركات ولبيرات. رأى مكتبا عريقا أنيقا كأنه كعبة الحبيح في وسط غمام أبيض منقوش كالقطن؛ صبايا حسان مبتسمات اللغور، ونساء ملففات الأجسام، ثغور ونحور

¹ المصدر السابق - ص - 519

² إذا جانت، ص - 522

وأعجاز ونهود، نساء شقر ملايين ظلمات للحب، يحمن حول بر في سمائه يدور في أفلاك خارج حدود الكون...بهاء"¹.

يريد بهاء لأن يجذب النساء الأوروبيات إلى الشرق خلال فكرته عن مكتب العالمي لفنون السياحة. هنا يستعمل الطبيب صالح مفهوم الجنس أن يبين عن العلاقة الإستعمارية أو الكولونيالية في أسلوب سخرى. واستخدم بهاء صور العملات المختلفة من دولار وسترليني وفرنكات وماركات ولبيرات التي تشير إلى الولايات المتحدة والبريطانيا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا. ولم يزعج بهاء فشل هذا المكتب وخسارته وخرابه لأنه نجح في هدفه لفتح مكتب السياحة حينما وعدته البنت السورية أنها ستقبله في الليل، والآن تنور حلمه كله في توقعه "إذا جاءت".

وإن كان بهاء أكثر طامعا إلى جذب النساء الأوروبيات، كان أمين أكثر طامعا إلى العوالم الأوروبية ومناعها. يقول "هارودز. اتش. اي. آر. أو. دي. اس. متجر في لندن. كم أتوق إلى السفر إلى لندن وشراء سترة صوفية من هارودز"². وهذا الطمع إلى الأشياء الغريبة نزعة إستعمارية. يحدّد أمين قيمة الأمور والأشياء في قلب الأوربا ونموذجها أو أنه كان يرغب في أن يزن الأمور في الميزان الغربي حتى في أمر مكتبهم السياحة. يجب أن يكون اسم مكتبهم إسمًا بهوء ودعاية مثل ما في إسم هارودز، متجر في لندن. "لا أحب إسم هذه الوكالة. إسم مبتذل. أنا أو من بالإعلان الهادئ. الدعاية الذكية التي تحترم إدراك الزبون. الدعاية في هارودز مثلا..."³.

كان أمين هو الذي ألقى فكرة لبداية مكتب السياحة بين الزملاء بهاء وسناء، لأنه كان يحلم أن يسافر طول العالم. يقول الراوي "كان أمين يقرأ كيف عاش هنري ديود ثورو في لندن مكثفيا بذاته. وفجأة لسبب لا يدره كيف أحسن في قلبه ذلك

¹ إذا جاءت الأفعال الكاملة الطبيب صالح - ص - 530

² المصدر السابق - ص - 521

³ المصدر السابق، ص 525

الشعور المعين، ذلك الحنين العجيب. تحولت سطور الكتاب أمام عينيهِ إلى خرائط واسعة مصقولة، دنيا فسيحة مزرقّة مخضرة حمرة. وسمع أزيز ألوف الطائرات تهبط وتصعد في فيافي من الإسفت. وشمّ، نعم، شم رائحة عطور وعقاقير وأدوية وقوارير رشيقة ملفوفة في أوراق ملوّنة، تمتدّ وتروق وتزهر وتفوح في صيدليات لا يحصرها الحصر. من هذا العالم الصافي العطر الرافل، نبتت فكرة. قامت من حينها كاملة ناضجة فتية. ننشئ شركة للسياحة¹. يقول وائل حسن "ليست رحلات أمين الخيالية لزيارة الأماكن المختلفة مثل رحلات ابن بطوطة، وليست هذه الرحلات للإحتلال على الأماكن الأخرى، ولكنها تجول منفية من نفسه في عالم واسع ملوّن وتقديمي تكنولوجيا"². ومقارنته المنتجات الكيميائية والعقاقير والأدوية بالزهورات ومقارنته الصيدلية بالحدائق يظهر رغبة أمين في الحداثة والعصرية الخيالية التي وعدّها الإستعمار.

والشخصية الأخرى في هذه القصة هي سناء. وهي أيضا كانت منجذبة إلى العالم الغربي والتغريب. تظهر سناء رغبتها في التغريب في إستعمالها للمزيّنات الثقيلة التي تشير إلى رفضها عن مكانيتها كامرأة في المجتمع المحافظ. يصوّرها الطبيب صالح في صورة سخرية. وهي شخصية سطحية غير عميقة. "وبحركة لا إرادية لمست سناء القرطين الطويلين المتدليين من أذنيها، كلّ منهما على شكل هلال، يتدلى بسلسلة فضية من أذنيها. أنها تبالغ في صبغ وجهها بالبودرة وشفتيها بالأحمر، وعطرها قوي لا مفرّ منه. فساتينها من حرير تحدث حفحة جافة مثيرة حين تمشي. صوت يابس أملس يشعرك بامتلاء جسدها"³. وهي فتاة رخوة، أبوها مدير شركة. تأتي إلى المكتب في سيارة فوكسهول موديل 49 التي تبدو أصغر من سنّها. فليست سناء مثل أمين وبهاء متخرّجة من الجامعة لأنها رسبت في إمتحان السنة الثانية في الجامعة ثلاث مرّات، وتركها بمحض إرادتها. وليس المكتب السياحي أمرا مهمّا لديها. ولكنها كانت تراها وسيلة لأن

(1) إذا جائت الأعمال الكاملة الطبيب صالح - ص - 529

(2) Tayeb Salih ideology and craft of fiction, Wail Hasan.

(3) إذا جائت الأعمال الكاملة الطبيب صالح - ص - 520

تتخلص من حياة زوجية. "لو أن الموت زارها في تلك اللحظة القصيرة من عمرها لابتسمت له. أحست بنفسها ممثلة في مهزلة، نعم مهزلة ضالة في متاهة دون هدف. دون هدف. دون هدف. سمعت أهلها ضجة ضخمة في بيت كبير، وشمّت رائحة الثوم"¹. وبكونها امرأة، سناء مشتبكة في دائرة ضيقة أكثر من أمين وبهاء. ولذلك أنها قوية أن تتخذ قرارا حزيمة في حياتها. "مهزلة. هذه الشركة مهزلة. لن أعود غدا، سأعود إلى الجامعة. سأؤكد هذه المرة من النجاح"².

وإن كان أمين وبهاء وسناء يحملون أحلاما عن حياتهم خلال إجراء هذا المكتب ونشأته، فالمكتب لم ينحج في هدفه. لم يقرب منه أحد ولم يطلب واحد من المحتاجين مساعدة هذا المكتب، ولم يجئ واحد من السياحيين طالبين هذا المكتب السياحة والفنون. يذق جرس الهاتف في المكتب مرة في الشهر ولكن النادي يكون مخطئا في الرقم عندما أدار الهاتف. هذا مظهر سخريّ رسمه الكاتب بالفكاهة، ولكنه يظهر في هذا المنظر عن سخرية أحلام أمين وبهاء وسناء ومستقبل هذا المكتب وأملهم عنه. "وإن... فجأة حدث شيء. شيء حول المكتب الكالج الجدران، والبساط الرث، وجهاز تكييف الهواء، وملجأ الكتب اللقيطة، حولها في برهة متألفة خارج حدود الزمن، إلى شيء متكامل، له معنى وهدف. فجأة بدا كما لو أن الحياة ما تزال بخير، وإن البروق ليست جميعا تكذب، وإن الآمال، منها ما يترعرع ويزهر وينضج ويثمر... دق جرس التلفون. قفزت سناء، إتسعت فتحة فم أمين، إمتدت يد بهاء في قوة رمزية مصممة، ترمز إلى عزم جيل بأسره أن يشق لنفسه طريقا طريفا حافلا، يعتقد في قمم تصلّ فيها العين. إمتدت يد بهاء فالتقطت سماعة التلفون. تنحنح بهاء، ولمس شعر رأسه في حركة سريعة قوية، ومن غور بعيد في جوف صدره، أخرج صوتا هادئا رزينا، فيه توثب، وفيه إستعداد للتفاهم. لم يكن صوته المؤلف، لا، بل هذا هو الصوت الآخر الذي يغري به النجاح. 'هالو. المكتب العالم لفنون السياحة...'

⁽¹⁾ إذا جانت الأعمال الكاملة الطيب صالح - ص - 531

⁽²⁾ المصدر السابق، ص- 532

ماذا؟ تريد من؟ ثم، كالثعبان الذي يجمع جسده ويطويه في الحجر، ضاع الصوت الهادئ الرزين، ضاع التوثب. ضاع الإستعداد للتفاهم. لم يعد ثمة نجاح يغري به. وخرج من سقف حلق بهاء صوت أعجف، نحيل حاد النبرات، هو الصوت الذي ينادي به الخادمة في البيت، ويعارك به أمّه إذا أبت أن تقرضه مالا، ويودّع به الفتيات في أواخر لياليه الفاشلة. بذلك الصوت قال بهاء لآلة الخضراء على مقربة من شفتيه: يا سيدي هذا ليس المطار. هذا، المكتب، العالمي، لفنون السياحة¹.

وفي نهاية القصة تهدم البناية التي تتدلى عليها لافتة المكتب التي كتبت عليها 'المكتب العالمي لفنون السياحة' وتسقط اللافتة تحت الشارع. وبهدم هذه البناية وسقوط اللافتة يهدم أحلام هؤلاء الشبان ويسقط أحلامهم تحت الشارع. يبين الكاتب هذه الحادثة بسخرية وبفكاهة. "تطاولت أعناقهم جميعا من خلال النافذة نحو مصدر الصوت في قرار الشارع. وانتفض وجه سناء بغتة، ضاقت حدقتا عينيها، ثم غطت وجهها ببديها وجلست، وظلّ جسمها كلها بما فيها من ثنيات ونبوتات وتعاريج، يهتزّ بضحك، جارفا مبجوحا متشججا، وهو خليط من نداء الديك للفجر، وبكاء الأم الثكلى، ونهيق الحمار وتأوه الأنثى في ساعة الخلق. إبتسم أمين، وعاد بهاء في صمت فجلس في مكانه. وقال أمين وابتسامته تزيد اتساعا: يا لها من نهاية. هناك في الشارع، في تلك البئر السحيقة يرقد جثمان... وهنا ضغط على الكلمات بإشمنزاز واضح "...المكتب العالمي لفنون السياحة. إسم مبتذل، مكتوب بحروف مذهبة، في لافتة سمجة، ترقد هناك في الشارع"².

ولكن بهاء لم يكن مضطربا ولا قلقا بسقوط البناء. كان في حلم في مقابلته مع البنت السويدية في الليل. "ظلّ بهاء جالسا. لم يكن على وجهه غضب ولا إضطراب ولا قلق. لا، بل كان طائف من الرضا، نعم، الرضا، يرف على أركان فمه، فقد كان يفكر في حسناء سويدية، ستضيئ ظلام ليله ذاك بأسنانها التي تحاكي حبّات اللؤلؤ.

(1) إذا جائت الأعمال الكاملة الطبيب صالح - ص - 525 - 526

(2) المصدر السابق - ص - 525 - 526

ونظر إلى ساعته ثم قال بصوت مرتفع أرهفت له الحيطان الرثة، والتلفون الأخضر والسجاد الذي شهد أياما أكثر رخاء من تلك، والكتب اللقطة في مأواها الزجاجي، وجهاز تكييف الهواء: "إذا جاءت".

هكذا يا سادتي

كتبت هذه القصة عام 1961 ونشرت عام 1962، وهذه القصة تتناول الموضوع الذي تناولها الطيب صالح في قصصه 'رسالة إلى إيلين'. ترجمت هذه القصة إلى اللغة الفرنسية في إسم 'C'est ainsi messieurs' في سنة 1964 وترجمت إلى اللغة البولندية تحت عنوان 'I w ten sam Sposob Panowie' عام 1983.

تدور القصة حول راوي وهو رجل من الشرق الذي قدم إلى بريطانيا ومراة بريطانية في الأربعين من عمرها وفتاة بريطانية ومجموع من الرجال البريطانيين والنساء البريطانيات. تبدأ القصة بعبارة: هذه الفتاة لم تبتسم لي؟ ألاأني أجنبي؟ وبهذه الكلمات يظهر المؤلف همّ الراوي وحزنه. وهذه الكلمات تتضح مشاعر الإغتراب التي يشعرها الراوي ويستمرّ هذا السؤال بغير جواب طول هذه القصة. تتناول القصة موضوع العلاقة بين الشرق والغرب. وترتكز القصة حول الراوي الشرقي الذي يقصّ قصته في حفلة في لندن. يظهر الراوي خلال القصة عن المقابلة بين الشرق والغرب والإعتقادات والأوهام من كلا الطرفين. وفي الحفلة تثير المرأة في الأربعين في نفس الراوي مشاعرا نافرة نحو الغرب والغربيين أمّا الفتاة تحاول لأن لا تثير فيه مشاعرا من النفر والكره نحو الغرب. وفي النهاية يتزوج الراوي وهذه الفتاة الغربية وينجبهما بنتان.

يواجه الراوي مشاعر العزلة والإغتراب من هؤلاء المضيفين الذين يمثلون بعض القواعد والنظم ويتصرفون مع الآخرين حسب هذه النظم والقوانين. وكان الراوي يتناول بالغرب في موقفين. لم يحبّ العالم الغربي في داخله ولكنه في الظاهر كان يعالج بالغرب وفق هوى الآخرين. عندما مزج هذين الموقفين معا إنكسر الراوي في داخله وأفاض ما في نفسه من المشاعر عن الغرب، وأصبح زعلانا ونقد نقدا لاذعا على مضيفيه.

تكشف القصة مساراً منحنية في رحلة الراوي في قاعة

إستقبالية مزدحمة من الناس. حاول الراوي أن يذهب إلى امرأة التي رآها بهتة، وكانت تقوم في زاوية أخرى من الغرفة. وكان الراوي قد رسم في نفسه من قبل بعض الصور الوهميّة عن أهل هذا البلد. ولكنه أصبح منجذباً إلى هذه المرأة "هذه الفتاة لم تبتسم لي؟ ألا أنني أجنبي؟ أم لأن أنفها كبير وفمها واسع وعيناها زرقاوان؟ أهل البلد يحبّون المرأة دقيقة الأنف، صغيرة الفم، دعاء العينين. واضح هذا من تحلقهم حول تينك المراتين"¹. وهذا الإثبات الخيالي يشجعه أن يقابل هذه المجموعة من الناس الذين شبههم مثل قطيع نعجة لأنهم كانوا يفكرون ويعملون في طريق وأسلوب واحد وأفردوه منهم خارجاً أو أجنبياً. وخيل إليه أنه يستطيع أن يكون اتحاداً نفسياً وجنسياً مع الأوربا عندما يتعلق بهذه الفتاة. فأحسّ له أن يقترب منها، ولكن عليه أن يتغلب على كثير من العقبات الخياليّة للوصول إلى هذه المرأة. "كانت الفتاة كأنها تقف على الشاطئ الآخر. بيني وبينها بحر من الأمور التافهة"². يرمز البحر والشاطئ الآخر إلى بعد ثقافيّ بينه وبين المرأة. فعليه أن يعبر هذا البعد من الاختلافات الثقافيّة بينهما للوصول إليها. "البحر والشاطئ الآخر يصدو برمزية نفسيّة وثقافيّة، ومسار حركته عبر الغرفة يتبع أسلوباً مجازياً من السعي الأوروبي في القرون الوسطى وراء حبّه في القرون الوسطى حيث المسافرين - فارس أو مهاجر - عليه أن يقوم برحلة محفوفة بالمخاطر، ولا بدّ له أن يغلب على عدد من العوائق لأن يتحقق بمهمة صعبة"³.

يمثل البحر بمخاوف الراوي المختبئة وهمومه إلى

'الآخر'. ولكنه يرفض هذه المخاوف والقلق كأمر تافهة. وإذا وصل إلى الشاطئ الآخر فيجد هناك السلامة والتخلص. ولكن عليه أن يواجه هذه المخاوف والتوتر للوصول إلى الشاطئ الآخر وإلى السلامة والإنقاذ. هنا يقوم الراوي في الصراع؛ الصراع الذي يمثل

(1) هكذا يا سادتي، الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 535

(2) المصدر السابق

(3) Tayeb Salih ideology and craft of fiction, Wail Hasan, p: 25

بالصراع الذي يجري في قلوب المجتمع العربي كله الذي كان يعلق بين القديم والجديد من الثقافة. يصل الراوي إلى الشاطئ الآخر بعد فشله الكامل في محاولته أن يغلب على أوهامه ومخاوفه ويقع في شرك هذه الأوهام مع أنّ هذه القصة تنتهي بنهاية سعيدة. يفرّق البحر الأوربا من مستعمراتها في إفريقيا. وعندما يعبر المتعلمون الإفريقيون والرجال المتميزون هذا البحر وعندما يصلون إلى الأوربا فيصلون بثقافة المستعمرين. عندما يرمز البحر إلى الأوهام الثقافية والعنصرية التي تعوق بالتفاهم بين الثقافات، فالعبور على البحر يعني إلى الحصول على القدرة لتفاهم الآخرين فوق القوالب الثقافية والعنصرية والدينية والجنسية. وينبغي على هذا الرجل أن يفاوض مع أوهامه الثقافية وأوهام القوم البريطانيين الثقافية - القوم الذين أحاطوا حوله في الحفلة - لأن يصل إلى المرأة الجميلة التي يريد أن يتصل بها.

يواجه الراوي عقبات كثيرة حينما يواصل سيره للوصول المرأة الجميلة التي تقوم في زاوية أخرى في القاعة الإستقبالية. أولاً يواجه كثيراً من الأسئلة من الضيوف. "أول ما دخلت القاعة وقعت عيني على فمها الواسع، رأيت جفنها يرتعش قليلاً. لعلها فهمت. وجاءت ربة البيت ووضعت ذراعها الممتلئ الأملس في ذراعي وساقني في غمامة من العطر إلى الباقيين. لم تفرغ من نطق إسمي حتى أفترت ثغور النساء، مرة واحدة، ومدّ الرجال أيديهم. كأنهم كانوا ينتظرون قدومي من زمان طويل. كأنهم دربوا أنفسهم، واستعدّوا للقياي كما يستعدّ الممثل لمقابلة الجمهور أول مساء. أنا الجمهور. من هم إذا؟

"بلدنا يرحب بك"

"أهلاً وسهلاً شرفت"

"نحن جميعاً تحت أمرك"

تكرم عينك"

"ألا تعتقد أنّ بلدنا أجمل بلد على وجه الأرض؟"

كيف أجيب على سؤال كهذا؟ لم أجد مفراً من أن أحول بصري عن صدر المرأة، وألقيه على الجبل. صحيح هو بلد لا يخلو من حسن الجبل متوهج السفوح، والبحر عند قدميه هادئ شفاف. في أول الليل. هذا صحيح. أما أنّ هذا البلد هو أجمل بلد على وجه الأرض...¹. يشكّ الراوي أن يظهر رأيه الحقيقي في بلدهم. ولكن إذا أبدى رأيه الواقع لا يستطيع أن يصل إلى هدفه. فعليه أن يتفاوض بين رأيه الحقيقي وبين رأيه الذي يتوقع هؤلاء الناس منه. فيقول جريئاً: "صدقت يا سيّدي. بلدكم روعة. لم أكد أصدق عيني. حين حلقت الطائرة فوق شعلة النور هذه، حسبت أنني في حلم"². اقرّ الرجل إجبارياً أنّ بلدهم أو أوربا أجمل بلد على وجه الأرض مع أنّ داخله كان غير مقراً بهذا الأمر. لأنه كان يعرف عليه أن يقول هكذا لأن يصل إلى تلك الفتاة الجميلة.

أدرك الراوي أنّ هؤلاء القوم يعرضون عرضاً متكاملاً نحوه كما هو أيضاً يفعل معهم. أحسّ في قلبه أنّهم يخفون شيئاً في داخلهم ويظهرون شيئاً آخر في خارجهم. وهو يؤكد إحساسه هذا عندما يسمع كلماتهم الترحيبية المجاملة 'بلدنا يرحّب بك' التي تشير إلى أجنبيته وغيّريته.

يواجه الراوي بالعقبة الثانية عندما يجبره الضيوف لأن ينتمي إلى أسلوبهم وإلى طريقهم في الحياة. أجبروه لشرب الويسكي.

"ويسكي؟"

لا أشكر. عصير البرتقال.

⁽¹⁾ هكذا يا سادتي، الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 535 - 536

⁽²⁾ المصدر السابق، ص - 535 - 536

ونظر إليّ ربّ البيت مستغرباً، نظرة شملتني من رأسي إلى قدمي.

أنت عشت وقتاً طويلاً في انكلترا، أليس كذلك؟

بلى.

ومع ذلك لا تشرب؟

لا عن ورع، ولكنني ذقت الشراب فلم يرقني. سأشرب هذه الليلة إذا استدعى الأمر¹. إذا رفض الشرب فهو يعلن عن ردّه أو معارضته على هذه الصحبة وإذا قبل الشرب فهو يعلن عن ولائه وفائه مع هذا القوم.

عندما قال الراوي أنّه لا يشرب الويسكي ويحبّ عصير البرتقال، فيتعجّب المضيف "نظر إليّ ربّ البيت مستغرباً، نظرة شملتني من رأسي إلى قدمي. "أنت عشت وقتاً طويلاً في انكلترا، أليس كذلك؟"، "بلى"، "ومع ذلك لا تشرب؟" هذا السؤال يشير إلى أمل ربّ البيت أن حياة هذا الرجل الشرقي في إنجلترا قد حرّته من كبتة الديني والثقافي وجعلته حراً تماماً مثلهم. ولكنّ الراوي لم ينتبه إلى هذه السخرية، بل كان شائعاً إلى أن يتصرّف موافقاً على عادات حياة القوم المحيطين حوله في القاعة. دعا ربّ البيت زوجته وقال لها "هذا الرجل لا يشرب. فجحظت عينا المرأة كأنّ زوجها قال لها، هذا الرجل هارب من السجن.

ماذا؟

سأشرب هذه الليلة إذا استدعى الأمر.

تشرب الآن وإلا صحت بأعلى صوتي، وجمعت عليك الناس¹.

¹ هكذا يا سادتي، الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 537 - 538

فأخذ الراوي الكأس من يديها وبدأ أن يشربه كما كان خائفاً من تهديد ربّة البيت. "وأخذت الكأس من يديها، وقد أغوتني عيناها. عيناها خضراوان محاطتان بزرقة كالبقع الضحلة في البحر، وانساناهما واسعان أمّا بفعل الشراب وأمّا للمجهود العظيم الذي تبذله المرأة لهزيمتي. ما شأنها بي، هذه المرأة؟ واضح أنّها قرّرت أن تهزمني هذه الليلة، لكن لماذا؟ في سنوات مراهقتي أثرت النيران في جوفي بأحلام عن هذه المرأة. في مطلع شبابي، علّمتني الحبّ واحدة كهذه المرأة. امرأة في نحو الأربعين. امرأة . وجه حيّ، وصدر صلب شرس، وكفل كبير ناتئ. صرخة بدائية هذه المرأة. تخون زوجها، ما في ذلك شك، ومنام الليل بجواره لا يقلقها شعور بالإثم. لو أنّني الآن تركت نفسي على سجيّتها، لهزمتني دون كبير جهد، لكنني لن أستسلم، بأي حال من الأحوال، لن أستسلم"². يصبح الراوي مفتونا بهذه المرأة وهي تذكره عن امرأة أخرى أو النساء في هذا الطراز اللاتي تخون زوجهنّ ويصحبن مع الرجال الآخرين.

وعندما علق الراوي بذوق الويسكي تارة بعد تارة فتحدّته المرأة وهي قالت له "لسانك لونه قرمزيّ، كأنّ في فمك غروب الشمس"³. عندما سمع قولها الإغرائي فأصبح الراوي فقدانا صوابه "وهنا يا سادتي، أحلف لكم أنّي كدت أن أنهزم. ضربة واحدة متفاجئة، أتتني من حيث لا أحتسب. أعددت لكلّ شيء عدته، أغلقت كلّ الثغرات، رسمت الخطط، وعزّزت خطوط دفاعي. جبهتي السمراء، شعري المجعد، عيناوي طويلتان الأهداب. أمّا لساني، فهذا لم يخطر لي على بال، وأمّا إنّ فمي غروب شمس! وتراجعت من هول الضربة فضحكت، وضحكت محدثتي، وهي تتعمّد إبراز أسنانها المنتظمة العاجية، ومدت لي لسانها"⁴. ولكنّ الراوي يعود إلى صوابه ويدرك أن هذا الثناء من هذه المرأة ليس إلّا ظلم على كرامته وعزّته بل هو حملة عسكريّة عليها، وأدرك أنّ

(1) يا سادتي، الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 538

(2) المصدر السابق، ص - 538 - 539

(3) المصدر السابق، ص - 539

(4) المصدر السابق، ص - 539 - 540

مزياته الإفريقية هي الحصون التي تحميه من هذه الحملة العسكرية، ولكنّ الأعداء يريدون أن يخرقها. وفي ذلك الوقت ذكر الراوي مرأة أخرى التي تركته قبل عامين والتي كانت تتردد في ذاكرته في بعض الأوقات. وهذه الذكرى تحفظه من حملة ثانية من هذه المرأة المضيفة. "وكدت أقع، لولا أن هبّ الماضي لنجدي. لغير ما سبب، نفر الجرح الذي في قلبي، وتذكرت عيونا أخرى، عينين واسعتين كلهما زرقة، مثل الأماكن العميقة في البحر. تذكرت الأنف الكبير، غيري كانوا يحسبونه قبحاً، وكنت أراه جميلاً. سمعت بأذني ضحرة صافية عذبة، كصوت الماء البارد المدلوق. رأيت أسناناً لم تكن منتظمة ولا عاجية، ولكنني أحببتها. رأيت فما واسعا. رأيت حاجبين نبيلين في جبهة متغطرة. أيّ شيء لم يعجبني فيها! مضى على كلّ هذا عامان، وما يزال الجرح ينفر في قلبي، وما تزال تتراى لي عند منعطف كل طريق"¹.

عندما اندفعت هذه الذكرى إلى قلب الراوي إنعكست آثارها على وجهه مثل سحابة الشتاء. ففهمت المرأة عما يجري في نفسه. فتحوّلت من دورة بغية إلى دورة أم وحامية له. "فأبعدت المرأة وجهها عني، وأغلقت فمها وأخفت إبتسامتها في مكانة ما. يا للغرابة، حينئذ بدا وجهها كأثـه وجه أمّ لعلـي نجوت"². عندما تركت المضيفة دورها من المرأة البغية إلى دورة الأم، فأصبح الراوي مريحاً. والآن يستطيع له أن يواصل رحلته إلى الفتاة التي تقف في ركن من القاعة. "تخلصت من الكأس الذي في يدي وبحثت عنها. كانت ما تزال تقف على الشاطئ الآخر، بيني وبينها البحر ما يزال، تلك الفتاة الواسعة الفم الكبيرة الأنف الزرقاء العينين. وكانت تراقبني، كمن يهـمها أمـري"³.

(1) هكذا يا سادتي، الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 540

(2) المصدر السابق

(3) المصدر السابق، ص - 541

ولكن عندما مشى الراوي نحوها فوقع في عقبة أخرى في طريقه. "دهمني رجل ربع القامة، أحمر الوجه، مكتنز الخصر، في عينيه وعلى شفثيه فجور. كأنه كان يقصّ لأحد حكاية منكر فعله ليلة أمس. هل عاشر جون بتجمن هذا الرجل؟

"Business men with awkward hips,
And dirty jokes upon their lips"

دهمني الرجل وأنا على مفترق الطرق، وراني أغواء احسب أنني نجوت منه. وأمامي شوق لا أعرفه، والبحر ما بيننا. نظر إليّ وكأنه لا يحفل بي. ليس معي شيء يدلّ هذا الرجل على مكانتي. أنا في هذه اللحظة أجنبيّ، وحدي، وليس معي شيء يدلّ هذا الرجل على مكانتي. ولا بد أنه كان حبّ الانتقام، فقلت للرجل، بصلف أعلم أنه من طبعي، أحاول جاهدا أن أخفيه، صلف أعلم أنه درع أستر به ضعفي، قلت للرجل: أنت لا شكّ مدير شركة أو بنك أو شيء من هذا القبيل¹. وكان هذا هو الوقت الأوّل الذي قاوم فيه الراوي على حالته السائدة. قاوم على الرجل البريطاني الذي لا يحفل به ولا بمكانيته. وكان نفر الراوي وكراهيته نحو ذلك الرجل - الفاجر والذي يشتغل بالأمور الجنسيّة مع الرجال - قد سيطر عليه في حالة التي أحسّ فيها عن عديمة الأمن لأجنبيّ مثله بين هؤلاء الرجال. وقد أدرك تماما عن هذا الرجل أنه فاجر ومنكر. وهذا الإدراك يدفعه إلى إطلاق مقاومته الشديدة الثابتة. وقد أدرك نفسه أنه شيء غريب ينظر إليه القوم المجتمعون هناك بكلّ فضولهم منذ وقت وصوله إلى قاعة الإستقبال. وعندما أدرك أنّ هذا الرجل ينظر إليه مثل متاع جنسيّة نسويّة، فأكد أن يثبت رجولته التي ما زالت تضعف بفحصهم عنه ونظرهم إليه وبحملة من تلك المرأة الفاسدة. وعندما أدرك أنه فريسة عنصريّة أمام هؤلاء القوم فاتخذ نفسه بعض العدة لأن يحتمي هويّته. إرتفع قلق الراوي عندما وجد الرجل لم يحتفل بمكانيته وهويّته التي كان يراها ثابتة وغير منفصلة منه، فاندفع إلى المهاجمة ليس فقط بمشاعره من النفور والكره نحو

⁽¹⁾ هكذا يا سادتي، الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص -541

الأفراد الذين يشتغلون بالشذوذ الجنسيّة والذين يتفاخرون بقدرتهم العقلية وغلبيّتهم الخلقية، بل أيضا كانت بسبب فخره الجريح وعزّته المتكسّرة وكرامته المؤلمة.

وفي هذه النقطة من القصة تتضح ردود الراوي وتفاعلاته مع القوم في هذا البلد. يتصرّف بالخوف والشهوة نحو المرأة، ويتصرّف بالعنف والعداوة نحو الرجال. وبالنسبة إلى المرأة، يشاهد الراوي مثاليّة الأنوثة في صورة البنت القائمة في الشاطئ الآخر في صورة الفتاة التي تقوم في ناحية من الغرفة. ولكنه متردّد نحو المرأة المضيفة التي يراها بغية. وهو ينظر إلى النساء الأخرى التي يواجهها عبر طريقه من المضيفة إلى البنت الأجنبية مصدر إزعاج وقلق له وليس مصدر تهديد. ولكنه بالنسبة إلى الرجال يكرهونهم لأنه رأى مثال الرجولة في هذا البلد في ذلك الرجل الذي لم يقيم مكانة الراوي ولم يقدر بشخصيته. ولذلك عندما سأله رجل آخر نفس الأسئلة التي سألتها النساء من قبل، يصبح الراوي زعلانا ويجيب 'لا' عندما سأله هل تحبّ بلدنا. وهو يصبّ كلّ غضبه وكرهه على الناس المجتمعين. وقال الراوي وهو شارب الويسكي.

"هل تعجبك بلدنا؟"

لا.

وصعقت، ونظر إليّ الرجل مشدوها. هذا ما كنت أخشاه. إذا لم أفعل شيئا، فقد ينتهي الأمر بكارثة.

هل هذه أول مرة؟

لا ليست هذه أول مرة.

أقمت هنا شهرا قبل اليوم. سرقوني في الفندق.

أقمت هنا شهرا قبل اليوم. عرض عليّ رجل إبنته فبصقت في وجهه.

دعوني إلى العشاء، ودفعت أنا الثمن.

قرأت كتبهم، ثم رأيتهم، فوجدتهم يقولون شيئا، ويفعلون غيره.

بلدكم جميل، لكنه مليئ بالحنانات والصحف.

من الذي يشرب كل هذا الخمر؟ من الذي يقرأ كل هذه الصحف؟

بلدكم جميل لكن الأخ منكم لا يحب الخير لأخيه،

بلدكم مشرق الوجه، لكن لماذا تمشون عراة في الشتاء وتلبسون الملابس الثقيلة في الصيف؟

فتياتكم ممشوقات القدود، لكن صدورهن كالينابيع الجافة.

أنتم طيبون، ما في ذلك شك. لكنكم تخشون بعضكم البعض ولا تخشون الله.

بلدكم جميل. لكنني لم أر فيه لحية ولا شاربا.

أقمت هنا شهرا قبل اليوم. قالوا لي إننا نحبك. لكنهم كانوا يكذبون.

خزائنكم ملاءى بالكنوز. لكن المال تنفقونه على الأطباء.

بلدكم جميل، لكن الغرباء فيه قليلون.

أنتم خير أمة أخرجت للناس، لكنكم تضحكون جماعة وتبكون جماعة، وليس فيكم صوت

واحد يرتفع منفردا كآلة الكمان.

أنتم شم الأنوف من الطراز الأول، لكن ليس فيكم واحد يسبح عكس التيار"¹.

وبهذه الأقوال يصب الراوي كل مشاعره وأوهامه عن

البلاد الغربية وثقافتها بدون خوف وبلا شك وبلا توتر. ويبين هنا عن الثقافة الإنجليزية

⁽¹⁾ هكذا يا سادتي، الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 545-546

والأوروبية ذات الوجهين وهم يقولون شيئا ويفعلون شيئا آخر. وجدير هنا بالذكر عن كتابة الكاتب المصري أحمد أمين في كتابه 'شرق وغرب' عن هذا الوجهين المتضادين للأوربا "في العموم رفض الشرق مناهج التعليم الغربي، وقد ساعدتهم فيه الاختلاف الذي وجدوه في أقوال الغربيين. ذلك أنهم (الغرب) دعوا إلى الإخلاص والولاء إلى المبادئ الإنسانية في وقت الضيق، ولكنهم نسوها في حال الطيبة. مثلاً وقد وعد البريطانيون للملك حسين أنها ستعطي الإستقلال للدول العربية بعد الحرب العالمية الأولى، وذلك الوقت نفسه أنها أنشئت إتفاقية سرية مع فرنسا لتقسيم الدول العربية إلى الدائرتين بينهما. عندما يغيب ضابط إنجليزي بسبب ما أو بأخر يحيل الإنجليز إلى نمر ويهدّد. وعندما تقتل فرنسا آلافاً من المراكشيين والمغربيين أنهم لا يرفعون إصبعاً. وكل هذا سبب الشرقيين أن يضيعوا إخلاصهم في الغرب ومثلما ضاعوه في الإعتبار السياسي ضاعوا إخلاصهم في إعتبار الثقافة، لأنّ الإخلاص غير ممكن أن يقسمها".

عندما أظهر الراوي عمّا في نفسه فأصيب بلطمة قوية على فكه من رجل آخر. وغضب عليه الرجال المجتمعون في القاعة. "سمعت فجأة زجاجاً يتحطم، وأحسست بلطمة قوية على فكي. وكأني إستيقظت من نوم، فرأيت شاباً أشقر يحملق في وجهي بغضب، وتلفت حولي فإذا القوم كلهم تجمعوا كتلة واحدة على مبعدة مني، بعضهم عابس، بعضهم غاضب، بعضهم متحرش، وبعض الوجوه عليها ذلك التعبير الأجوف الذي رأيته على وجوه المصلين ذات يوم"¹. وهكذا غرق الراوي في بحر من الأمور التافهة وخضع إلى الموت رمزياً، ولكن تنجيه امرأتان من الموت: المضيضة الأم وعشيقة التي كانت أختاً المضيضة. هكذا يختلط الرومانسية المثالية بالخيال الأوربي.

تنتهي القصة بهذه الحادثة في الإتحاد بين الراوي والفتاة التي كان يشناق إليها في أول نظره إليها في قاعة الإستقبال. وإن كانت القصة تنتهي بنهاية

⁽¹⁾ هكذا يا سادتي، الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 546

سعيدة بزواج الراوي مع المرأة الجميلة الأوروبية، فلا تزال تبقي إضطراباته وصراعاته النفسية غير محلولة. إنتهت القصة في ذروة صارمة، ولكن تفاوض الراوي بينه وبين صراعاته بدون أن يجد حلولا لهذه المشاكل. ولا تزال الصراع بين الإختلافات العنصرية والثقافية والجنسية والدينية والمهنية، ولكنها تصبح منسية ومكبوحة.

مقدمات

ألفت هذه المجموعة من القصص القصيرة عام 1962 ونشرت لأول مرة في مجلة 'الحوار' البيروتية في عددها الحادي والعشرين عام 1966م. ثم أعيد نشرها مرة أخرى بمجلة 'الهلال' عام 1969م. كتب الطيب صالح نصوص 'مقدمات' في بداية الأمر في اللغة الإنجليزية ثم أعاد كتابتها بالعربية. هذه مجموعة من القصص القصيرة جدّة، ولكن لكل واحد من هذه القصص كيانتها ووجوديّتها. يصلح كلّ نصّ منها أن تقوم في صورة قصة قائمة مستقلة بذاتها، حيث يطرح كلّ منها حالة إنسانية منفصلة، ويحمل كلّ منها عنوانا خاصا. "لم يجمع المؤلف هذه القصص تحت عنوان 'مقدمات' محظا ولكن جمعها لأنّ في كلّ واحد منها تتمتع باستقلالها الذاتي وحقها الوجودي، وطبعا تحمل كلّ منها بنفس الخصائص المحددة في نقطة التصميم والموضوع والبداية والنهاية وتشكيل الشخصيات. ولذلك إختار الكاتب أن يجمعها كلها تحت عنوان واحد"¹. ترسم هذه القصص رسومات أو إسكتشات دقيقة في موضوع المواجهة بين الشرق والغرب. ويمكن اعتبار هذه القصص القصيرة مقدّمة معالجة الكاتب موضوع العلاقة بين الشرق والغرب في نصوصه الأدبية الكبيرة مثل 'موسم الهجرة إلى الشمال'. يتناول الطيب صالح موضوع المقابلة بين الشرق والغرب في صورة مقدّمية في هذه القصص حيث عالجه في قمته في روايته 'موسم الهجرة إلى الشمال'.

تشتمل المجموعة من خمسة نصوص أو مقاطع قصيرة. 'أغنية حب'، 'خطوة للأمام'، 'لك حتى الممات'، 'الإختبار'، 'سوزان وعلي'. تدور جميع القصص في لندن. ومن القول أنّ هذه القصص ملامح إبتدائية على عالم 'مصطفى سعيد' بطل الرواية 'موسم الهجرة إلى الشمال' في لندن. وهي تجسيد لعالم المرأة البريطانية والعلاقة بينها وبين الرجل الشرقي. وفي هذه العلاقة تبدو المرأة صاحبة المبادرة، وصاحبة

⁽¹⁾ voices of exiles. A study of Al – Tayyib Salih and his work, Ami Elad – Bouskila, p: 30

المشاعر العميقة والصداقة وهي رغبة في توطيد الصلة، ولكن الرجل الشرقي متردد في إختيار الحب ومن ثم يؤدي هذا التردد إلى ضياع الحب وضياح المرأة من يده إلى الأبد.

أغنية حب

في هذا النص، يلتقي الراوي أو البطل بفئة غريبة. وهي شجعتة على الغناء مع أن صوته كان نشارا. حثته لأن يغني غناء "غنّ عن الحب. الناس تسويهم أغاني الحب الحزينة"¹. هكذا بدأ أن يغني والناس أصغوا إلى أغانيه وبعضهم أحب أغانيه. ولكن الفتاة تركته في النهاية لأنه كان مترددا في أن يربط علاقة بينهما في الحب والزواج. لأنه كان مترددا باختلافهما الثقافية فانتهت العلاقة بينهما. ولكنه وصل غنائه مغنيا لها خاصة.

خطوة للأمام

هذه القصة تدور حول عاشقين. كان الشاب معلما أسودا

وكانت الشابة ممرضة بيضاء. أحبّا بعضهما البعض وتزوجا في مكتب التسجيل في فولام حيث تزوج فيه مصطفى سعيد من جين مورس. رغب الزوجان بتألف العناصر الشرقية والغربية وأن يبدع عنصرا آخر مختلطا يمزيا أبيه السوداني وأمّه الإنجليزية أو أبنا ممزوجا يمزيا الشرقية ومزيا الغربية. ويسمّيان إبنهما باسم 'سامي' إسم مألوف في كلتا الثقافتين العربية والغربية ولفظ سهل النطق في اللغتين الإنجليزية والعربية. وهذا الإتحاد بين هذا الرجل الأسود والمرأة البيضاء خطوة للأمام في العلاقة بين الشرق والغرب حيث أن هذا الإتحاد يضعف الفرق والصراع بين الشرق والغرب. تسيطر روح النفاق في هذه القصة ويتغير جوها من الروح الحزينة والمأساوية السائدة في النصوص الأخرى في مجموع القصص القصيرة 'مقدمات'

¹ أغنية حب، الأعمال الكاملة الطيب صالح، ص - 549

لك حتى الممات

في هذه القصة هناك فتى وفتاة. كانت الفتاة كاتبة إختزال في شركة التلفزيون في لندن. إنتقت الشاب الإفريقي الذي كان باحثا يعد رسالة الدكتوراه في التاريخ في حفلة رقص نظمها معهد الدرايسات الشرقية بجامعة لندن. وكان الشاب يعرف اللغة الإنجليزية. عرفا بعضهما البعض وتبادلا رقمهما التلفون ووقعا في الحب. ولكنه عاد إلى بلده بعد الحصول على الدكتوراه وأصبح معلما في التاريخ في إحدى المدارس الثانوية في بلده. سافرت الفتاة إلى كندا وحصلت على وظيفة في شركة الإذاعة الوطنية. وتبادلا الرسائل تحمل الحب. ولكن الشاب مات بالإلتحاح السحائي ولكن لم يخبرها بهذا الخبر. وما زالت ترسل رسالة لأشهور بدون إجابة منه وكانت تبحث فيها عن سبب عدم إجابته إليها. ثم هي أيضا توقفت الرسالة.

الإختبار

هذا النصّ قصّ عن طالب أسود من غانا. كان وسيما، ذلق اللسان ويجيد الرقص ويضحك وطلاقة. وبهذه المزيّات إنجذبت إليه عديد من النساء الأوروبيات. وعلفت ممرضة من نطنجهام بحبه وكانت متروّجة من رجل الذي كان محاميا في دربان. وهرب هذه المرأة والشاب معا.

سوزان وعلي

القصة الأخيرة في هذا المجموع هي سوزان وعلي. علي هو من الخرطوم، درس العلوم السياسيّة في معهد الإقتصاد بجامعة لندن. وسوزان هي من لندن، درست الفنّ في معهد سليد. وقعا في الحب وسألت منه أن يتزوّجها ولكنه تردّد. ثم عاد علي إلى بلده تراسلا الرسالة ولكنه ما زال متردّد في حبّها معه. ولكن بعد ستّة أشهر

أحبت سوزن رجلا آخر وتزوجته. ولكن علي قضى أيامه يفكر بها في غالب الأحيان حينما كانت تفكر به من حين لآخر.

ومن القول أن الكاتب الطيب صالح قد حقق بنصومه 'مقدمات' شكلا جديدا في الفن القصصي. وإن كانت لغة هذه القصص مقتصدة وجملتها قصيرة فهي تعبر عن الأمور العميقة التي لم يستطع أن يعبرها للسرد القصصي التقليدي في جملة طويلة. وربما كانت هذه اللوحات الفنية القصيرة جدا تشق الطريق إلى ظهور علامة مهمة من علامات الفن القصصي المعاصر التي عرفت بالقصة القصيرة جدا.

الطيب صالح و"موسم الهجرة إلى الشمال"

مشاعر العرب ضد الإستعمار كما تظهر فيها

دراسة نقدية

أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها

قدّمتها

حسينة. ب

تحت إشراف

بروفسور الدكتور أحمد إبراهيم رحمة الله

الرئيس السابق (المتقاعد)

قسم اللغة العربية بجامعة كاليكوت



قسم اللغة العربية

جامعة كاليكوت

كيرلا ، الهند

2012م

الفصل الخامس

الرجل القبرصي

ألف الطيب صالح هذه القصّة القصيرة عام 1972 وتمّ نشرها عام 1973م في مجلة الثقافة العربيّة في بيروت. ثمّ نشرت هذه القصّة في مجلة الدوحة في قطر عام 1976. ولم تتضمّن هذه القصّة إلى مجموعة الطيب صالح القصصية القصيرة 'دومة ود حامد' و'مقدمات'. ترجمت هذه القصّة إلى اللغة الإنجليزيّة على أيد دنيس جونسون ديفس ونشرت عام 1981م في إسم 'The Cypriot Man'.

تدور هذه القصّة حول محور واحد هو 'الموت' الموت كمصير مؤكد معيّن على رقاب البشر. يشاهد رواي القصّة لعبات الموت عندما يتقارب منه. هذه القصّة القصيرة مختلفة من القصص الأخرى القصيرة للطيب صالح. عنوانه غير واضح يأتي في صورة كنية وليس بإسم حقيقي. ولها إختلاف آخر من القصص الأخرى حيث أن أحداث هذه القصّة لا تتحدث في قرية ود حامد. ولكنها تحدث في جزيرة نيقوسيا في القبرص. وهكذا يشير عنوان الرواية نفسها إلى موضوع جديد يتناوله الطيب صالح والموضوع هو لغز وغامض. "إنها علامة على حساسية الكاتب الكبيرة أن يختار نيقوسيا مكانا للأحداث. جاء كثير من الغزاة عبر التاريخ إلى هذه الجزيرة بسبب موقعها الإستراتيجي، ومن الحقيقة التاريخية أنّ قبرص هي واحد من الأماكن في العالم التي خضعت لإنتداب البلاد الأخرى. ولقد غزاها الإغريق والمصريّون القدماء والرومان والفرس والفرنسا والإنكليز في وقت أو آخر. ومن الملائم أن تضيف إلى هذه الجزيرة الثقافات الهلنستية والإليزابيثية والعربيّة. ويرى المؤلف أنّ كلّ ثقافة لها خصائصها الذاتية ويجب أن تبقى كلّ ثقافة مميّزة. ولا يتجاهل الناس حقيقة أنّ كلّ واحد من هذه الثقافات هي جزء من العالم كلّ،

وكلّ ثقافة تتساهم في إثراء العالم. فهنا موقف قبرص هو غامض الى حد بقدر ما يتعلق الأمر في تقسيم البلاد إلى الجنوب والشمال لأنها تمثل وجود ثقافة مختلفة"¹.

لم يتعيّن عن الرجل القبرصي في بداية القصة ومجراها. من هو هذا الرجل القبرصي، وما هو اسمه، وما هي وصفاته وخصائصه. ولكن الراوي سمّاه بكنية الرجل القبرصي والتقاءه في نيقوسيا حينما زار إليها سائحا. ولكن في نهاية القصة يتضح لنا أنّ هذا الرجل القبرصي هو الموت الذي جاء لقبض الروح من الأحياء. إكتفى الموت هذه المرة بقبض روح والد الراوي وارتضى بها ولكنه أخبر أنّه سيقبض روح الراوي في المرة القادمة. كتب الطيب صالح هذه الرواية إثر وفات أبيه عام 1970.

هناك في القصة شخصيتان يلعبان دورهما المختلفة وتختلط دورهما بعضا ببعض. وتملك الشخصيتان صفات متناقضة. وهما الرجل القبرصي والطاهر ود الرواسي. وخلال هاتين الشخصيتين يطبّق الطيب صالح موضوعين. يطبّق الطيب صالح خلال شخصية الطاهر ود الرواسي موضوع الحياة، أما خلال الرجل القبرصي يطبّق موضوع الموت. الرجل القبرصي هو رجل فاجع يأتي بالدمار والكارثة إلى الحياة وأخيرا يحول إلى قوّة فنانيّة يميت البشر. أمّا ود الرواسي على عكس ذلك يقوم مقام الحياة والتجدد.

ومن الواضح أنّ الراوي يقوم بين هاتين القوتين المتناقضة. توضّح القصة آثار هاتين القوتين على الراوي. الراوي هو سائح في نيقوسيا. جعله الكاتب سائحا لأن يجعله منتبها إلى هاتين الشخصيتين. كان الراوي في أوّل الأمر جالسا في حافة حوض السباحة يشاهدا إليها. تحمل الكلمة 'حافة' معنى آخر هو خيط بين الحياة والموت. عندما يجلس الراوي على حافة حوض السباحة فهو يجلس في الوسط وفي

The process of transformation in al tayyib salih's the Cypriot man – zaki kambal¹

جانبه الرجل القبرصي وفي جانب آخر الطاهر ود الرواسي أي هو يجلس بين الحياة والموت.

يظهر كلتا الشخصيتين في القصة في شكل صوتي. والصوت الأول يطرب الراوي ويفرحه في مناسبة سياحته في نيقوسيا، فالثاني يعيده إلى حالة من القلق والتوتر. عندما لقي الراوي بالرجل القبرصي فتكاثر مشاعره من عدم الإرتياح "أحدث صوتا لم أفهم مغزاه كأنه يقول أن مثلي لا يستحق أن يكون سائحا في نيقوسيا، أو أن نيقوسيا لا تستحق أن يكون مثلي سائحا فيها"¹. هذا القول يبرز حالة الراوي النفسية، وعندما يقول أن الرجل القبرصي أحدث 'صوتا' فهو يشير إلى إزدیاد ألمه وعدم إرتياحه. وهكذا عندما كان في ظلمة الليل وحيدا في فندق في نيقوسيا فأحسّ الراوي أنه يواجه الموت من ذاته. فأدرك أنه لا يفلت من مواجهة الموت إلا أن يواجهه في صورة أخرى عاجلة أو آجلة. يقول "كانت الساعة العاشرة حين دخلت فراشي. تحايّلت على النوم بوسائل شتى، وكنت متعبا سبحت طول اليوم أجلس في مشرب الفندق، لا حيلة لي. ثم بدأ الأمل، خدر خفيف في أطراف أصابع القدمين، أخذ يزحف تدريجيا إلى أعلى حتى كان مخالبا رهيبة تنهش البطن والصدر والظهر والرأس، وكأن نيران الجحيم إشتعلت مرة واحدة. كنت أغيب عن الوعي ثم أفيق. ثم أدخل في دوامة رهيبة من الألم والنيران، والوجه المرعب يترائي لي بين الغيبوبة وشبه الوعي، ينط من مقعد إلى مقعد، يختفي ويبين في أنحاء الغرفة. أصوات لا أفهمها تجيئ من المجهول ووجوه لا أعرفها مكشرة قاتمة.... كانت حربا شرسة صامتة بيني وبين أقدار مجهولة"².

ثم يحول الرجل القبرصي إلى صورة غريم الراوي ويستخدم كل وسيلة ممكنة لأن يبتليه في متعه الحسية. وهو يغريه قائلا "بننان أمريكيتان وصلتا هذا الصباح من نيويورك. جميلتان جدا. وثریتان جدا. واحدة في الثامنة عشرة وهي

(¹) الرجل القبرصي، الطبيب صالح، ص - 2

(²) المصدر السابق، ص - 16

لي، والثانية في الخامسة والعشرين وهي لك. أختان تملكان فيلا في كابرينيا. عندي سيارة لم تكنفك المغامرة شيئا. إسمع كلامي لونك سيعجبهنّ جدا"¹. وفي هذا الحال يصبح الراوي مغويا بهذه الأقوال والحالة وأصبح خاضعا له في متابعة المغامرات معه ولكنه يتخلص منها بأعجوبة عندما يسمع صوت صديقه الطاهر ود الرواسي. تمنع صورة الطاهر ود الرواسي صديقه من أن يخضع إلى عروض الرجل القبرصي ويشجّعه لأن يرفضها وأن ينفي وسوسته. فلما أدركه الراوي من صديقه فقال للرجل القبرصي "لا، أشكرك، لم أحضر إلى نيقوسيا بحثا عن هذا. جئت لأتحدث إلى صديقي الطاهر ود الرواسي لأنه رفض أن يزورني في لندن، وأعياني لقائه في بيروت"².

عندما رفض الراوي هذه المغريات والعروض من قبل الرجل القبرصي كان واعيا تماما عن مكانته في الزمان في المكان. وهذا يشير إلى وعيه الكامل عن أسلوب الحياة التقليدية في قريته السودانية التي يمثلها حياة صديقه ود الرواسي البسيط والتقي. كان موقف طاهر ود الرواسي نحو الحياة مختلفا من موقف الرجل القبرصي. قال عن أسلوب حياته للراوي "من وعيت على الدنيا وأنا متحرك. ما أذكر أنني وقفت من الحركة. أشتغل مثل الحصان، وإذا كان مافي شغل أخلق أي حاجة أشغل بنفسي بيها. أنوم وقت أنوم بدري أو وخرى. شرط أصحي على المؤذن أول ما يقول الله أكبر لصلاة الفجر"³. وكان يقدر للمحبة بين الناس والمودة بينهم قيمة كبرى. ومن الشاهد على هذه الحقيقة في حبه مع زوجته فاطمة جبر الدار وأخ زوجته محبوب في رواية مريود. يقول الراوي عن حالة الرواسي عندما سأله عن محبوب "ضحك الطاهر ود الرواسي ضحكة، لها تلك طعم في تلك الأيام، وذلك مدى حبه لمحبوب، حتى ذكر اسمه يملؤه سعادة

⁽¹⁾ الرجل القبرصي، الطبيب صالح، ص - 14

⁽²⁾ المصدر السابق، ص - 14

⁽³⁾ المصدر السابق، ص - 9 - 10

كانَ وجود محبوب على وجه الأرض يجعلها أقلَّ عدوانا وأكثر خيرا. وقال للراوي : محبوب حاجة ثانية، محبوب معمول من طينة غير¹.

وبينما كان الراوي سائحا في نيقوسيا أتى له خبر موت أبيه. عندما عرف الراوي عن موت أبيه كان مسرعا لأن يعرف كيف كان موته أكان سهلا له أو صعبا. كان أبوه رجلا صالحا مثل الطاهر ود الرواسي وكان تقيا وبسيطا في حياته. وغادر الدنيا مليئ قلبه. "أخبرني أنه عمل في الحقيقة في حقله كعادته في الصباح، وعمل الأشياء التي يعملها عادة في يومه. لم يكن يشكو من شيء. دخل دور أقربائه وجلس مع أصدقائه هنا وهنا. أحضر بعض الثمر في نصف نضجه وشرب به القهوة. وردَ إسمي في حديثه عدة مرّات. وكان ينتظر قدومي بفارغ الصبر لأنني كتبت له أنني قادم. تعسّتي خفيفا كعادته، وصلى صلاة العشاء ثمّ جائته نذر الموت نحو الساعة العاشرة قبيل صلاة الفجر فاضت روحه².

يلقي المؤلف عبرة خفيفة أمام القراء خلال تصويره من موت أبي الراوي. عندما سمع عن حدث موت أبيه فأكد الراوي أن يمسك بالمعاني الروحية في حياته وإبقاء نفسه وراثته ثقافته البسيطة. وأصبح واعيا أنه ينبغي له أن يحاول ويجتهد نحو المعاني في الحياة لأن يبقى إنسانا في العالم. ومن الواضح أن الطبيب صالح رسم في مختلف إبداعاته الأدبية عن مشاهد موت شخصياته النبيلة في صورة عذبة وحلوة كما صوّر مشاهد موت مريم وبلال.

يقيض الراوي في أحوال مختلفة بين الرجل القبرصي وعالمه من الإغراء والمتعة وبين الطاهر ود الرواسي وحياته البسيطة. ولكن يبدو له أن يبيل مرارا وتكرارا إلى عالم المغريات من الرجل القبرصي. هذا واضح من قوله عندما

⁽¹⁾ المصدر السابق، ص - 11

⁽²⁾ الرجل القبرصي، الطبيب صالح، ص - 18 - 19

عرض الرجل القبرصي أمامه فتاة "كانت عائلة عذبة، الأب طيب الوجه، والأم صوته الإنجليزي مثل لحن إيليزابيثي من أوتار قيثارة عريقة. أربع بنات كبراهن لا تزيد عن الثانية عشرة. كنّ يدخلن حوض السباحة ويخرجن ويضحكن، ويعابثن أبوهن ويضحكن. وكانوا يبتسمون لي ويوسعون دائرة سعادتهن حتى شملتني"¹. هنا خيل إلى الراوي أن يتجاوز حدود عالم قريته في السودان. فبدأ له أنه ليس جزءا من ذلك المجتمع البسيط ولكنه في وسط عالم مضطرب وهائج. ولكن عندما ثارت فيه مشاعر رقيقة من منظر هذه العائلة وبناتها الأربع، فجأة ذكر عن زوجته وبناته في بيروت. وعندما كان يذوق بالمشاعر اللذيذة عن أهله في بيروت فظهر الرجل القبرصي أمامه وحاول أن يعوقه من فكرته وذكره. حاول الرجل أن يعرض عليه البنت في الثانية عشرة من عمرها ولكن الراوي يقاومه بغضبه الشديد "فغضبت أكثر، ثم سكت، وسكتت الأشياء حولي، إنحسرت الضوضاء، وجاء صديقي الطاهر ود الرواسي، وجلس إلى جانبي على الكنب. كان متهلل الوجه نشطا ممتلئا عافية"².

عندما وصف الراوي صديقه الرواسي عافيا ومتهلا ونشيطا فكان يعني عن عدم المعنى في حياة الرجل القبرصي وكان يرفض عالمه ويعينه نفسه مائلة إلى حياة صديقه ود الرواسي، الحياة التي تستطيع أن تعرض بديلا معنويا وطيبا من الأيام المؤلمة والحياة المملة وأن تجد حلًا روحيا لخلوة رسالة الإنسان ونظرته.

ولكن الراوي ما زال يلح قابوس الرجل القبرصي في كل الأماكن قاسيا وصلبا لا مفر له منه ولا هواة من ممارساته. ولكنه وجد الرجل القبرصي في هيئته الحقيقة وفي زيّه الرسمي عندما كان يقف على قبر أبيه باكيا ومبتهلا وكان الرجل يجلس على حافة القبر. فقال له بصون كآته ينبع من السماء والأرض "لن تراني في هذه الهيئة إلا آخر لحظة، حين أفتح لك الباب، وأنحني لك بأدب وأقول لك "تفضل يا صاحب السعادة". سوف تراني في أزياء أخرى مختلفة. قد تلقاني على هيئة فتاة جميلة، تجنيك وتقول

(1) الرجل القبرصي، الطيب صالح، ص - 8

(2) المصدر السابق، ص - 9

لك إنها معجبة بأفكارك وآرائك، وتحب أن تعمل معك مقابلة لصحيفة أو مجلة، أو على هيئة رئيس أو حاكم يعرض عليك وظيفة يخفق لها قلبك. أو على هيئة لعبة من ألعيب الحياة تعطيك مالا كثيرا لم تبذل فيه جهدا. وربما على هيئة جمهور ضخم يصق لك لسبب لا تعرفه. وربما تراني على هيئة بنت تصغر منك بعشرين عاما، تتشهاها، تقول لك نذهب إلى كوخ منعزل في الجبل. إحترس لن يكن أبوك موجودا في المرة القادمة ليفيدك بروحه. إحترس. الأجل مسمى. ولكننا نأخذ بعين الاعتبار المهرة في اللعب. إحترس فإنا الآن تصعد نحو قمة الجبل"¹. كلمة الجبل الإستعمال المجازي بليغة وهي ترمز إلى عالم الرجل القبرصي والموت. عندما سمع الراوي هذه الأقوال من الرجل القبرصي فأدرك أن الموت كان يفاضل بينه وبين أبيه في أيامه في نيقوسيا. ولكن الموت إختار الأفضل منهما. وهكذا إختار أباه.

يتخلص الراوي من الموت لأنه يقاوم بإغراء الرجل القبرصي. ولكنه يحذره أن الموت سيأتي إليه في أي وقت في أي مكان في أية صورة وفي أي زي. "ما هو الموت؟ شخص يلقاك صدفة، يجلس معك، كما تجلس الآن، ويتبسط معك في الحديث ربما عن الطقس أو النساء أو أسعار الأسهم في سوق المال. ثم يوصلك بأدب إلى الباب. يفتح الباب ويشير إليك أن تخرج، بعد ذلك لا تعلم"². فأصبح الراوي واعيا أن الموت جزء لا يتجزأ من الحياة والآن هو أقرب إلى الموت من قبل.

⁽¹⁾ الرجل القبرصي، الطبيب صالح، ص - 19 - 20

⁽²⁾ المصدر السابق، ص - 8

الطيب صالح و"موسم الهجرة إلى الشمال"

مشاعر العرب ضد الإستعمار كما تظهر فيها

دراسة نقدية

أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها

قدّمتها

حسينة. ب

تحت إشراف

بروفسور الدكتور أحمد إبراهيم رحمة الله

الرئيس السابق (المتقاعد)

قسم اللغة العربية بجامعة كاليكوت



قسم اللغة العربية

جامعة كاليكوت

كيرلا ، الهند

2012م

الفصل السادس

يوم مبارك على شاطئ أم باب

هذه هي آخر قصة قصيرة كتبها الطبيب صالح وتم نشرها عام 1993م عندما سأل الأهرام - مركز الترجمة والنشر المصري للطبيب صالح لأن يكتب قصة قصيرة في مجموع مختارة من القصص القصيرة في 18 بلدا عربيا. وهكذا كتب هذه القصة "يوم مبارك على شاطئ أم باب".

تدور هذه القصة حول زوجتين اللذين يقضيان يومهما مع بنتهما على شاطئ أم باب التي تقع بكويت. هذه القصة مختلفة من قصصه الأخرى إذ أن شخصياته ليست من القرية ود حامد ولا من لندن وليسا معروفين لنا خلال قصصه السابقة. ولكن هذه القصة تجري في جو صوفيّ وغموض التي فيها تجري بعض قصصه السابقة أمثال 'دومة ود حامد' و'نخلة على الجدول' ورواياته 'عرس الزين' و'ضو البيت' و'مريود'.

يقول الطبيب صالح عن هذه القصة "كُتبت هذا النص

وجعلت مشاهدته تدور في البحر رغم أنني ولدت قرب النهر، ربما أعطيته هنا منزلة النهر بعد أن عرفته عالما مسيطرا خلال أسفاري، وأصبحت دلالاته عندي تربط بالإنتماء الامور وإجتماعها وجلب العناصر إلى جانب دلالات الإطلاق والانهائية ومن الجائز أن أكون قد نقلت دور أشعر أصداء بعض الشخصيات مثل 'مريم' في رواية 'مريود' إلى 'رباب' في قصة يوم مبارك على شاطئ أم باب". وأجمل شهادته عن هذه القصة هي قوله "ربما كتبها خاضعا للإحساس خفي أن العالم الوداع المطمئن مهتد لما يجلب له القلق.

تدور هذه القصة حول منطقة ساحلية في القطر وتركز على شخصية بنت عربية اسمها 'رباب'. تقع أحداث القصة خلال نزهة عائلية في ساحل بحر في الخليج الفارسي في القطر اسمه 'أم باب' الذي يبعد من دوحة لمسافة بعض من الدقائق فقط.

تنقل بنا القصة إلى خلفية قبل عشر سنوات من الآن وتوضح لنا عن المقابلة بين أبي رباب وأمها في المدينة المنورة والزواج العجيب بينهما. كانت مقابلتها بعد زيارتهما إلى المسجد النبوي في المدينة المنورة بعد أدائهما مناسك العمرة في مكة المكرمة. قابل الرجل والمرأة بعد أدائهما صلاة الفجر وقامهما بعضا لبعض مثلما تلقيان الروحان في الفضاء. عقد الزواج بينهما في ذلك المساء نفسه ولدت أم رباب البنت بعد سبعة أشهر من الزواج في المدينة المنورة.

وهكذا ولدت البنت رباب آية للحب الروحي وبدأت أن الله أنعمها بهداية الهيّة. وبعد تسع سنوات من مقابلة الأب والأم، يجتمعان مع ابنتهما على شاطئ أم باب في قطر. تبدأ القصة بأسئلة من الأب لابنتها عن قطع الخشب التي تسيل طافيا على سطح الماء. يسألها عن منبع هذه الخشب ومخرجها إلى هذا البحر.

من أين يجيء البحر بكل هذا الحطب؟

قالت (رباب) "هذا اللوح من السويد"

"كيف عرفت أنه من السويد؟"

"ألا ترى الكتابة؟ هذه الأحرف آخر كلمة سويدن."

لم يمكنك طويلا في البحر كما ترى لعله من صندوق سقط من سفينة.

"وهذا من أين؟"

"هذا جزء من قناة"

"أعرف أنه جزء من قناة"

"من شرق أفريقيا ربما من زنجبار؟"

ألا تعرف أنهم كانوا يسقفون بيوتهم بالقنا في هذه المنطقة؟ هذه القنا عمرها على الأقلّ مائة عام، نقلتها المراكب الشراعية ربما إلى البحرين أو عمان، على الأرجح إلى عمان.
"لماذا عمان؟"

قالت كأني تلميذ بطيء الفهم "ألا تعرف الصلة بين عُمان وزنجبار؟"
ضحكت وقالت (رباب) "لعلهم هدموا البيت وبنوا مكانه بيتا من الإسمنت، أو تهدم وحده، ألا تعرف أنهم كانوا يبنون بيوتهم على سيف البحر؟"
"ما معنى سيف البحر؟"
"يعني شاطئ البحر"
"لماذا؟!"
"الهواء أبرد وأيضاً لأنّ حياتهم كلها كانت على البحر".

تجيب البنت لكلّ السؤال كما أنّها كانت تعلم عن الأمكنة التي تخرج منها الخشب وكما أنّها تعلم العلم عن الأمور التي حدثت قبل مولودها. وهكذا تدهش البنت أباه وأُمّها كما ترى أنّ البيئة حولها خاضعة إلى قوّة خارقة التي تصاحب مع القوّة الكونيّة. عرضت البنت رجائها في رحلتها إلى المكة لأداء الحجّ فنزل جمل كبير من وراء تلّ ومشى إلى الماء وورائه مجموع من الجمل. وفي هذه الآونة تبين رباب إلى أوبوها أنّ الجمال تؤدّي بالوضوء. ثمّ خرجت الجمال من الماء وقامت ساكنة على الشاطئ. فقالت رباب لوالديها أنّها يؤدّين الصلاة. ثمّ غادرت الجمال الشاطئ وبعد بعض الدقائق من مغادرتها، ظهرت مجموع من النساء وأدّين بالوضوء في ماء البحر، وقمن في صفّ على الشاطئ للصلاة في نفس المكان الذي قامت فيها الجمال ساكنات لبعض الدقائق. يشير الكاتب خلال هذه الأحداث التي تجري مثل الأحلام إلى تأكيد بالإيمان في أمر قدرة إلهيّة التي تدير الكون كله. تجري أمور الكون وأمور الطبيعة في النظام الإلهي تحت قوانينه وتطيع كلّ الفلك

والحيوانات والأشجار والبحر والنهر هذا النظام إيا الإنسان الذي لم يصل إلى درجة الصفاء الروحية التي تأخذهم إلى إمتصاص قوانين النظام الإلهي.

ولكن فجأة تتدخل إلى إلى النظام الإلهي عناصر من الضجة والغوضى وهي تتسلل إلى عالم الهدوء والسكوت والترتيب وتحاول أن تثير على الحالة الصامتة الطيبة. ولكن النظام الإلهي وقوانينه يتفوق على هذه الغوضى ويكبح على جماح قوة الشر والجور ويوقف هذه القوة الفاسدة بعيدا عن النظام الصافي والهادء. يبين الطبيب صالح هذ الجانب من الضجة والغوضى في صورة شاب الذي يجيئ إلى شاطئ البحر أم باب. وهو عنصر متناقض لعنصر البنت رباب. يجيئ الشاب إلى الشاطئ في طائرة التزلج.

ينزل الشاب في البحر ويحاول أن يسبح في الماء ولكنه يغرق في الماء. حاول أن يسبح على سطح الماء ولكنه فشل في تلك المحاولة. حاولت رباب أن تنجي هذا الشاب من الغرق وحينما تنزل في الماء تطفو على الماء بدون غرق. عندما ضاغت على سطح الماء تألق جسدها مثل شعاء النور التي تنعكس على الزجاج. وأخيرا أنجت البنت الشاب من الموت من الغرق وتهبه فرصة ثانية لحياته على الأرض. يرمز عدم قدرة الشاب للسباحة في الماء إلى فقدان عنصر الروحي وفقدان القيمة الروحية، أما الرباب فهي تطفو على الماء وتسبح بدون غرق وهي تملك قدرة السباح. فهذا يشير إلى صفاتها الروحية المملوئة في داخلها.

يظهر خطر من ضياع الصفاء الروحي مرة ثانية على الشاطئ عندما يمضي أبو الرباب نحو البحر تاركا زوجته وابنته على الشاطئ. وفي ذلك الوقت وهو أيضا يقع في خطر الغرق. عندما تدعوه الزوجة والبنت إلى العودة إلى الشاطئ، فينزل ذلك الجمل الكبير من وراء التلّ مرة ثانية ويمشي نحو البحر كما يريد أن ينجي الرجل من الماء. يصبح الأب في توتر عندما يفهم غاطله عندما سمع صوتا من منبع غامض. وهو

يدرك أن هذا الصوت يناديه نحو الأفق ونحو الموت. وعندما ينهض الأب من غيبوبته فهو يدرك أن تلك الصوت ينادي من ورائه. فذكر الرجل عن زوجته وابنته اللتان تقومان على الشاطئ فعاد نحو الشاطئ سابحا يستغرق كلّ طاقته. وهكذا يعود الرجل إلى الشاطئ وعندما أظهرت زوجته خوفها في غرق زوجها في البحر فصرّحت البنت رباب، "لا، عليه أن يعود. سوف يجيئ النداء إلينا من مكان آخر، في وقت آخر. تعال، فلنذهب إلى المدينة".

وقع الأب في الخطر عندما نسي زوجته وابنته. فضاع منه الإرشاد وتقدّم نحو العذاب. ولكنّ زوجته وابنته تساعدانه في نهضته وإلى عودته وتهديانه إلى الأمن والسلامة. وهكذا تنتهي القصة بالتفائل والرجاء والخير والبركة في يوم مبارك.

الطيب صالح و"موسم الهجرة إلى الشمال"

مشاعر العرب ضد الإستعمار كما تظهر فيها

دراسة نقدية

أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها

قدّمتها

حسينة. ب

تحت إشراف

بروفسور الدكتور أحمد إبراهيم رحمة الله

الرئيس السابق (المتقاعد)

قسم اللغة العربية بجامعة كاليكوت



قسم اللغة العربية

جامعة كاليكوت

كيرلا ، الهند

2012م

الخاتمة

الأديب السوداني الطيب محمد صالح أحمد هو صاحب القلم السيال والأسلوب الرشيق والعبارات الناصعة والمفردات الغنية والكلمات المضيئة. وهو عبقري الرواية العربية إشتهر بين الأعلام الروائيين من العرب والغرب برواياته 'عرس الزين' و'موسم الهجرة إلى الشمال' و'ضوء البيت' و'مريود'. والطيب صالح قبلما تحرك قلمه في مجال الرواية كان منغمسا في كتابة القصص القصيرة. كان أول نتاجه الأدبي هو قصته القصيرة 'نخلة على الجدول' الذي أظهر فيها كل حنينه إلى وطنه السودان وإلى قريته التي تقع على شاطئ النيل. وبعد هذه القصة أصدر القصص الأخرى أمثال 'دومة ود حامد' و'حفنة تمر' و'هكذا يا سادتي' و'إذا جاءت' و'رسالة إلى إيلين' و'مقدمات'. وفي أيامه الأخيرة كتب قصتين قصيرتين 'الرجل القبرصي' و'يوم مبارك على شاطئ أم باب'.

روايته المشهورة 'موسم الهجرة إلى الشمال' تعدّ من الروايات ما بعد الإستعمار. عالج فيها الإستعمار والقضايا المتعلقة بها. عالج فيها مشاعر العرب ضدّ الإستعمار الأوروبي والمصادمة بين الحضارة الشرقية والغربية أو بين الحضارة الجنوبية والشمالية. والأطروحة هذه تركز على هذه الرواية المشهورة وعلى المشاعر المضادة للإستعمار كما تظهر فيها. وهنا أريد أن ألخص نتائج بحثي هذا كما في التالي.

- قديما كان الأدب السوداني مملوءا بأشعار بيانية وقصص شفوية التي كانت تنتقل من جيل إلى جيل. ظهرت الرواية في السودان في الأربعينات من القرن العشرين فقط. وهي 'تاجوج' لعثمان محمد هاشم. ومن أشهر الروائيين في السودان في القرن العشرين هم أبوبكر خالد وإبراهيم إسحق وإبراهيم والطيب صالح. وكان دور النساء في الرواية العربية في السودان ليس بأقل. ومن أشهرهنّ ملكة الفاضل عمر ولنا مهدي عبد الله وبثينة خضر مكي ورانيا مأمون.

برواياته وقصصه القصيرة.

- لقب الطبيب صالح بلقب 'عبر قري' الرواية العربية' وأسهم إسهامات بالغة للأدب العربي
- 'موسم الهجرة إلى الشمال' تعدّ من الروايات المشهورة في العالم في القرن العشرين. حصلت هذه الرواية على عديد من الجوائز والتقديرات الأدبية.
- تبين الرواية عن المشاعر المضادة للإستعمار في ألآ صورتها وأقسامها.
- يعرض الروائي الأكذوبات والخيانة المتوارثة في الإستعمار مبنيا تأثير الإستعمار المدمر على المستعمر.

• بطل الرواية مصطفى سعيد يرّد عنف الإستعمار إلى مقرّها البريطانيا. يستخدم مواهبه العقلية والفكرية والخيالية التي حصل عليها من تسهيلات الإستعمار نفسها. يستخدم الثقافة الغربية نفسها لمواجهة سياساتها الإستعمارية.

• إستعمار بريطانيا إستعمارا جنسياً على البلاد العربية والإفريقية طبقا لفكرة الغرب أن 'الشرق والجنوب امرأة ضعيفة ومغربة والغرب هو رجل قوي'. والغرب (الرجل القوي) يقتصب جنسياً على الشرق (المرأة المغربية). ردّ مصطفى سعيد هذه الفكرة وهو الرجل المستعمر يقتصب على المرأة المستعمرة.

• إستخدم مصطفى سعيد فكر الإستشراق والمستشرقين ووصوفهم وخيالاتهم الكاذبة عن البلاد الإفريقية والشرقية لجذب النساء البريطانيات إليه. جعل عرفته عالما شرقيا مصعرا كما في خيال الغرب.

- واجه أكاذيب الإستعمار مستخدما الأكاذيب من نفسه نحو النساء المستعمرات.
- أصبح مصطفى سعيد صيدا والفتيات البريطانيات فريسات تقع في شبكته من كلامه المعسول وفلسفاته الشرقية وصفاته الجاذبة.
- إشتغل مصطفى سعيد في الأعمال الجنسية مع الفتيات الغربية، تمثلن أربعة فتيات من مختلف الطبقات في المجتمع البريطاني ولكن كلهن يشاركن هوية إجتماعية إستعمارية.

- لم يحب مصطفى سعيد أية امرأة من هذه النساء ولكنه كان يراه كأنه هو مشغول في حروب عارمة مع أعداء. وصوفه عن تعلقاته الجنسية مفعمة من المفردات والتعبيرات المتعلقة بالحروب والقتال.
- وفي هذا النوع من الاستعمار الردي يصبح المرأة موقعا للتنافس لأن جسد المرأة الجنسية يثير الارتباط بأرض الأم الخصبة. بهذا وصف مصطفى سعيد المرأة بالمدينة في وقت والمدينة بمرأة في وقت آخر. وهكذا أصبح استعماره على المرأة الغربية استعمارا على المدن الغربية الاستعمارية.
- إنتهت حملات مصطفى سعيد الاستعمارية في مشابكته مع امرأة بريطانية - جين مورس - التي كانت صورة كاملة لوجه الاستعمار القبيح. تمثّلت كلّ نواحي الإستعمار الغربي العفوي والانثني والتفريقي. واجه منها كلّ الإهانة والذلة وهدمت كلّ قواه الجسدية والعاطفية والروحية.
- وأخيرا قتلت الفتيات اللاتي تعلق بهنّ مصطفى سعيد إمّا عن طريق الانتحار أو القتل على يد مصطفى سعيد نفسه كما هو الحال بالنسبة لزوجته جين مورس.
- قدّم الروائي في الرواية صورتين من المواجهة بين حضارة المستعمر والمستعمر.
- شرب مصطفى سعيد عصارة الحضارة الغربية وامتصّها إلى داخله وأصبح ممزقا بين الحضارتين وتسلم نهاية مأساوية. هذه هي صورة من الجيل الأول في فترة الإستعمار الأوروبي.
- الراوي يمثل الجانب المعتدل من العلاقة بين المستعر والمستعمر أو في المقابلة بين الحضارتين. كما أنّه ليس لديه نوايا سنيّة ضدّ الأوروبيين وثقافتهم. وكلف نفسه وظيفة من المفاوضات بين ثقافته الأصلية والثقافة الأوروبية.
- تأكد الكاتب أن المشكلة في المجتمعات العربية والإفريقية ما بعد الاستعمار تقع عميقا في هياكل السلطة فيها. وكان يعني، أنها ليست الحضارة الغربية فقط فاسدة وغير كافية، بل أسلوب البلاد العربية والإفريقية في تناول الأمور يحتاج إلى تعديل.

- أتى الطيب صالح بشخصية نسوية في الرواية 'حسنة بنت محمود' ثائرة على قواعد الحكم الأبوي في السودان. وهذه الثورة تشير إلى أنه حان الوقت لتغير المجتمع من قواعده القديمة ونظمه الدارسة وتقاليده البالية وعليه أن يبني نظاما مركبا على أساس المحبة والتسامح والمساواة والعدالة.

وبصفوة القول يمتاز أدب الطيب صالح ملتصقا بالأجواء والمشاهد المحلية. كشف الطيب صالح بملكاته الأدبية عن أصول الحياة السودانية وعن ثقافة الإنسان السوداني وجذورها الضاربة. وقد كان الروائي عميقا في علمه في كلتا الحضارتين الأوروبية والعربية والحضارتين الشرقية والغربية. عالج في معظم إبداعاته الأدبية عن المقابلة بين هاتين الثقافتين والتشابك بين الماضي والمستقبل وبين القرية والمدينة وبين الذكر والأنثى.

سعى الطيب صالح للمساهمة في إثراء الحركة الإبداعية الثقافية السودانية والإفريقية والعربية. ولقد كتب عن أعمال الطيب صالح كثيرا ولكن بالرغم من كثرة ما كتب ومن تعدده ومن تنوعه وعمقه وأهميته فلا تزال هذه النصوص الأدبية قابلة لإعادة القراءة وللمزيد من التأمل والتحليل للإستشراف الجديد من الأبعاد الرحبية والغنية التي تقف مشاهدة على فرادته وإبداعه وتميزه.

الطيب صالح و"موسم الهجرة إلى الشمال"

مشاعر العرب ضد الإستعمار كما تظهر فيها

دراسة نقدية

أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها

قدّمتها

حسينة. ب

تحت إشراف

بروفسور الدكتور أحمد إبراهيم رحمة الله

الرئيس السابق (المتقاعد)

قسم اللغة العربية بجامعة كاليكوت



قسم اللغة العربية

جامعة كاليكوت

كيرلا ، الهند

2012م

المصادر والمراجع العربية

- (1) أساطير أوربا عن الشرق، رنا قباني، دار طلاس، 1993، دمشق.
- (2) الأدب العربي المعاصر، شوقي ضيف، دار المعارف، 1957، القاهرة.
- (3) الأعمال الكاملة - الطيب صالح، دار العودة، 2004، بيروت.
- (4) الإتجاهات الحديثة في النثر العربي في السودان، الدكتور عبد الله الطيب، معهد الدراسات العربية العالمية، 1959.
- (5) إستراتيجية الإستعمار والتحرير، د. جمال حمدان، دار الشروق، 1983، بيروت.
- (6) الإستشراق المفاهيم الغربية للشرق، إدوارد سعيد، ترجمة - د. محمد عناني، دار بنجوين العالمية، 1995.
- (7) الإستعمار - أحقاد وأطماع، محمد الغزالي، نهضة مصر، 2005، القاهرة.
- (8) بانورما الرواية العربية، سيد حامد النساج، دار غريب للطباعة والنشر، 2007، القاهرة.
- (9) البطل في الرواية المصرية، الدكتور أحمد إبراهيم الهواري، دار المعارف، 1986، القاهرة.
- (10) أكذوبة الإستعمار المصري للسودان، د. عبد العظيم رمضان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1998، القاهرة.
- (11) التبشير والإستعمار في البلاد العربية، الدكتور عمر فروخ، الدكتور مصطفى خالد، المكتبة العصرية، 1986، عيدا - بيروت.
- (12) تاريخ الوطن العربي المعاصر، أحمد رجب عبد الله، سليمان مصلح أبو عزب، محمد حسن العيلة، مكتبة الماس، كاليكوت.
- (13) الرواية والتحليل النصي، حسن المودن، الدار العربية للعلوم، 2009، بيروت.

- (14) السودان بين يدي غردون وكثنر، إبراهيم فوزي باشا، إدارة جريدة المؤيد، 1319 الهجري، السودان.
- (15) السودان عبر القصور، الدكتور مكي أبو شبيكة، دار الجيل، 1991، بيروت.
- (16) شكل التعبير الديني في روايات الطيب صالح، د. إبراهيم محمد زين، هيئة الخرطوم والصحافة والنشر، 2008، الخرطوم.
- (17) صدام الحضارات - إعادة صنع النظام العالي، صامويل هنتنجتون، ترجمة طلعة الشايب، 1999.
- (18) صدام الحضارات - محاولة للفهم، أ.د. عبد الرازق مقري، دار الكلمة، 2004، المنصورة.
- (19) الطيب صالح - دراسات نقدية، الدكتور حسن أبشر الطيب، رياض الريس للكتب والنشر، 2001، بيروت.
- (20) الطيب صالح عبقرى الرواية العربية، أحمد سعيد محمدي، جلال العشري، رجاء النقاش، سيد فرغلي، عبد الجلاب، عثمان حسن أحمد، د.علي الراعي، هدى الحسني، دار العودة، 1984، بيروت.
- (21) العالم الإسلامي والإستعمار السياسي والإجتماعي والثقافي، أنور الجندي، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر والتوزيع، 1983، لبنان.
- (22) عطيل، وليم شكسبير، تعريب خليل مطران، دار مارون عبود، 1974، بيروت.
- (23) غربة الكاتب العربي، حليم بركات، دار الساقي، 2011، بيروت.
- (24) في الأدب السوداني الحديث، عبد المنعم عجب الفيا، دار نينوي للدراسات والنشر والتوزيع، 2011، سورية.
- (25) في رحاب الجنادرية والأصيلة، الطيب صالح، رياض الريس للكتب والنشر، 2005، بيروت.

- (26) في صحبة المتنبي ورفاقه، الطيب صالح، رياض الريس للكتب والنشر، 2005، بيروت.
- (27) القصة القصيرة دراسات ومختارات، د. الطاهر أحمد مكي، دار المعارف، 1985، القاهرة.
- (28) قضايا في الأدب والنقد، الدكتور ماهر حسن فهمي، دار الثقافة، 1986، قطر - الدوحة.
- (29) للمدن تفرّد وحديث: الشرق، الطيب صالح، رياض الريس للكتب والنشر، 2005، بيروت.
- (30) للمدن تفرّد وحديث: الغرب، الطيب صالح، رياض الريس للكتب والنشر، 2005، بيروت.
- (31) المدخل إلى تاريخ السودان القديم، الدكتور محمد إبراهيم بكر، مدرسة التاريخ القديم.
- (32) ماهية الحروب الصليبية، د. قاسم عبده قاسم، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1990، الكويت.
- (33) مصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال، عبد الرحمن الرافعي، دار المعارف، 1983، القاهرة.
- (34) المضيئون كالنجوم: من أعلام العرب والفرنجة، الطيب صالح، رياض الريس للكتب والنشر، 2005، بيروت.
- (35) منسي إنسان نادر على طريقه، الطيب صالح، رياض الريس للكتب والنشر، 2005، بيروت.
- (36) موسم البحث عن هوية - دراسات في الرواية والقصة، دكتور حلمي محمد القاعود، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1987، القاهرة.
- (37) وطني السودان، الطيب صالح، رياض الريس للكتب والنشر، 2005، بيروت.

الدوريات والمجلات العربية

- (1) آفاق الثقافة والتراث، السنة 17، العدد الخامس والستون، مارس 2009.
- (2) التواصل، العدد الثاني، 2004
- (3) التواصل، يونيو 2005، السنة الثانية، العدد السادس.
- (4) التواصل، مارس 2006، السنة الثالثة، العدد التاسع.
- (5) التواصل، 2007، السنة الرابعة، العدد الرابع عشر.
- (6) التواصل، 2009، السنة الخامسة، العدد الثامن.
- (7) التواصل، 2010، السنة الخامسة، العدد التاسع عشر.
- (8) جريدة الوطن، العدد 730، سبتمبر 1997.
- (9) الرابطة، السنة 46، العدد 532، نوفمبر 2010.
- (10) الرابطة، السنة 47، العدد 533، ديسمبر 2010.
- (11) الرابطة، السنة 48، العدد 548، أبريل 2012.
- (12) الشرق الأوسط، العدد 11041، فبراير 2009.
- (13) القدس العربي، يومية - سياسية - مستقلة، المجلد 20، العدد 6130.
- (14) عالم الفكر، المجلد السابع عشر، العدد الأول، وزارة الإعلام، 1986، كويت.
- (15) عالم الفكر، المجلد الثامن عشر، العدد الرابع، وزارة الإعلام، 1988، كويت.
- (16) العرب الأسبوعي، 18 \ 04 \ 2009.
- (17) فكر وفن، يناير 2002.
- (18) الفيصل، السنة 35، أكتوبر - نوفمبر 2010.
- (19) مجلة الدراسات العربية، المجلد 7، العدد 7، قسم اللغة العربية بجامعة كشمير، 2009، كشمير.
- (20) مجلة الدوحة.

- (21) مجلة الكويت، العدد، 285، فبراير 2007.
- (22) مجلة الوطن العربي، 20-12-1996، القاهرة.
- (23) مجلة الكويت، العدد، 285، فبراير 2007.
- (24) مجلة كاليكوت، المجلد الأول، العدد الثاني، قسم العربيّة، جامعة كاليكوت، كيرلا.

الطيب صالح و"موسم الهجرة إلى الشمال"

مشاعر العرب ضد الإستعمار كما تظهر فيها

دراسة نقدية

أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها

قدّمتها

حسينة. ب

تحت إشراف

بروفسور الدكتور أحمد إبراهيم رحمة الله

الرئيس السابق (المتقاعد)

قسم اللغة العربية بجامعة كاليكوت



قسم اللغة العربية

جامعة كاليكوت

كيرلا ، الهند

2012م

المراجع الإنجليزية

- 1) Alex Halley, *Roots*, Doubleday, 1976, U.S.A.
- 2) Ami Elad Bouskila, *Voices of exiles – A study of Al – Tayyib Salih and his works*, Oxford University press, 2007, New York.
- 3) Eduardo De Sousa Ferreira, *Portuguese colonialism in Africa – the end of an era*, The UNESCO press, 1974, Paris.
- 4) Edward. W. Said, *Culture and Imperialism*, Vintage books, 1993, New York.
- 5) Edward. W. Said, *Orientalism*, Penguin books, 2001, India.
- 6) Ellen Ismail, *A look into Sudanese culture*, Bendesrtorf, 2011, Germany.
- 7) Gerard De Nerval, *The women of Cairo - A translation of Voyage en orient*, Harcourt, Brace and company, 1930, New York.
- 8) Grec Thomas, *The sexual demon of colonial power*, Indiana University press, 2007, U.S.A.
- 9) H. a Machichael, *A history of the Arabs in the Sudan*, Cambridge University press, 1922, London.
- 10) John. c. Hawley, *Encyclopedia of post colonial studies*, Green wood press, London.
- 11) Joseph Conrad, *Heart of darkness*, Planet PDF
- 12) Jullies Hakim Azzam, *The Alien within: Postcolonial Gothic and the Politics of Home*, 2000, Northern Illinois University.
- 13) P.M Holt & M.W. Daly, *A History of the Sudan*, Pearson Education LTD, 2000, England.

- 14) Rebecca M. Lorrins, *Inheritance: Kinship and the performance of Sudanese identities*. 2007, The University of Texas. Austin.
- 15) Salah. A. Elewa, *In search of the other / self: Colonial and Postcolonial narrative identities*, 2002, The University of Hong Kong.
- 16) Shirley Maakroun, *Journey of darkness and light*, Palma journal 2003.
- 17) Tayeb Salih, *Season of Migration to the North*, translation – Denys Johnson Davies, Heinemann educational books, 1970, London.
- 18) Thayeb Salih, *The wedding of Zein*, trans - Denys Johnson Davies, Heinemann educational books, 1969, London.
- 19) Wail Hassan, *Tayeb Salih - Ideology and the craft of fiction*, Syracuse University press, 2003, New York.

الطيب صالح و"موسم الهجرة إلى الشمال"

مشاعر العرب ضد الإستعمار كما تظهر فيها

دراسة نقدية

أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها

قدّمتها

حسينة. ب

تحت إشراف

بروفسور الدكتور أحمد إبراهيم رحمة الله

الرئيس السابق (المتقاعد)

قسم اللغة العربية بجامعة كاليكوت



قسم اللغة العربية

جامعة كاليكوت

كيرلا ، الهند

2012م

الدوريات والمجلات الإنجليزية

- 1) A Journal of Critical and Creative Work, volume 5, 2008, The English Association of Pennsylvania State Universities.
- 2) Arabic and Middle Eastern Literatures, volume 2, No:2, 1999.
- 3) Comparative literature and culture, volume 12, Issue 2, June 2010, Purdue University press.
- 4) The Gombak review, volume 1, No: 2, 1996, International Islamic University, Malaysia.
- 5) The journal of modern African studies, volume 8, number 2, Cambridge University press, New York.
- 6) Irish journal of public policy, volume 4, issue 1.
- 7) Literary Research, volume 25, summer 2009, International Comparative Association.
- 8) New comparison – A journal of comparative and general literary studies, NO: 17, 1994, British Comparative Literature Association.
- 9) News Letter, volume 18, No:3, March 1999, The Sudan Studies Association of North America.

الطيب صالح و"موسم الهجرة إلى الشمال"

مشاعر العرب ضد الإستعمار كما تظهر فيها

دراسة نقدية

أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها

قدّمتها

حسينة. ب

تحت إشراف

بروفسور الدكتور أحمد إبراهيم رحمة الله

الرئيس السابق (المتقاعد)

قسم اللغة العربية بجامعة كاليكوت



قسم اللغة العربية

جامعة كاليكوت

كيرلا ، الهند

2012م

DECLARATION

I hereby declare that the thesis entitled *Season of migration to the north of Al – Tahyyib Salih. And the anti – colonial feelings of the Arabs as depicted in it. A critical study* is submitted by me for the award of the degree of Doctor of Philosophy in Arabic language and literature is a record of bonafide study and a research conducted by me under the guidance and supervision of Dr. A.I Rahmathullah, Professor and Head (Retd), Department of Arabic, University of Calicut and that no part of this thesis has not been submitted to any university for the award of any degree.

Calicut University

Date : 25 - 08 - 12



Haseena. P

Department of Arabic

University of Calicut

الطبيب صالح و"موسم الهجرة إلى الشمال"

مشاعر العرب ضد الإستعمار كما تظهر فيها

دراسة نقدية

أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها

قدّمتها

حسينة. ب

تحت إشراف

بروفسور الدكتور أحمد إبراهيم رحمة الله

الرئيس السابق (المتقاعد)

قسم اللغة العربية بجامعة كاليكوت



قسم اللغة العربية

جامعة كاليكوت

كيرلا ، الهند

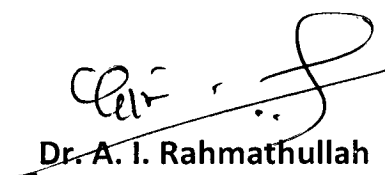
2012م

CERTIFICATE

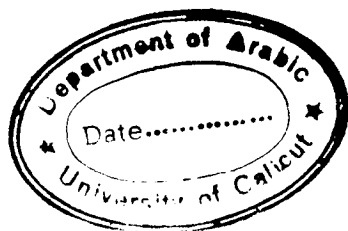
Certified that the thesis entitled *Mousim ul Hijra ila shimaal of Al - Tayyib Salih. And the anti - colonial feelings of the Arabs as depicted in it - A critical study* is a record of bonafide study and research carried out by Haseena. P under my supervision and that no part of this thesis has hither to been submitted for any degree in any university. The thesis is submitted to the University of Calicut for the award of the degree of Doctor of Philosophy in Arabic language and literature.

Calicut University

Date 25-08-2012.


Dr. A. I. Rahmathullah

(Supervising teacher)



الطيب صالح و"موسم الهجرة إلى الشمال"

مشاعر العرب ضد الإستعمار كما تظهر فيها

دراسة نقدية

أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها

قدّمتها

حسينة. ب

تحت إشراف

بروفسور الدكتور أحمد إبراهيم رحمة الله

الرئيس السابق (المتقاعد)

قسم اللغة العربية بجامعة كاليكوت



قسم اللغة العربية

جامعة كاليكوت

كيرلا ، الهند

2012م

Mousim ul Hijra ila shimaal of Al – Tayyib Salih.

And the anti - colonial feelings of the Arabs as depicted in it -

A critical study

Thesis submitted to the University of Calicut

For the award of the degree of

DOCTOR OF PHILOSOPHY

IN

ARABIC LANGUAGE AND LITERATURE

By

HASEENA. P

Under the supervision of

Dr. A. I RAHMATHULLAH

(Professor and Head (Retd), Department of Arabic, University of Calicut)



Department of Arabic

University of Calicut

Kerala, India

2012